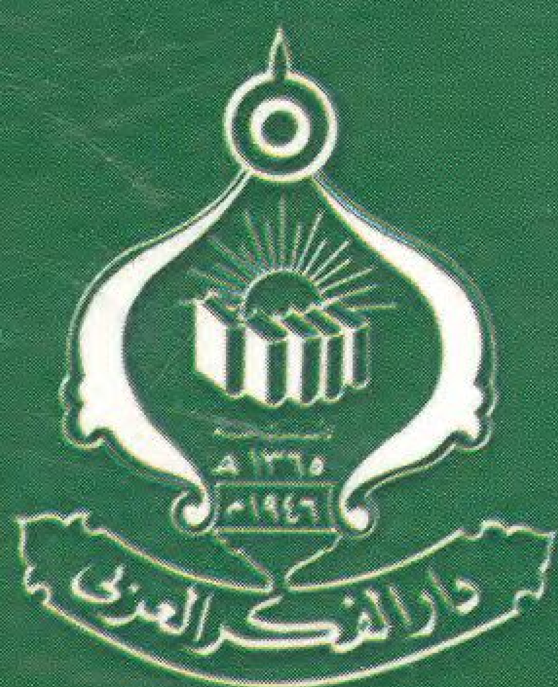
الدكتور
أحمد شوقي ابراهيم

موسوعة
ما فرطنا في الكتاب من شيء

المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة



المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي



موسوعة
ما فرطنا في الكتاب من شيء
(٢)

المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة
٣

المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي

الدكتور
أحمد شوقي إبراهيم
عضو كلية الأطباء الملكية بلندن
استشاري الأمراض الباطنية والقلب
عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)
رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾

[الأنعام: ١٥١]

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾

[الشعراء: ٧٨ - ٨٠]

٢١٤,٦١ أحمد شوقى إبراهيم.
أ ح م ح المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائى / أحمد شوقى إبراهيم..ط١ ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.
٢٤٨ص : إيض؛ ٢٤ سم. ـ (موسوعة ما فرطنا فى الكتاب من شىء؛ ٢. المعارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة؛ ٣)
تدمك: ٩٧٧ ـ ١٠ ـ ـ ـ .
١ ـ الإسلام والطب. ٢ ـ الصحة العامة.
أ ـ العنوان. ب ـ السلسلة.

التصميم والإخراج الفنى

الأستاذ/ محيى الدين فتحى الشلودى

رقم الإيداع	٢٠٠١ /١٧٤٦٥
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 -1519 - 2

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. أما بعد،

فإن المعطيات العلمية والمعارف الطبية هي أوجه متعددة ومتنوعة لحقيقة واحدة كبرى هي سنة الله تعالى فى خلقه، وتقديره فى ملكوته. وليس فى حقائق العلوم شيء إلا وله في القرآن العظيم أصل، وله فى السنة النبوية المشرفة أساس. قال تعالى: ﴿ ...مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال الإمام الشافعى رحمه الله: (جميع ما يقوله البشر من حق، تفسير للسنة النبوية المشرفة، وجميع ما تقوله السنة النبوية المشرفة شرح كما هو موجود فى القرآن الكريم)، أى أن كل حقيقة علمية ثابتة هى فى أصلها حقيقة قرآنية. ولقد يسّر الوحى الإلهى فى القرآن والسنة تفسير الظواهر الكونية والمعارف العلمية والطبية لاجتهاد المتخصصين من العلماء على مر العصور.. ففى كل عصر من العصور يكتشف الناس علما جديدا لم يكن معروفا لمن سبقوهم فى عصور مضت. وسيظل القرآن العظيم والسنة المشرفة رسالة من الله ورسوله، متجددة للبشرية كلها منذ نزول الوحى على سيدنا رسول الله ﷺ وإلى يوم القيامة.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].. وبذلك نفهم أن فطرة الخلق فى كل خلق قرنت بالقرآن العظيم. وهذا يفتح للباحثين بابا من العلم واسعا، لو نظروا إليه وتدبروه لوجدوا تطابقا بين الكتاب والدين وبين فطرة الخلق، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]. ففطرة الخلق فى آيات الله الكونية تتطابق مع الدين القيم.. بل إنهما شيء واحد فالدين هو فطرة الخلق، وفطرة الخلق هى الدين كما بينت الآية الكريمة.

ولقد ذكر القرآن الكثير من الحقائق العلمية مجملة وترك تفسيرها وتوضيحها للسنة النبوية المشرفة، وترك بعضها الآخر لاجتهاد البشر فى مجالات العلوم البشرية عبر العصور.. وهو اجتهاد لا يخرج عن الحقائق التى أجملها القرآن الكريم فى كلمات.

ولما كانت جميع آيات القرآن تقصد قصدا مطلقا تبيانا للدين وتعريفا بالله عز وجل ووحدانيته وقدرته وحكمته، فإن المجمل فى الحقائق فى القرآن الكريم محمول على المقصود. نفهم هذا مما رواه ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول: مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه -

يعنى الواشمة والمستوشمة. وسألته امرأة قالت يا ابن مسعود. لقد تلوت كتاب الله فما وجدت فيه لعنا للواشمة والمستوشمة. فقال: ؟ لو تلوتيه لوجدتيه. فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ومما نهى رسول الله عنه الواشمة والمستوشمة.

إذن القرآن العظيم أنزله الله تعالى بالحق محكما ومفصلا، وجامعا لكل الأحكام والتكاليف، ولكل الشرعيات والمعاملات ولكل حقائق العلوم كل ذلك بهدف هداية دينية جامعة هى لخير الإنسان فى الدنيا والآخرة. والذى يتحدث عن الإعجاز العلمى فى أى آية قرآنية أو حديث نبوى لا يجب أن يتحدث عن الحقيقة العلمية مجردة، أو يقتطعها من الآية الكريمة ويفصلها عنها، وإنما يجب أن يدرس كل ارتباطاتها بكلمات الآية الكريمة كلها.. فما ذكرت الحقائق العلمية فى الآيات القرآنية لمجرد السرد العلمى أو لتكون مرجعا علميا لفرع من فروع العلم. وإنما ليستدل بها قارئ الآية القرآنية على الهداية الدينية التى تضمنتها الآية، أو يستنبط منها الدليل على قدرة الله وحكمته المطلقة ووحدانيته أو يستدل بها على ما تعقب به الآية القرآنية من حقيقة غيبية مثل حقيقة البعث بعد الموت، وبذلك يستقر الإيمان بالحقيقة الغيبية فى القلب عن طريق العقل وهذا أفضل الإيمان مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٩]. ومن ذلك نفهم أن بيان الإعجاز العلمى فى أى آية قرآنية أو حديث نبوى لا نربطه بالهداية الدينية التى تعقب بها الآية أو الحديث، يكون بحثا ناقصا أو بيانا غير مكتمل.

وفى تناولنا لموضوعات المعارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة حاولنا أن نتكلم فى إيجاز لا يخل بالمعنى ولا يطيل فى الشرح، حيث لا يحسن التطويل، كما راعينا أن نستعمل أسلوبا سهلا يسهل فهمه للناس جميعا على اختلاف مستوياتهم الفكرية، فالمهم هو توصيل ما نريد من معلومات إليهم بأيسر سبيل.. وراعينا دائما قول الله عز وجل: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، وقول الله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

وقد ألفنا ثمانية كتب، استقر الرأى على أن تكون فى أربعة كتب فقط تعميما للفائدة:

فالكتاب الأول يتضمن كتابين: أطوار الخلق، وحواس الإنسان.

والكتاب الثانى يتضمن ثلاثة كتب مجتمعة وهى: الشفاء النفسى، وأسرار النوم، وعلم الجمال.

والكتاب الثالث يتضمن كتابين: المحرمات وصحة الإنسان، والطب الوقائى.

والكتاب الرابع يتضمن كتابا واحدا: فلينظر الإنسان إلى طعامه.

ونرجو أن نكون قد أضفنا شيئا إلى المكتبة الإسلامية، والله ولى التوفيق.

الدكتور أحمد شوقى إبراهيم

الجزء الأول

المحرمات وصحة الإنسان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ. .

فى هذا الكتاب (**المحرمات وصحة الإنسان**) ذكرنا بعض المحرمات فى الإسلام التى لها علاقة بصحة الإنسان، وناقشنا كل شىء محرم من المحرمات مناقشة علمية، على ضوء التقدم العلمى فى عصر العلم الحالى، فوجدنا أن فى كل منها ضررا بليغا بصحة الإنسان. . ولم يكن ذلك معروفا للناس فى العصور السابقة، حتى لقد ظن بعض المنافقين أن فى ذلك تضييقا عليهم لا مبرر له، وحجرا على حريتهم الشخصية بغير سبب معقول.

لقد حرم الله تعالى المحرمات التى تؤثر تأثيرا سيئا على صحة الإنسان، وأباح لهم الطيبات من الرزق. . وما حرم الله عز وجل طيبا ومفيدا. . وما أحل شيئا فيه ضرر وسوء يلحق بالإنسان. ولم يضيق الله تعالى عليهم فى التحريم إلا رحمة بهم. ولقد آمن المسلمون بما أنزل الله تعالى وانصاعوا لأمر ربهم، وحرموا ما أمر الله بتحريمه، وحللوا ما أحل الله وإن غاب عنهم السر العلمى فى كل ذلك. وذكرنا الطيبات من الرزق حتى يدرك الناس أن الله تعالى ما جعل المحرمات إلا وفى مقابلها خلق لهم الكثير من الطيبات من الرزق.

وكان تحريم أكل لحم الميتة والدم ولحم الخنزير من الأمور التى لاقت اهتماما كبيرا، ومناقشات شتى بين العلماء عبر العصور. . ولم يصل العلماء إلى معرفة الأضرار المهلكة فى تلك الأنواع من المحرمات حتى جاء عصر العلم الحالى الذى اكتشفوا فيه الكثير من مغزاها العلمى. ثم كان الحديث عن أذى المحيض الذى تحير الناس قديما فى أمره واختلفت الأمم بشأنه منذ العصور القديمة وفى العقائد الدينية المختلفة، وذكر القرآن الكريم التحريم، وذكر الحديث النبوى الشريف المغزى العلمى فى التحريم. وكان من الطبيعى ألا يدرك الناس قديما الأسرار العلمية فى أذى المحيض وتحريم المباشرة الجنسية أثناءه، لأن كثيرا من الحقائق لا تعرف إلا بالاستعانة بالميكروسكوب العلمى فى عصر العلم الحديث، فإذا بكل ما وصلوا إليه من اكتشافات علمية مذكور فى القرآن والسنة

إجمالا. وذكرنا المحرمات من الأمراض الجنسية مثل السيلان والزهرى وغيرهما، وذكرنا المغزى العلمى فى تحريم تلك الأمراض من خلال التقدم العلمى فى العصر الحالى. ثم تحدثنا عن (طاعون العصر)، وهو متلازمة الإيدز، بشىء من التفصيل البعيد عن الاصطلاحات والمناقشات العلمية التى لا يهتم بها إلا المتخصصون، إلا أننا وجدنا أن القرآن الكريم ذكرها إشارة وتلميحا. بينما ذكرها الحديث النبوى الشريف توضيحا وتصريحا.

ومن الأمور المستحدثة فى المحرمات، تدخين التبغ، وذكرنا أخطاره الصحية التى لم تكتشف إلا حديثا، وتوصلنا عن طريق الاستدلال والقياس إلى أن التدخين من المحرمات.

أما الخمر والمسكرات والمخدرات فقد تحدثنا عنها بشىء من التفصيل دون أن ندخل فى شروح علمية وبينا أضرارها الصحية. ثم ذكرنا بعض المعلومات اللازمة عن المخدرات والهلاوس، ووجدنا عن طريق القياس أنها من المحرمات أيضا.

ولما كان تحريم الميسر قد قرن بتحريم الخمر؛ فقد ناقشنا هذه الحقيقة؛ فإذا بها مؤسسة على أساس علمى لم يدركه العلماء إلا فى عصر العلم الحالى. ولا شك أن تلوث البيئة فى البر والبحر والجو من الأضرار المهلكة بالإنسان، والتى لم تظهر إلا حديثا بعد النهضة الصناعية، ولم يذكر القرآن الكريم التحريم للتلوث تصريحا، إلا أن التصريح بالتحريم جاء فى السنة عملا بالقاعدة الشرعية (التحريم يتبع الضرر). وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أتجنب التفاصيل العلمية التى لا تهم إلا المتخصصين، وكان الهدف توضيح المعنى المطلوب بأسهل لغة وبأيسر سبيل. أما المحرمات الأخرى كالشرك والقتل وعقوق الوالدين والسرقة وغير ذلك من المحرمات، فلم نتناولها بالبحث، واقتصر بحثنا على تلك المحرمات التى تضر بصحة الإنسان ضررا بليغا.

وأدعو الله تعالى أن يجد الناس وخصوصا الشباب منهم، فائدة لهم فى هذا الكتاب، وتفسيرا علميا للمحرمات التى تؤثر على صحتهم، وأن يجد الجميع - فى العصر الحالى - فى هذا الكتاب بيانا لهم وهداية ونورا علميا يهتدون به فى طريق المنهج الإسلامى القويم. ولقد بينا الأسباب العلمية لتحريم المحرمات، تلك الأسباب التى لم يكتشفها العلماء إلا فى عصر العلم الحالى، ولسوف يدرك الناس فى العصور القادمة أيضا أكثر مما أدرك العلماء فى عصرنا الحالى، ويظل القرآن والسنة رسالة متجددة للناس فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة.

المؤلف

د. أحمد شوقى إبراهيم

الطيبات من الرزق والمحرمات من الطعام والشراب

قال الله عز وجل فى سورة البقرة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

خلق الله تعالى للإنسان كل أنواع الطعام والشراب فى هذه الأرض، ولكنه أحل للإنسان الطيبات من الرزق التى تفيده، وحرم عليه كل ما يضره من طعام وشراب.

استهلت الآية الكريمة بالنداء المحبب لقلوب المسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبالصفة التى تربطهم به تعالى.

فهم قد آمنوا وصدقوا الله ورسوله، وأقروا لله عز وجل بالطاعة والعبودية، ومن ثم فهم يتلقون عن الله تعالى الشرائع والأوامر والنواهى؛ لذلك خاطبهم بهذا الخطاب الذى يدل على كل هذه المعانى. ثم أمرهم بعد ذلك بأكل الطيبات من الرزق وأن يشكروه تعالى. وبعد ذلك حرم عليهم ما يضرهم من طعام وشراب.

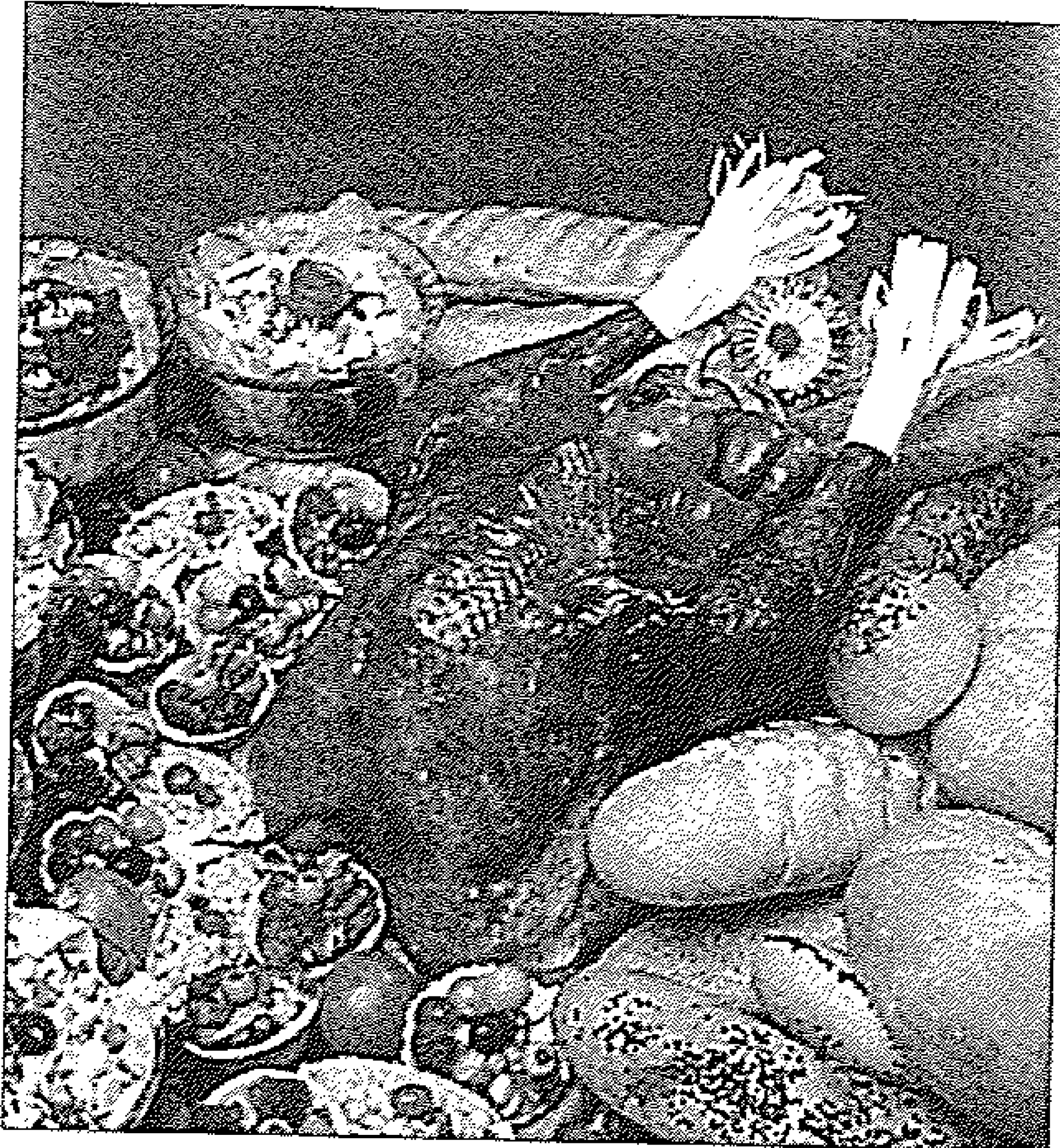
وروى الإمام أحمد والإمام مسلم عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا. وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:**

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء يقول: يا رب.. يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذى بالحرام فأنى يستجاب له».

وكان الخطاب فى الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، والخطاب فى الحديث النبوى الشريف «**يا أيها الناس**» ذلك لأن الله تعالى أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا.

وسبب نزول الآية، أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون بعض أنواع الطعام فنهى الإسلام عن ذلك التحريم؛ لأن تحريمهم لها كان اتباعا للشيطان ولأهل الشرك منهم، فذكر الله تعالى ما أحل لهم وما حرم عليهم، وما أحل الله تعالى من الأرزاق للإنسان إلا



كل ما يفيده، وما حرم عليه إلا ما يضره. فاستحق الله تعالى الشكر من عباده بغير حدود.

ولقد كشف لنا العلم فى عصرنا هذا، عن بعض أسباب الفائدة فى الطعام، وعن بعض أسباب الضرر فيه، فليس كل ما يؤكل يفيد الجسم، فبعض الطعام طيب وخال من أسباب المرض فيزيد آكله صحة وقوة ونشاطا، وبعضها الآخر يحتوى على سموم أوجراثيم ضارة تسبب لآكلها المرض والضعف. ونجد كل هذه المعانى فى قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾.

ثم نزلت بعد ذلك آية تحرم بعض أنواع الطعام والشراب فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾.



تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير

نزل تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فى أربع سور هى بترتيب النزول: الأنعام ١٤٥، النحل ١١٥، البقرة ١٧٣، المائدة ٣. نزل التحريم أولا فى سورة الأنعام ١٤٥ فى قول الله عز وجل:

﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٤٥) ﴾.

وتقدير المعنى فى الآية الكريمة: قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما مما كنتم تستخبثونه وتجتنبونه، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير. وتنبه الآية الكريمة على أن التحريم إنما يكون بوحى إلهى لا بهوى النفس. قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾، ﴿ **فِسْقًا** ﴾ عطف على المنصوب قبله، وقد يكون مفعولا له من ﴿ **أُهِلَّ** ﴾ أى «أهل لغير الله به فسقا». وسمى ما أُهل به لغير الله فسقا، لتوغله فى باب الفسق، كما قال تعالى فى سورة الأنعام١٢١: ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** ﴾.

وجاء النهى فى السنة النبوية المشرفة عن أكل كل ذى ناب من السباع، وعن أكل كل ذى مخلب من الطير، كما نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية عام خيبر.

ثم نزلت سورة النحل فى مكة المكرمة. قال الله تعالى:

﴿ **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١١٤) **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١١٥) **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ** (١١٦) ﴾

أى إن النهى يكون من الله تعالى ورسوله وليس عن هوى أحد من الناس كذبا وزورا.

وروى الإمام ابن ماجه عن أبى عثمان النهدى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**الحلال ما أحله الله فى كتابه، والحرام ما حرم الله فى كتابه. وما سكت عنه فهو مما عفا عنه**». والحديث الشريف تفسير إجمالى للآية الكريمة.

ثم نزلت سورة البقرة، قال الله عز وجل فيها:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢) **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا**

أُهلَّ به لغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾.

فصّل الله تعالى فى هذه الآية الكريمة بين الحلال والحرام. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، ولم يقل (يا أيها الناس)، لأن الله تعالى يخاطب المؤمنين بالصفة التى تربطهم به تعالى، وتقدير القول: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأذعنوا له بالطاعة، إنه أنسب نداء لمخاطبتهم للإيحاء إليهم، أنهم إنما يتلقون الأوامر من الله تعالى الذى آمنوا به وأقروا له بالعبودية، ويأخذون عنه الحلال والحرام، وليس عن غيره من الناس فى مجتمعهم، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾، ﴿**إنما**﴾ كلمة تفيد الحصر تتضمن النفى والإثبات، فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه، كما قال تعالى فى سورة النساء ١٧١: ﴿**إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾، أى ما هو إلا إله واحد.

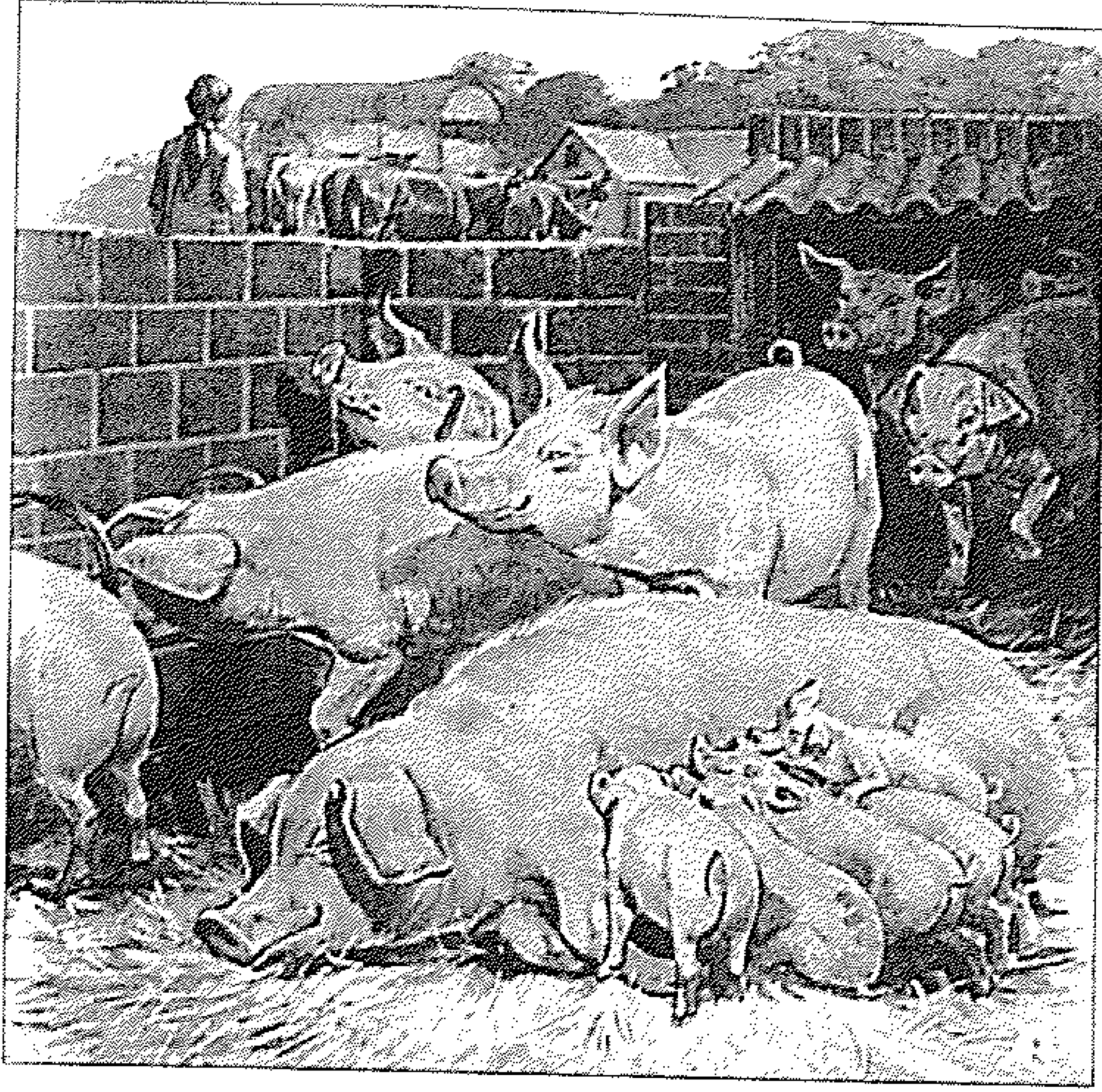
وفسر رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**»، **فقال:**

﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾.

وقال الله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾.

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر.



يمد يده إلى السماء يقول: يا رب.. يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذّى بالحرام، فأنى يستجاب له»، قال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾

أى اطعموا من الرزق الذى أحللنا لكم مما كنتم تحرمونه أنتم، وسبب ذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا يحرمون من البحائر والسوائب، فنهى الإسلام عن ذلك التحريم. كما قال تعالى فى سورة المائدة:

﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣)**﴾

فكان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد أو برأ من علة يقول: ناقتى سائبة. أى تسيّب فلا ينتفع بظهرها ولا تمنع من كلأ أو ماء ولا تحلب. وكان الكثيرون فى الجاهلية يسيبون الإبل لآلهتهم. كما قال الشاعر:

محرمةٌ لا يطعم الناس لحمها
ولا نحن فى شىء كذاك البحائر

والبحيرة: هى صغير الناقة الأخير. والحام: من الإبل، والوصيلة: من الغنم.

وكان تحريمهم للسوائب والبحائر فى الجاهلية طاعة منهم للشيطان، واتباعا لأهل الكفر من الآباء والأجداد، فبيّن الله تعالى لهم ما حرم عليهم مفصلا ومفسرا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله.

ثم نزل بعد ذلك قول الله تعالى فى سورة المائدة:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾

نزلت سورة المائدة تعدد أنواع الميتة، فبعد التعميم فى سورة البقرة، جاء التفصيل فى سورة المائدة.

أ- تحريم أكل الميتة (على ضوء العلم الحديث):

حرم الله تعالى أكل الميتة إجمالا فى سورة البقرة، ثم نزل قوله تعالى فى سورة المائدة فحرم أكل الميتة تفصيلا، وبيّن أنواعها كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، أى ما افترسه كل ذى ناب من الوحش.

وكل هذه الأنواع، تجتمع فى صفة واحدة، وهى أنها ميتة أى ماتت بدون ذبح وفيها حياة أيا كان نوع الإصابة، ولسنا نتحدث هنا عن الحكمة فى تحريمها، فقد يصل الإنسان إلى ذلك أو لا يصل، فيكفى أن الله تعالى حرمها. فالله عز وجل لا يحرم إلا الخبائث التى تضر بالإنسان، سواء علم الإنسان بالعلة أم لم يعلم.

ومن خلال التقدم العلمى استطعنا أن ندرك بعض أسباب تحريم أكل الميتة، وكيف أن أكل الميتة يؤدى إلى أخطار كثيرة بصحة الإنسان. ونناقش أولا ما يحدث فى جسم الميتة من الحيوان: تتكاثر الجراثيم الضارة فى جسم الميتة. وتبدأ فور الموت عمليات التعفن والتحلل المختلفة. ووجود الدم الذى لم يُصَفّ من الجسم بالذبح، يساعد على سرعة تكاثر الجراثيم ويعمل على سرعة عمليات التعفن. وتفرز الجراثيم سمومها فى لحم الميتة، وسرعان ما يصير جسم الحيوان الميت وكأنه مزرعة للجراثيم الضارة وسمومها القاتلة، فلو أكل الإنسان من لحم الميتة فكأنه تناول سموما. وتتفاوت الجراثيم فى خطرها، وبالتالى تتفاوت نواتج التعفن والتحلل فى أخطارها الصحية لمن يتناولها طعاما. ولم يكن الناس قبل عصر العلم الحالى يدركون أسرار الأخطار الصحية فى أكل لحم الميتة. وكان خطر أكل لحم الميتة فى فهمهم منحصرا فى سوء طعمه ورائحته مما تعافه النفس. أما فى عصر العلم الحالى فقد تبين لنا بعض أوجه العلم فى قول الله عز وجل: **﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾**.

أكل لحم بعض الميتة لا يضر:

لحم بعض الميتة لا تضر إذا تناولها الإنسان طعاما فى حالات معينة، إذا لم تحدث فيها عمليات التعفن والتحلل، وبالتالى

لم تتكاثر فى لحمها، لذلك لا يفسد لحمها، ومثال ذلك ميتة البحر، وما هى ميتة البحر؟ هو ما خرج من حيوان البحر حيا ومات بعد خروجه منه. فماء البحر يحتوى على أملاح تحفظ له طهره ونقاءه، فلا تتكاثر فيه الجراثيم الضارة، وبالتالى لا تفسد لحوم ميتة البحر إلا بعد مضى وقت، أو إذا لم تحفظ جيدا بعد خروجها من البحر وموتها بعد ذلك.

ومن هنا نفهم بعض المغزى العلمى فى حديث نبوى شريف رواه الإمامان أحمد وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال عن البحر: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**».

وبذلك قام التشريع على عدم حرمة أكل لحم ميتة البحر (أى ما يخرج من الأسماك وحيوان البحر حيا من البحر ثم يموت بعد خروجه من البحر)، ولقد فهمنا المغزى العلمى فى الحديث الشريف، وروى الإمام البخارى فى كتاب الذبائح والصيد أن شريحا رضى الله عنه قال: (كل شىء فى البحر مذبوح). أى كل حيوان بحرى يخرج من البحر حيا ثم يموت على الشاطئ يعتبر مذبوحا، أما ما يموت من حيوان البحر فى البحر نفسه، فيتحلل جسمه فيطفو على سطح الماء، حينئذ لا يصلح طعاما للإنسان. ومن هنا ندرك بعض أوجه العلم فى حديث نبوى شريف رواه الإمام أبو داود عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ما ألقى البحر أو جزر عنه فكلوه. وما مات فيه وطفا فلا تأكلوه**».

فما ألقى البحر أو جزر عنه، وفيه أثر من حياة، ومات على الشاطئ، أو كان على وشك الموت فلا بأس من أكله، أما ما مات فى البحر فهو يعتبر ميتة، ويحرم أكله كما يحرم لحم الميتة عموما. وما طفا فى ماء البحر يكون قد تحلل جسمه فأكله محرم كذلك.

ولم يكن الناس قديما يدركون المغزى العلمى فى الحديث النبوى الشريف كما نفهمه نحن الآن فى عصر العلم الحالى.

وروى الإمام ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أحلت لكم ميتتان: الحوت والجراد. ودمان: الكبد والطحال**».

والحوت: فى اللغة هو ما عظم من السمك والجمع حيتان. فدل ذلك على صغار السمك أيضا. وذكر حكمه فى الحديث النبوى الذى ذكرناه من قبل. أما الجراد فقد أباح أكله رسول الله ﷺ، لذلك أجمع المسلمون على إباحته، وروى الإمام أبو داود أن النبى سئل عن أكل الجراد فقال: «**لا آكله ولا أحرمه**»، وإنما تركه رسول الله ﷺ لأن نفسه كانت تعاف طعمه، كما عافت أكل لحم الضب، ولم يحرمه على المسلمين. وموت الجراد كتذكيته، وليس بالجراد دم، وبالتالى فلا تحدث فى جسمه عمليات تعفن أو تحلل إلا بعد وقت.

وأحل رسول الله ﷺ ميتة البحر فماذا عن ميتة النهر؟ قال ابن جريج: قلت لعطاء: صيدُ النهر، أصيد بحر هو؟ قال نعم، ثم تلا

قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، يضع ميتة البحر وميتة النهر فى حكم واحد.

وجاء فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه. أنه خرج مع أبى عبيدة يتلقى عيرا لقريش قال: فانطلقنا على ساحل البحر. فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم. فأتيناه فإذا هو دابة تُدعى العنبر (يعنى حوت العنبر)، فقال أبو عبيدة: إنه ميتة. ثم قال بل نحن رسل رسول الله ﷺ وقد اضطررتم فكلوه. ثم قدمنا المدينة فأتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له. فقال: **هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟**. . قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكل منه، وبذلك قام التشريع على أن أكل ميتة البحر حلال مطلقا ولو لم يكن الإنسان مضطرا لأكله؛ لأن رسول الله ﷺ أكله من غير اضطرار.

وماذا عن الدم؟

علمنا أن الجراثيم تتكاثر فى الدم فى حالة المرض، فضلا عن أنه يحتوى على نواتج عمليات الأيض، وهى مواد ضارة يحملها الدم إلى الكبد والكلى، وهناك يتخلص منها الجسم. فالدم مزرعة تتكاثر فيها الجراثيم فى جسم الميتة، فالدم على أية حال لا يصلح طعاما للإنسان لأنه يحمل ضررا، لذلك فهو حرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾، وتتكاثر الميكروبات فى الدم، أو تتواجد فيه إلا أن الجسم يتخلص منها ويقضى عليها بواسطة عدد من خطوط الدفاع فيه، ومن خطوط الدفاع ضد الجراثيم فى الجسم، كرات الدم البيضاء التى تلتهم الجراثيم وتقضى عليها، والخلايا الملتهمة بالجسم Macrohages، وهى خلايا تتجمع حيث توجد الجراثيم وتلتهمها. ومن خطوط الدفاع أيضا «الأجسام المضادة» التى يفرزها جهاز المناعة بالجسم فتعمل على القضاء على الميكروبات الضارة. وأجهزة المناعة فى الجسم أنواع وأشكال، ليس هنا مجال الحديث عنها إلا أنها فى غاية الدقة والإتقان وفى قمة الإبداع والإعجاز الذى لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

ومن خطوط الدفاع فى الجسم أيضا جهاز يسمى «الجهاز الشبكى البطانى» أو «الخلايا الشبكية البطانية»، وهى خلايا كثيرة ومتعددة، وتوجد فى كثير من أعضاء الجسم، وأكثر وجودها فى جدران أوعية الدم بالكبد وجدران أوعية الدم بالطحال.

ولما كان الدم فى دورة سريعة فإنه لا بد أن يمر بالكبد والطحال وما فيهما من الخلايا الشبكية البطانية أو الجهار الشبكى البطانى)(*)، تلك الخلايا التى تلتهم الجراثيم التى تسبح فى مجرى الدم وتقضى عليها، وفضلا عن القضاء على الميكروبات، فإن

(*) Reticuloendothelial System.

الكبد يعالج المواد السامة بالدم من خلال عمليات حيوية كثيرة ومعقدة، وينقى الدم منها، إذن فالدم بالكبد والطحال، هو أنقى دم فى الجسم، وأكثره خلوا من الجراثيم ونفايات عمليات الأيض بالجسم. فضلا على أنه لا يمكن استخلاص الدم من الكبد أو الطحال استخلاصا تاما، وهذه الحقائق العلمية لم تكتشف إلا حديثا، وساعدتنا على تفهم بعض الجوانب العلمية، والإعجاز العلمى فى حديث رسول الله ﷺ: «**أحلت لكم ميتتان ودمان. فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال**».

لماذا حرم الله تعالى أكل لحم الميتة؟

الميتة إما أن تكون منخنقة أو موقوذة أو نطيحة أو ما أكل السبع، كما أخبرنا الله تعالى فى سورة المائدة:

﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**﴾ [المائدة: ٣]

وما ذبح على النصب: النصب حجر كان ينصب وتصب عليه دماء الذبائح، أو هى حجارة كانت حول مكة كانوا يذبحون عليها، لذلك فهى وإن كانت مذبوحة إلا أنها أهلّ بها لغير الله، وبذلك حرمت. **والمنخنقة**: هى التى تموت خنقا. وكانوا فى الجاهلية يخنقون الشاة وغيرها فإذا ماتت أكلوها، فحرّم الإسلام أكل لحم المنخنقة من الحيوان، ولازالت عادة أكل لحم المنخنقة متفشية فى العالم الغربى حتى اليوم.

والموقوذة: هى التى تضرب بحجر أو عصا حتى تموت، وكانوا فى الجاهلية يضربون الشاة حتى تموت ويأكلونها.

والمتردية: هى التى تسقط من علو إلى أسفل فتموت.

والنطيحة: هى الشاة تنطحها أخرى فتموت قبل أن تذكى، تذكى (أى تذبح وفيها رمق من الحياة).

وما أكل السبع: أى ما افترسه ذو ناب أو ظفر من الحيوان.

ولقد تحدثنا عن الحكمة العلمية فى تحريم أكل لحم الميتة والدم، وما كانت الحكمة العلمية فى ذلك معروفة إلا من خلال التقدم العلمى فى عصر العلم الحالى.

وماذا فى حالة الاضطرار إلى أكل لحم الميتة؟ روى الإمام أحمد فى المسند عن أبى واقد الليثى قال: قلت يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها مخمصة (أى مجاعة) فما يحل لنا من الميتة؟ فقال النبى ﷺ: «**إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقلا فشأنكم بها**».

إذا لم تصطبحوا: أى لم تجدوا ما تصطبحون به من لبن ناقة أو شاة.

ولم تغتبقوا: أى لم تسقوا ما تطعمون به.

ولم تحتفئوا: أى لم تجدوا بقلا يصلح لكم طعاما فى الأرض.

أى إذا تعرضتم للمجاعة ولم تجدوا شيئا إلا لحم ميتة، فكلوا منها ما يسد الرمق ويمنع الموت جوعا، وهذا تفسير لقول الله تعالى:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

لقد حرم الله تعالى أكل لحم الميتة، وقد يصل الإنسان إلى المغزى العلمى فى ذلك وقد لا يصل. وما كان الناس قديما يدركون العلة فى التحريم، ولا السبب العلمى فى ذلك، إلا أن التقدم وضح لنا الأسباب لتحريم أكل لحم الميتة، والإعجاز العلمى فى الآيات الكريمة.

وذكرنا أن الجراثيم الضارة تتكاثر فى لحم الميتة، وتفرز فيها سمومها الفتاكة، ويساعد على سرعة تكاثر الجراثيم وجود الدم الذى لم يصفّ بالذبح، وتحدث عمليات التعفن والتحلل سريعا، وتتفاوت الجراثيم فى آثارها وأخطارها وقدرتها على تحمل الحرارة، لذلك فإن منها ما يموت بالطبخ ومنها ما لا يموت. إلا أن معظم السموم لا يقل مفعولها بطبخ لحم الميتة، فالذى يأكل لحم ميتة مطبوخ إنما يأكل لحما مسموما، ولم يكن الناس قديما يدركون هذه الحقائق العلمية، وبالتالى ما كانوا يدركون المغزى العلمى للآيات الكريمة، التى تتحدث عن تحريم أكل لحم الميتة والدم، ولا الحكمة العلمية فى إباحة الرسول ﷺ فى أكل ميتة البحر والكبد والطحال - وليس الكبد والطحال من ميتة ولكن الكبد والطحال من حيوان قد ذبح كما أمر الله ورسوله - وإنما أباحهما الرسول ﷺ لأن فى كل منهما دم، ولا يمكن استخلاص الدم من كل منهما، فبين الرسول ﷺ أن أكلهما مباح مع أن فى كل منهما دم، وذكرنا الحكمة العلمية فى ذلك، أما أكل كبد أو طحال من ميتة، فحكمه حكم أكل لحم الميتة، لأن مراحل العفن تكون قد دبت فى كل منها.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف هما من مصدر واحد وهو الوحى الإلهى، ونزل الوحى الإلهى للناس فى كل زمان ومكان وإلى يوم القيامة، كل عصر يفهم من الحقائق العلمية التى ذكرها القرآن والحديث النبوى على قدر علمه وطاقة فهمه، ويأتى بعده عصر ارتقى فيه العلم فيصل الناس فيه إلى فهم وجه آخر من وجوه العلم فى الآية أو الحديث، لم يكن السابقون على علم به، أما علم الله تعالى فهو علم لا نهاية له، ولا يعد علم الإنسان بجانبه شيئا مذكورا.

وحديثا جدا فى عام ١٩٩٧ ظهرت لنا حكمة علمية أخرى فى تحريم أكل لحم الميتة مما يضيف إلى الآيات التى نزلت بتحريمه إعجازا فوق إعجاز، وذلك فى موضوع جنون البقر الذى حدث فى بريطانيا. والموضوع فى إيجاز شديد أن المربين للبقر هناك كانوا يجففون لحم الميتة من البقر والماشية، ويستخدمونها علفا للبقر فى مزارع التربية والتسمين. وحدث أن أكْل لحم هذه الأبقار سبّب مرضا للناس الذين أكلوها، كما سبب

للبقر الذى تناولها علفا أيضا، مرضا بالمخ سبب أعراضا عصبية، أُطلق عليها اسم مرض جنون البقر.

واكتشف حديثا جدا أن سبب حدوث المرض ليس بسبب الجراثيم والسموم، ولكنه بسبب تغير كيميائى حدث فى لحم الميتة، نتجت عنه مواد عضوية فى اللحم أكثر تأثيرا من السموم، فهى تسبب مرضًا خطيرا بالخلايا العصبية فى الجهاز العصبى المركزى وتدمرها فيصير المخ كالإسفنج. وما يحدث للبقر الذى يأكل لحم الميتة، يحدث للإنسان الذى يأكل من لحم ذلك البقر، ومثله يحدث للإنسان الذى يأكل لحم الميتة. وتمر سنوات طويلة قبل ظهور أعراض ذلك المرض فى الإنسان، لذلك لم يلاحظ الناس ذلك المرض من قبل، وما عرفوا من أسراره شيئا. ومنذ أيام أيضا ظهرت تقارير علمية تعلن عن خطر جديد لم يكن معروفا من قبل، وهو أن أخطر ما فى لحم الميتة يكمن فى شحومها، وهكذا ظهرت للناس أسباب تحريم أكل لحم الميتة، سببا وراء سبب، مما لم يكن العلماء يعلمون عنه شيئا من قبل. إلا أن ذلك ذكر فى القرآن الكريم إجمالا وفى الحديث النبوى تفصيلا مما يعد إعجازا علميا عظيما لا شك فيه. فقد ذكر التحريم فى سورة المائدة:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾.

ولحم الميتة مختلط بالدهن وخصوصا اللحم السمين، ولا يوجد لحم سمين إلا كان معظمه شحما.

أما الحديث النبوى الشريف، فقد علّم الناس أن الخطر يكمن فى أكل لحم الميتة، وأن الخطر الأكبر يكمن فى شحومها، وأنه لا خطر بالانتفاع بجلودها لأنها مما لا يؤكل، فقد روى الأئمة البخارى ومسلم ومالك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرّ بشاة ميتة فقال: **«هلا انتفعتم بإهابها»** (يعنى جلدها) قالوا: إنها ميتة فقال: **«إنما حُرّم أكلها»**، وورد فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قاتل الله اليهود، حُرمت عليهم الشحوم فحملوها وباعوها»**(*).

وروى الشيخان عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه»**، الودك دسم اللحم ودهنه. وجاء فى تفسير الحديث الشريف: **(حرمت عليهم الشحوم)** أى أكلها، وإذا كان التحريم لليهود فى أكل الشحوم فى البقر والغنم فإن فى ذلك إشارة للمسلمين بأن فى الشحوم سببا ينبغى اجتنابه، وقد حرمت عليهم الميتة.

(*) جاء ذلك فى سورة الأنعام، قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وبذلك يكون الوحى الإلهى فى القرآن والسنة قد حرم أكل الميتة لحما وشحما وترك الحكمة العلمية فى ذلك التحريم لاجتهاد الناس عبر العصور، إذ لو أخبرهم بالسر العلمى ما صدقوه ولأثر ذلك على تصديق الرسالة ككل، فترك البحث عن السبب للناس عبر العصور وقد ذكر لهم الحكم وأمرهم باتباعه، ويظل القرآن والحديث النبوى رسالة متجددة من الله عز وجل ورسوله إلى الناس جميعا من عصر النبوة وإلى يوم القيامة.

ب- تحريم أكل لحم الخنزير (على ضوء العلم الحديث):

يجادل بعض الناس، كما جادل فريق من المعتزلة من قبل، هل حرم الله تعالى أكل لحم الخنزير لضرر فيه يلزم التحريم، أو لسبب آخر سكت النص عنه؟.. ولاشك أن هذا جدل عقيم، وما ينبغى أن يكون، فإن الله عز وجل إذ يحرم طعاما أو شرابا فهو يعلم السبب ويحيط بالعلة، سواء ذكر سبب التحريم أو لم يذكره، وسواء كان التحريم لصفة ثابتة فى الطعام المحرم أم لعلة تتعلق بمن يأكله، من ناحيته هو، أو من ناحية مصلحة المجتمع، فالله عز وجل يعلم الأمر كله، والطاعة لأمره واجبة، واستحسان الإنسان أو استقباحه لأمر ليس هو الحكم فيه. وما يراه سببا قد لا يكون هو السبب، والأدب مع الله تعالى يقتضى تلقى أحكامه بالقبول والتنفيذ، سواء عرف الإنسان الحكمة، والسبب، أم ظلت خافية عليه، ونحن إذ نتحدث عن ضرر أكل لحم الخنزير إنما نتحدث لبيان الإعجاز العلمى فى آى القرآن العظيم والحديث النبوى الشريف، وكيف أن التقدم العلمى فى عصر العلم الحالى قد أظهر لنا بعض أسباب التحريم.

ولحم الخنزير إذا تناوله الإنسان طعاما فإنه عسر الهضم جدا، إن أى لحم مكون من خلايا عضلية خيطية الشكل تجمعها حزم تسمى الألياف العضلية، وتختلف الألياف فى الطول، فقد تكون قصيرة جدا فتجعل اللحم طريا كما هو الحال فى لحم السمك وكما فى الدجاج والأرانب، وقد تكون طويلة كما هو الحال فى لحم الخنزير. ويجمع الألياف العضلية نسيج ضام، يحتوى على كميات مختلفة من الدهون. وكلما كثرت الدهون كان هضمها عسرا، وكلما طالت الألياف العضلية كان هضمها عسرا كذلك، ولحم الخنزير ذو ألياف عضلية ومن أكثر لحوم الحيوان دهونا. من هذا نفهم أن أكل لحم الخنزير من أكثر اللحوم عسرا فى الهضم.

ونزل الوحى الإلهى بتحريم أكل لحم الخنزير فى أربع آيات: هى سور الأنعام والنحل والبقرة والمائدة كما تحدثنا من قبل، ولم يكتشف العلم بعض الأضرار التى يسببها أكل لحم الخنزير إلا منذ مطلع القرن الحالى، أما قبل ذلك فكانت كل أضرار لحم الخنزير مجهولة للإنسان تماما، وبالتالى لم تكن الأسباب العلمية فى التحريم معروفة قط. وشيئا فشيئا كشف العلم عن الوجه القبيح فى لحم الخنزير. فاكتشف أول ما اكتشف أن أكثر

الطفيليات التى تصيب الإنسان بالأمراض الطفيلية تجد لها فى جسد الخنزير مرتعا خصيبا، وذلك أمر منطقى فإن الخنزير لا يقبل إلا على القاذورات والقمامة، ولا يتناول من الطعام إلا ما كان قذرا ومنتنا، ولحمٌ بنى من مثل هذا الغذاء لا يمكن أن يكون نقيا نقاء لحوم الحيوانات الأخرى التى تأكل الخضروات الطازجة غير الملوثة. وعادات الخنزير القذرة فى تناول طعامه جعل الكثير من الطفيليات تسكن فيه، وتخذ من جسمه طورا من أطوار دورة حياته، ولحم كهذا تعافه النفس السوية السليمة.

ويشترك الخنزير مع بعض الحيوانات الأخرى فى نقل بعض الأمراض للإنسان - الطفيلية والبكتيرية - إلا أن الخنزير ينفرد بنقل بعض الأمراض الشديدة للإنسان، ولا ينقلها إلى الإنسان غيره. وتتصف الأمراض التى ينقلها الخنزير إلى الإنسان بأنها لا تستجيب لأى علاج، ولا شفاء منها، ومن تلك الأمراض التى ينفرد الخنزير بنقلها إلى الإنسان: مرض الديدان الشعرية الحلزونية Trichinella spiralis ومرض الدودة الشريطية الخنزيرية Taenia soliun.

أما مرض الديدان الشعرية الحلزونية: فهو مرض يسبب وجود أكياس تحتوى على يرقات لديدان شعرية حلزونية فى جسم الفئران والخنازير؛ ذلك لأن الخنزير يأكل الفئران الميتة، وتنقل إلى الإنسان الذى يأكل لحم الخنزير المصاب بها، فما أن تصل تلك الأكياس إلى أمعاء الإنسان حتى تخرج الديدان منها(*) وسرعان ما تنتشر يرقاتها فى أنحاء جسم الإنسان وتتحوصل فى عضلاته أو فى قلبه أو مخه أو فى كل هذه الأماكن جميعا، وتسبب للمريض ألما وعذابا ولا تتركه إلى أن يموت، فلا يوجد علاج ناجع للأطوار المتأخرة لهذا المرض.

وتلك الحويصلات المنتشرة فى أعضاء الجسم المختلفة طول كل منها نحو نصف ميللى متر وعرضها ربع ميللى متر، فهى حويصلات لا ترى بالعين المجردة إلا كنقط بيضاء صغيرة فى اللحم، وتظل يرقة حية داخلها، طولها نحو ميللى متر، لذلك تلتف حول نفسها داخل الحويصلة، وتظل حية لسنوات عديدة، وقد تستمر طوال الحياة فى أعضاء جسم الإنسان.

أما مرض الإصابة بالدودة الشريطية الخنزيرية:

فهذه الدودة عبارة عن شريط به مئات العقل قليلة السمك جدا، فهى فى سمك ميللى متر تقريبا، أما طولها فهو عدة أمتار.. قد تصل إلى عشرة أمتار، وعدد العقل فيها بالمئات، وكل عقلة بها الأعضاء الجنسية المذكرة والمؤنثة معا، وتخرج من المبيض فى كل عقلة، مئات البويضات، فى

(*) فعندما يأكل إنسان لحم خنزير مصاب إذا لم يطبخ جيدا - وهذا ما يحدث كثيرا - فإن اليرقات تتحرر فى أمعاء الإنسان. وتنمو هناك إلى دودة من ذكر وأنثى، وهى ديدان صغيرة جدا لا ترى بالعين المجردة وبعد التلقيح، وتلد الأنثى نحو ألف وخمسمائة يرقة، تخترق جدار الأمعاء.

كل منهـا يرقة كـاملة النمـو تسبب الإصـابة بالدودة لمـن يأكلهـا. والدودة الشـريطيـة الخنزيرية تعيش فى أمعـاء الإنسان المصـاب بها، وتخـرج البويضـات فى برازه. ولما كان من طبـيـعـة الخنزيـر أن يقـبـل على أكل القاذورات الملوثة بفضلات الإنسان والحيوان، فإن البويضات تصل إلـى أمعاء الخنزير حيث تفقس وتخـرج منها اليـرقات، التى تخـترق جدار أمعاء الخنزير وتـتـحوصل فى عضلاته، وهى حويصلات صغيرة جدا لا تزيد الواحدة منهـا عن حـجم رأس دبوس صـغيـر. وإذا تناول إنسان لحم خنزير مـصاب - ولم يطبخ جـيدا طبـخا يقـتل اليرقـات التى فى داخل الحويصلات - فإن اليرقـات تخرج فى أمعاء الإنسان، وتتحول بعد ذلك إلى دودة شريطية خنزيرية كاملة تتعلق بجدار الأمعاء. وتتزاوج الشريطية الـبالغة طويلة وتلتف حول نفـسها فى الأمعاء وتتزاوج عقل الدودة الشريطية مع بعضها البعض، أى إن الجهاز التناسلى المذكر فى عقـلة، يلقح الجهـاز التناسلى المؤنث فى عـقلة أخـرى وتخـرج البـويضـات فى براز الإنســان المـصــاب، وتصل فى النهـــاية إلى الخنزير.

ولا يقـتـصـر خطر الـدودة الشـريطيـة الخنزيرية على وجـودها فى أمـعـاء الإنســان المصاب بها، فهذا لا يضـره ضررا بليغا، أما الضرر البليغ فيحدث عندما تفقس البويضات فى أمعاء الإنسان المصـاب نفسه وتنطلق منها اليرقات - كما يحدث فى أمعاء الخنزير الذى يتناولها فـى طعامه - وتخـترق جدار أمـعاء الإنسان المصـاب نفسه، وتتحوصـل فى لحمه وأعضـاء جسمـه الأخرى، وتُحدث أعـراضا مرضية مـختلفة تبعا للعضـو الـذى استقرت فيه الحويصلات، وقد تستقر فى المخ أو العين أو القلب أو أى عضو آخر، ولا يوجد علاج لهذا الطور من المرض ولا يوجد له شفاء.

وإذا تحـدثنا عن الأمـراض التـى ينقلهـا الخنزير إلى الإنســان، فسوف نتـحدث طويلا فهى نحو خمسين مرضا، ولكننا أعطينا مثلين شائعين فقط، لنبيّن الهدف من البحث، وهو الإعجاز العلمى فى القرآن العظيم، فقد حرم أكل لحم الخنزير، ولم يذكر السبب فى ذلك، وتركه لتفكير العلماء وبحـثهم عبر العصور، حـتى إذا جـاء عصـر العلم الحـالى، وجـد الأسبـاب الصحية التى تحـتم تحريم أكل لحم الخنزير. ويجادل بعض المعارضين فيقولون:إنه من الممكن جـــدا أن نتـفـادى حـدوث هذه الأمراض بطـبخ لحم الخنزير جيـدا، فتـموت تلك اليـرقات المتـحـوصلة فى اللحم. وهذا رأى صـحيح علمـيا، إلا أنه مـجرد فـرض علمى، لأنه لا يحـدث فى معظم الأحـيان، فكثـيــر من الناس من آكلى لحـم الخنزير لا يستـسيغون تنـاول اللحم إلا نصف مطبوخ، وبعضهم الآخر يفضل أن يأكله نيئًا. وكما أن تلك الديدان لا تموت إلا بالطبخ الجيد، فهى أيضا لا تموت ولـو حفظ لحم الخنزير مـثلجا إلا بعد أكثر من شهرين.

وكل هذه الاحـتـيـاطات ضـد حـدوث العـدوى من لحم الخنزير إنما هى احـتيـاطات نظرية فـقط، والدليل على ذلك: اسـتمـرار

الدورة الحيوية حتى اليوم لهذه الأنواع من الطفيليات التى ينقلها أكل لحم الخنزير. وفضلا عن كل ذلك فإن لحم الخنزير ولو لم يكن مصابا بتلك الأمراض، فهو أكثر لحوم الحيوان دهونا وأملاحا، وبالتالى فهو أكثرها ضررا بشرايين الجسم، الأمر الذى يسبب فى آكل لحم الخنزير والمتعود عليه، أمراضا كثيرة.

هل فى الخنزير فوائد للإنسان؟

يقول بعض العلماء:إن الخنزير حيوان يفيد الإنسان فى كثير من الأمور غير أكل لحمه، فهو يصلح للتجارب العلمية، ومنه تُستخلص بعض الهرمونات المفيدة فى علاج بعض أمراض الإنسان. ويمكن نقل صمامات قلبه إلى قلب إنسان تلفت صمامات قلبه، وتنجح العملية، ويعيش الإنسان المريض. ونحن لا نعترض على ذلك، فالآيات الكريمة إنما حرمت أكل لحم الخنزير، والحديث الشريف حرم بيعه والاتجار به، كما حرم بيع الخمر والاتجار بها.

فقد روى الإمام البخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام. فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة يُطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس. فقال: «**لا.. هو حرام**»، قوله هذا يشير إلى حرمة بيعه، وهذا رأى الإمام الشافعى.

أما ما يستفاد من أى حيوان سواء كان الخنزير أم غيره من جلد مدبوغ أو هرمونات أو غيره، مما يستفاد منها علميا ولا تؤكل، فالإسلام لم يحرم ذلك، فقد روى الإمام البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بشاة ميتة فقال: **هلا استمتعتم بإهابها**. فقالوا إنها ميتة. فقال: «**إنما حُرّم أكلها**»، وقول رسول الله ﷺ يجوز على الخنزير أيضا، لأن تحريم الميتة ولحم الخنزير جاء فى حكم واحد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ**﴾.

الجدل حول تحريم أكل لحم الخنزير جدل لا مبرر له:

ولماذا الجدل حول تحريم أكل لحم الخنزير وقد حرمه الله تعالى، وهو تعالى أعلم بخلقه، ولماذا لا يجادل أحد فى العزوف عن أكل لحم السباع والضباع والثعالب والذئاب؟ أليست هى الأخرى حيوانات خلقها الله تعالى، وحرم أكل لحومها أيضا. وإذا كان القرآن الكريم سكت عن ذلك، فإن الحديث النبوى الشريف ذكر ذلك التحريم، فقد جاء فى كتب السنة أن رسول الله ﷺ حرم بالمدينة أكل كل ذى ناب من السباع (أى الحيوان) وكل ذى مخلب من الطير.

ولم يحرم أكل الميتة ولحم الخنزير لنجاسته فقط، ولكن لما تسبب من أمراض مهلكة لآكلها، فقد روى الإمام أحمد فى المسند أن أبا ثعلبة الخشنى سأل رسول الله ﷺ قال: يا نبى الله إن بأرضنا أهل كتاب، وإنهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، فكيف نصنع بآنيتهم وقدورهم. فقال ﷺ: «**إن لم تجدوا غيرها فأرحضوها واطبخوا فيها واشربوا**»، أرحضوها أى اغسلوها جيدا.

إذن فليس التحريم للنجاسة، وإنما التحريم لما تسبب من أمراض وأضرار.

ولماذا حرم الله تعالى أكل لحم السباع وما إليها من الحيوان والحدأة والصقر وما إليها من الطيور؟:

ولم يكتشف العلم بعد، أن أكل لحومها ينقل أمراضا للإنسان؟

إنه سؤال تصعب علينا الإجابة عليه، فليس لدينا حتى الآن حصيلة من العلم تعيننا على الإجابة الصحيحة إلا أن هناك احتمالا قد يكون صحيحا وقد لا يكون، وهو أن التعود على أكل نوع من اللحم، قد يغير من طباع الإنسان الآكل له، إلى طباع تشبه طباع الحيوان صاحب اللحم المأكول. ويساند هذا الاحتمال ما كتبه الإمام ابن سينا والإمام ابن القيم، فقد ذكر ابن سينا فى كتابه (القانون) فى الطب أن طباع الإنسان وسلوكه، يتقارب كثيرا من طباع الحيوان الذى يأكل لحمه.

وذكرالإمام ابن القيم مثل ذلك فى كتابه (زاد المعاد فى هدى خير العباد) قال: إنه ثبت فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**»، إلى آخر الحديث الشريف. وقال الإمام ابن القيم:إن هذا الحديث الشريف اشتمل على تحريم ثلاثة أجناس: مشارب تفسد العقول، ومطاعم تفسد الطباع، وأعيان تفسد الأديان وتدعو إلى الشرك. إلا أنه استدرك قائلا أن معرفة معانى كلمات الحديث النبوى الشريف يختلف العلماء فى تأويلها، إذن فمن رأى كل من ابن سينا وابن القيم إن أكل لحم الخنزير يغير من طباع آكله بحيث تتقارب على طباع الخنزير(*).

(*) وهناك ملاحظة أخرى وهى أن الأسد يغير غيرة شديدة على أنثاه، فإذا اقترب منها أسد آخر نهره وأبعده، وإن لم يبتعد عنها هجم عليه يريد قتله، كل الحيوان لها قدر من الغيرة على إناثها ما عدا الخنزير، فالغيرة على أنثاه معدومة، وزعم بعض المفكرين أن الذين يتعودون على أكل لحم الخنزير تكون غيرتهم على زوجاتهم أقل من غيرهم من الناس الذين لا يأكلون لحم الخنزير، ونجد أمثلة من هؤلاء فى العالم الغربى، وهذا يشير إلى أن للطعام تأثيرا على طباع الإنسان آكله وسلوكه، وإننا لا نؤيد هذا الرأى ولا ننفيه؛ لأن هناك حقائق فى عالم النحل تكاد تؤيد الرأى القائل بتأثير نوع الطعام على تغيير طباع الإنسان وسلوكه، فاليرقات كلها واحدة، إلا أن اليرقات التى تطعم من لبن النحل تخرج فى النهاية نحلا شغالات، واليرقات التى تطعم غذاء ملكيا تخرج فى النهاية ملكة لها صفات مختلفة فى الخلق واختلاف فى الطباع والسلوك عن باقى النحل، فهل هذا هو السبب فى تحريم أكل لحوم كل ذى ظفر من السباع وكل ذى مخلب من الطير؟.. أم أن هناك سببا آخر فى تلك اللحوم .. وهى أن تلك الأنواع من الحيوان والطير تأكل الميتة وأنها تصيب من يأكل لحمها بمرض فى الجهاز العصبى المركزى يشبه مرض جنون البقر، التى تحدث لمن يأكل لحم البقر الذى تغذى على لحم الميتة فى علفه. ومن خلال المعلومات التى حصلنا عليها من شبكة (الإنترنت) أنه ثبت حديثا أن الطعام يؤثر على سلوك الإنسان وطباعه.. وأن اختلاف أنواع الطعام فى بلد عن أنواع الطعام فى بلد آخر يسبب اختلافا فى طباعهم وسلوكهم.

أما فيما يتعلق بأكل لحم الخنزير وتأثيره على طباع آكله من الناس فلا زالت مجرد أفكار واحتمالات قد تكون صحيحة وقد لا تكون، إلا أنها تستحق أن يقدم العلماء المتخصصون بدراستها دراسة متعمقة بناء على المنهج العلمى فى الدراسة والبحث، ويظل علم الإنسان مهما ازداد ومهما ارتقى، سيظل قاصرا عن فهم كل المعانى فى كلمات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.



لقد نزل الوحى الإلهى فى القرآن والسنة يحرم أكل الميتة ولحم الخنزير. وظل الناس لا يعلمون عن أخطاره الصحية قرونا وقرونا، حتى تقدم علم الإنسان أخيرا واكتشف بعض ما فى أكل لحم الخنزير من أخطار صحية. ولا يزال العلم يكتشف كل يوم جديدا، ومن المتوقع أن يكتشف العلم مستقبلا أخطارا جديدة، نتيجة أكل الميتة ولحم الخنزير أشد فتكا بالإنسان من تلك الأخطار التى اكتشفناها حتى اليوم.

والله عز وجل هو الذى خلق الخلق، ويعلم أسرار خلقه، وهو القائل عز وجل:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾

[البقرة: ١٧٣]

وهل كان أكل لحم الخنزير محرما على الأمم السابقة أيضا؟

ذكر الإمام ابن كثير عن أبى الطفيل أنه قال: (نزل آدم بتحريم أربع: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. وإن هذه الأربعة لم تحل قط منذ خلق الله السموات والأرض. وأُرسل موسى عليه السلام بتحريمها كما أُرسل عيسى عليه السلام بتحريمها أيضا).



أذى المحيض

جاءت كلمة «يسألونك» فى القرآن الكريم فى خمس عشرة آية، وجاءت كلمة «قل» بعدها، أى قل لهم أيها النبى الإجابة على سؤالهم، إلا فى سورة النازعات فقد سألوا عن الساعة أيان مرساها، فلم يأمر الله تعالى رسوله بالقول، ولم يوح له بالإجابة على السؤال، كما قال تعالى فى سورة النازعات:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

ولقد تكرر السؤال فى سورة النازعات عن الساعة، لأنه قد سبق أن سألوا الرسول عنها فقال لهم: إن علمها عند الله.. كما قال تعالى فى سورة الأعراف التى نزلت قبل سورة النازعات:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾.

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الأهلة. وعن ماذا ينفقون. وعن القتال فى الشهر الحرام وعن الخمر والميسر. وعن اليتامى. وعن الروح. وعن ذى القرنين. وعن الجبال. كما سألوه عن المحيض. كما فى سورة البقرة فى قوله الله عز وجل:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

وسبب نزول هذه الآية أن ثابت بن الدحداح، وقيل غيره، سأل رسول الله ﷺ عن الحائض، وما يكون من علاقة زوجها بها، وسبب السؤال أن العرب فى المدينة وما جاورها قد استنوا بسنة بنى إسرائيل فى تجنب مجالسة المرأة الحائض وتجنب مؤاكلتها ومساكنتها، فنزلت الآية فلما سمعها اليهود قالوا: هذا الرجل يريد أن لا يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه.

وقال العلماء: كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض، وكانت النصارى يأتونها، فأمر الله بالقصد بين هذين.

ولقد كانت المرأة الحائض فى مصر القديمة يجتنبها زوجها اجتنابا فى الطعام والشراب والفراش، وتحكى الأساطير المصرية القديمة أن كاهنا فرعونيا جاء بنبتتين صغيرتين، سقى نبتة بماء فنمت وترعرعت، وسقى الأخرى بماء خلط به دم حيض، فما لبثت النبتة أن ذبلت وماتت. فنشأ من ذلك

الاعتقاد بوجود سم فـى دم الحيض. واعتقد المصريون القدمـاء أن قوى شريرة تتلبس المرأة أثناء حيضها، وأن جسدها أثناء الحيض يكون مليئـا بالسمـوم، من هنا كان اعتـزالهم إياها أثناء الحيض فى الـطعام والمجالسـة والفراش والسكن أيضا.

ولقـد أخذ هذا الاعتـقاد عنهم علمـاء الإغريق مـثل أبوقراط، ونقل عنه جـالينوس ومن تبعه هذه المعتـقدات، وأخذ اليهود هذه المعـتقدات عن المـصريين القـدماء. واليـهود يتشـددون فى أحكامهم فـى هذا الأمر، ولا يفـرقون بين الحـيض والاسـتحـاضة. فـفى تراجم كتبهم ذُكر فى الإصحاح الخامس عشر فى سـفـر اللاويين أن الحـائض يجب تجنب ملامستها ومؤاكلتها ومجالستها والسكن معها أيضـا، ولا يقـتـرب زوجهـا منهـا إلا بعـد اغتـسالها من الحيـض ومرور سبعـة أيام بعد ذلك(*).

وظل هذا الاعتقاد حتى الآن، وفى سنة (١٩٠٠م) زعم بعض العلماء مثل جواتييه أن سـمـوم الزرنيخ وغـيـرها تخـرج فى عـرق الحائض ولعـابها، وهذا زعم غير صـحيح، وفى سنة (١٩٤٠م) زعم چورج سـميث أنه حـقن بعض حـيوانات المختـبر بدم حـيض فماتت، واسـتنتج من ذلك أن فى دم الحيض سـمـوما قـاتله. إلا أن بـرنارد زونديك سنة (١٩٥٣م) فسـر موت تلك الحيـوانات بسبب وجود جراثيم ضارة فى دم الحائض.

وفى مـؤتمر طبى عـقـد سنة (١٩٤٩م) ناقش موضـوع الحيض وشارك فيه أكـثر من مائة طبيـب وقرر معظمهم وكانـوا من اليهود أن دم الحيض يحوى سموما كثيرة.

ولا بد أن يكون الحـيـض عند المرأة قـد جذب اهتمـام الناس من الرجال والنساء منذ وجـود الإنسـان على هذه الأرض. ولا شك أن الإنسان ظل يفكر فيما يكتنف الحيض من أسـرار، ولطالما دخـل مـتـاهات فـكرية، وأوهامـا، ونظريات وتصورات ليس لهـا من الصـحـة نصيب. وكـان العـرب قـبل نزول الرسالة، تفـعل كما كـان يفعل بنو إسرائيل وكـانوا يطلقون علـى المرأة الحائض كلمـات أخرى مثل: طامث، ضاحك، فارك، كابر، ودارس، وذكر القرآن الكريم كلمة «المحيض» وهى مصدر من «حيض» بمعنى سَيْل. وكلمة «المحيض» تدل على الزمن والمكان والحدث.

وذكر الله تعـالى أن فى الاتصال الجنسى بالمرأة الحـائض أذى.. واشـتـرط شـرطين لاستئناف الاتصال الجنسى:

الأول: **الطُّهر**: وهو انقطاع الدم.

الثانى: **التطهر**: وهو الاغتسال بالماء.

والحـيـض: هو نـزول الدم فـى أيام معلومات.

والاسـتحـاضـة: هو نزول الدم فى أيام غير معلومة أى فى أوقات غير محددة.

واختلف العلماء فى مـدة الحيض. فقال

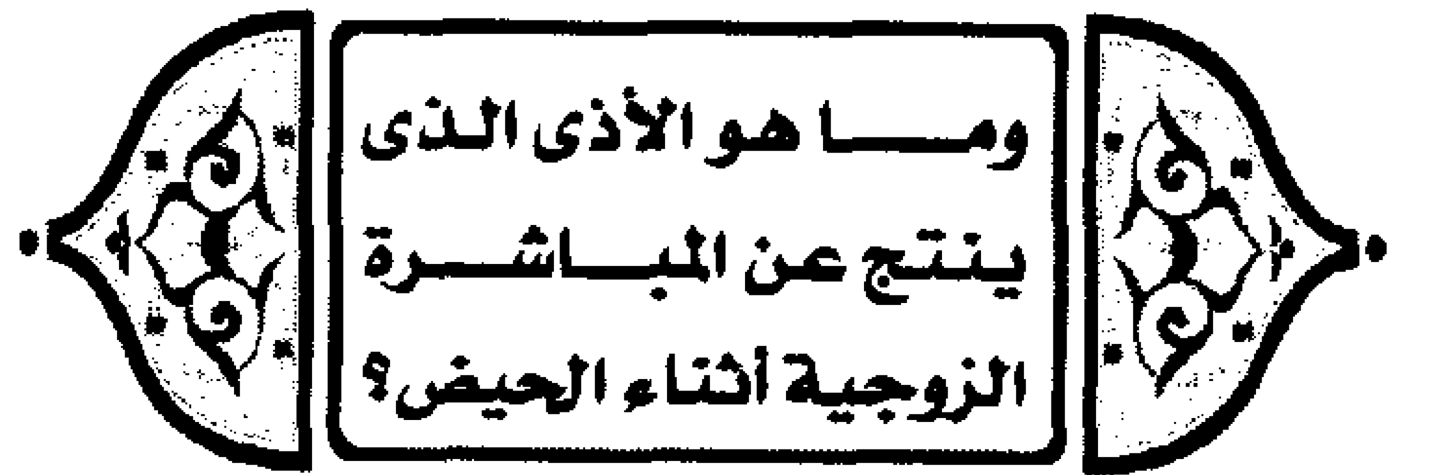
(*) لا يعتبر الإسلام الحيض نجسا. ففى الصحيح عن السيدة عائشة أنها قـالت: كان رسول الله ﷺ يتكئ فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن.

الإمام مالك وأصحابه: إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوما، وما زاد عن ذلك يكون استحاضة.

وقال الإمام الشافعى: أقل الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يوما، وما قل أو كثر عن هذين فهو استحاضة.

وقال الإمام أبو حنيفة: أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره عشرة.

قال الله عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.



وما هو الأذى الذى ينتج عن المباشرة الزوجية أثناء الحيض؟

لم يستطع كثير من العلماء اكتشافه إلا حديثا جداً حتى أن بعض العلماء سنة (١٩٦٧م) لم يستطع التعرف عليه، فقد كتب د. جيفكوت فى كتابه (أسس أمراض النساء) أن بعض الشعوب تعلّم بناتها وجوب الغسل المهبلى بالماء بعد الانتهاء من الحيض - يقصد بذلك الشعوب الإسلامية - وقال: إن هذا خطأ، فلا ضرورة لذلك؛ لأن الغسل المهبلى بعد الحيض، أو فى أى وقت آخر، يسبب ضرراً بالمرأة؛ لأنه يزيل ما يوجد به من أسباب الوقاية الطبيعية.

وقال: إنه لا ضرر من المباشرة الزوجية أثناء الحيض، وقال: إن كثيرا من الناس يفعل ذلك ولا خطر فيه ولا أذى.

وواضح أن هذا الكلام غير صحيح من الناحية العلمية، كما ثبت للعلماء بعد نشر هذا الكتاب سنة (١٩٦٧)، وتأكد للعلماء أن فى الاتصال الجنسى أثناء الحيض أذى، ويجب اعتزال النساء فى الحيض.

ونزل القرآن الكريم بالحق، وبينت آية سورة البقرة أن المباشرة الزوجية فى المحيض أذى، ونهى عنه، واشترط لاستئناف المباشرة الجنسية انقطاع الدم والتطهر بالماء بعد ذلك. ومن هذا يتبين أن القرآن الكريم ذكر الحقيقة العلمية التى ظل العلماء يجهلونها حتى عام (١٩٦٧).

وروى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها، أن امرأة سألت النبى ﷺ عن غسلها من المحيض فأمرها أن تغتسل قال: «**خُذى فِرْصَةً من مسك فتطهرى بها**» قالت: كيف أتطهر؟ قال: «**تطهرى بها**». قالت: كيف؟ قال: «**سبحان الله! تطهرى**»، فاجتذبتها إلىّ وقلت: تتبعى بها أثر الدم.

ولقد استطاع العلم حديثا جداً منذ سنوات معدودات، أن يتوصل إلى بعض ما فى الآية الكريمة من علم فى أذى المحيض، مما لم يكن العلماء على شىء من العلم به حتى إلى عهد قريب، فما هو السر العلمى فى أذى المحيض[1]؟

---

(١) (أذى المحيض) بين الحقيقة القرآنية ومزاعم اليهودية (دراسة مختبرية) للدكتور محمد عبد اللطيف.

اكتشف العلماء حديثا جداً، دورة حيوية للجراثيم الضارة والميكروبات المفيدة بالمهبل، خلال الدورة الشهرية، تتزامن مع دورة هرمونات المبيض الإستروجين والبروجستيرون.

فهناك ميكروبات مفيدة تسمى عصويات دودرلين، موجودة فى قناة المهبل الطبيعية، وهى ميكروبات مفيدة لأنها خط دفاع موضعى تقتل الجراثيم الضارة، وذلك لأنها تسبب وسطا حامضيا قاتلا للجراثيم، وكيف تفعل ذلك؟

عصويات دودرلين المفيدة تعيش على السكر المختزن فى خلايا جدار المهبل وتحوّله إلى حمض اللاكتيك الذى يسبب الوسط الحامضى القاتل للجراثيم فى قناة المهبل، ولما كانت نسبة السكر تزداد فى خلايا المهبل فى منتصف الدورة الشهرية وتقل كثيرا قبل الحيض، وتختفى تماما أثناءه، فإن عصويات دودرلين المفيدة تصل إلى قمة تكاثرها ونشاطها فى منتصف الدورة، ثم تقل عدداً قبيل الحيض مباشرة، وبذلك يقل الوسط الحامضى فى المهبل، وتكاد تختفى تماما أثناء الحيض، وبذلك يتحول الوسط فى المهبل إلى وسط قلوى، لذلك تتكاثر الجراثيم الضارة فى المهبل أثناء الحيض وخصوصا فى الجزء الأسفل منه.

نفهم من ذلك أن الجهاز التناسلى الخارجى فى المرأة يكون أثناء الحيض بدون دفاع ضد الجراثيم الضارة، التى تتكاثر تكاثراً شديداً فى ذلك الوقت، كما يتكاثر معها أيضا طفيل وحيد الخلية هو التركوموناس، الذى يسبب التهابات سطحية فى الجهاز التناسلى الخارجى. وقد يصل عدد الجراثيم الضارة بالمهبل أثناء الحيض فى السنتيمتر المربع الواحد إلى ستين مليون جرثومة، وكل هذه الجراثيم الضارة تحاول أن تقتحم جدار المهبل والرحم، إلا أن تيار دم الحيض يجرفها إلى الخارج، ولا يوجد أى خط دفاع آخر فى المهبل أثناء الحيض، ففى وقت الحيض تكون الفرص سانحة والظروف مهيأة تماما لنمو وتكاثر الجراثيم الضارة فى المهبل وطفيليات التركوموناس به.

لذلك إذا حدث اتصال جنسى بين المرأة الحائض وزوجها، حدث أذى لكل منهما، أقله التهابات فى الجهاز التناسلى والبولى فى المرأة، كما أن طفيل التركوموناس قد يصيب الجهاز التناسلى للرجل أيضا، فكأن الذى حدث فى الرجل والمرأة هجوم جيش للعدو على المدينة فى غياب الجيش المدافع عنها، فذلك قول الله عز وجل:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾.

ولقد نصت الآية الكريمة على الطهر والتطهر. والتطهر بالماء هو اقتفاء أثر الدم، كما علمنا رسول الله ﷺ، يزيل الجراثيم الضارة الموجودة فى الوقت الذى انقطع فيه تيار دم الحيض وتوقف دفع تلك الجراثيم إلى

الخروج، فوجب إزالتها بالماء والتطهر به، وذلك يهيئ أيضا الفرصة من جديد لتكاثر عصويات دودرلين المفيدة، من هذا نفهم بعض المغزى العلمى فى اشتراط الطهر ثم التطهر بعد انتهاء الحيض لاستئناف الاتصال الجنسى، كما نفهم أيضا لماذا حرم الإسلام المباشرة الزوجية وقت الحيض؛ لأنه أذى للزوجين معا، وأمر باعتزال النساء فى المحيض من الناحية الجنسية فقط، ولم ينه عن العطف عليهن وملاطفتهن للتخفيف عنهن مما بهن من آلام نفسية وبدنية. وإذا قارنا ذلك بما هو الحال عند اليهود باعتزال النساء أثناء الحيض وبعده بأسبوع كأنهن نجس، يحرمون مجالستهن ومؤاكلتهن، ويعتزلونهن فى الفراش والسكن أيضا، وهذا اعتقاد مخطئ ربما توارثوه من عادات المصريين القدماء، ومن القرآن والسنة ندرك أن الأذى أثناء الحيض أذى موضعى، وليس أذى عاما فى بدن المرأة كله، وهذا ما اكتشفه العلماء حديثا جدا، وهو اكتشاف علمى صحيح، ودليل صحته أنه وافق ما جاء بالسنة النبوية، فقد روى مسلم عن كُريب مولى ابن عباس قال: سمعت ميمونة زوج النبى ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يضطجع معى وأنا حائض وبينى وبينه ثوب.

وروى مسلم عن السيدة عائشة قالت: كنت أغسل رأس النبى ﷺ وأنا حائض. وروى مسلم عن أبى هريرة قال: بينما رسول الله ﷺ فى المسجد قال: يا عائشة «**ناولينى الثوب**»، فقالت: إنى حائض قال: «**إن حيضك ليس فى يدك**» فناولته الثوب ولبسه.

قول الله عز وجل: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾، فسرته السنة النبوية أنه اعتزال مباشرة زوجية وليس اعتزال طعام وشراب وفراش وسكن.

وَلا تَقْرَبُوهُنَّ : أى لا تجاوروهن فتقومون بأفعال تؤدى إلى المباشرة، وليس معنى (تقربوهن) أى تباشرونهن، كما قال تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنا**﴾، أى لا تقترفوا أفعالا تؤدى إلى الزنا، فكذلك قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ**﴾، أى اعتزلوا المباشرة الزوجية ولا تقوموا بأفعال تؤدى إليها.

﴿**حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ**﴾ : جاء لفظ التطهر مخففا مرة، ومشددا مرة أخرى، وكل كلمة منهما محمولة على معنى غير معنى الآخر. **يطهرن:** أى ينقطع الحيض. **تطهرن:** أى تغتسلن بالماء.

﴿**فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾: أى فأتوهن من حيث أمركم الله على الوجه الذى أذن لكم فيه، وعلق فعل المباشرة على التطهر بكلمة (إذا) وهى للشرط فى اللغة، والمعلق على الشرط محظور إلا إذا تحقق الشرط. فوجب ألا يباشر الرجل زوجته إلا بعد الطهر والتطهر.

﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾: هم التوابون من ذنوبهم، مثل المباشرة أثناء الحيض، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من أتى حائضا فقد كفر بما**

أنزل على محمد»، وهذا يجرى مجرى الترهيب فلا يتعارض مع ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله أن يعتق نسمة).

أما المتطهرون: فهم الذين لم يذنبوا، ولم يجامعوا الحائض أو أتوها فى غير ما أمر الله.

وإذا قيل لماذا قُدم ذكر الذين أذنبوا على ذكر من لم يذنبوا؟، ذلك لئلا يقنط التائب من رحمة الله، ولا يُعجب المتطهر بنفسه.

ولم يكتشف المغزى العلمى فى الآية الكريمة إلا منذ سنوات معدودات فقط مما يعد إعجازا علميا عظيما، فما من حقيقة علمية ثابتة يكتشفها العلماء فى أى عصر من العصور إلا ويجدونها مذكورة فى القرآن الكريم أو السنة المشرفة أو هما معا، إما تفصيلا وتوضيحا، وإما إشارة وتلميحا، وسيظل القرآن العظيم والحديث النبوى الشريف رسالة من الوحى الإلهى للبشر جميعا، متجددة على مر العصور وإلى يوم القيامة، لذلك يجد الناس فى كل عصر من العصور فى الوحى الإلهى فى القرآن والسنة علما جديدا. وفهما جديدا. ونورا على نور.



خلق الله تعالى الإنسان فى هذه الأرض، وكلفه بمهمة إعمارها وإقامة حدود الله فيها، وأعطاه المنهج الصحيح، والهداية الكاملة، فى الكتب التى أنزلها على الأنبياء المرسلين.

ولو اتبع الناس الدين القيم، وما أرسل به الرسل، لحصلوا على السعادة فى الدنيا والآخرة، إلا أن الإنسان كثيرا ما تنزع نفسه إلى الفساد والإفساد وبذلك يُلحق الأذى بنفسه والخسران بالآخرين.

وشاء الله تعالى أن يستمر التناسل وحفظ الأنواع فى خلائقه، فجعل فى كل خلق حى من خلقه الغريزة الجنسية، ومن خلالها يحدث التناسل، وتستمر الأنواع، وتستمر الحياة.

والدواب جميعا تسير على فطرة خلقها التى فطرها الله تعالى عليها، ولا تتصل جنسيا إلا وقت التلقيح، أما فيما عدا ذلك الوقت، فلا تتصل اتصالا جنسيا قط، فهى تستعمل الغريزة الجنسية، التى خلقها الله تعالى لها، فى الهدف الذى جعلها الله من أجله، وهو التناسل وحفظ النوع.

وجعل الله تعالى الغريزة الجنسية فى الإنسان لنفس الهدف، هدف التناسل والتكاثر وحفظ النوع، كما قال الله تعالى فى سورة الحجرات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

وقال تعالى فى سورة الروم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

وكما قال رسول الله ﷺ: **«تناكحوا تناسلوا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة»**.

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال:

«من استطاع منكم الباءة (أى مؤنة الزواج) **فليتزوج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** (أى حفظ)**»**.

لكن الإنسان قليلا ما يهتدى، فهو يستعمل الغريزة الجنسية فيه ليس بهدف التناسل فحسب مثل باقى الخلائق، ولكن بهدف المتعة الحسية أيضا، وعجيب بعد ذلك أن يصف الناس الغريزة الجنسية فى الإنسان بالغريزة البهيمية، فياليت الإنسان يُشبع غريزته الجنسية كما تفعل البهائم، إذن لأراح واستراح، وما أحدث الكثير من المشكلات لنفسه ولغيره من الناس.

وعلى مر القرون والأزمان لم يكتف بعض الناس بممارسة غريزتهم الجنسية المشروعة ولكنهم تنكبوا الطريق الصحيح واقترفوا الفواحش من الزنا، والفواحش من صنوف الشذوذ الجنسى، مما حرم الله على عباده. فمن الناس من تأمره نفسه بالفحشاء والمنكر، ومن الناس من يعميه الشيطان عن الهداية الدينية الصحيحة، فيشبع غرائزه فيما حرم الله ورسوله، فى سورة النور نقرأ قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

ولا شك أن الفحشاء والمنكر من الزنا، وصنوف الشذوذ من أسباب الكثير من الأخطار على الإنسان على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة، وسنقتصر فى الحديث على الأمراض التى تنتقل بين الناس الذين يرتكبون الفحشاء والمنكر، وهى ما نسميه الأمراض الجنسية، وهى حتى الآن أكثر من اثنى عشر مرضا، وليس هذا مجال الحديث عنها جميعا.

لذلك نتحدث وفى إيجاز عن بعضها فقط، كمثل من أمثلة الضرر الذى تلحقه بالإنسان



مرض الزهرى
Syphilis

الزهرى من الأمراض الجنسية التى تنتقل بين مرتكبى الزنا. وجراثيم الزهرى، جراثيم حلزونية تدخل الجسم من خلال الجلد أو الغشاء المخاطى فى الأعضاء التناسلية أثناء الاتصال الجنسى.

ولمرض الزهرى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بعد نحو ثلاثة أسابيع من الاتصال الجنسى بشخص مصاب تظهر قرحة مستديرة على الأعضاء التناسلية، وقد تظهر فى أماكن أخرى وهى لا تسبب ألمًا ولكنها معدية جداً، ففيها الملايين من جراثيم المرض التى تعدى باللمس، ففى وجود هذه القرحة المعدية، تحدث العدوى أثناء الاتصال الجنسى.

وهذه القرحة تلتئم من تلقاء نفسها بعد عدة أسابيع وتختفى تماما. ولكن أين تذهبُ جراثيم المرض إذن؟ إنها تختفى من الجلد والأعضاء التناسلية باختفاء القرحة الأولى، ولكنها تنتشر فى أنحاء الجسم كله، ويدخل المصاب المرحلة الثانية من المرض.

فى المرحلة الثانية: يظهر طفح وردى اللون على جلد الجسم كله، وهو طفح لا يُحدث شعورا بالحك أو الهرش، ويختفى بعد عدة أسابيع دون أن يترك أثرًا، وبعد ذلك يدخل المريض فى المرحلة الثالثة والأخيرة، والتى قد تكون مميتة.

فى المرحلة الثالثة: تصل جراثيم المرض إلى كل أعضاء الجسم كالعظام والكبد والمخ والقلب وغيرهما، ولا تظهر علامات خارجية ولكن يمكن تشخيص المرض بفحص خاص للدم.

وفى الطور الأخير من المرحلة الثالثة لمرض الزهرى تنشط الجراثيم وتُحدث آثاراً هدامة فى أعضاء الجسم المختلفة، فهذه الجراثيم تحدث تلفًا بالمخ، وبالتالى تسبب أنواعا من الهذيان والجنون، وفى القلب تدمر الشريان الأبهر وصمامه وتؤدى إلى هبوط القلب، وفى الحبل الشوكى قد تسبب أنواعا من الشلل... وغير ذلك كثير.

كل هذه الآثار الشديدة والمدمرة لأعضاء الجسم فى مرض الزهرى، لا تحدث فى الجسم إلا بعد مرور سنوات عديدة من خمس سنوات إلى ثلاثين سنة، بعد الإصابة الأولى بجرثومة المرض، خلال الزنا بشريك مصاب. ومن الأمور المحزنة حقا، أن ينقل المصاب المرض إلى زوجه أيضا، وأن ينتقل الميكروب من دم الأم المصابة إلى طفلها أثناء وجوده جنينا فى رحمها. وهذا يؤدى إما إلى موت الجنين داخل الرحم، وإما إلى إحداث تشوهات خلقية فيه، وهذا ما نسميه «**بالزهرى الوراثى**».

فالزهرى قد يقتل مقترف الزنا، وقد يقتل أهله وولده، وقد يسبب الهلاك لغيره من الناس، لذلك جاء ذكر الزنا مقترنا بقتل النفس فى القرآن العظيم فى آيات كثيرة كما فى سورة الفرقان، قول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

دلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر بالله أعظم من قتل النفس بغير الحق، ثم الزنا وفى سورة الأنعام، يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

فى الآية الكريمة نهى عن الشرك بالله تعالى، والنهى عن قتل الأولاد من فقر، والنهى عن الاقتراب من الفواحش، والنهى عن قتل النفس إلا بالحق. فقرنت بين الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ بالشرك وقتل النفس.

وكان النهى عن مجرد الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وما ظهر من الفواحش: هو ما كان عملا بالبدن.

وما بطن من الفواحش: هو ما عُقد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر.

ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون: الوصية من الله أمر مؤكد منه تعالى بالابتعاد عن اقتراف الأعمال التى نصت عليها الوصية.

ونقرأ فى سورة الإسراء، قول الله عز وجل:

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ...﴾، فذكر الزنا مقترنا بقتل الأولاد خشية إملاق وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

وقوله: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾، أبلغ من القول: (ولا تزنوا)، فالنهى مجرد الاقتراب منه لأن الاقتراب منه يدفع الإنسان أن يقع فيه.

وروى ابن أبى الدنيا أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له**».

وروى الإمام أحمد أن فتى شابا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لى بالزنا.

فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه.. مه.. أى «كف عن هذا الكلام»، فقال رسول الله ﷺ له: «**أُدن منى**»، فدنا منه قريبا فقال: «**اجلس**»، فجلس، فقال له: «**أتحبه لأمك**»، قال الفتى: لا والله جعلنى الله فداك. قال له: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أفتحبه لابنتك**»، قال الفتى: لا والله جعلنى الله فداك، قال له: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال: «**أفتحبه لأختك**»؟ قال الفتى: لا والله جعلنى الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أفتحبه لعمتك**»؟ قال الفتى: لا والله جعلنى الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: «**أفتحبه لخالتك**»؟ قال: لا والله جعلنى الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**». قال فوضع رسول الله ﷺ يده عليه ودعا له قال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه**»، فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شىء.

مرض السيلان
Gonorrhea

مـرض ينتـقل من إنسـان إلى آخـر عن طريق الاتصال الجنسى بشريك مصاب، وهو مرض سريع العدوى وفـترة الحضانة لميكروب السيـلان أقل من أسبـوع، وتحدث التـهابات بمجرى البول. وإذا لم يـعالج المرض حدثت مضاعـفات خطرة فى كل من الرجل والمرأة. إلا أن أعراض المرض قـد لا تظهر على المرأة المصابة بوضـوح - كما تظهـر على الرجل - وتفاجأ المرأة المصابة بحدوث المضاعفات.

وفى النهــاية يحـدث العـقـم لكل من الرجل والمرأة إذا لم يبادرا بالعلاج ويكفا عن الاتصال الجنسى بيـنهما. هذا بالإضـافة إلى حدوث التهـابات كثيرة بالجـهاز التناسلى فى كل منهما، والتهابات فى المفاصل وغيرها من أعضاء الجسم.

ولو اتبع الناس الذين تنزع أنفـسهم إلى ارتكاب الفواحش مـا جاء به الدين القـيم ما أصـيبـوا بكل ذلك، ونقرأ فى سـورة النور، قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

والفـاحشـة: هى مـا اشتد قـبحـه من الذنوب قولا وفعلا وتُطلق الفاحشة على الزنا لقـوله تعـالى: **﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾**، فيسمى الزنا فـاحشة والجمع «فـواحش»، وكل شىء جـاوز الحـد فـهـو فاحش.

والمنكر: كلُّ ما قـبّحـه الشرع وحـرّمه، فالمنكر هو كل قول أو فعل قبيح محرم.

وظل مرض السيلان مرضـا مخيفا حتى سنة (١٩٤٥) عندما اكـتشف العلماء عـلاجا له فى البنسلين يشفى المرض إذا استعمل فى أول مراحله، وكـان البنسلين يقتـل ميكروب السيلان سريعا.

وبمضى السنـوات نشـأت سـلالات من ميكروبات السيلان، وقد اكتسبت درجة كبيرة من المناعة ضـد البنسلين، بحيث إن الجـرعة العاديـة للبنسلين لم تعد تقـتل الميكروب ولا تؤثر فيه. لذلك يعطى الأطباء جـرعات أكبر من البنسلين فى الـعلاج، فـفى سنة ١٩٤٥ كانت الجرعة الشـافية ٣٠٠,٠٠٠ وحدة من البنسلين يوميا لمدة عشرة أيام، أما الآن فلابد من إعطاء مليـونى وحدة من البنسلين يومـيا لأكثر من عشرة أيام، وفى بنكوك فى جنوب شرق آسيا وجـدوا أن ميكروب السيلان هناك لم يعد تؤثـر فيه هذه الجـرعات الكبـيرة من البنسلين، ولابد مـن إعطاء المريض خـمسـة ملايين وحدة من البنـسلين لمدة عشرة أيام أو يزيد، ولا ندرى ماذا سيحـدث فى المستقبل، فـقد يأتـى وقت ينعدم فـيـه تأثيـر البنسلين ويصبح علاج المرض مستعصيا.

وهناك بعـض الأمـراض الأخــرى التى تنتـقل بواسطة الزنا مع مصــاب أو مصـابة، وهو مرض **التهاب مجرى البول غير النوعى** Non specific urethritis ولا يعـرف العلمـاء

سببه حتى الآن على وجه التحديد، ولكنه مرض كثير الانتشار بين مرتكبى الزنا والشذوذ الجنسى، وهذا المرض يُحدث علامات مرضية على الرجل المصاب ولا تظهر علامات مرضية على المرأة المصابة ولكنها تنقل المرض إلى كل من يتصل بها جنسيا.

ومن الأمراض أيضا مرض رايتر Riter's disease وفيه تحدث التهابات بالمفاصل وآلام وأورام بها تجعل من الصعب تحريكها والتهابات بالعين. وكثيرا ما يؤدى فى النهاية إلى تشوه بأصابع اليدين والقدمين والعمود الفقرى، وهو تشوه دائم لا علاج له. والنساء حاملات لجراثيم المرض ولا يعانين من آثار المرض بقدر ما يعانى الرجال المصابون.

إن كلا من الزنا والشذوذ الجنسى يؤديان إلى أمراض كثيرة ليس هذا مجال الحديث عنها، ولكننا أشرنا إلى بعضها فقط، ولقد عانى الإنسان منها عصورا طويلة، إلى أن اكتشف أخيراً المضادات الحيوية التى تقتل ميكروبات تلك الأمراض، إلا أننا وجدنا بعد ذلك أن العلاج مهما كان متوافرا فلا يمنع من الإصابة بالمرض، فضلا عن أن الميكروبات فى تلك الأمراض لم تعد تستجيب للعلاج بسهولة، وقد يأتى يوم لا يصلح لها علاج. والعلاج مهما كان فعالا، فهو لا يجدى فى معالجة مضاعفات تلك الأمراض، فلا يزال من مرضى القلب بسبب الزهرى الكثيرون، ولا يجدى فيهم علاج ولا زال من مرضى الأمراض العقلية بسبب الزهرى الكثيرون أيضا. وصدق الله تعالى إذ قال فى سورة النور:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

تنتشر الأمراض الجنسية بسبب الزنا والشذوذ الجنسى فى بلاد الشرق الأقصى وفى البلاد الغربية انتشارا كبيرا، وهى قليلة فى البلاد الإسلامية والحمد لله فإن الدين يعصم الكثيرين من الوقوع فى الفحشاء والمنكر. ففى المجتمعات الأخرى أهمل الآباء أولادهم ممن هم فى سن المراهقة ومقتبل العمر بحجة إعطاء الحرية للشباب فتركوا لهم الحبل على الغارب بدون ملاحظة ودون نصح وبدون توجيه سليم. والشباب فى أمس الحاجة إلى توجيه الآباء ونصحهم وإرشادهم، فماذا كانت النتيجة؟، كانت النتيجة ضياع الشباب هناك وضلالهم وانغماسهم فى إشباع شهواتهم بدون حد وبدون عقل أيضا. وشاع الزنا وشاعت الانحرافات الجنسية، وبالتالى كثرت الأمراض الجنسية بين الشباب بشكل كبير بالرغم من توافر العلاج.

أين آباؤهم؟، إنهم أيضا منغمسون فى لهوهم وعبثهم وسكرهم وملذاتهم ولا يدرون عن أولادهم شيئا. وقد يقال: إن العلم فى تقدم هناك، وأقول: إن العلم تقدم كثيرا هناك، ليس على يد شباب هذا الجيل الضائع، ولكن على يد جيل قبلهم، كان أكثر تعقلا وأكثر التزاما. وسنرى ما يحدث لتلك المجتمعات مستقبلا عندما يصير الشباب الضائع اليوم بيده زمام الأمور.. وإن غدا لناظره قريب.

إن أكبر الأخطاء التى يرتكبها الشباب فى هذا العصر هو محاولتهم إثبات وجودهم بطرق تضرهم، مثل: رغبتهم بالاستقلال بالرأى وضيقهم بنصح الآباء لهم والاعتداد بالنفس واندفاعهم فى ممارسة حرياتهم الشخصية بطرق غير مبنية على خبرة ودراية، فضلا عن اعتقادهم المخطئ أن إسداء النصح لهم من الآباء انتقاص من حريتهم واعتداء على شخصيتهم، وهم فى ذلك مخطئون.

وليتمسك الشباب بما أمر الله تعالى لهم بكل قوة وكل عزم وتصميم، فالدين هو نعم الملجأ، ونعم الحماية، ونعم الهداية. ونعم المعين، روى الإمام أحمد عن جابر بن سَمُرَة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام وإن خير الناس إسلاما أحسنهم خلقا**».

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال:

«**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن**».

(وهو مؤمن): لم يقل وهو مسلم، فإن الزنا لا يُخرج الإنسان من الإسلام ولا يجعله كافرا، ولكن يخرجه من الإيمان فقط.

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنا ويكثر شرب الخمر**».



الايدز

فى سورة النور، يقول الله عز وجل:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾.

والفحشاء تطلق على الزنا لقوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ۝٣٢﴾.

والفحش والفحشاء والفاحشة: هو القبيح من القول والعمل وكل شىء جاوز الحد فهو فاحش.

والمنكر: هو كل ما قبّحه الشرع وحرّمه.

وفى سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ۝٣٢﴾.

ولا تقربوا الزنا: أى لا تدنو منه، ولا تسيروا فى طريق يؤدى إليه.

فالإنسان قد لا يملك نفسه عند مقاربة الزنا فيقع فيه، لذلك كان النهى عن مجرد الاقتراب من طريق يؤدى إليه.

وساء سبيلا: سبيلا: نصبٌ على التمييز وتقديره: وساء سبيلُه سبيلا.. وذلك يشير إلى ما يؤدى إليه الزنا من أضرار وأخطار وكوارث، ولم يحرم الإسلام الفاحشة إلا لمصلحة الفرد ولمصلحة الجماعة، وقد بيّن

للأمة العلاج الصحيح، فالإسلام يحرِّمُ الخلوةَ بين أى رجلٍ وامرأة بغير زواج، وينهى عن التبرج والزينة، ويحض على الزواج لمن استطاع، والصوم لمن لا يستطيع، كما قال رسول الله ﷺ: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ»**، والباءة مؤنة الزواج. ويكره الإسلام الحواجز التى تمنع من الزواج مثل المغالاة فى المهور، ويحض على مساعدة من يرغب فى الزواج ليحصن نفسه، ولكنه يوقع العقاب على من يقترف الفاحشة، كما قال تعالى:

﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾. تبين الآية الكريمة فيما تبين من حق أن بين الزنا وقتل النفس صلة، فالزنا ابتداءً: قتلٌ لمادة الحياة بوضعها فى غير موضعها، والزنا قد يسبب قتل الجنين فى بطن أمه، وإن ترك يولد للحياة فقد تُرِكَ فى جسم مشوه أو لحياة مريرة أو لمصير مجهول. والزنا قتل للصلات الصحيحة فى المجتمع وضياع للإنسان فيه، وتفكك أسرى واجتماعى بعيد المدى، فضلا عن أن الزنا قد يؤدى إلى قتل للزانى نفسه، قتل لنفسيته وقتل لبدنه أيضا. وروى الإمام مالك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (ما فشا الزنا فى قوم إلا كثر فيهم الموت).

وحرم الإسلام الاتصال الجنسى بدون زواج تحريما قاطعا، وحلله بالزواج بل ويثيب الإنسان عليه أيضا، وروى الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إماطتك الأذى عن الطريق صدقة وتسليمك على الناس صدقة وأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة ومباضعتك أهلك صدقة»**.

قال قلنا: يا رسول الله أيقضى الرجل شهوته وتكون له صدقة؟ قال: **«نعم، أرأيت لو جعل تلك الشهوة فيما حرّم الله عليه، ألم يكن عليه وزر؟»**، قلنا: بلى، قال: **«فإنه إذ جعلها فيما أحل الله عز وجل فهى صدقة»**.

وروى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى حديث له:

«فى بُضْعِ أحدكم (أى اتصال الزوج بزوجه) **صدقةٌ»**: قالوا: يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: **«أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»**. ولقد ذكرنا من قبل أن الكثير من الأمراض الجنسية التى تنتشر فى المجتمعات بسبب الزنا مثل الزهرى والسيلان وغيرهما من الأمراض، تسبب مشكلات صحية كثيرة؛ لأن العلاج مع توافره لم يؤد إلى الشفاء، ولم ينقذ البشرية من أخطار الزنا ومشكلاته وآلامه ومصائبه، ومضى الزمن ولم يرتدع كثير من الناس ولم يرجعوا إلى طاعة الله ورسوله، بل ازدادوا ضلالا وازدادوا فجورا، واستمروا فى ممارسة الزنا واللواط فى جهالة وفجور، فكان أن سلط الله تعالى عليهم أمراضا أخرى أشدُّ نكالا منه وعذابا، سلط عليهم جراثيم لم تكن تسبب أمراضا للإنسان

من قبل، أرسل عليهم طاعونَ هذا القرن، وهو نقص المناعة المكتسبة، وما تؤدى إليه من أمراضِ الإيدز والهربس مما لا علاج له اليوم.

إن الله تعالى خلق جسم الإنسان فى أحسن تقويم، فهو يعيش فى بيئة مليئة بالجراثيم والميكروبات؛ لذلك خلق الله تعالى فى جسم الإنسان أجهزة للدفاع عنه ضد الجراثيم وأجهزة للمناعة أيضا، وكل ذلك فى غاية الإبداع، وقمة الإعجاز فما أن تدخل الميكروبات جسم الإنسان حتى يقضى عليها بأحد هذه الأجهزة، فهناك جهاز دفاعى فى الجلد، وجهاز ثان فى الجهاز الليمفاوى وما به من قنوات وعقد ليمفاوية منتشرة فى الجسم كله، ما إن يصل الميكروب إليها حتى تهاجمه فى تلك العقد خلايا قاتلة تلتهمه التهاما وتقضى عليه، فلا يصل إلى الدم. وإذا نجح الميكروب فى تخطى الجهاز الليمفاوى ووصل الدم وتكاثر عددا وازداد شراسة فسوف يوصله الدم إلى جهاز آخر فى الكبد والطحال يسمى Reticulo endothelial system الجهاز الشبكى البطانى، وهو جهاز فى القنوات الدموية فى الكبد والطحال وغيرهما من أعضاء الجسم. ما إن تمر الجراثيم فى مجرى الدم حتى تبتعلها الخلايا المبطنة لتلك القنوات وتقضى عليها، فهى خلايا حارسة للجسم ومدافعة عنه، وتعمل فى نظام متقن وبديع. وإذا وصلت أعداد هائلة من الجراثيم فوق طاقة كل خطوط الدفاع فى الجسم؛ هنالك يقوم جهاز آخر بالعمل ويُستنفر للدفاع عن الجسم والقضاء على الجراثيم. إنه جهاز المناعة الذى يعمل فى قمة الإحكام وكامل النظام وغاية الدقة والإبداع. ويعكفُ العلماء المتخصصون على دراسة ذلك الجهاز المناعى بالجسم طوال حياتهم، وما عرفوا من أسراره بعد إلا القليل أنه إعجاز من الإعجاز ودليل على قدرة الله عز وجل فى خلقه ورحمته بعباده.

ويعمل جهاز المناعة فى الجسم أدق كثيرا من الرادار والكمبيوتر، ففيه الملايين من الخلايا، كل خلية مثل الرادار، إنها تلف وتدور فى الجسم حتى إذا أحست بميكروب غريب عملت بطرق متعددة على قتله، وبالتالى حماية الجسم منه. ولم يكن العلماء على علم بكل هذه الخلايا إلا بعد سنة (١٩٥٠)، وما بدت لهم أسرار الإعجاز فى خلق جهاز المناعة إلا منذ سنوات معدودات.

وجهاز المناعة يعتمد على نوعين من الخلايا الليمفية:

الأولى: تسمى الخلايا الليمفية التائية ومنها أنواع متعددة.

الثانية: تسمى الخلايا الليمفية البائية.

الخلايا التائية كالرادار، تتعرف على الميكروب وتهاجمه، ومن الخلايا التائية، نوع يسمى الخلايا التائية المنشطة، فما إن يدخل الميكروب الدم حتى تسرع الخلايا التائية المنشطة إلى الخلايا الليمفية البائية وتبلغها بما حدث، فسرعان ما تستنفر الخلايا البائية وتشتغل مصانعها بأقصى طاقاتها، وتنتج مواد قاتلة للميكروبات تسمى (المواد المضادة

للميكروبات)، وتظل المصانع تنتج هذه المواد حتى تنتهى المعركة بقتل الميكروبات المهاجمة، حينئذ يقوم نوع آخر من الخلايا الليمفية التائية يسمى الخلايا المثبطة، وترسل إشارات إلى الخلايا البائية بالتوقف عن إنتاج المواد المضادة للميكروبات، فقد انتهت المعركة وحسمت الحرب.

فتتوقف مصانع الخلايا البائية عن الإنتاج.

ومن الطبيعى أن تتخلف عن المعركة ميكروبات ميتة لا حصر لها، هنالك تنشط خلايا أخرى تسمى «الخلايا الملتهمة» فتبتلع كل تلك الميكروبات الميتة التى سقطت فى ساحة المعركة.

وليس الأمر بهذه البساطة التى ذكرتها، ولكن وراء كل خطوة أسرارا فى الخلق تدهش العقول وإبداعا فى الصنع يأخذ بالألباب، يقوم دليلا واضحا على رحمة الله تعالى بعباده. وأن الله تعالى خلق الإنسان فى أحسن تقويم.

أما فيروس الإيدز، فلم يكن يضر الإنسان من قبل، وما كان يسبب له مرضا، ولكن لأمر ما سلّطه الله تعالى على الإنسان، وجعله يدمر فى الجسم أهم جهاز فيه وهو جهاز المناعة، فما إن يدخل هذا الفيروس الجسم عن طريق الزنا أو اللواط حتى يغزو الخلايا التائية ويفجرها، وذلك يؤدى إلى نقص شديد فى نشاط الخلايا البائية، فلا تعود مصانعها تنتج شيئا من المواد المضادة للميكروبات وبذلك تنهار المناعة المكتسبة بالجسم انهيارا شديدا، وما إن تدخل أى ميكروبات جسم الإنسان - وهى تدخل كل لحظة من اللحظات - حتى تجد جسم الإنسان ميدانا مفتوحا لها.



الإيدز (طاعون العصر)

كان الحديث من قبل عن جهاز المناعة بالجسم، ذلك الجهاز المحكم الذى خلقه الله تعالى فى الجسم ليحميه من الجراثيم التى تحيط به من كل مكان. وبوجود جهاز المناعة صار الجسم كالقلعة الحصينة التى فيها كل مقومات الدفاع عن نفسها. ولقد تحدثنا من قبل عن بعض الأمراض التى تصيب الإنسان عن طريق الزنا.. إن مشكلات تلك الأمراض التى تصيب الإنسان عن طريق الزنا لازالت مزعجة للإنسان بالرغم من توافر العلاج لها، ولما لم يرتدع الإنسان بما حدث له من أمراض، وظل على عصيانه لله تعالى سلط عليه مرضا آخر أشد هلاكا، وأكثر رعبا، إنه طاعون هذا العصر أو ما يسمى بالإيدز، والإيدز كلمة مكونة من الحروف الإنجليزية الأولى للمرض ويسمى علميا «متلازمة نقص المناعة المكتسبة» Acquired immune defeciency syndrome متلازمة: أى مجموعة أعراض مرضية معينة تظهر معا.

وسبب هذا المرض المهلك فيروس جديد لم يكن يسبب ضررا للإنسان من قبل ولكنه

الآن لسبب ما قدره الله تعالى صار معديا للإنسان.

والفيروسات أصغر كثيرا من البكتيريا.. ولا ترى بالمجهر العادى، ولكنها تُرى بالمجهر الإلكترونى. وهى أمم كثيرة، وشعوب مختلفة، مثل أمم الميكروبات وشعوبها. وبعض الفيروسات ضار وبعضها مفيد، بل إن بعض الفيروسات ليس مفيدا فحسب ولكنه ضرورى لاستمرار الحياة على هذه الأرض؟ وكيف كان ذلك؟ لو تركت البكتيريا تتكاثر دون أن تهلك لمدة شهر واحد فقط، لغطّت البكتيريا سطح الكرة الأرضية كله بعمق خمسة أمتار، أو أكثر، ولهلك كل من على الأرض من الأحياء، ولكن ذلك لا يحدث قط؛ لأن الله تعالى قيض للبكتيريا أنواعا من الفيروسات تدعى **اكتريوفاج** تقتل الميكروبات بسرعة تتساوى من سرعة تكاثرها، وبذلك تستمر الحياة على الأرض لكل الكائنات الحية جميعا بما فيها الفيروسات البكتيريا وما فائدة البكتيريا؟ إن بعضها مضر وبعضها مفيد بل إن الحياة لا تستمر بوجود بكتيريا، ففى أمعاء الإنسان بكتيريا مفيدة تصنع بعض الفيتامينات. وفى جذور النباتات بكتيريا تغذيها بالمواد العضوية. وللبكتيريا المفيدة مجالات نافعة أخرى.

وإذا كان بعض الفيروسات مفيدًا فالكثير منها يسبب الأمراض، منها ما يهاجم الإنسان ولا يضر الحيوان ومنها ما يهاجم الحيوان ولا يضر الإنسان، ومنها ما يهاجم النبات ولا يضر غيره من الكائنات الحية.

وذكر بعض العلماء أن فيروس الإيدز كان فيروسا فى القرود فى أفريقيا لا يسبب مرضا للإنسان، إلا أنه لأمر ما - قدَّره الله تعالى، والله عز وجل لا يسأل عما يفعل- تغيرت طبيعة الفيروس، وصار للإنسان مهاجما، وصار معديا، وليس هذا فحسب، بل إنه تحول إلى وحشٍ غاضب يفتك بأهم أعضاء الجسم وأكثرها ضرورة له، وهو جهاز المناعة. ولو هاجم جهازا آخر فى الجسم ما كانت له هذه الخطورة، ولما سبب كل هذه المتاعب، ولما هدد الجنس البشرى فى الصميم. ولم يصب هذا الفيروس الإنسان من قبل هذا العصر أبدا، وما حدث إلا فى هذا العصر عندما ازداد الناس فى ضلالهم، وازدادوا كفرا وعصيانا، واندفعوا فى طغيانهم فى الزنا والشذوذ الجنسى، لا تردعهم أوامر الله تعالى ولا تمنعهم قيم أو أخلاق، وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن هذا الفيروس أرسله الله تعالى للناس عقابا على كفرهم وتنكرهم لدين الله فى الأرض.

ونفكر فى الأمر، ونتساءل، من أوحى لهذا الفيروس بأن يُكَشِّر عن أنيابه ويهاجم الإنسان، وفى الصميم، ومن أوحى له بكل ذلك؟

إن الفيروسات لا تعى ولا تعقل، فمن علمها ذلك؟ هل علمت نفسها؟ كلا، لم تعلم نفسها، فهل علمها إنسان؟ كلا، لم يعلمها إنسان، فالإنسان أضعف منها، إنها تعمل بعقل وحكمة وعلم وهدف محدد لا تحيد عنه أبدا، والأعجب من كل ذلك أن

هذه الفيروسات فى العالم كله شرقا كان أم غربا لها نفس الصفات ونفس الطباع ونفس الهدف فهل بينها تفاهم واتصال؟ كلا، ليس بينها تفاهم أو اتصال.

ومحال أن يكون ذلك صدفة أو عشوائية، ومادامت الفيروسات لا تعقل ولا تعى وتقوم بعمل يتصف بالعلم والقدرة والحكمة، فلابد أن هناك قدرة عليا ليس كمثلها قدرة، وقوة ليس كمثلها قوة، هى التى تدبر كل هذه الأمور، إنها قدرة الله عز وجل وقوته ومشيئته وأمره.

وقلنا: إن الإيدز يحصد البشر حصدا، حتى قيل: «إن الإيدز طاعون هذا العصر»، الذى لم يحدث قط للبشر من قبل، وهذا الوصف له يذكرنا بحديث نبوى شريف رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا».

والطاعون فى اللغة: الوباء الذى يفتك بالإنسان، ويطعنه طعنا. فالطاعون فى اللغة اسم عام يطلق على أى وباء فتاك، وليس لمرض وبائى بعينه.

ذكر الحديث النبوى الشريف ما يحدث فى عصرنا هذا من انتشار الفاحشة فى أمم الأرض شرقا وغربا حتى عرفوا بها، ففشا فيهم الطاعون على شكل الأمراض الجنسية التى تفتك بهم، وأشرها الإيدز والهربس، وفشت فيهم الأوجاع، وهى مضاعفات تلك الأمراض، مما لم يكن أسلافهم يشكون منها أو يصابون بها.

أول تقرير رسمى عن الإيدز صدر عن مركز السيطرة على الأمراض فى أمريكا، وكان عن خمسة من الشبان، وكانوا جميعا من المصابين بالشذوذ الجنسى، أصيبوا جميعا بنوع نادر من سرطان الجلد يسمى «سرطان كابوسى» وماتوا جميعا بسبب نوع نادر من الالتهاب الرئوى الذى استعصى شفاؤه على كل علاج يسمى الالتهاب الرئوى المتكيس Pnemocystis Carinii Pneummia واكتشف العلماء أمرا مدهشا وهو أن جهاز المناعة المكتسبة فى أجسامهم جميعا قد دمر تماما، ولم يعرفوا سبب ذلك حينئذ.

وكان عدد المرضى بالإيدز فى أمريكا سنة ١٩٨١ مائتين واثنين وخمسين مريضا. وفى سنة ١٩٨٣ صار العدد ألفين وستمائة وثلاثة وأربعين مات منهم ٦٠٪ خلال عام واحد. ومات الباقون خلال عامين.

وفى سنة ١٩٨٥ صار العدد فى أمريكا عشرة آلاف ماتوا جميعا فى غضون ثلاث سنوات وأكثر من نصفهم فى غضون عام واحد، أما الآن فعدد المصابين بالإيدز فى العالم يقدر بالملايين والعدد فى استمرار وازدياد مخيف.

وأكثر القارات تهديدا بخطر الإيدز قارة أفريقيا، ففيها مئات الآلاف من مرضى

الإيدز، ولم يحصر عددهم، والعدد فى ازدياد رهيب حتى أنه ليخشى من انقراض الجنس البشرى تدريجيا فى قارة أفريقيا قبل انقراضه فى القارات الآخرى، إن الإيدز يهدد الجنس البشرى بالفناء، هذه حقيقة لا شك فيها. وهذا المرض الوبيل يشبه جبل الثلج لا يظهر منه إلا قدر قليل، والباقى لا يظهر، فانتشار الإيدز بين البشر أكثر مما نتصور، ولقد وجد العلماء فى أمريكا مريضا بالإيدز مصابا بالشذوذ الجنسى، وقد سبب هو وحده العدوى لألف شخص!، وكلما استمر الشباب فى تلك المجتمعات فى الزنا واللواط، انتشر فيها الإيدز والهربس، وفشا فيهم الموت، وقد ورد فى السنة ما رواه الإمام مالك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال فيما تعلمه من رسول الله ﷺ: **«ما فشا الزنا فى قوم قط، إلا كثر فيهم الموت»**.

إن الذى يقترف الفواحش من زنا وشذوذ جنسى، إنما يقتل نفسه ويقتل غيره من الناس، وقد تكون هذه الحقيقة من بعض أوجه العلم فى آية سورة الأنعام، فى قول الله عز وجل:

﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾.

فأى إنسان عاقل يدرك مواطن الخطر عليه، فيبتعد عنها، لذلك عقب الآية الكريمة بالقول:

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

إن الإيمان بالله تعالى واتباع ما جاء به القرآن والسنة من أوامر ونواهى هى لخير الإنسان فى الدنيا والآخرة، وأما من ترك طاعة الله ورسوله واتبع شهواته ونزغ الشيطان له، فلن يجد إلا الخسران والهلاك. ونذكر قول الله عز وجل فى سورة فصلت:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾.

وهناك فرق بين «العباد» و«العبيد»، فالعباد هم الذين يعبدون الله، أما عَبَدَةُ الشيطان فهم «عبيد» لذلك قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾**، ونقرأ فى سورة الأنفال، قول الله تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾، وقال الله تعالى عن النبى يوسف: **﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾**.



هل الإيدز عقاب من الله للعصاه؟

صار من المعلوم أن متلازمة نقص المناعة المكتسبة «مرض الإيدز» لم يكن يصيب الإنسان فى العصور السابقة، وثبت أنه مرض يصيب الإنسان عن طريق الزنا والشذوذ الجنسى. ولم يكن الناس فى العصور القديمة بعيدين عن هذه الفواحش، ولكن الله تعالى لم يقدّر هذا المرض على العصاة المذنبين فى الأمم السابقة.

فالشذوذ الجنسى كان معروفا للناس منذ قوم لوط - أى منذ آلاف السنين - وجاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم فى سورتى الأعراف والنمل. نزل قوله تعالى أولا فى سورة الأعراف، قال عز وجل:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

فقوم النبى لوط عليه السلام كانوا أول قوم ارتكبوا فاحشة الشذوذ الجنسى، ولم تعرف الأمم السابقة ذلك، والدليل قوله تعالى: ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾.

وبعد ذلك نزل قوله تعالى عنهم فى سورة النمل:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

ولقد عاقب الله عز وجل قوم لوط على جهلهم وإسرافهم فى إجرامهم، وعصيانهم لأمر ربهم على لسان نبيهم لوط، فأرسل الله تعالى عليهم عقابا شديدا.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

ولا ندرى على أى شكل كان ذلك المطر المهلك، ولكنا نعلم أنه أهلك قوم النبى لوط وقضى عليهم - أى قضى على العصاة منهم - وهذا يذكرنا بالإيدز الذى يقضى فى عصرنا هذا على الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وعلى الذين يمارسون الزنا أيضا ويعصون الله ورسوله. وقد ينكر بعض الناس أن الإيدز عقاب من الله تعالى فى زمننا الحاضر للعاصين المسرفين فى الشهوات المحرمة، ولكننا نرى أنه عقاب من الله تعالى لهم قياسا على ما حدث لقوم النبى لوط؛ لأن الله تعالى أرسل عليهم عقابا أهلكهم جزاء عصيانهم لأمره وإسرافهم فى اتباع الشيطان. فذلك قول الله تعالى فى سورة النمل:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن

دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾(*).

إن الإيدز ينتشر بين الناس فى المجتمعات غير الإسلامية فى العالم الغربى ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا، انتشارا كبيرا، وهو مرض يقتل المصاب به فى غضون سنوات قليلة، وعدد المصابين فى ازدياد كبير.

وما هى أعراض مرض الإيدز:

تبدأ أعراض المرض بما يشبه نزلة البرد، إلا أنها لا تنتهى بعد أيام، بل تظل عدة أسابيع، تظهر بعدها أعراض أخرى من أهمها الآتى:

١- الشعور بالضعف العام، والوهن الشديد، بدون سبب معروف.

٢- تضخم بالعقد الليمفاوية بالجسم تظل عامين أو أكثر.

٣- نقص مستمر فى وزن الجسم.

٤- ارتفاع فى درجة حرارة الجسم دون سبب ظاهر.

٥- سعال جاف ونهجان لأقل مجهود.

٦- ظهور سرطان الجلد المعروف باسم (سرطان كابوسى).

٧- إسهال متكرر.

٨- اكتئاب نفسى مستمر.

(*) يطلق بعض الناس اسم «اللواط» على إتيان الرجال شهوة من دون النساء نسبة إلى قوم لوط. وهذا خطأ شائع لا ينبغى أن يقع فيه الناس للأسباب الآتية:

الأول: لا يصح أن يشتق اسم فعل قبيح من اسم نبى من الأنبياء حتى ولو اقترفه قومه.

الثانى: لا يحدث ذلك إلا فيمن ينطق باللغة العربية، أما الناطقون باللغات الأخرى فلا ينسبون ذلك الفعل لاسم لوط، فاسم لوط بالإنجليزية Lot، واسم الفعل القبيح Sodomy، فلم ينسب إلى اسم لوط.

الثالث: لم ينسب ذلك الفعل القبيح لاسم لوط فيقال: «اللواط» لا فى القرآن ولا فى الحديث النبوى، فلم تأت كلمة «لواط» فى القرآن والسنة قط، وإنما جاءت فى السنة بمعناها اللغوى فقط. فاللوط فى اللغة من لاط الحوض بالطين لَوْطا - أى جعل عليه طبقة من الطين. ولوّطه أى لطخه. ولاط الشىء لوطا أى أخفاه وألصقه. وجاء فى الأثر: فلان أعز الناس إلى، والولد ألوط - أى ألصق بقلب أبيه.

ويقال فى اللغة: قد لاط حب ولدى بقلبى - أى لصق بقلبى.

إذن فما كان يفعله قوم لوط لا يجب أن يسمى لواطا، فهذا خطأ شائع لابد أن يصحح، لأنه يشتق اسم تلك الفاحشة الشاذة من اسم النبى لوط عليه السلام، وهذا لا يصح، وروى الإمام أحمد فى المسند عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له:**«لعن الله من عمل عمل قوم لوط»**، كررها ثلاثا.

إذن، فكلمة «اللواط» خطأ، فلم تذكر بهذا المعنى فى القرآن أو الحديث النبوى ولم تذكر أيضا فى اللغات الأخرى، فقد وصف القرآن تلك الفاحشة قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ**﴾، ووصفه الرسول ﷺ قال: **«من عمل عمل قوم لوط»**.

وفى الحديث الشريف أيضا: **«من أحب الدنيا التاط منها بثلاث: شغلٍ لا ينقضى. وأملٍ لا يُدرك. وحرصٍ لا ينقطع»**، واللوط فى اللغة يعنى الرداء أيضا.

٩- حدوث التهابات ميكروبيـة شديدة تسببها الميكروبات الانتهـازية (أى التى تنتهـز فرصة انهيار المناعة بالجسم وتهاجم الجسم حيث لا توجد مقاومة لها)، وغالبا ما تكون هذه الالتهابات الميكروبية سبب موت المريض.

ولا يوجد علاج ناجع لهذا المرض حتى الآن، فأى مصاب بهذا المرض سيكون مصيره الموت حتما مهما تناول من علاج، وتنعقد المؤتمرات الطبية العديدة، وتظهر دراسات تبشر بعلاج ناجع للإيدز، وما إن تنفذ على المرضى حتى يظهر أنها بدون جدوى، ولا يوجد أى سبيل للوقاية المؤكدة من الإصابة بالمرض إلا بتجنب أى طريق يؤدى إلى الإصابة به(*). ونقرأ عن ذلك فى سورة الأنعام فى قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وفى سورة الأعراف ٣٣، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

﴿ما ظهر منها﴾ هو ما اقترفه الإنسان ببدنه. **﴿وما بطن﴾** أى ما عقد عليه العزم فى قلبه من عصيان الله تعالى. وروى الإمام أحمد عن جابر ابن سَمُرَةَ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام فى شىء. وإن خير الناس إسلاما أحسنهم خلقا**».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبغض الفاحش المتفحش. والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يُخَوَّن الأمين. ويؤتمن الخائن. وحتى يظهر الفحش والتفاحش، وقطيعة الرحم وسوء الجوار**».

(الفحش) هو القبيح من القول والفعل. والجمع فواحش. (والفاحش) هو ذو الفحش. و(المتفحش) هو الذى يتكلف الفاحشة ويتعمدها.

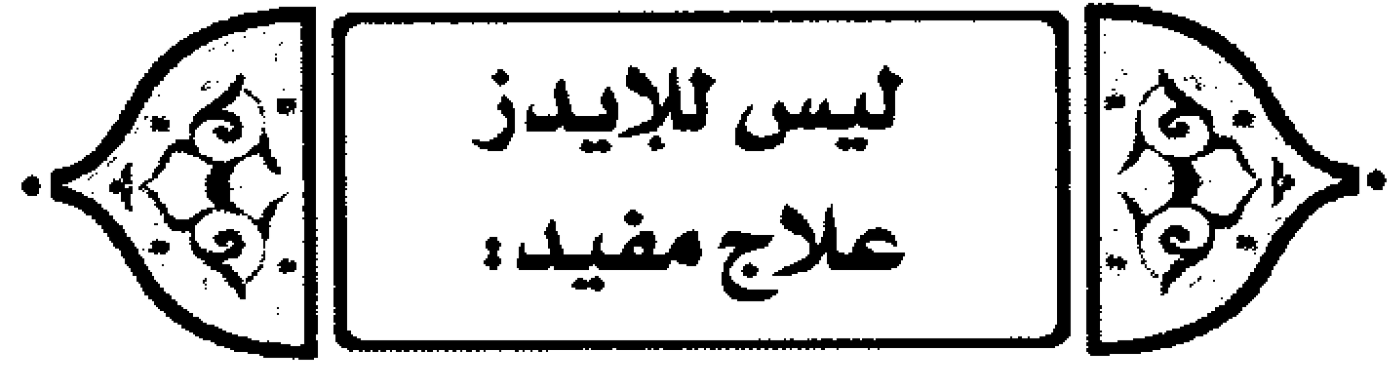
(*) يوجد فيروس الإيدز فى دم المريض والسائل المنوى أو السائل المهبلى فتحدث العدوى بالطرق الآتية:

١- الزنا أو الشذوذ الجنسى.

٢- بواسطة حقن المخدرات بطريق الوريد كما يفعل المدمنون الذين يشتركون مع بعضهم البعض فى ذلك الأسلوب من تعاطى المخدرات.

٣- بواسطة نقل الدم من متطوع حامل للفيروس إلى إنسان غير حامل له (فالغالبية العظمى من حاملى فيروس الإيدز لم تظهر عليهم علامات المرض بعد).

ولا تنتقل العدوى من المصاب إلى غير المصابين عن طريق الملامسة أو الرذاذ أو العطاس، أو مشاركة الطعام، ولا تسبب الحمامات ذات المستوى الجيد من النظافة والصيانة، العدوى بالمرض ولا تسبب عادة التقبيل انتقال العدوى، فالفيروس لا يوجد فى لعاب المريض.



ذكرنا من قبل بعض الحقائق عن الأمراض الجنسية الميكروبية مثل السيلان والزهرى، وذكرنا أن عدد المصابين بها فى ازدياد. وأن مشكلاتها الصحية والاجتماعية فى تفاقم، كل ذلك مع توافر العلاج الناجع ضد أطوارها الأولى قبل حدوث مضاعفات تلك الأمراض، إلا أن العلاج لا يفيد شيئا فى الأطوار المتأخرة التى تحدث فيها المضاعفات والتى تهدد صحة المريض، أما الإيدز فلا علاج له ألبتة حتى الآن، وحتى لو فرض أن العلماء مستقبلا استطاعوا الوصول إلى علاج مفيد للإيدز، وهذا مجرد فرض، فإنه سيظل مشكلة صحية أبدية تهدد الجنس البشرى بالفناء، إذا استمر الناس فى ممارسة الفواحش. ومهما ظهر من دواء جديد فلن يتوقف الخطر، وستظهر أمراض جنسية أخرى أو فيروسات أخرى، ولقد حدث هذا فعلا فى عصرنا الحالى، فلقد اكتشف الأطباء فى أوربا منذ شهور معدودات أن للإيدز فيروسات أخرى غير الفيروس الذى بدأ المرض به، وهى فيروسات تعدى عن طريق نفس طرق العدوى بالفيروس الأول، وهى فيروسات لا تستجيب لأى علاج قد يستجيب له الفيروس الأول الذى نعرفه الآن، من هذا نفهم أن عقاب الله تعالى للعصاة من عبيده الذين يرتكبون الفاحشة، لن يتوقف مادام العصاة على عصيانهم لربهم، فالفحشاء والمنكر سيكونان دائما وأبدا السبب فى الأمراض والمشكلات الصحية والاجتماعية، إنه عذاب لهم فى الدنيا ولعذاب الآخرة لهم أشد تنكيلا. نقرأ قول الله عز وجل (فى سورة النور):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾، الآية الكريمة تقرر أن العصاة سيعانون من عذاب أليم لهم فى الدنيا من جراء ارتكابهم للفاحشة ولهم عذاب أليم فى الآخرة أيضا.

وحديثا جدا أطلق الناس على الإيدز اسم «طاعون العصر»، لأنه مثل وباء لا قبل للإنسان بمقاومته والشفاء منه، ويسبب كوارث صحية واجتماعية للجنس البشرى لم تحدث له منذ كوارث أوبئة الطاعون التى كانت تجتاح القارات طولا وعرضا، والتى كان الأطباء يفشلون من كبح جماحها، وبعض الناس يطلقون على الإيدز اسم «طاعون الشواذ» وبعضهم الآخر يطلق عليه اسم «طاعون الرعب»، واتفقوا جميعا على تسميته «بالطاعون»، طاعون العصر، ونتذكر هنا ما رواه الإمام ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا**»، وهكذا وصف الحديث النبوى الشريف الأمراض الجنسية، ومنها الإيدز «بالطاعون»، من قبل أن يصفه الناس فى عصرنا الحاضر بنفس الوصف.

ومفهوم الآية الكريمة والحديث الشريف أن الأمراض التى تحدث بسبب ارتكاب الناس للفاحشة، هى عقاب من الله تعالى لهم فى الدنيا، وينتظرهم عقاب أشد فى الآخرة.

وهم أيضا ملعونون، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله من عَمِل عَمَل قوم لوط**»، قالها ثلاثا.

ولماذا يقع العقاب على من لم يذنب؟

يتساءل بعض الناس: إذا كان الإيدز عقوبة من الله تعالى للزناة والشواذ، فلماذا يقع هذا العقاب على من لم يذنب؛ مثل إنسان نُقل إليه دمٌ ملوث بالفيروس مثلا فأصيب بالمرض القاتل؟ نجد الجواب على ذلك فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. ففى سورة الأنفال، يقول الله عز وجل:

﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)** ﴾.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أمر الله المؤمنين ألا يُقروا المنكر بين ظهرانيهم، ولو أقروه لعمهم العذاب جميعا. وروى مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخَبَثْ**».

وقال المفسرون: إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.. وقد يقال وما مصير كل من الظالم وغير الظالم والعاصى وغير العاصى؟.. نجد الجواب فى الحديث النبوى الذى رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أنزل الله بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم**»، هذا الحديث النبوى الشريف يدل على أن العذاب يعم الجميع: الظالمين والمؤمنين، ويكون نقمة للظالمين، وطُهرة للمؤمنين.

فإن قيل ولكن الله تعالى يقول:

﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾

[الأنعام: ١٦٤]

وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب دون غيره، نقول: إن الناس إن تظاهروا بالفحش والتفاحش فى مجتمع من المجتمعات، فمن الواجب على كل من رأى ذلك أن يغيّره ما استطاع.. ولا يقف موقفا سلبيا.. فإذا سكت عليه، فكلهم عاصٍ.. هذا بفعله، وهذا بسكوته عنه.. لذلك يشمل العذاب فى الدنيا الجميع. ونجد الدليل على ذلك فيما رواه الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فلا ينكرونه. فإن فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة ثم يبعثهم الله تعالى على نياتهم**».

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«**إذا ظهرت المعاصى فى أمتى، عمهم الله بعذاب من عنده**». قالت: أما فيهم أناسٌ

صالحون؟ قال: «بلى». قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**».

من كل ما سبق نفهم أن الإيدز وغيره من الأمراض الجنسية، هى عذاب من الله تعالى للعصاة.. أما من يصاب بأحد من تلك الأمراض عَرَضًا بدون اقتراف معصية، كإنسان نُقل إليه دم ملوث بالفيروس، أو جنين فى بطن أم مصابة فنقلت العدوى إلى الجنين، فيولد من بطن أمه وهى مصابة بالمرض دون ذنب جناه.. أولئك الناس يقع عليهم العذاب إلا أن الله تعالى يجعله طهرة لهم عند ربهم.

وبعد أن استعرضنا الحديث عن الأمراض التى تنتقل عن طريق الزنا والشذوذ الجنسى نتساءل: هل فَقَدَ العصاة الأمل تماما.. ولا مفر لهم من العذاب فى الدنيا والآخرة؟ نقول: إن باب النجاة لا يزال أمامهم مفتوحا.. إنه باب التوبة والاستغفار.. ولو فعلوا لغفر الله تعالى لهم، وبدل سيئاتهم حسنات، ولفازوا فوزا عظيما.. ونذكر قول الله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

وروى أصحاب السنن عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما رواه عن ربه: «**يا ابن آدم! إنك ما دعوتنى ورجوتنى، فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى. ولو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئًا، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك**».



التدخين

ما هو تاريخ التدخين مع الإنسان؟.. وما هى أضراره الصحية، وآثاره على الإنسان؟ وما هى الوقاية وما هو العلاج؟.. وما هو رأى الدين فى كل ذلك على ضوء القرآن والسنة؟ ذلك ما سنناقشه فى الصفحات التالية.

تاريخ تدخين التبغ مع الإنسان

ابتلى الناس منذ القرن السابع عشر، بعقار يهلك صحة الإنسان شيئا فشيئا. إنه نبات التبغ.. وهو نبات أمريكى الأصل.. وكان الهنود الحمر يدخنونه منذ عصور عديدة قديمة.. إلا أن الناس فى أوربا لم يعرفونه إلا بعد رحلة كولومبس واكتشاف قارة أمريكا الشمالية فى القرن السادس عشر.

ونسجل هنا حقيقة وهى أن الناس فى العالم، فيما عدا قارة أمريكا الشمالية، لم يعرفوا تدخين التبغ.. بل ولم يعرفوا نبات التبغ إلا بعد القرن السادس عشر.

وذكرت الأخبار أن البحارة البرتغاليين، تعجبوا أشد العجب، من منظر الهنود الحمر، وهم يدخنون أوراق ذلك النبات.. فراحوا يقلدونهم. وفى رحلة العودة، أحضر بحارة كولومبس معهم إلى البرتغال، كميات ضخمة من نبات التبغ. وراحوا يدخنون التبغ أمام الناس فى البرتغال، وانزعج الناس من منظر المدخنين، وهم يرون الدخان يخرج من أفواههم وأنوفهم، فاعتقدوا أن الشياطين قد تقمصت أجسادهم.

ولما كان التبغ يحتوى على النيكوتين - وهو مادة إدمانية - فقد أحدث إدمانا لدى

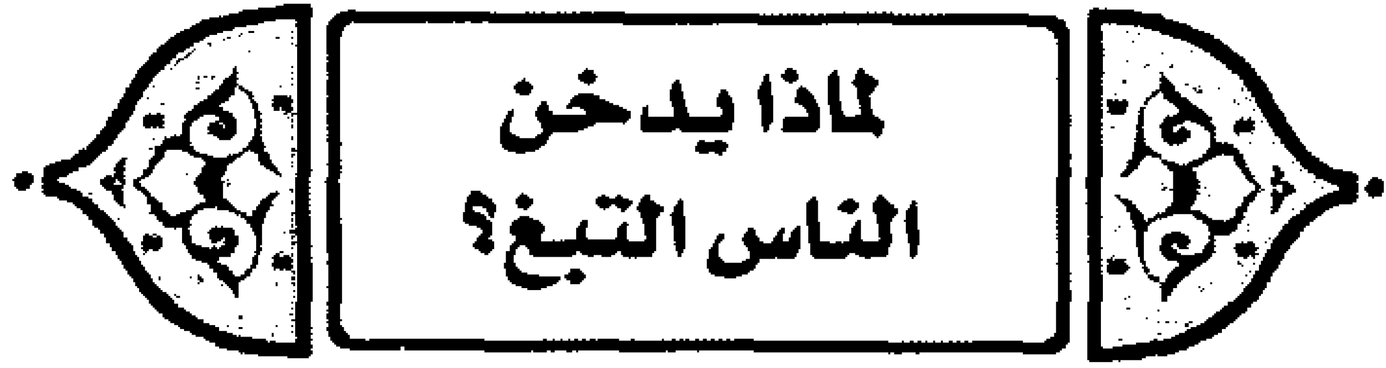


المدخنين.. لذلك انتشرت ظاهرة التدخين فى البرتغال شيئا فشيئا.. ثم انتقلت إلى أسبانيا وانتشرت بين الناس فيها.. ونجح الأسبان فى زراعة التبغ.. فكانت أسبانيا أول دولة أوربية تزرع التبغ وحقق الأسبان من وراء ذلك أموالا طائلة.. وفى أوائل القرن السابع عشر، انتشرت ظاهرة التدخين فى لندن.. وتفنن الإنجليز فى طرق التدخين.. فاخترعوا الغليون لتدخين التبغ. ولما شاع بين الناس أن التبغ نبات شيطانى، أصدر الفاتيكان سنة ١٦٤٢ أمرا بتحريم زراعته وتحريم تدخينه، إلا أن الناس واصلوا تدخين التبغ، بل وانتشر التدخين بين الناس انتشارا كبيرا. وفى سنة ١٦٦٠ صارت تجارة التبغ تجارة شائعة، تدر على التجار فيها أرباحا طائلة، ففرضت الحكومة الضرائب عليها.

وفى القرن الثامن عشر، ظهرت فى إنجلترا عادة جديدة فى استعمال التبغ، وذلك فيما يسمى **«السعوط»** وكان استعمال السعوط مقتصرا على الأمراء والنبلاء، وفى سنة ١٨٤٠ ظهرت عادة مضغ التبغ.

وفى سنة ١٨٥٠ ابتدأت صناعة السجاير فى لندن. وأول من صنع السجاير رجل إنجليزى كان يدعى فليب موريس، وكان من تجار التبغ، فكان يصنع السجاير بيده. وفى سنة ١٨٨٠ تقدمت صناعة السجاير، فصارت تصنع آليا، فكثر استعمالها بين المدخنين. وفى سنة ١٩٣٩ صنعت أول سيجارة من الحجم الكبير.

وحتى ذلك التاريخ، لم تكن الأضرار الصحية لتدخين التبغ قد اكتشفت بعد، إلا أن العلماء منذ الأربعينيات من هذا القرن، ابتدأوا يكتشفون أضرار التدخين شيئا فشيئا. وابتدأ تدخين التبغ ينحسر عنه القناع، فإذا له وجه بشع قبيح، لذلك حاول صناع السجاير التقليل من أضرار التدخين، فصنعوا سنة ١٩٥٤، أول سيجارة «بالفلتر». إلا أن ذلك لم يقلل من أخطار التدخين شيئا يذكر، لذلك اخترعوا فى أوائل السبعينيات اللفافات ذات النيكوتين المخفف. إلا أن ذلك دفع المدخنين إلى مضاعفة عدد السجاير التى يدخنونها.



لماذا يدخن الناس التبغ؟

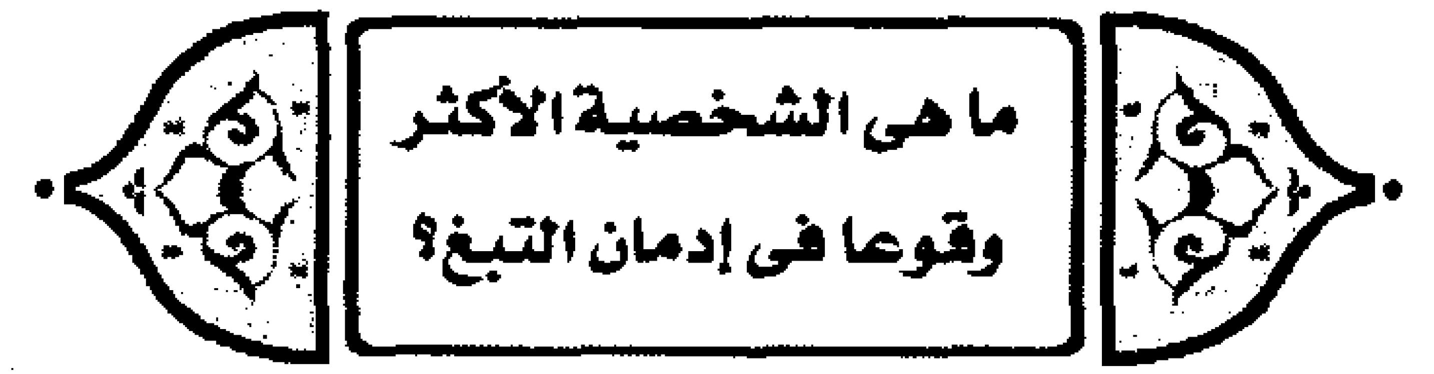
أما لماذا يدخن الناس التبغ وقد عرفوا بعض أخطاره على الصحة، فإن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة لعل من أهمها الآتى:

١- **العوامل الاجتماعية**: فالمراهقون يظنون فى التدخين مظهرا من مظاهر النضج والرجولة.

٢- **العوامل النفسية**: الشعور بالمتعة فى إخراج السيجارة من علبتها، ووضع السيجارة بالفم وإشعالها، وما إلى ذلك من حركات مصاحبة للتدخين، يشعر المدخن من خلالها شعورا كاذبا بالثقة بالنفس.

٣- يدخن كثير من الناس على **اعتقاد أن التدخين يخفف من الانفعال النفسى** الذى يشعرون به فى حياتهم اليومية.

٤- يدخن كثير من الناس على اعتقاد غير صحيح **أن التدخين يزيد من نشاطهم وقدرتهم على التفكير.** وقد ثبت فى العصر الحالى أن كل ذلك ليس صحيحا، وأنه لا فائدة قط من وراء التدخين. ولا يسبب التدخين إلا سلسلة من الأخطار الصحية والأمراض المهلكة والأضرار الاجتماعية أيضا.



إن ظاهرة التدخين تنتشر عادة فى نوعيات معينة من الشخصيات منها:

١- الشخصية المفرطة فى الطموح: التى تقبل التحدى، وتجد وتثابر فى العمل، ولا تهتم بالإرهاق ومصرة على الفوز.

٢- الشخصية العصابية: ومن صفاتها الأساسية التخوف والتردد وكثرة الشكوى بدون مبرر معقول. وعدم الرضا. وسرعة الملل. والتقلب العاطفى والعجز عن إنشاء علاقات اجتماعية قوية.



٣- الشخصية الاتكالية: التى تعتمد على الغير بدرجة أكثر من اللازم وبشكل غير طبيعى.

٤- الشخصية القابلية للإيحاء: والإيحاء هو تنفيذ سلوك معين لم يكن فى النية القيام به أصلا. لذلك يقع صاحب هذه الشخصية فريسة سهلة لتأثير الإعلانات المغرية، ولتقليد الآخرين فى التدخين.

٥- الشخصية التى لم تتعد مرحلة الإشباع الفمى: هناك علاقة طردية بين سن الفطام والقدرة على الإقلاع عن التدخين. وكلما كان سن الفطام متأخرا كان الإقلاع عن التدخين أسهل، فالذين يفطمون قبل أوان الفطام يقبلون على التدخين عندما يكبرون، ولدى هؤلاء ما يسمى بزيادة النشاط الفمى، الذى يتمثل فى قضم الأظافر، ومص الأصابع، ومضغ اللبان، والتدخين، سواء بغليون أو بسيجارة.

والتدخين نوع من عدم النضج النفسى، ذلك أن التدخين يشبع رغبات غريزية فمية، ظهرت فى الطفولة، وظلت كامنة فى العقل الباطن حتى تقدم العمر ثم

ظهرت لتعبر عن نفسها من خلال تدخين السجاير. ولا شك أن البيئة تلعب دورا رئيسيا فى الإقبال على التدخين فى طور المراهقة، فكثير من المراهقين يعتقدون اعتقادا كاذبا أن التدخين من مظاهر النضج والرجولة. لذلك يقلدون آباءهم المدخنين.

الآثار الانسحابية لمادة النيكوتين

يعتاد جسم المدخن على المواد الموجودة فى دخان التبغ وأهمها مادة النيكوتين، فإذا انخفض مستوى النيكوتين فى الدم، شعر المدخن بأعراض انسحابية، مثل التوتر العصبى وعدم الاستقرار المصحوب بالخمول والصداع والتوتر النفسى، لذلك يضطر إلى إشعال سيجارة أخرى ليدخنها لإعادة نسبة تركيز النيكوتين فى الدم إلى المستوى الذى كان عليه فتختفى الأعراض الانسحابية. ودلت الدراسات على أن ٧٥٪ من المدخنين يتمنون الإقلاع عن التدخين، والتحرر من إدمان النيكوتين، إلا أن الأعراض الانسحابية لمادة النيكوتين تضطر المدخن إلى التدخين مرة أخرى.

تدخين التبغ إدمان حقيقى

هل التدخين عادة من العادات كما يزعم بعض الناس، أم هو إدمان حقيقى كما يقول العلماء؟.. كان الاعتقاد من قبل أن التدخين عادة سيئة، إلا أن منظمة الصحة العالمية أعلنت صراحة أن التبغ مادة مفترة وهى من ضمن المواد الإدمانية.

وأعلن الطب النفسى أيضا نفس الحقيقة على لسان الدكتور مايكل راسلى أستاذ الطب النفسى قال: (إن تدخين التبغ من أكثر أنماط السلوك التى عرفها الإنسان التى تؤدى إلى الإدمان).

المادة الفعالة فى التبغ

إنها مادة النيكوتين. ويمتص النيكوتين فى الجسم من الفم ومن الشعيبات والحويصلات الرئوية، كما يمتص من الجهاز الهضمى أيضا.

ويرفع التدخين نسبة النيكوتين فى الدم كما يرفع مكونات دخان التبغ الأخرى، مثل غاز أول أكسيد الكربون السام والقطران. ويترسب القطران فى رئات المدخنين، فيلوّن الرئة - وردية اللون أصلا - بلون أسود قاتم، كما أن نسيج الرئة يكون أسود اللون أيضا، والنسيج يكاد يكون مفتتا، والرئة تكون منتفخة، وجدران الحويصلات مدمرة.

الأضرار الصحية لتدخين التبغ

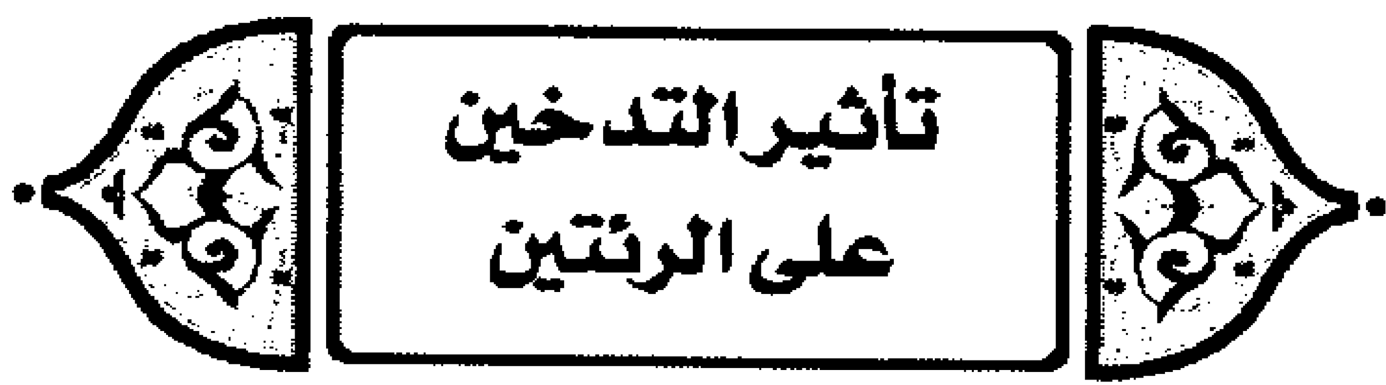
ظلت أخطار التدخين مجهولة حتى الثلاثينيات من القرن الحالى، وشيئا فشيئا ابتدأ العلماء يكتشفون العديد من الأضرار والأمراض التى يسببها التدخين. وإذا بالتبغ

يفتك بصحة المدخنين فتكا ذريعا، وكأنه مبيد بشرى. اكتشف العلماء أن فى نبات التبغ الكثير من السموم، ووجدوا أن أكثر من عشرة مواد تسبب السرطان فى الرئة وغير الرئة. كما يوجد فيه مواد كثيرة أخرى منها مادة النيكوتين. وهى مادة إدمانية سامة، لو تناول إنسان لا يدخن نصف جرام من النيكوتين لمات فى أقل من دقيقة واحدة بسبب شلل فى عضلات التنفس، ومع أن الكلب أقوى تحملا للسموم من الإنسان، إلا أننا لو وضعنا نقطة من النيكوتين على لسان الكلب لمات فى لحظات بسبب شلل فى عضلات التنفس، فالنيكوتين إذن مادة سامة شديدة المفعول، إلا أن جسم المدخن يتعود على النيكوتين، فالذى يدخن عشرين سيجارة فى اليوم، يتناول جرعة من النيكوتين تساوى $\frac{١}{٢٥}$ من الجرام، ومع ذلك لا يصيبه شلل فى عضلات التنفس، ولا يموت؛ ذلك لأن أى سم مؤثر على الجسم، إذا تعود الإنسان عليه تدريجيا، فإنه يحدث فى جسم متناوله ما يسمى (الإطاقة المكتسبة) لذلك السم، بمعنى زيادة الاحتمال له، فلا تؤثر فيه الجرعة التى تؤثر فى غيره.

والمدخن يستنشق الدخان بجرعات متعددة - نحو عشرة استنشاقات للسيجارة الواحدة - وتصل مكونات الدخان من الرئتين والفم والمعدة إلى الدم، وبالتالى إلى المخ بعد أقل من عشر ثوان.

فالإنسان الذى يدخن عشرين سيجارة كل يوم، يتناول فى العام الواحد سبعين ألف جرعة من النيكوتين، أى إنه كل اثنتى عشرة سنة يتناول مليون جرعة من النيكوتين بالإضافة إلى مليون جرعة أخرى من عشرات المواد الضارة الأخرى الموجودة بالدخان، فلا عجب بعد ذلك من أن تهاجمه العلل والأمراض والنكبات الصحية من كل مكان فى بدنه.

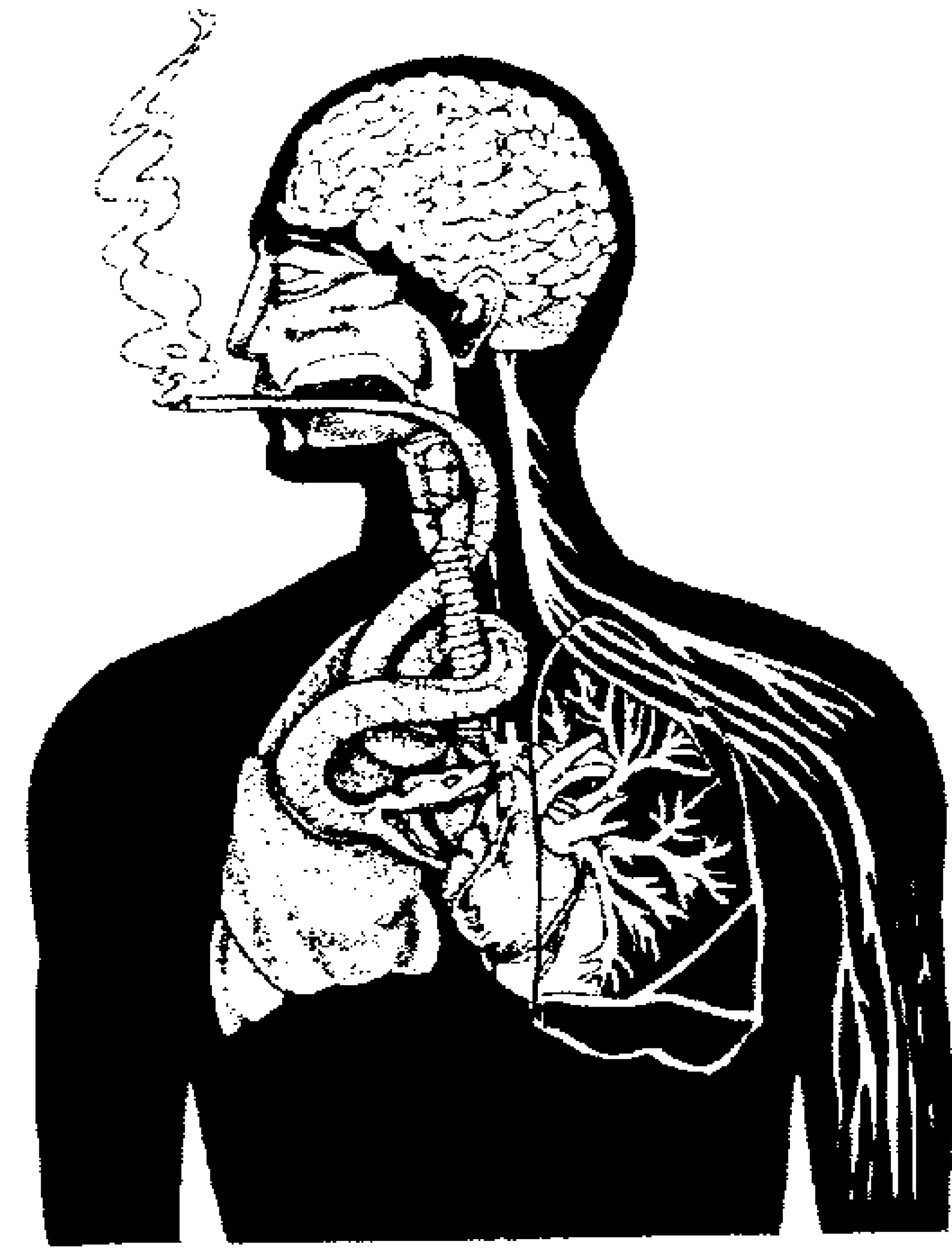
ويحتوى دخان التبغ على نحو ألفى مركب كيميائى، توجد فى القطران الناتج من الدخان. كما يحتوى الدخان أيضا على غازات بعضها سام، وكثير منها مضر. ولا نجد فى التدخين أى فائدة صحية على الإطلاق.



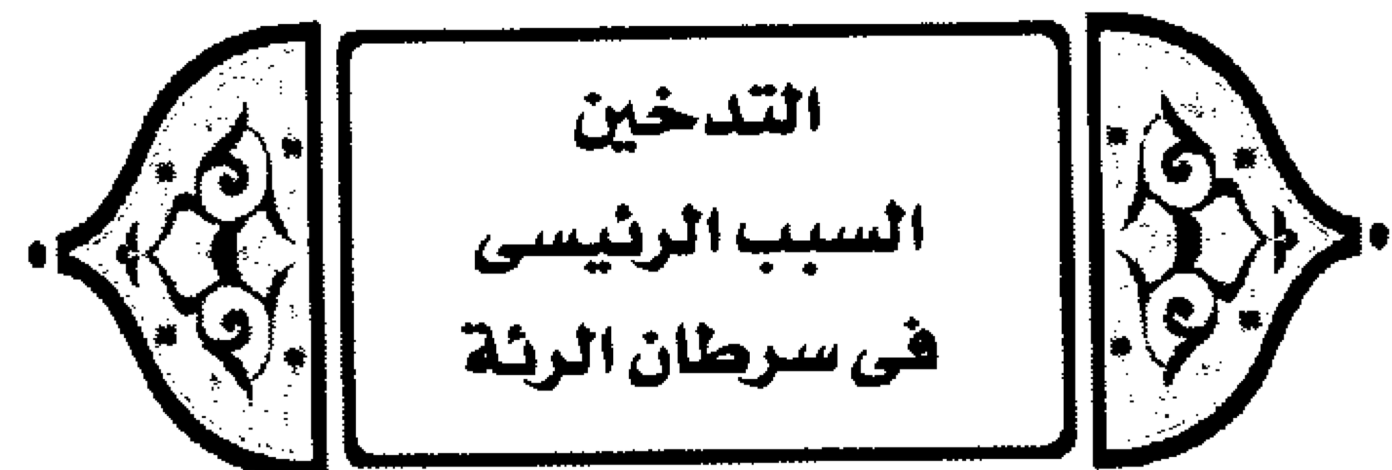
تأثير التدخين على الرئتين

يحدث هياج للأغشية المخاطية الموجود بالجهاز التنفسى، ويحدث احتقان شديد وإفراز كميات كبيرة من المخاط، ومكونات الدخان تذوب فى المخاط وتحدث شللا بالأهداب المتحركة الموجودة فى الغشاء المبطن للقصبات والشعيبات الهوائية، ومن وظيفة هذه الأهداب المتحركة أنها تطرد فى اتجاه البلعوم أى أجسام غريبة تصل إلى الشعيبات، لذلك إذا حدث شلل فى حركتها بسبب التدخين، فإن المواد المخاطية وما ذاب فيها من مكونات الدخان السامة، تتجمع فى الشعيبات ولا تطرد إلى الخارج.

وبتكرار التدخين زمنا طويلا، يحدث هياج متكرر لجدران الشعيبات والحويصلات الهوائية، الأمر الذى يسبب التهابا شعبيا مزمنا، وانتفاخا بالرئتين، مما يؤدى فى النهاية إلى هبوط وظائف الجهاز التنفسى، هبوطا لا جدوى من إصلاحه بأى نوع من العلاج، وينتهى الأمر بهبوط القلب أيضا، وبذلك يوصل التدخين صاحبه إلى نهاية المطاف.



رسم التدخين السيجارة ذيل ثعبان وجسمه يمر خلال القصبة الهوائية حتى يصل إلى الرئة الذى يعضه فم الثعبان

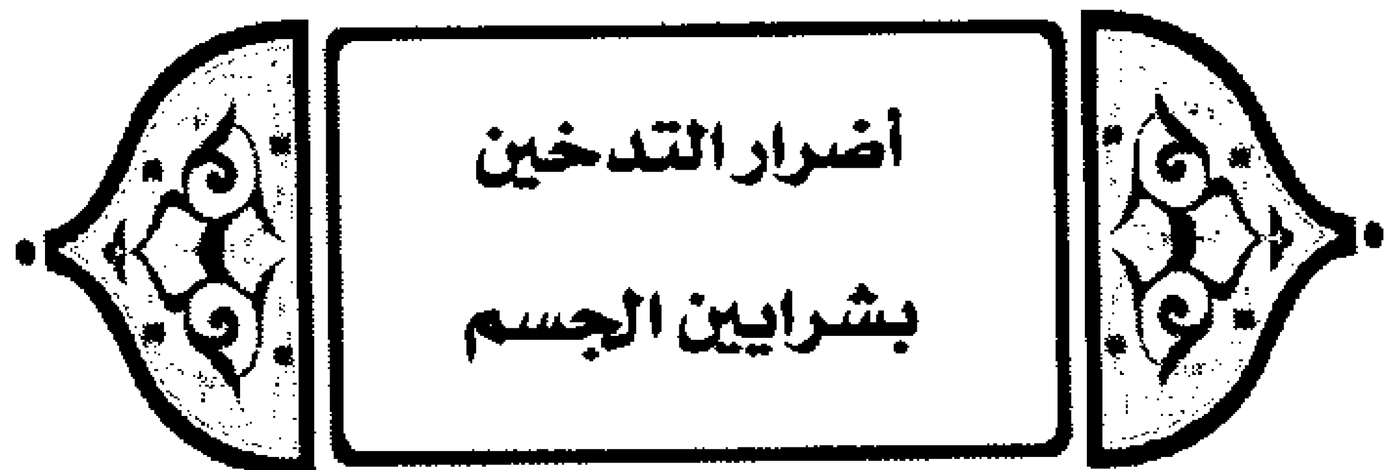


التدخين السبب الرئيسى فى سرطان الرئة

اكتشف العلماء منذ منتصف هذا القرن أن للتدخين علاقة بسرطان الرئة، ففى سنة (١٩٥٠) نشرت أبحاث علمية كثيرة تتحدث عن الأضرار الصحية للتدخين بما فيها سرطان الرئة. وفى منتصف الستينيات صدر تصريح رسمى من الحكومة الأمريكية حذر من العلاقة الوثيقة بين التدخين وسرطان الرئة، وصدر تقرير رسمى آخر فى أمريكا بأن الخطر يزداد بازدياد عدد سنوات التدخين، وعدد السجاير المستهلكة. ويقل الخطر - ولا يزول نهائيا - بالإقلاع عن التدخين، ودلت الدراسات على أن المدخنين معرضون للإصابة بسرطان الرئة أكثر من غير المدخنين بنسبة ١٠ إلى ١.

وتبين من الدراسات أن الذى يدخن أربعين سيجارة فى اليوم يعرض نفسه للإصابة بسرطان الرئة خمسة وعشرين ضعف غير المدخنين، وأن استعمال «الفلتر» فى السجاير يقلل من الإصابة ولكن لا يمنعها، ولا توجد أى سيجارة مأمونة، ولا توجد أى طريقة للنجاة من كل أخطار التدخين إلا بالامتناع عنه نهائيا، والابتعاد عن أى مكان يدخن فيه آخرون.

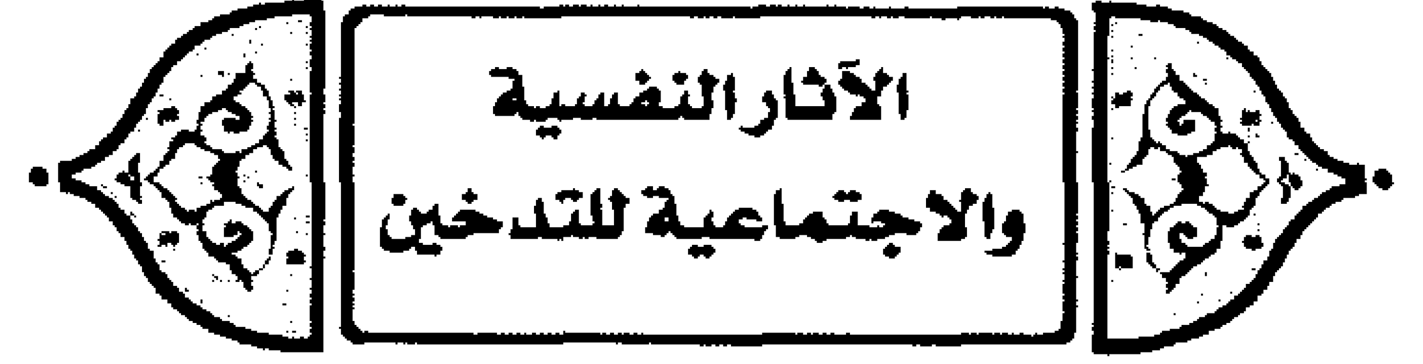
كما يسبب التدخين سرطانات بأعضاء أخرى بالفم مثل الفم والمرىء والمعدة والمثانة.



أضرار التدخين بشرايين الجسم

ثبت علميا أن التدخين من أسباب أمراض شرايين القلب، وشرايين الجسم عموما، كما أن التدخين يسبب اضطرابات فى الدهنيات فى الدم، وتصلبا بالشرايين.

وليست شرايين المخ بمنأى عن أخطار التدخين، فهى تصاب بالضيق وبالتالى ضعف الذاكرة، وضعف التركيز الذهنى.



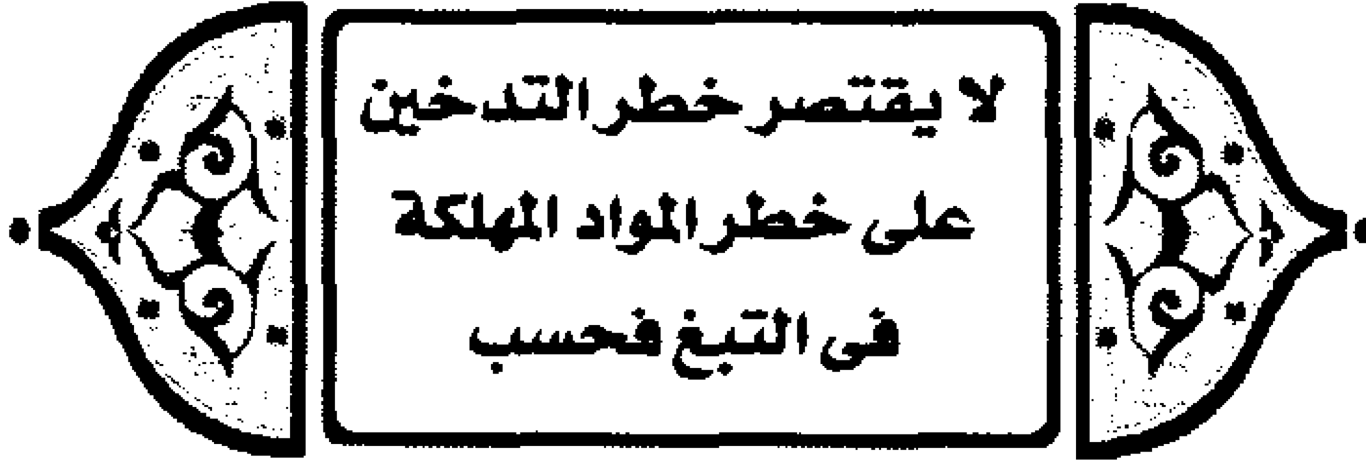
يخطئ من يظن أن التدخين يسبب له راحة نفسية، ويزيل عنه التوتر العصبى. فالتدخين نوع من التسمم المزمن للجسم وخاصة الجهاز العصبى المركزى، فهو يجعل الحالة النفسية دائما تحت «خط الصغر»، وكل ما يفعله تدخين سيجارة هو الفتور الذى ربما يرتفع بالحالة النفسية للمدخن إلى مستوى «خط الصفر».

أما غير المدخن فحالته النفسية فوق «خط الصفر» فى معظم الأحيان، وهذا الموضوع فى حاجة إلى مزيد من الشرح والتفصيل.

فالتدخين يسبب هبوطا بالحالة النفسية للإنسان، وهو لا يسبب راحة نفسية للإنسان ولا يزيل التوتر العصبى، ولا يسبب أكثر من تخفيف الآثار الانسحابية لإدمان مادة النيكوتين.

فالمدخن لا يتمتع براحة نفسية صحيحة، ولا يشعر بمتعة الطعام والشراب كما يشعر بها غير المدخنين، كما لا يتمتع بالراحة البدنية أثناء النوم كما يتمتع بها غير المدخنين.

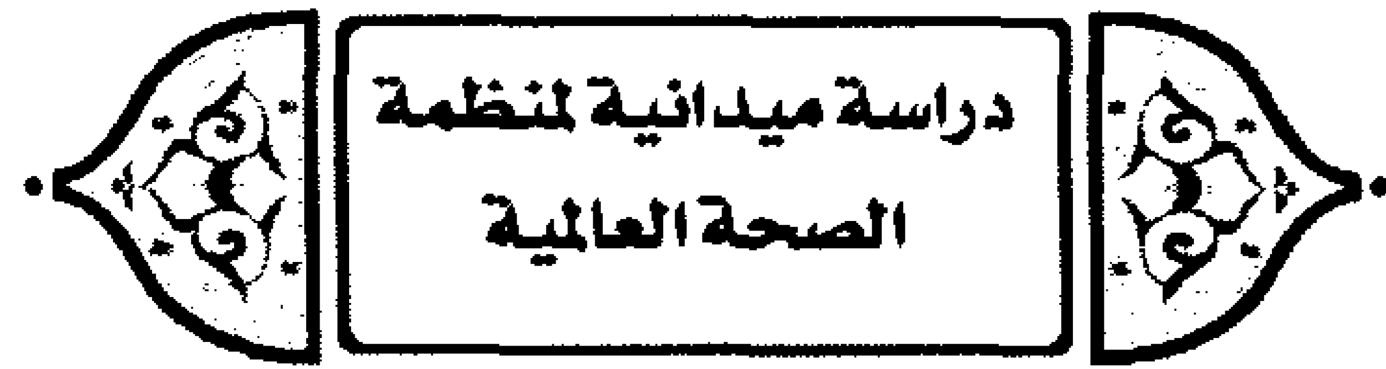
إن التنفس أثناء النوم يكون أقل عمقا، وبالتالى يقل مستوى الأكسجين فى دم المدخنين أثناء النوم، الأمر الذى يسبب اختناقا لخلايا الجسم أثناء النوم، لذلك يقوم المدخن من نومه صباحا وهو فى خمول شديد. وأما مرضى القلب الذين يدخنون فهم فى خطر توقف القلب أثناء نومهم بسبب هبوط نسبة الأكسجين فى دمهم أثناء النوم.



هذه حقيقة لا شك فيها، فلقد اكتشف العلماء فى السنوات القليلة الماضية أخطارا أخرى تصاحب التدخين، فلقد ثبت الارتباط الوثيق بين الإفراط فى التدخين وبين الإدمان على الخمر والميسر، فقد تبين أن ٩٠٪ من مدمنى الخمور يدخنون بإفراط. وأن ٩٥٪ من الذين يتعاطون الحشيش يدخنون التبغ بشراهة، وكذلك يفعل الذين يتعاطون المخدرات الأخرى.

ولدخان التبغ رائحة كريهة تضايق غير المدخن، وتنفرهم من المدخنين. والمدخن خطر لمن حوله؛ هم زملاؤه إن كان فى العمل، وهم أهله إن كان فى البيت فهو يجبر من حوله على استنشاق ما ينفثه من دخان التبغ، وهم مجبرون على التنفس والاستنشاق، فكأنهم يدخنون أيضا، وإن كان بنسبة أقل، إلا أن مكونات التبغ تدخل رئاتهم وتسرى فى دمائهم - وهذا هو التدخين السلبى - وبالتالى يصابون بأخطار التدخين، وإن كان بنسب أقل من إصابة المدخنين بها.

وتوجد مصحات لعلاج الإدمان على التدخين فى بعض البلاد الغربية، ولا شك أن علاج الإدمان على التدخين أمر ضرورى. لأن المدخن الذى لا يترك التدخين بأسرع وقت ممكن، فإن التدخين لا يتركه قط حتى يهلك صحته ويؤذيه أذى كبيرا.



فى سنة (١٩٧٠) لاحظت منظمة الصحة العالمية أن نسبة المدخنين قلّت فى العالم الغربى، بينما زادت فى البلاد النامية، وفى دراسة ميدانية فى إحدى البلدان النامية، وجدوا أن التدخين قد تسبب فى أخطار صحية كثيرة كالآتى:

١- ٩٠٪ من حالات الإصابة بسرطان الرئة.

٢- ٨٥٪ من حالات الإصابة بأمراض الرئة الأخرى مثل التهابات الشعيبات المزمن، والربو الشعبى وانتفاخ الرئتين.

٣- ٣٥٪ من أمراض الذبحات الصدرية وجلطة شرايين القلب.

وفى شعوب أفريقيا وجنوب شرق آسيا، تكثر الإصابة بمرض البلهارسيا وتبين أن نسبة الإصابة بسرطان الكبد والمثانة أكثر ارتفاعا فى المدخنين عن غير المدخنين.

وفى سنة (١٩٨٥) أعلنت هيئة السرطان الأمريكية أن عدد المدخنات من النساء قد ازداد زيادة كبيرة، وبالتالى فإن نسبة الوفيات من النساء بسبب سرطان الرئة قد زادت زيادة كبيرة حتى أنها تعدت نسبة الإصابة بسرطان الثدى. ودلت دراسات سنة (١٩٨٥) أيضا فى أمريكا أن ٣٨,٦٠٠ سيدة أمريكية توفيت بسبب سرطان الرئة بسبب التدخين.

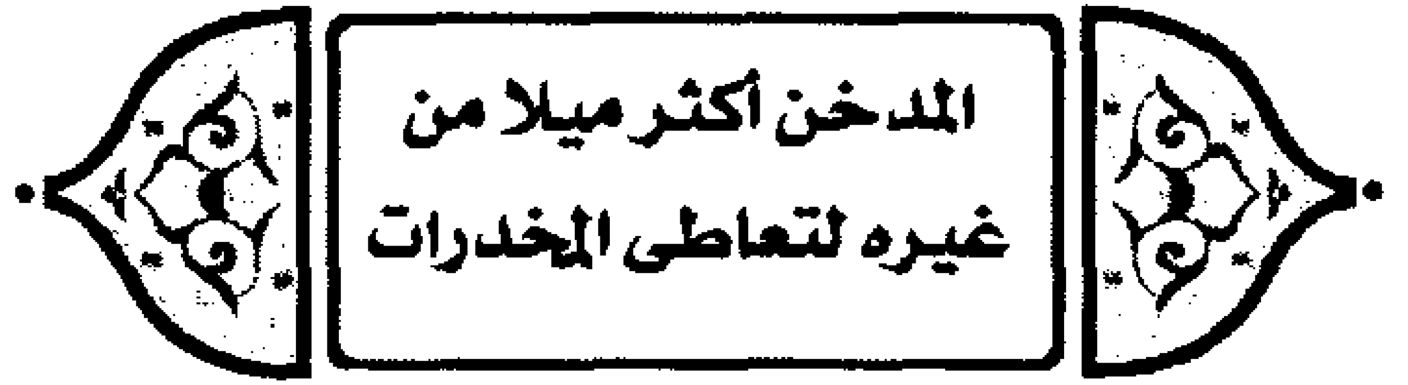
وإن نسبة سرطان الرحم ارتفع فى السيدات المدخنات عن غير المدخنات. ودلت الدراسات أيضا على أن التدخين يسبب عدا ذلك أوراما خبيثة فى الفم واللسان والمرىء أيضا. ولا يسلم غير المدخنين من كل تلك الأخطار الصحية إذا كانوا مخالطين للمدخنين - أى يستنشقون الدخان الذى ينفثه المدخنون الذين معهم فى نفس الحجرة - مما يسمى «بالتدخين السلبى».

فالتدخين يسبب هبوطا بالحالة النفسية فى الإنسان، ولا يزيل التوتر العصبى بل يزيده، وكل ما يفعله التدخين هو تخفيف الآثار الانسحابية لإدمان مادة النيكوتين.

وفى دراسة ميدانية فى مصر سنة ١٩٨٤ على مجموعة من طلبة المدارس الثانوية(*) وجد أن ٣٥٪ منهم يدخنون، وكان من نتائج الدراسة أن غير المدخنين متفوقون على المدخنين فى معظم المجالات، وتبين من الدراسة أن المدخنين أكثر ميلا للسلوك العدوانى، وأكثر من غيرهم فى المعاناة النفسية والقلق النفسى والتوتر العصبى، وفضلا عن أخطار التدخين التى ذكرناها، فالتدخين يسبب اضطرابات سلوكية أيضا فى كل من المدرسة بين الطلبة ومدرسيهم، والبيت بين الطلبة وآبائهم

(*) مجلة عالم المعرفة عدد ٢٠٥، تأليف: مصطفى سويف.

وأعضاء أسرهم. ويقول علماء النفس: إن تدخين التبغ يتسبب فى اضطرابات نفسية كثيرة لدى المدخنين فالمدخن لا يشعر بالراحة النفسية قط، ولا يشعر بمتعة النوم، ولا يتمتع بلذة الطعام والشراب بالدرجة التى يتمتع بها غير المدخنين.

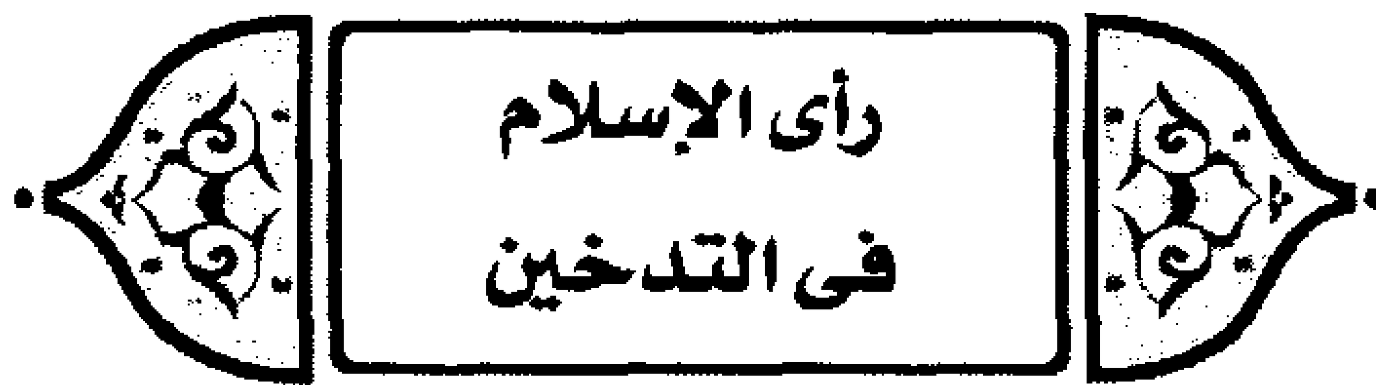


المدخن أكثر ميلا من غيره لتعاطى المخدرات

أجريت دراسات سنة ١٩٧٧، سنة ١٩٩٠ على طلبة الجامعات فى مصر(*) أجريت على ١٢٧٩٧ من الطلاب (٤٪ من العدد الكلى لطلبة الجامعات المصرية)، وأظهرت نتائج البحث أن ٧٢٪ من المدخنين من الطلبة يتعاطون المخدرات. وتشير هذه النسبة المرتفعة إلى ارتباط وثيق بين تدخين السجاير وتعاطى المخدرات، وأصبح من المؤكد أن احتمال تعاطى المخدرات بين الشبان يرتفع كثيرا بين المدخنين منهم. وفى بحث آخر على طلبة الجامعات تبين أن تعاطى المخدرات كالحشيش والأفيون ينتشر فى ٣٣٪ من مدخنى السجاير، فى حين أن الطلبة الذين يتعاطون تلك المخدرات لا يزيدون عن ٣٪ فقط من مجموع الطلبة، ولا يُفسر ذلك الارتباط بين التدخين وتعاطى المخدرات؛ على علاقة سببية، وإنما يعود ذلك إلى الاضطرابات النفسية والسلوكية التى يحدثها التدخين فى الإنسان، وقد يعود ذلك أيضا إلى أن التدخين يضعف أى مقاومة نفسية أو تهيب نفسى فى نفسية المدخن ضد تعاطى المخدرات، ولا سيما فى صحبة أصدقاء السوء.

وثبت أن احتمال تعاطى المخدرات يكون أقوى كلما بدأ التدخين فى سن أصغر، فالذين يدخنون فى سن الثالثة عشرة مثلا يكون الاحتمال فى تعاطيهم للمخدرات أقوى من زملائهم الذين بدأوا التدخين فى سن الخامسة عشرة مثلا، وهؤلاء أعلى فيمن بدأوا يدخنون فى سن العشرين.

ويبدو أن هذه الدراسات تؤيد القول أن تدخين السجاير يساعد على التنبؤ بتعاطى المخدرات والمسكرات فى مجتمع ما. فأى شاب فى مقتبل العمر - تحت العشرين من عمره - بدأ يدخن السجاير، فإنه من المحتمل جدا أنه سيتعاطى المخدرات أو المسكرات فى المستقبل. ويتفق علماء النفس على أن تدخين السجاير يقترن اقترانا قويا بعدد كبير من الاضطرابات النفسية.



رأى الإسلام فى التدخين

التدخين من الأمور المستحدثة التى لم يرد بشأنها نص قاطع من الكتاب والسنة بالحرمة أو الإباحة.. وهذا أمر يخضع للاجتهادات المؤسسة على القياس والاستنباط من القرآن والحديث النبوى.. وقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام]

(*) مجلة عالم المعرفة عدد ٢٠٥، تأليف: مصطفى سويف.

يدل دلالة واضحة على أن في الوحي الإلهي في القرآن والسنة كل الأحكام، وكل العلوم، وكل الحقائق.. وحديثا جدا أدرجت منظمة الصحة العالمية تدخين التبغ وما فيه من نيكوتين في قائمة المواد الإدمانية المفترة.. فذهبنا نبحث في الحكم الشرعي للمواد المفترة فوجدنا أنها من المواد المحرمة.. فقد روى الإمام أحمد في المسند والإمام أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: **(نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر).**

نلاحظ أن الحديث بدأ بالنهي.. ونهي رسول الله عن شيء يدل على تحريمه.. وكان النهي عن المسكر والمفتر في حكم واحد، مما يدل على أن المفتر حرام، لثبوت التحريم في كل مسكر. ولا شك أن في تحريم المواد المفترة كالنيكوتين في نبات التبغ إعجاز علمي عظيم.. لم يتبين للعلماء إلا حديثا جدا عندما كشف تدخين نبات التبغ القناع عن وجه بشع قبيح.. وظهرت آثاره الصحية المدمرة والآثار الاجتماعية والاقتصادية الضارة.

لا شك أن هناك اختلافات بين الفقهاء في هذا الموضوع إلا أنهم لو كانوا على علم بما يحدثه التدخين للإنسان ما اختلفوا، ومن الناس من يفتي بأن التدخين مكروه وليس محرما، وفي اعتقادي أن من يقول ذلك يكون إما جاهلا بالحقائق الطبية، وإما جاهلا بأوامر الله ونواهيه في القرآن والسنة، ونقرر الحقائق التالية:

١- أن ضرر التدخين على الصحة ثابت لا شك فيه، وضرره على الغير ثابت لاشك فيه أيضا، وضرره الاجتماعي والأسري والاقتصادي ليس محل نقاش، **والقاعدة الشرعية تقول: (التحريم يتبع الضرر)**، فكل شيء يضر بصحة الإنسان وماله، ويضر بالغير، فهو حرام. **فالأصل في التحريم الضرر**، وهذا متوفر في التدخين من كل وجه من الوجوه.

٢- روى الأئمة مالك، وأحمد عن ابن عباس، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ضرر ولا ضرار»**، فالرسول نهى نهيا صريحا عن كل شيء فيه ضرر وضرار. ولا ينهى رسول الله ﷺ إلا عن حرام، ولقد علمنا الضرر، فما هو الضرار: الضرار هو رَدُّ الضرر بضرر مثله. فالضرر فعل الواحد، والضرار فعل الاثنين. وفي التدخين ضرر لا شك فيه، وفيه ضرار أيضا.

٣- وفي التدخين إضاعة للمال، وإضاعة المال حرام في الإسلام، فقد روى الإمام البخاري أن النبي محمدا ﷺ قال: «**إن الله حرم عليكم إضاعة المال**»، وليس أكثر إضاعة للمال من شراء سيجارة يحرقها إنسان، فيضيّع صحته وصحة الآخرين، ويضيّع ماله ومالهم أيضا. ولسوف يسأل عن ذلك

يوم القيامة. فقد روى الإمام الترمذى عن الأسلمى أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم ضيعه، وعن جسمه فيم أبلاه»**، أو كما قال.

٤- نهى الإسلام عن كل الخبائث، والخبائث ضد الطيبات. فالخبائث من المنكرات. فى سورة الأعراف ١٥٧ يقول الله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ..**﴾ الآية، فالرسول ﷺ ينهى الناس عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث. والخبائث كل ما خبث من طعام وشراب وحصل منه الضرر. وليس أخبث من تدخين التبغ على صحة الإنسان. فهو من السموم المهلكة، وإن كان سما بطيئا، إلا أنه يضع نهاية مؤلمة للمدخن فى نهاية الأمر. وتوعد الإسلام كل من يشرب سما فقتل نفسه أو سبب هلاك صحته، فقد قال رسول الله ﷺ: **«من شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالد مخلدا فيها»**، رواه الأئمة أحمد والبيهقى وأصحاب السنن.

٥- يضر المدخن غيره من الناس فى صحتهم، فهو ينفث فى الجو من حوله دخان التبغ فيصابون بضرر صحى أكيد ، ألا يكفى هذا سببا للتحريم؟.. وفضلا عن كل ذلك فرائحة المدخن تؤذى غيره أيضا برائحة نَفَسه، ويجب أن يعتزل الناس ولا يختلط بهم، حتى لا يؤذيهم، وروى الإمامان البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من أكل بصلا أو ثوما فليعتزلنا وليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته»**. ورائحة التبغ فى نفس المدخن لا تقل أذى عن رائحة الثوم والبصل فى النفس، وروى الإمامان البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الناس»**.

٦- إذا تردد أى إنسان مدخن فى الاقتناع بحرمة التدخين فى الإسلام فليقرأ حديثا نبويا شريفا رواه الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«دع ما يريبك إلى ما لايريبك»**. **يريبك:** أى يدعوك إلى الشك والتردد، والمعنى: إذا شككت فى أمر وارتبت فيه: أحرام هو أم حلال فدعه، وفى رواية أخرى: **«الأمور ثلاثة: أمر تبين لك رشده فاتبعه. وأمر تبين غيه فاجتنبه. وأمر مختلف فيه. فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك)**.

٧- قررت منظمة الصحة العالمية أن النيكوتين فى نبات التبغ مادة إدمانية

مفترة، ولعل كثيرا من المدخنين يشعرون بذلك الفتور يدب فى أوصالهم بسبب تدخين التبغ، وكل مادة مفترة محرمة فى الإسلام ونهى عنها، فقد روى الإمام أحمد والإمام أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت: **(نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر وكل مفتر)**، ونلاحظ أن النهى شمل المسكر والمفتر فى حكم واحد، مما يدل على أن المفتر حرام، لثبوت التحريم فى كل مسكر.

ونقرأ فى القرآن الكريم والسنة المطهرة إشارات تدل على حرمة كل ما يصيب البدن من أضرار وكل ما يفعله إنسان ويضر بغيره فى صحته أو ماله.

وهناك من الأئمة المعاصرين من أفتى بحرمة التدخين مثل الدكتور/ محمد الطيب النجار عضو مجمع البحوث الإسلامية لقول الله عز وجل: ﴿**وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾

[الأعراف: ١٥٧]

ولقوله تعالى:

﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾

[البقرة: ١٩٥]

فالمدخن يتلف ماله فى شراء التبغ وتدخينه، كما يضر بالغير فى صحتهم وشراء أدوية لتعالج أمراضهم التى سببها التدخين، وما إلى ذلك من الأمور التى توجب التحريم. كما أفتى بحرمة التدخين الدكتور/ عبد الصبور شاهين، فى كتابه (السجاير حلال أم حرام).

ذكرنا سبعة أسباب كل منها يوجب التحريم وليس الكراهة، وكل سبب من تلك الأسباب مستند إلى القرآن والسنة.

ونذكر قول الله عز وجل: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...**﴾.

[الأحزاب: ٣٦]



الخمور

الخمر هو كل ما خامر العقل أى ستره، ومنه خمار المرأة أى اللباس الذى يستر بدنها. فالخمر يشمل كل مادة تسبب حالة السكر.

ولقد تعارف الناس على تسمية المشروبات الكحولية بالخمور، وسموا غيرها مسكرات أو مخدرات، مع أن الكل يستر العقل ويخامره، فهى جميعا «خمر».



ولقد عرف المشروبات الكحولية الصينيون القدامى فى عصر ما قبل التاريخ ثم توصلوا إلى معرفة صناعة النبيذ من القمح وبعض النباتات النشوية. وسنة ٢٠٠ ق م توصلوا إلى صناعة نبيذ العنب، وقد سبقهم المصريون القدماء فى صناعة النبيذ من العنب وصناعة الجعة من الشعير، وقلما كانت مائدة فى مصر القديمة تخلو من النبيذ أو الجعة. إلا أن فرعون وكبار القادة والأمراء لم يشربوا الخمر لاعتقادهم أنه يغضب الآلهة إلا أن حكام الهكسوس كانوا يشربونه، وجاء ذكر شرب الخمر فى مصر القديمة فى سياق الحديث عن النبى يوسف عليه السلام حين سجن بسبب تهمة لفقت ضده. قال الله عز وجل فى سورة يوسف:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ... (٣٦) ﴾ .

وما هو السكر: السكر حالة تطرأ على المخ تخل ببعض وظائفه، مما يسبب اضطرابا فى السلوك والوعى، وانحطاطا فى القدرة العقلية، والقدرة على التقييم الصحيح للأمور، فضلا عن إحداث خلل بالقدرات الفكرية والحركية والبدنية، كل ذلك نتيجة لتعاطى مادة مسكرة.

والمادة المسكرة فى الخمور هى مادة الإيثانول، وهى نوع من الكحول وتتراوح نسبتها فى الخمور بمختلف أنواعها من ٥٪ إلى ٥٠٪ أو أكثر.

لماذا حرم الإسلام شرب الخمور؟

الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله تعالى لخلقه، ولا يأمر الإسلام إلا بكل ما هو مفيد للإنسان فى دنياه وآخرته، ولا ينهى إلا عن كل ما يضره، ولا يريد الله تعالى إلا الخير للإنسان فى الدنيا والسعادة له فى الآخرة.



ويقول الإمام أبو حامد الغزالى: إن مقصد الشارع الحكيم منحصر فى الضرورات الخمس للإنسان وهى: الدين والنفس والعقل والمال والبدن. وكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما لا يحفظها فهو مفسدة.

وما هو أهم هذه الضرورات الخمس للإنسان؟.. إنه العقل؛ لأن العقل مناط التكليف فى العبادات والمعاملات، والإنسان بغير عقل هو والحيوان سواء، فلا يكمل دينه ولا تسمو نفسه، ولا يحافظ على ماله، ولا على صحته. من هنا ندرك أنه لا وجود لكل الضرورات الأربع الأخرى بدون كمال العقل وصحته. من هنا كانت المحافظة على العقل أمر جوهرى فى الإسلام، فالذى يتخلى عن عقله بشرب الخمور، يفقد حتى معرفته بربه، وهى المهمة الأساسية التى خلقه الله تعالى من أجلها فى هذه الحياة. ففى سورة الذاريات، يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾

وفى سورة الأنفال، يقول تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾

فالإنسان إذا تخلى عن عقله، لا يستطيع المحافظة على دينه وعلى حسن علاقته بربه، ولا يتحكم فى تصرفاته ولا يحافظ بالتالى على إنسانيته وماله وصحته، وبذلك يكون قد خسر الدنيا والآخرة.

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من شرب الخمر فسكر، لم تقبل له صلاةٌ أربعين صباحا. وإن مات دخل النار. فإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد فشرب الخمر فسكر، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن مات دخل النار. فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فشرب فسكر، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن مات دخل النار. فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد، كان حقا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة».

قيل: وما ردغة الخبال يا رسول الله؟ قال: **«عصارة أهل النار»**.

والعقل أكبر نعم الله على الإنسان وهو محور شخصيته وقوام كرامته ومستودع فكره

وأساس دينه. ومن العجيب أن يحاول الإنسان أن يصرف ماله وجهده ليشترى خمرا ليشربه، فيفقد به عقله، فيضيع بذلك من الإنسان كل شيء: المال والصحة والإدراك والكرامة ودينه، وبذلك يخسر الدنيا والآخرة، من هنا كانت المحافظة على العقل أمرا جوهريا وأساسيا فى الإسلام. ومن هذا نفهم لماذا حرم الإسلام الخمر.

وروى الإمام أحمد أن النبى ﷺ كان يناجي ربه فيقول:

«اللهم أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى»، إنه سأل ربه أربعة أشياء:

الهدى: هدى القلب والعقل. وهذه أهم الضرورات للإنسان فى هذه الحياة، فبواسطة العقل يعرف الإنسان ربه، ويعبده ويتقيه، خير العبادة، وخير التقوى.

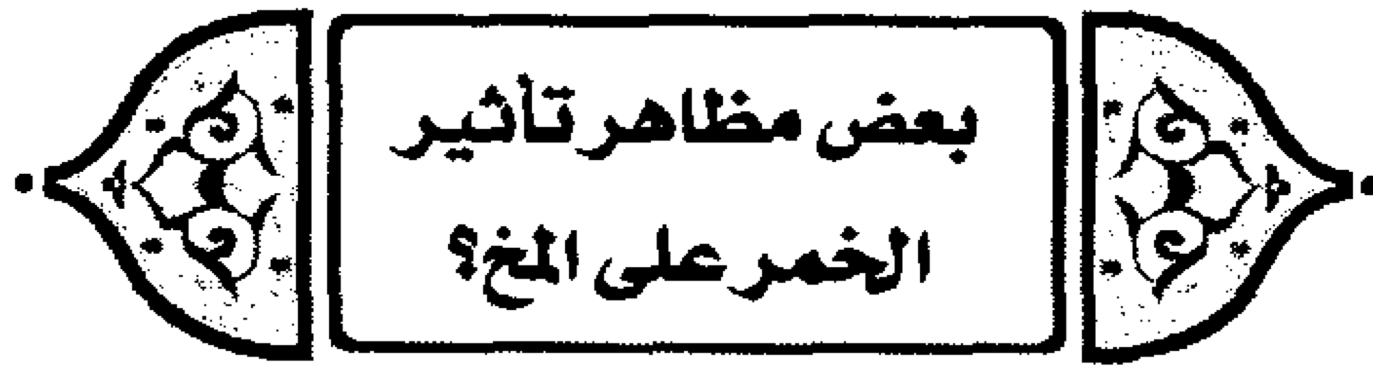
الغنى: ليس الغنى غنى المال، ولكن الغنى غنى النفس. فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»**، ونلاحظ أن رسول الله ﷺ سأل ربه تعالى أربعة: الهدى والتقى والعفة والغنى؛ لأنه لا غنى بغير عفة، ولا عفة بغير تقوى، ولا تقوى بغير هدى.

ونقرأ فى سورة البقرة، قول الله عز وجل: **﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾**

فالقرآن هو الهدى، والذين يتبعونه متقون. ذكر الهدى أولا، ثم ذكر التقوى، وفى سورة العلق نجد نفس الترتيب: الهدى أولا ثم التقوى، قال تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾

وهو نفس ترتيب الكلمات فى الحديث النبوى الشريف، فقدم ذكر الهدى على كل شيء فى القرآن والسنة، والهدى متعلق بالوعى والعقل؛ لأن ذلك يؤدى إلى التقوى وغنى النفس، وإذا تخلى الإنسان عن عقله فقد كل شيء حتى الإيمان بالله، فقد روى الطبرانى فى الأوسط حديثا نبويا شريفا يقول رسول الله ﷺ فيه: **«من شرب خمرا خرج نور الإيمان من جوفه»**. من هنا كان تحريم الإسلام للخمر.



١- المخ هو رافد العقل، فسلامة المخ سلامة للفكر والعقل أيضا. والمخ أكثر أعضاء الجسم تأثرا بالخمر، وقشرة المخ أول ما يتأثر بالخمر، ولما كانت المراكز المتحكمة فى كل مراكز المخ الأخرى، موجودة بقشرة المخ، فإن الخمر يزيل التحكم العقلى، والانضباط العصبى على تصرفات الإنسان وحركات الجسم وأفعاله. وكلما زادت جرعة الخمر؛ دخل شارب الخمر فى مراحل أخرى من تلك المراحل، التى يمر بها الإنسان تحت تأثير المخدر، وفى النهاية يدخل

شارب الخمر فى غيبوبة لا يشعر فيها بشيء. وقديما كان الجراحون يستعملون الخمر فى إحداث غيبوبة للمريض قبل إجراء العملية.

٢- شرب الخمر يدخل الإنسان فى أزمات واضطرابات نفسية شتى، فالذى يشرب الخمر ليجد فيها متعة وسرورا، إنما يسعى إلى سراب، والذى يشرب الخمر هروبا من أزمة نفسية، فهو كالمستجير من الرمضاء بالنار.

٣- الذى يشرب الخمر ليجلب له الدفء فى الجو البارد، هو واهم، فهو إنما يحس بدفء دمه هو. وبذلك يفقد الجسم حرارته تدريجيا. وقد ينتهى به الأمر - إذا كان الجو باردًا - إلى الموت، وقد حدث هذا فى أوائل هذا القرن، فى رحلة سكوت لاكتشاف القطب الجنوبى، فقد مات أثناء هذه الرحلة كل من أفرط فى الشراب ليقاوم برودة الجو، فالكحول يوسع الأوعية الدموية الموجودة فى الجلد، فيتوارد الدم بكثرة إلى الجلد، فيشعر شارب الخمر بدفء دمه، وتتبدد حرارة الجسم تدريجيا إلى الجو الخارجى البارد. والدم فى دورة مستمرة، وبذلك تنخفض حرارة الجسم تدريجيا حتى ينتهى الأمر بهبوط حرارة الجسم دون ٣٠ درجة مئوية، وبذلك يتعرض لتوقف القلب.

٤- الذى يشرب الخمر ليجلب له القوة والنشاط الجنسى، هو واهم، فما يحسه من قوة ونشاط حينئذ، هو محض خيال، والحقيقة عكس ذلك، وقال شكسبير عن ذلك فى إحدى مسرحياته:

Alcohol provokes the desire but it takes away the performance

الخمر يثير الرغبة الجنسية ولكنه يضعف القدرة والفاعلية فيها.

ومن يشرب الخمر ليجلب لنفسه الضحك والسرور، هو واهم؛ لأنه هو نفسه سيكون موضع سخرية وضحك الآخرين. وفى إحدى مسرحيات شكسبير قال أحد الشخصيات فى المسرحية بعد أن أقلع عن شرب الخمر: That what has made them drunk has made me hold أى أن ما أحدث الخمر للسكارى (من أحوال أضحكت عليهم الآخرين) هو الذى دفعنى لأن أترك شرب الخمر.

٥- فى بعض الأحوال تحدث كوارث صحية من جراء شرب الخمز - ولو مرة واحدة - فالخمر يحتوى على الكحول الإيثيلى. وإذا صنع خمر وخلطوه بالكحول المثيلى (أى خمر مغشوش) فقد تحدث له آثار صحية خطرة، وخاصة فى عصب العين - إن عاجلا أو آجلا - تؤدى إلى تدمير عصب العينين معا وفقدان البصر، ولا

يفـيـد فى ذلك أى عـلاج، أو قـد تحدث له غيبوبة تؤدى به إلى الموت.

٦- يحدث الخمر انحطاطا بالمراكز العصبية العلوية بالمخ، ومـا يتـخـيله شـارب الخـمر نشـاطا هو فى الواقع انحطاط بقواه وضعف فى قـدرة التحكم، فلا يستطيع شـارب الخمـر التـحكم فى تصرفـاته، فى الوقت الذى لا يشـعر هو بذلك، بـل إنه يتـخـيـل العكس تماما، يتـخيل نفسه فى قمـة النشاط والحيـوية وقمة المقـدرة على التحكم، وكامل اللياقة البدنية.

٧- يسـبب شرب الخـمر فـقدان فى قـوة الملاحظة، وفقـدان القدرة على تقـييم الأمور الـتقويم الـصحيح، ويـصاب شارب الخمر بعدم المبالاة وعدم تقدير عـواقب أفــعـاله وعـدم مــراعـاته للمسـئولية، كـما يسبب الخـمر خللا بقوة الإبصار، كأن يرى شارب الخمر الشيء الواحـد شيئـين، كمـا يحدث خللا بالحواس.

٨- يقلل شرب الخمـر قدرة الإنسان على التحكم فى توازن الجسم، فـيترنح فى مـشيته، فـيفـقد مـثلا القـدرة على التحكم فى قيادة السـيارة، ويتضاعف الخطر فى المخمور نفسـه فهو لا يشعر أنه غـير طبـيـعى، ومن هنا فشـرب الخمر - وخصوصا فى العالم الغربى - هو السـبب فى حـوادث السيـارات، وكـان هذا الموضوع مـحل مناقشـات ودراسات عديدة فى البلاد الغربية.

ففـى إحدى التجـارب على كـفاءة السائق المخمور .. أحـضروا سائقين مـهـرة - لم يرتكب واحـد منهم أى مخالفة مرورية من قبل - وأعطوا كلا منهم جـرعة من الخـمر تخـتلف عن الآخرين. ثم أجروا علـيهم بعد ذلك اختـبارات القيادة، فـفشلوا جميـعا. وكانت النتيجـة أنه لا توجد أى جرعة من الخمر مـهما كانت صـغيرة يمكن اعتبارها غيـر مؤثرة على قدرة الإنسان على التـحكم فى القيـادة. وأى إنسان يشرب كمـية صغيـرة من الخمر ويظن أنها لا تؤثر على قـدرته على التحكم فى القيادة يكون قد أخطأ.

٩- كان الناس قـديما يعتقـدون أن بالخمر بعض الفوائد الصحـية، إلا أن التقدم العلمى فى الـطب أثبت أنه لا فـائدة ألبتـة من شرب الخمـر للإنسان، وأن الخـمـر داء وليس دواء لأى مـرض، ولقد وجـدنا هذا فى الحديث الـنبوى الشريف.

فقد روى الإمام مسلم أن طارق بن سويد الجعفى سأل رسول الله ﷺ عن صناعـة الخمـر، فنهـاه أن يصنعهـا، فـقال: يـا رسول الله! إنى أصنـعهـا للدواء. فـقـال: **إنه ليس دواء ولكنه داء.**

١٠- وفضلا عن كل ما سبق، فإن الخمر مفـتاح لكل المعـاصى، ومفـتـاح لكل شر، فالذى يشرب الخمـر فيسكر، قد يسرق وقـد يزنى وقد يقتل، ويتـسبب فى قتل نفسه وقتل غيـره فى حوادث المرور، ويرتكب كل المعاصى والآثام.

من هنا نفهم المغزى العلمى من حديث شريف رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر**»، إلى آخر الحديث الشريف. وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تشرب الخمر فإنه مفتاح كل شر**».

وعن خباب بن الأرت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياك والخمر، فإن خطيئتها تَفْرَعُ الخطايا، كما أن شجرتها تَفْرَعُ الشجر**»، أى تعلوه.

تأثير المسكرات على الجهاز العصبى المركزى

فى الجهاز العصبى مواد مورفينية، إذا زاد إفرازها تقلل الإحساس بالألم وتزيل حالة التوتر والانفعال، إلا أنها لا تخل بالوعى. والذى يتعاطى المسكرات يفسد عمليات إفراز تلك المواد المورفينية، فكثير من المواد المسكرة من مشروبات كحولية ومنومات ومهدئات، تتحول فى المخ إلى مادة مورفينية، وبالتالى فكل هذه المواد الإدمانية من كحوليات ومنومات ومسكرات وأفيونات، تؤثر فى المخ نفس التأثير، فهى تتشابه فى التأثير على المخ وتختلف فى التأثير على أعضاء الجسم الأخرى. وهذه المواد المورفينية الناتجة فى المخ من تعاطى تلك المسكرات تخدع خلايا المخ، فتتوقف هذه عن إنتاج المورفينيات الطبيعية فى الجهاز العصبى المركزى، بحيث إذا توقف الإنسان عن تعاطى المسكرات، توقفت مناعة الجهاز العصبى ضد الشعور بالآلام، وهذا من ضمن الآثار الانسحابية التى يعانى منها مدمن المسكرات والمنومات. ولعل هذا هو الشعور الدائم باللهفة لتناول المسكر أو المهدئ أو المخدر، بصورة متصلة إدمانية.

ولا شك أن كل الكحوليات والمسكرات والمخدرات تخامر العقل وتخل بالوعى، وبالتالى فهى كلها خمر، ولم تكن هذه الحقائق التى ذكرناها معروفة حتى أوائل القرن الحالى، إلا أنها ذكرت فى الحديث النبوى الشريف. فقد روى الأئمة مسلم وأصحاب

السنن عن أم سلمة عن ابن عمر رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**».

كل مسكر خمر: ثلاث كلمات تجمع من العلم ما لم يكتشف إلا حديثا من خلال أبحاث مستفيضة ودراسات كثيرة منذ أوائل هذا القرن، وتدل هذه الكلمات الثلاث على أن كل مسكر يعتبر خمرا، وله نفس الحكم.

وكل خمر حرام: إنه حكم شرعى صريح، بأن كل مادة تسبب السكر، حرام. ولقد جادل بعض الناس أن كلمة حرام أو التحريم لم تذكر فى القرآن الكريم فى سياق الحديث عن شرب الخمر، وقالوا: إن القرآن لم يذكر أن شرب الخمر حرام، وهم فى ذلك مخطئون، فالقرآن أمر باجتناب الخمر، والاجتناب أكثر وأشمل وأشد من التحريم. ومع كل ذلك فلقد ذكر الحديث النبوى الصحيح أن كل خمر حرام.

تعدد أنواع الخمور

ما دام كل مادة مسكرة تخامر العقل وبالتالى تعتبر خمرا، فإننا نجد أن الخمور قد تعددت أنواعها واختلفت أسماؤها، إلا أنها جميعا تعتبر خمرا، فالكحوليات خمر، والحشيش خمر، والأفيون خمر، والقات خمر، والمنومات خمر، كل هذه خمور. إلا أن الناس فى عصرنا الحاضر يطلقون عليها أسماء مختلفة، ويسمونها بغير اسمها «خمر». ولم يكن السابقون على القرن الحالى من العلماء يعرفون شيئا عن ذلك، إلا أن الحديث النبوى الشريف ذكر هذه الحقيقة العلمية، فلقد روى الإمامان البخارى وأحمد ابن حنبل عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**يشرب أناس من أمتى الخمر باسم يسمونها إياه**».

وفى رواية أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تذهب الأيام والليالى حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها**».



المواد الإدمانية المسكرة

المواد الإدمـانية المسكرة كـثـيرة، منهـا المشروبات الكحولية والأفيـون بكل مشتقاته، والكوكايين، والحشـيش، والقات، وغيرها، ويمكننا أن نقسم المواد الإدمـانية المسكرة إلى ثلاثة أقسام:

١- **المهـبطات للجـهـاز العـصـبى:** منها المنومـــات والمهــدئات والأفـــيـــون ومشتقاته.

٢- **المنشطات لـلجـهـاز العـصـبى:** منها الكوكايين والأمفيتامينات.

٣- **الهلاوس:** مثل عـقاقير الهلوسـة مثل LSD، والهيروين، ومثل الحشيش.

الأفيون: عرفه الناس منذ سبعة آلاف سنة ق م، وكـانوا يسـتـعـملونه فى عـلاج الآلام. وهو يحـدث نوعا من السكر. وقـد استعمله الصـينيون القدامى، والهنود القدامى أيضا، وقـد عرفه أطبـاء العرب، فـابن سينا مثلا اسـتخدم بذور الخشـخاش (وهو النبات الذى يستخرج منه الأفيون) فى الأمراض التى تسبب آلاما بالجسم، كما استخدمه فى علاج الأرق.

وفى سنة ١٨٠٣ تمكن العـالم الألمانى سيـرتورنر من عزل المادة الفعالة فى الأفـيون وهى «المورفـين» الذى يـسـتـعـمل الآن فى الأغراض الطبية.

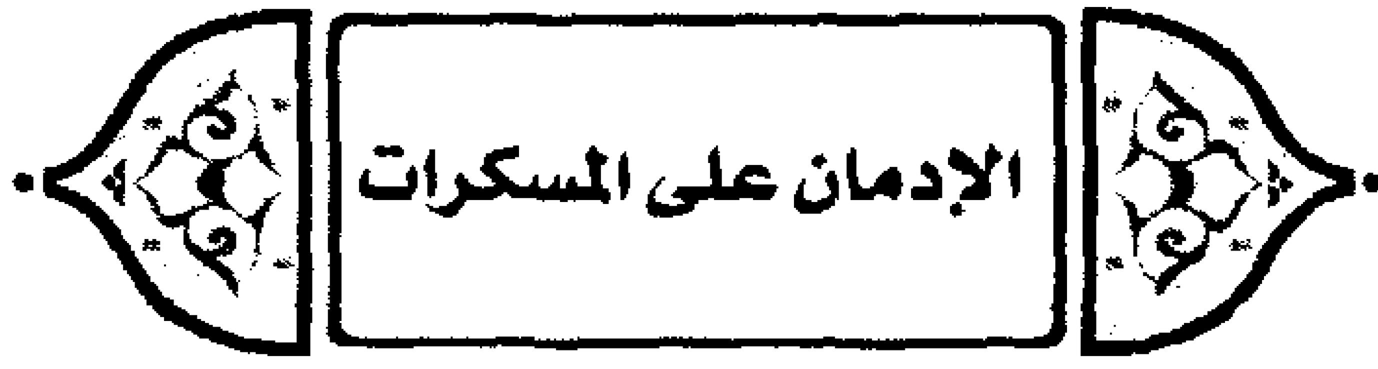
القنب(*): عرفه الصينيون القدامى منذ ثلاثين قـرنا من الزمـان، وعرفـوا زراعتـه. وأول استعمال له كان بـهدف استخدام ألياف نبـات القنـب القـوية فى صنع الحـبـال والأقمشة. ولقد استخدمه الهنود القدامى فى أغراض طبية عندمـا لاحظوا أنه يحدث حالة من السكر والهـلاوس السمعـية والبـصرية، ويزيل التـوتر العصـبى والانفـعال النفـسى، ويحدث حـالة من البهجة والسـرور. أما فى مصـر القديمـة، فقد اسـتخدمـه الناس منذ عشـرين قرنا من الزمـان، فى أغراض طبـية ودينية شتى. أمـا الأطباء العرب فقـد عرفوا مفعول القنب منذ القرن التاسع الميلادى.

ولم يسـتـعـمل الأطبـاء العرب كلمـة «حشـيش» إلا فى أوائل القـرن الثانى عـشر الميـلادى. وكتب ابن البـيطار العالم العـربى قال: إن القـنب يزرع فى مصر. ويـعرف فى مصـر باسم «الحشـيش» وقال:إن آكله يشـعر بالبهجـة والمرح والسرور، إلا أنه إذا أكل منه كـثيـرا فـإنه يؤدى إلى الجنون والموت. وفى مصر فى عصر المـاليك كان تعاطى الحشيش ممنوعا، ويعاقب كل من يتعاطاه. وفى القرن الرابع عشـر وصل الحشـيش إلى الأندلس ثم عرفه العالم كله بعد ذلك.

(*) مجلة عالم المعرفة العدد ٢٠٥.

الكوكايين: فى أمريكا الجنوبية منذ آلاف السنين كان نبات الكوكا ينمو فى مناطق شتى. وكانت قبائل الأنكا تجمع أوراق ذلك النبات ليمضغ فى الفم ويترك فيه ويستحلب فى الفم (مثل نبات القات). وفى سنة ١٨٠٦ تمكن العالم «نيمان» من عزل العنصر الفعال من نبات الكولا وسماه «الكوكايين». وكان ذلك بهدف استعماله فى الأغراض الطبية، وفى سنة ١٩٠٣ صنع منه شراب وسموه كوكاكولا، وذلك بهدف تنشيط الجهاز العصبى، إلا أنه بعد ذلك استبعدوا الكوكايين من ذلك الشراب، وانتشر بعد ذلك فى الأمريكتين ثم فى أوربا فى علاج الأمراض التى تسبب آلاما للمرضى. كما استعمل كمخدر موضعى، ثم بعد ذلك ظهرت تقارير للعلماء تحدد الآثار الجانبية الخطرة بسبب تعاطى الكوكايين، ومنذ سنة ١٩١٤ صدر قانون يمنع تداول الكوكايين وقصر استعماله على الأطباء فى علاج المرضى.

القات: شجرة دائمة الخضرة، تنمو فى اليمن الآن، ويتراوح طول الشجرة من ٥-١٠ أمتار وليس لها ثمرة، ولكن أوراقها الخضراء تستعمل فى المضغ والاستحلاب من الفم لمدة ساعات، بهدف تنشيط الذاكرة. إلا أنه يقلل الشهية للطعام كما يقلل القابلية للنوم ويخل بالوعى أيضا، وكل محاولات مكافحة تعاطى القات، باءت بالفشل حتى الآن.



الإدمان على المسكرات

تبتدئ قصة الإدمان على المسكر - أى نوع من المسكرات - بتعاطى العقار بطريقة عرضية تشبها بالغير أو عن الرغبة فى التجربة، أو الرغبة فى الانتماء لأصدقاء معينين. ويظن أغلب الناس أن هذه بداية هينة وبسيطة، ولكنها فى حقيقتها بداية النهاية، فالإنسان بهذه البداية قد سعى إلى حتفه بظلفه.

وما هو الإدمان على المسكرات؟

الإدمان حالة من الاستمرار القهرى فى تعاطى المسكر. والإنسان المدمن على أى نوع من المسكرات، مثله مثل الحشرة التى أعجبها بيت العنكبوت من بعيد فثار فيها حب الاستطلاع والرغبة فى تجربة دخول هذا البيت العجيب، وما إن دخلته حتى هاجمتها أنثى العنكبوت، ونفثت فيها سمها وقتلتها، وبذلك كان فضول الحشرة، وإعجابها ببيت العنكبوت والرغبة فى تجربة الدخول فيه سببا فى هلاكها، الأمر نفسه يحدث لأى إنسان صحيح الجسم يثور فيه الفضول ليجرب تعاطى أى نوع من المسكرات، فيمسك الإدمان بتلابيبه تدريجيا، ويحطمه شيئا فشيئا، فتزول عنه الصحة، وتختفى من جسمه القوة والحيوية والنشاط.

إن أفضل تصرف للإنسان هو الابتعاد عن كل ما له صلة بالمسكرات، وتجنب مجلسها وتجارتها، فضلا عن شرائها وشربها، بل والابتعاد عن كل ما له صلة بالمسكرات

من قريب أو بعيد، وإلا كان مصيره مثل مصير الحشرة عندما دخلت بيت العنكبوت. والذى يصل إلى هذه الدرجة من الفهم يمكنه أن يدرك بعض الجوانب العلمية فى حديث نبوى شريف رواه الأئمة أحمد وأصحاب السنن عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«لعنت الخمر على عشرة أوجه: بعينها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها، وشاربها، وساقيها».

ويقول العلماء: إن الرغبة الجامحة لدى المدمن فى تعاطى المسكر أو المخدر، أقوى من أى دافع غريزى لديه، أقوى من غريزة الطعام، وأقوى من الغريزة الجنسية وغريزة حب المال والأولاد.

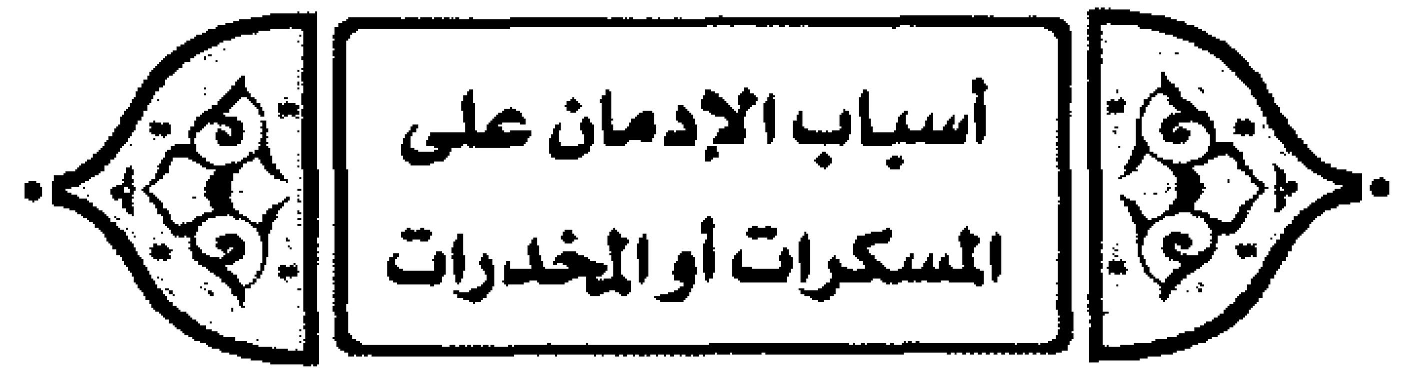
ولا شك أن أى مدمن يريد أن يتحرر من عبودية الإدمان فتقوم فى نفسيته معركة بين قوة الإرادة، وبين الرغبة الجامحة فى تناول المسكر أو المخدر، وتكون النتيجة انتصار قوة الإدمان. والمدمن فى عالم البحث عن اللذة العارضة، والسعى وراء السعادة الكاذبة، لا يحاول أن يفكر فى الثمن الذى سيدفعه، وهو ثمن باهظ سيدفعه من دمه وصحته وكيانه، وستدفعه أسرته بل وسيدفعه المجتمع أيضا.

ومعظم أشكال الإدمان لها أطوار أولى، تجلب السرور والبهجة للإنسان المتعاطى، إلا أن فترة شهر العسل القصيرة مع المسكرات - أى نوع من المسكر أو المخدرات - سرعان ما تنتهى، وتبدأ بعد ذلك سلسلة طويلة ورهيبة من العذاب والمعاناة.

وكان الاعتقاد أن الحالات البسيطة تسمى «الاعتياد» على تعاطى المسكرات، وأن الحالات الشديدة تسمى «الإدمان» عليه، إلا أن منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٦٤ اعتبرت «الاعتياد» على شرب الخمور أو تعاطى المسكرات والمخدرات، والإدمان عليها، شيئا واحدًا.

إن الكثير من المدمنين يزعم أن باستطاعته ترك شرب المسكر متى أراد، وهو بذلك يكذب على نفسه ويكذب على غيره، فهو لا يستطيع الإقلاع عن تعاطى الخمور من تلقاء نفسه، وقال بعض العلماء: إن المدمن وقع فريسة للإدمان، إلا أنه لا يعانى نفسيا من إدمانه، بل إنه يتمتع به، متعة تودى به فى النهاية. وقال بعض الشعراء وكان مدمنا على الخمر:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة
تروّى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى
أخاف إذا مامت ألا أذوقها



للإدمان أسباب تعود إلى المدمن نفسه، وأسباب تعود إلى المسكر نفسه، وأسباب اجتماعية وعائلية.

أما الأسباب التي تعود على المدمن: فهي الشخصية وتكوينها، فهو إنسان غير قادر على الاعتماد على نفسه، ويفتقر إلى علاقات ثابتة مع الآخرين، ومتقلب العواطف. وهناك أنواع من الشخصيات تكون أكثر قابلية من غيرها للوقوع في الإدمان. منها: الشخصية «النرجسية» وهي الشخصية التي تريد أن تحقق ما تريد فورا، ولا تستطيع التأجيل ولا تتحلى بالصبر. ومن الشخصيات المعرضة للإدمان، الشخصية القلقة، دائمة التوتر، كثيرة الانفعال. إلا أن الإدمان قد يحدث لإنسان ذي شخصية سليمة سوية، نتيجة لأزمة انفعالية يمر بها لسبب أو لآخر، فيتعاطى المسكر أو المخدر ليساعده على تحمل تلك الأزمة النفسية، فيقع في الإدمان. أما **الأسباب العائلية:** فأسرة المدمن أسرة مفككة ومنهارة، بسبب الطلاق أو الهجر أو الصراع والخلاف المستمر بين أفرادها.

والمدمن أسوة سيئة لأولاده مما يدفعهم إلى الإدمان مثل أبيهم أو الانحراف بصورة أو بأخرى. ومن الأسباب التي تعود إلى المخدر نفسه، التركيب الكيميائي، وسهولة الحصول على العقار وأسلوب التعاطي.

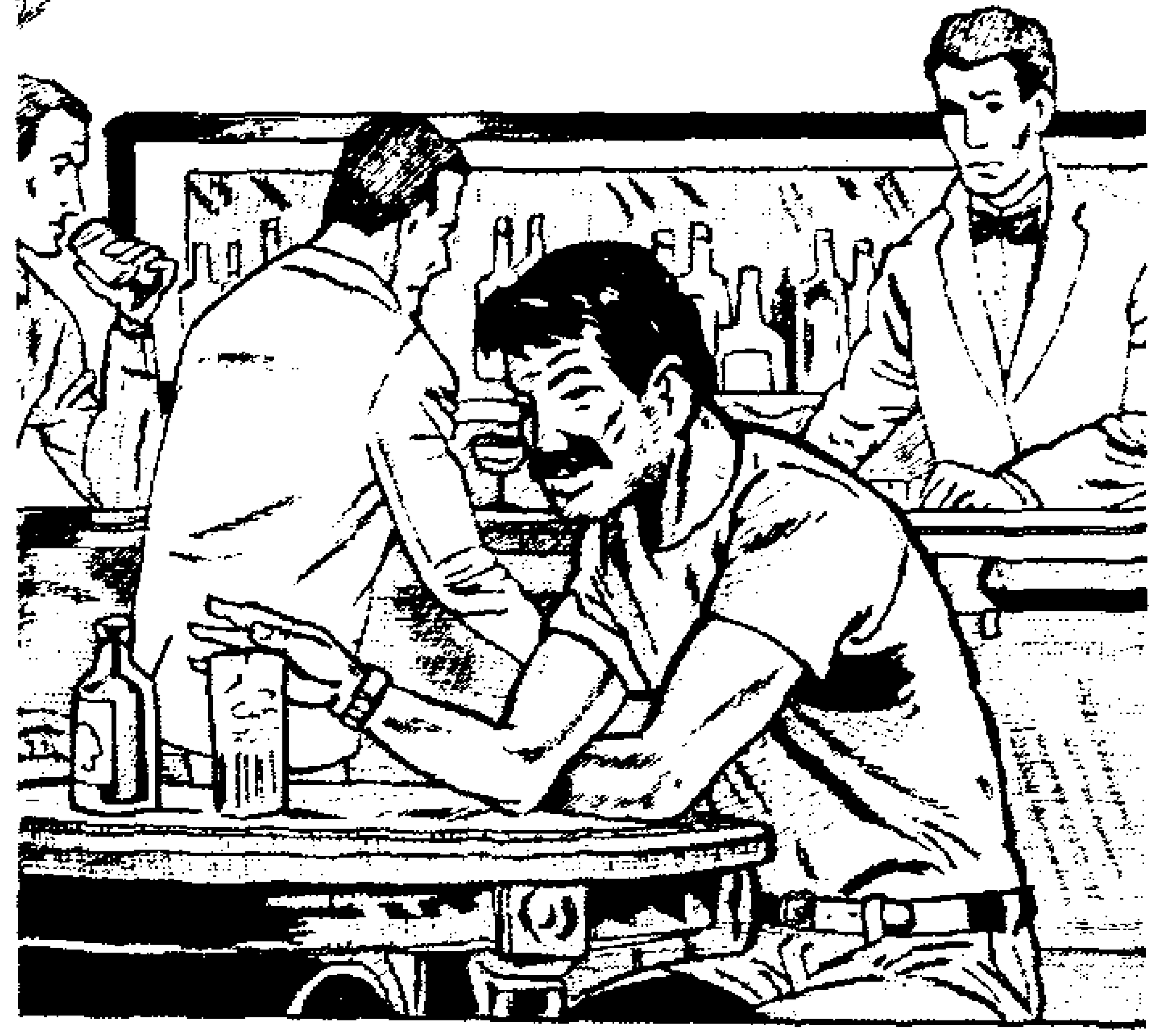
ومن الأسباب الاجتماعية التي تؤدى إلى إحداث الإدمان، التقاليد، والدين، والعادات، ونظرة المجتمع التي تختلف من مجتمع عن مجتمع آخر. والمدمن لا يستطيع أن يبتعد عن المسكر أو المخدر من تلقاء نفسه، فالرغبة الطاغية في استمرار التعاطي، لا قبل للمدمن بمقاومتها فهي أقوى من إرادته. فالخمر أو المسكر يكون أمام المدمن وثنا معبودا، وما أسوأ أن يعبد الإنسان ما يضره، وما أسوأ أن يعبد الإنسان هواه. وفي سورة الفرقان، يقول الله عز وجل:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: **الهوى** إله يعبده العاصي من دون الله. **﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾**: أي عليك البلاغ للناس فقط، وليس عليك هداهم.

وصوّر الحديث النبوي الشريف حال المدمن أمام المسكر، وضعفه أمامه وكأنه إله يتعبده، فقد روى الإمام ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«مدمن الخمر كعابد وثن»**.

وتشبيه مدمن الخمر بعابد وثن في الحديث النبوي الشريف تشبيه بليغ.. فشرب الخمر كان قديما متعلقا بالطقوس الدينية في المعابد الوثنية.. كما أن مدمن الخمر أو المخدر لا يستطيع أن يبتعد عنه. فالخمر أمامه كوثن يعبد، يقدم له القرابين من صحته ونفسه وعقله وماله وأسرته.. كما كان القدامى يقدمون القرابين للأوثان في المعابد، ويشربون الخمور فيها.



والمدمن على شرب الخمور يحوّل عبادته لله تعالى إلى عبادة الشيطان، المتمثلة فى زجاجة الخمر التى أمامه. لذلك كان حقا على الله تعالى ألا يدخله الجنة.. فقد روى الإمام النسائى عن إدريس عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر إلا أن يتوب**».

هل البيرة خمر؟

ربما يظن بعض الناس أن البيرة ليست خمرا، وهذا ظن غير صحيح، فالبيرة نوع من الخمور فهى تحتوى على ٥٪ من الكحول الإثيلى، فالبيرة من المشروبات الكحولية، وإن كانت أقل المشروبات الكحولية فى نسبة الكحول، إلا أنها مشروب كحولى على أية حال. فإذا شرب إنسان كمية كبيرة من البيرة، فكأنه شرب كمية صغيرة من «الويسكى» مثلا، وتحدث له حالة من السكر. إذن فالكثير من البيرة يحدث حالة من السكر، أما القليل منها فلا يكاد يحدث سكرا، فهل البيرة حرام أم حلال؟ نجد الجواب فى الحديث النبوى الشريف عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام**».

إذن فالبيرة حرام وشربها حرام، وهى لا تختلف عن المشروبات الكحولية الأخرى، إلا فى انخفاض نسبة الكحول فيها.

أضرار إدمان الخمر على الجسم

لا تسبب الخمر أى فائدة للإنسان، ومن يدعى غير ذلك فإنما يدعى بغير علم. ولقد ذكرنا من قبل الأضرار النفسية والعصبية للخمر، ونناقش فيما يلى الأضرار البدنية للإدمان على الخمر:

أولا: يسبب الإدمان على شرب الخمر ضعفا بالشهية لتناول الطعام، وذلك بسبب التهاب مزمن بالمعدة وما يؤدى ذلك إلى الكثير من أمراض سوء التغذية، ولعل القات أكثر المخدرات إضعافا للشهية للطعام، من أى مخدر أو مسكر آخر.

الثانى: تضخم عضلات القلب: وذلك لأن الكحول من الأسباب المؤدية إلى مرض عضلة القلب نفسها مما يسبب تضخم القلب Cardiomyopathy وبالتالى إلى هبوط بالقلب قد يستعصى علاجه.

الثالث: التهاب أعصاب الأطراف: ويظهر ذلك فى اليدين والقدمين والساقين، وقد يسبب آلاما مستمرة بالأطراف أو تغيرا بالإحساس فيها، وهى حالة يستعصى علاجها أيضا.

الرابع: التهاب البنكرياس الحاد والمزمن: وما ينتج عن ذلك من أخطار صحية واضطرابات بدنية.

الخامس: تضخم الكبد، وهو أكثر أضرار الإدمان على الخمور حدوثا، فما من مدمن على الخمر سنوات إلا ويشكو من تضخم الكبد، ويعقب ذلك التضخم تليف بالكبد، وما يجر ذلك على الجسم من اضطرابات خطيرة، مثل استسقاء البطن، والقيء الدموى أحيانا. وينتهى الأمر بفشل الكبد مما يودى بحياة الإنسان، ولا يمكن لمدمن الخمر النجاة بكبده من المرض.

وفى دراسة فى فرنسا ما بين ١٩٣٩-١٩٥٠ ظهرت نتائج هامة فى موضوع إدمان الخمر. كانت فرنسا فى حرب مع ألمانيا من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥، فتحولت المصانع التى كانت تعصر العنب وتصنع الخمور، إلى مصانع تنتج الأسلحة الحربية، وبذلك قل إنتاج الخمور فى فرنسا، وحددت الحكومة كمية الخمر لكل فرد فى بطاقة التموين، فقل شرب الناس للخمر كثيرا. وفى سنة ١٩٤٥ دلت الإحصاءات الصحية أن نسبة الوفيات بسبب تليف الكبد والفشل الكبدى هبطت إلى ١٥٪ من النسبة المعتادة. وبعد انتهاء الحرب سنة ١٩٤٥ ألغيت القيود على شرب الخمر فأقبل الناس على شربها أضعاف كمية ما كانوا يشربون منها إبان الحرب. ومرت خمس سنوات حتى سنة ١٩٥٠ وأجريت دراسة إحصائية عن ذلك فأظهرت النتائج أن نسبة الوفيات بسبب تليف الكبد والفشل الكبدى قد ارتفعت إلى ستة أضعاف ما كانت عليه أثناء فترة تقليل شرب الخمر إبان الحرب. ومن هذه الدراسات يتبين التأثير السيئ للإدمان على الخمر على صحة الكبد.

السادس: ينتهى الإدمان على شرب الخمر بحالة العته، وانحطاط القوى العقلية بصورة كبيرة ومستمرة، وتتغير شخصية المدمن إلى الأسوأ، وينعزل عن الناس، وتبتعد الناس عنه، يصير إنسانا غير مرغوب فيه حتى من أقرب الناس إليه.

ومن كل ذلك يتبين أن الإدمان على شرب الخمور ينتهى بالإنسان ليس إلى الأمراض العصبية والنفسية فحسب، وليس إلى الأمراض البدنية المهلكة فحسب، ولكن إلى الأمراض العقلية أيضا. ونذكر حديث رسول الله ﷺ إذ قال: «**لا تشرب الخمر فإنه مفتاح كل شر**».

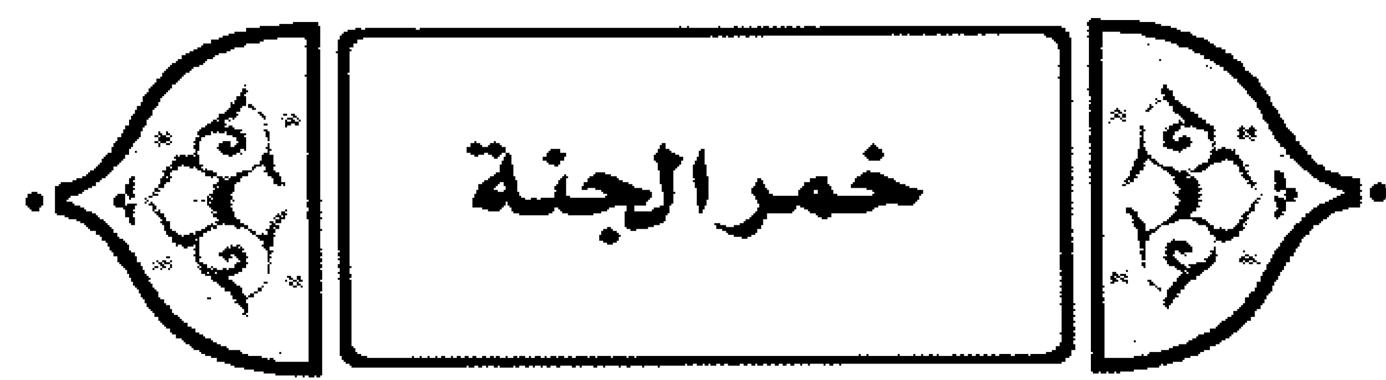
ولما سأل طارق بن سويد الجعفى رسول الله ﷺ عن صناعة الخمر فنهاه أن يصنعها قال: إنه يصنعها للدواء، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس دواء ولكنه داء**».

وينتهى الأمر بالمدمن بمجالسة زجاجة الخمر، فهى جليسه وأنيسه، وبئس الجليس، وبئس الأنيس. فهو ألد أعدائه فى الدنيا والآخرة، وهى طريق كل المصائب فى الدنيا، وهى طريق الخسران فى الآخرة؛ ذلك لأن مدمن الخمر يترك الصلاة، ولا يؤدى العبادات، ولا يقوم بما عليه من تكاليف. وبذلك يخرج الإيمان من قلبه، ونذكر

حديث رسول الله ﷺ: «**من شرب الخمر خرج نور الإيمان من جوفه**».

والذى يخرج نور الإيمان من قلبه، لا يدخل الجنة، ونقرأ عن ذلك فى حديث نبوى شريف رواه أبو الدرداء رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر**»، لم يقل: لا يدخل الجنة شارب الخمر؛ لأن شارب الخمر قد يتوب ويدخل الجنة، فمن تاب تاب الله عليه، أما المدمن فلا يستطيع أن يترك شرب الخمر من تلقاء نفسه قط، ولكنه لو عولج فى مصحة للإدمان فقد يشفى من الإدمان وقد يتوب فيتوب الله عليه. وتبين السنة النبوية المشرفة ذلك، فقد قال رسول الله ﷺ: «**من شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة إلا أن يتوب**».

نلاحظ هذا الحديث الشريف «**لم يشربها فى الآخرة إلا أن يتوب**»، فهل فى الجنة خمر؟ نعم فى الجنة خمر.



فى الجنة خمر، ولكنه خمر ليس مثل خمر الدنيا، إنه خمر مختلف تماما، لا حرمة فيه قط بطبيعة الحال. ولقد علمنا أن الخمر فى الدنيا سبب من أسباب الأمراض البدنية والنفسية والعقلية، ومفتاح لكل شر وطريق لكل ضرر. أما خمر الجنة فلا مرض منها، ولا ضرر من ورائها، فهى خمر أخرى فيها لذة وسعادة للشاربين، كما قال الله عز وجل فى سورة محمد الآية ١٥ :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

وعن خمر الجنة أيضا نقرأ فى سورة الصافات الآيات ٤٥-٤٧، قول الله عز وجل:

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

والكأس فى اللغة كل إناء مع شرابه، فإن كان فارغا فلا يسمى كأسا وإنما هو قدح. وما ذكرت الكأس فى القرآن الكريم إلا للخمر.

بيضاء: أى إن لونها مشرق بهى. وخمر الجنة أشد بياضا من اللبن.

من معين: أى من خمر تجرى كما يجرى ماء العيون. والعين هى الماء الجارى الظاهر.

لَذَّةٍ: أى ذات لذة، فحذف المضاف وترك المضاف إليه الذى يدل عليه، وهذا أسلوب من أساليب البلاغة فى اللغة.

لا فيها غول: أى لا تغتال العقل وتخامره، فلا تحدث بالعقل خللا ولا بالجسم مرضا.

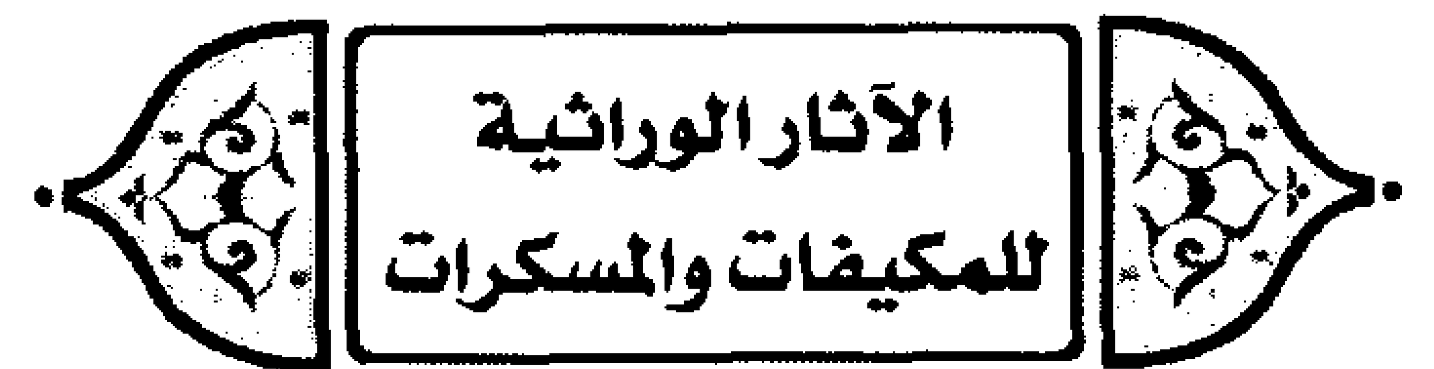
ولاهم عنها ينزفون: أى لا تذهب بعقل شاربها، فخمر الجنة لا تسبب سكرا للشاربين. وفى سورة الواقعة الآيات ١٧-١٩

يقول الله عز وجل في الحديث عن خمر الجنة:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

أى لا تحدث لهم الخمر فى الجنة صداعا ولا سكرا ولا تسبب لهم خللا بالوعى والعقل كما تفعل خمر الدنيا. وعن أهل الجنة وكيف يشربون الخمر فيها نقرأ فى سورة الطور الآيات ٢٢-٢٣: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

أى يتجاذبون كئوس الخمر، شأن الجلساء الأصدقاء ولا يتكلمون بلغو الحديث أثناء شرب الخمر فى الجنة وليس كما يفعل شاربو الخمر فى الدنيا.



الآثار الوراثية للمكيفات والمسكرات

لم تنتشر المسكرات والمفترات والمكيفات فى عصر من العصور كما تنتشر فى هذا العصر. والعجيب فى الأمر انتشار الإدمان على أنواع من المسكرات لم تكن معروفة من قبل، مثل الإدمان على حبوب الهلوسة أو الهيروين بين الشباب، وخصوصا فى البلاد الغربية الصناعية، منها ابتدأ يتتشر إلى مجتمعات أخرى.

وزاد الإدمان على المشروبات الكحولية فيمن تعدوا سن الشباب فى البلاد الغربية، والإدمان على الحشيش فى مختلف مراحل العمر فى كثير من بلاد العالم.

حتى أنه يمكن القول أن العصر الحاضر يسمى عصر الإدمان على المسكرات. ولقد تحدثنا من قبل عن الآثار الصحية والنفسية للمسكرات بأنواعها المختلفة. واكتشف فى السنوات القليلة الماضية آثارًا وراثية خطرة للمسكرات والمكيفات أن أضرار المشروبات الكحولية والمخدرات لا حدود لها، وكل يوم يكتشف العلماء جديدا من الأضرار لها، والشرور منها، وكل ذلك تفسير لحديث رسول الله ﷺ: «**لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر**»، والخمر كما قلنا من قبل هى كل ما خامر العقل من مشروبات كحولية أو مخدرات بكل أنواعها، فهى كلها خمر، وهى مفتاح لكل شر كما أخبرنا الحديث النبوى الشريف.

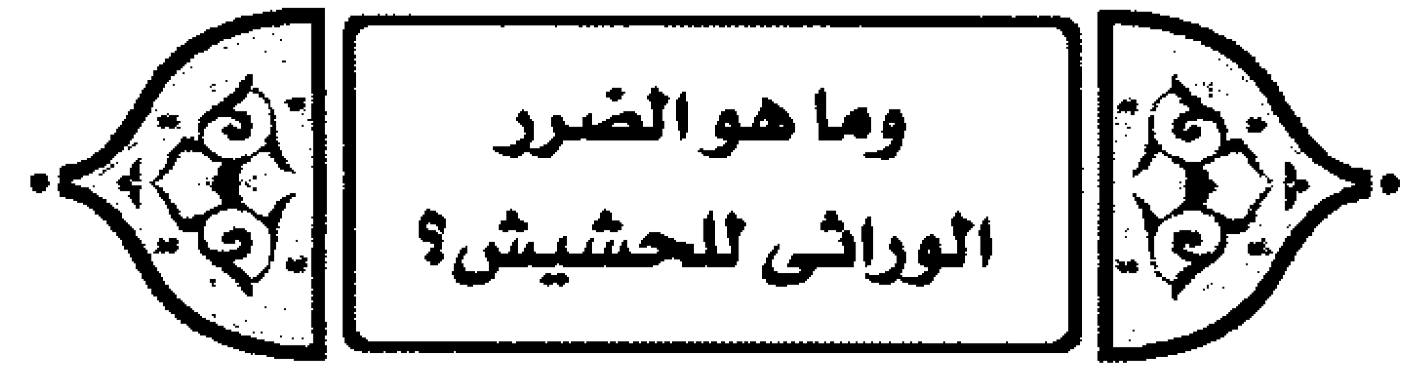
وروى الإمام أحمد حديثا لرسول الله ﷺ قال فيه: «**واجتنبوا كل مسكر**». وروى البخارى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه قال: (الخمر ما خامر العقل)، فكل مادة تخامر العقل فهى خمر، فالمخدرات تخامر العقل فهى خمر، والمسكرات تخامر العقل فهى خمر، والمشروبات الكحولية تخامر العقل فهى خمر أيضا.

وروى النسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مسكر خمر وكل مسكر حرام**».

إن الأضرار الوراثية للمسكرات والمكيفات لم تكتشف إلا حديثا، فالمشروبات

الكحولية تحدث ضررا كبيرا فى الكروموسومات فى نواة الخلية، والكروموسومات هى الأجسام التى تحمل العوامل الوراثية فى نواة كل خلية، والكحول يشتت الكروموسومات أثناء عملية انقسام الخلايا وخللا فى تكوين الخلايا التناسلية مما يسبب خلايا تناسلية ليس لها القدرة على الإخصاب، فهناك سبب مباشر لتناول المشروبات الكحولية والعقم.

وهل الإدمان على الخمور، وتأثيرها على العوامل الوراثية يمكن أن ينتقل إلى الذرية وينقل الإدمان إلى الأولاد؟ كلا، إن الإدمان لا يورّث ولكن الإدمان على الخمور قد يؤدى إلى تشوه فى الأجنة.



إن المادة الفعالة فى الحشيش هى مادة الكانيبول، ولقد قام الدكتور أحمد الكباريتى(*) بأبحاث كثيرة على هذه المادة وتأثيرها على الوراثة، وأثبتت الدراسة أن مادة الكانيبول تسبب ذوبانا للمادة الوراثية وتفتت جزيئات الحامض النووى D.N.A وهو المكون الأساسى للجينات أو العوامل الوراثية، وتدل دراسات حديثة للدكتور كباريتى باستعمال المجهر الإليكترونى أن خلاصة الحشيش إذا عوملت بها الخلايا لمدة طويلة تحول خلايا الجسم العادية إلى خلايا سرطانية، مما يدل على أن تدخين الحشيش من أسباب الأمراض الخبيثة.

والأفيون ومشتقاته تسبب أضراراً وراثية، وقد تسبب قتل الأجنة فى الأرحام.

أما عقاقير الهلوسة مثل عقار الـ L.S.D فلها آثار مدمرة للصحة البدنية والصحة النفسية، وتحدث تدميرا للجهاز الوراثى فى خلايا الجسم، ويصل الضرر الوراثى إلى الجهاز التناسلى. وبذلك تسبب عقاقير الهلوسة تدميرا فى صحة الإنسان البدنية والنفسية والوراثية أيضا وتنتقل هذه الآثار المدمرة إلى الذرية.

وكثر الحديث عن تناول القات، وهو نبات ينمو فى بعض الأقطار العربية وتنتشر عادة مضغ أوراق القات بين الصغار والكبار، وقد أجرى الدكتور الكباريتى سنة ١٩٧٩ دراسة عن القات من الناحية الوراثية، فوجد أن القات يعمل على قلة نشاط عملية الانقسام الخلوى، وهذا التأثير السيئ على عملية انقسام الخلايا يزداد شدة كلما طالت الفترة التى تتعرض لها الخلايا للمادة الفعالة المسكرة فى القات.

وقد تبيّن أن مضغ القات لفترات طويلة قد يؤدى إلى وقف تجدد الخلايا فى الأنسجة، مثل خلايا الكبد وخلايا نخاع العظام، وبالتالى خلايا الدم، لذلك كثيرا ما يصاب الذى يتعاطى القات بالهزال والضعف العام وتوقف النمو وقلة الوزن والعقم.

(*) الأستاذ الدكتور أحمد الكباريتى ـ رحمه الله ـ أستاذ علم الخلية والوراثة بكلية العلوم جامعة الكويت.

ولا شك أن مضع القات من أخطر الأشياء على الحوامل، فإن لها تأثيرا سيئا على الأجنة، وعلى الأطفال أيضا لما للقات من تأثير سيئ على نمو الخلايا وانقسامها.

وتدخين التبغ من المفترات، ويحتوى على النيكوتين والقطران.. وبينت الدراسات على مادة النيكوتين أنها تسبب حدوث طفرات وراثية وخللا فى عمليات الانقسام الخلوى، مما يؤدى إلى تحول الخلايا إلى خلايا سرطانية، ومن هنا يسبب التدخين مرض السرطان وخاصة سرطان الرئة، وذلك عن طريق مفعول النيكوتين على عمليات انقسام الخلايا.

وماذا عن المكيفات الأخرى مثل الشاى والقهوة؟ وهل لها تأثير على العوامل الوراثية فى خلايا شاربها؟

يحتوى الشاى على حامض التانيك، وهذا الحامض يحدث خللا بالجهاز الوراثى، كما يحدث طفرات وراثية أيضا التى من شأنها ظهور صفات وراثية لم تكن موجودة من قبل، إلا أن خطورة شرب الشاى تعتمد على طريقة تحضيره وعدد مرات تناوله فى اليوم. ولا يُشكل الشاى الذى يحضّر بالطريقة التى اعتدنا عليها، لا يشكل أى خطورة وراثية، ولكن إذا حضر الشاى بغليه وقتا طويلا وجعل الشراب مركزا بحيث يكون حامض التانيك فيه ذا تركيز عال جدا، فإن ذلك يؤدى إلى ضرر وراثى أكيد. وأفضل طريقة لإعداد الشاى من الناحية الصحية هو ما قل غليه، وما أضيف إليه شيء من اللبن، فإن إضافة اللبن يرسّب حامض التانيك فى قاع الكوب مما يجعل تناول شراب الشاى بعد ذلك بغير ضرر يذكر.

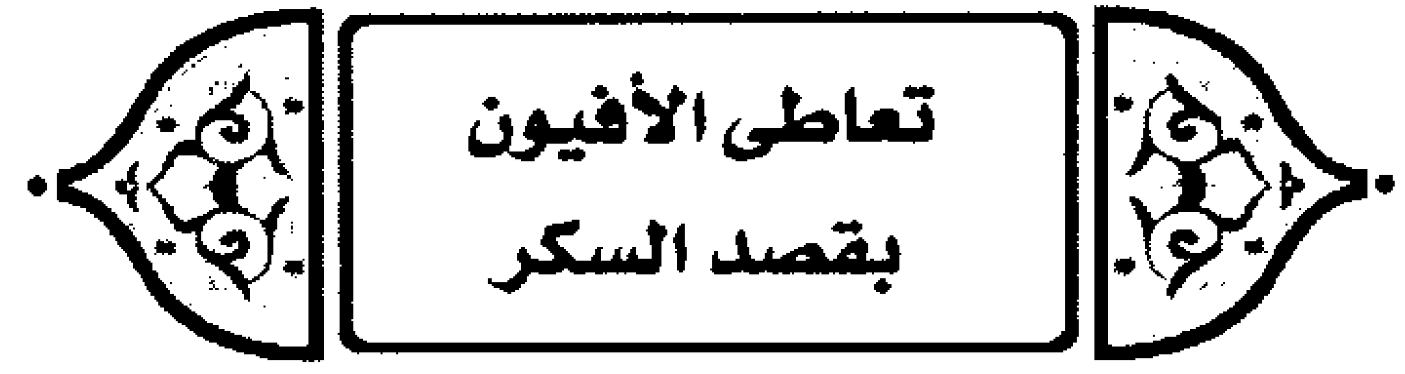
أما شراب البن - القهوة - فهى مادة الكافيين، وقد أظهرت الدراسات أن مادة الكافيين تعمل على تكسير الكروموزومات الحاملة للعوامل الوراثية، ومفعولها فى ذلك أقوى من مفعول حامض التانيك فى الشاى، وبالتالى فالقهوة أكثر ضررا من الشاى. إلا أن شرب القهوة بكميات قليلة، تقلل من الأضرار الناتجه عنها، أما القهوة العربية فهى تحضر بطريقة لا تسبب أى خطر وراثى.

ومهما يكن من أمر فإن القهوة والشاى لا تخلو من ضرر على العوامل الوراثية، ولهذا فينبغى على المرأة المدمنة على شرب القهوة أو الشاى أن تقلل من شربها إلى أقصى حد إذا حملت، وخاصة فى الشهور الثلاثة الأولى من الحمل.

وبهذا نجد أن المسكرات والمكيفات والمفترات تضر الإنسان ضررا شديدا بالإنسان بدنيا وصحيا ووراثيا أيضا، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**لا تشرب الخمر فإنه مفتاح كل شر**».

ولا يقولن إنسان:إن الحشيش أو الأفيون ليس خمرًا، كلا إنها جميعا خمر لأن الخمر هو ما خامر العقل، فكل ما خامر العقل فقد أضل بالوعى وأحدث حالة السكر، فهو خمر.. وهى جميعا مفتاح لكل شر. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**اجتنبوا كل مسكر**».

وليس الشاى أو القهوة من المحرمات، ولكننا ذكرناها هنا لاستكمال البحث الوراثى عن المكيفات بأنواعها المختلفة.



كل مـا يخامـر العـقل، ويخل بالوعى فهو خـمر، وكل مسكر خمر، فـالكحوليات خمـر، والأفيـون خمر، والحـشيش خـمر، والهيـروين خمر، وهكـذا دواليك، وتعاطى كل هذه الخمور حرام.

قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**»، وهكذا وضع هذا الحديث النبـوى الشـريف الحكم الشـرعى الإسـلامى الذى لا يقبل أى جدل، فقد صيغ فى كلمات واضحـة المعانى، لا مجاز فـيها ولا تشبـيه. ووضع الكحـوليـات والأفـيـون والحـشـيش والهلاوس والقات فى حكم واحد. ونحن إذ نتـحـدث عن المخـدرات، إنما نتـحـدث عن الخمـور بمعناها العملى والعلـمى والشرعى. نأخذ مثلا الأفيون.

الأفـيــون: له فى المخ نفس تأثيـر المشـروبات الكحوليـة - وقد ذكـرنا ذلك من قبل،ولقـد عُرف الأفيـون منذ عصور مـا قبل التاريخ، وكـتب عنه هوميروس أحـد مفكرى وفلاسفة الإغريق. ويوجد الأفيون فى الأزهار شجـرة الخشـخاش. وهى شـجرة تنمـو فى المناطق الحـارة من العـالم وبعـض المناطق المعتدلة، وأكـبر مناطق إنتاجا للأفـيون منطقة جنوب شرق آسيا.

وللأفـيون ومـشتـقـاته استـعمـال فى الأغراض الطبية، ولقد وجدت منظمة الصحة العـالميـة أن مـا يسـتخـدم من الأفـيـون فى الأغراض الطبية هو نحو عشرة بالمائة فقط من الإنتـاج العالمى منه، والبـاقى يتعـاطاه الناس كمسكر.

وظل الأفيون يستعمل كمادة خام حتى سنة ١٨٠٣م حيـن استخلص العـالم الألمانى فردريك سـرتيرنر، مـادة المورفين وهى المادة الفعالة من الأفيون الخـام وجربه على نفسه، فـلاحظ أنه يخـفف الشعـور بالألم ويسـبب الخـدر والسكر ويجلب النوم، فـأطلق عليـه اسم «مورفين» نسبة إلى اسم آلهة إزالة الآلام لدى الإغـريق التى كـانوا يـسـمـونهـا «مورفيوس»، ولا يزال المورفـين يستعمل فى الطب بجرعـات محـسوبة للعـلاج، لبعض أمراض القلب والصـدمة العصبـية والحالات التى تسـبب آلاما شديدة للمـرضى. وتناول المورفين بمعـرفة الأطباء مفيـد، ولا ضرر منه صحيا ولا شىء عـليه شرعا. **أما إذا تعاطى الناس الأفيـون بقصد السكـر، فإنه يكون من المحرمـات. والأفيون يسبب أضـراراً بالجسم منها:**

١- هبـوط بوظائف عـمليـة التنفس ليس عن طريق الـرئتـين ولكـن عن طريق هبـوط وظيفـة مـركز التنفس بجـذع المخ.

٢- خلل بالوعى والإدراك.

٣- اضطراب فى الإحساس والشعور.

٤- غثيان وقىء.

٥- حالة من إمساك البطن.

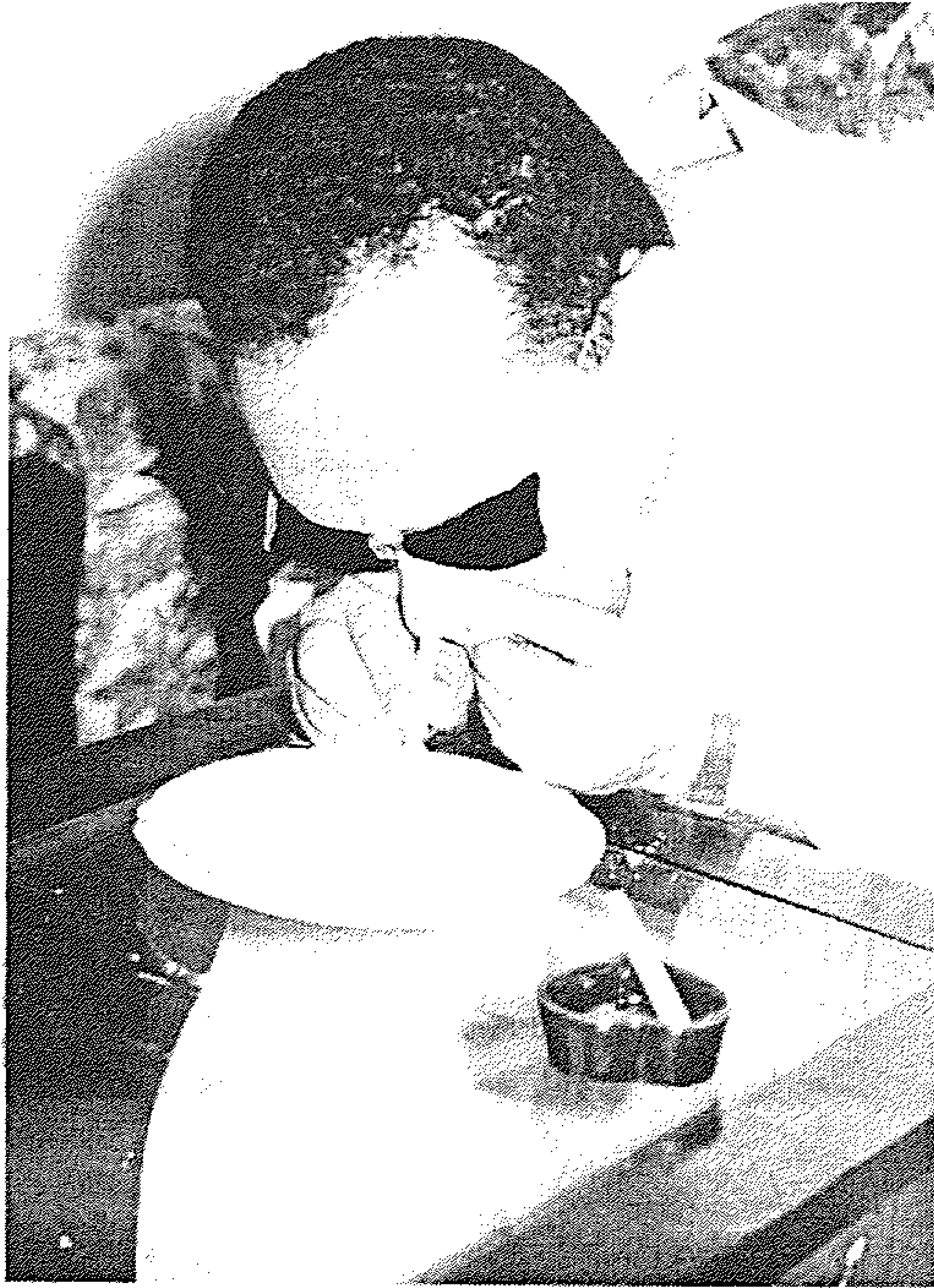
٦- قلة الإحساس بالألم.

ويحدث تعاطى الأفيون لدى المتعاطى شعورا بالنشوة والسعادة، يعقبه شعور بالاكتئاب والانزعاج. ويتعاطى المدمنون الأفيون بجرعات أضعاف الجرعات المميتة للشخص الذى لم يتناول الأفيون من قبل، وأضعاف الجرعة التى تستخدم للأغراض العلاجية.

وعندما ينتهى تأثير الأفيون فى الجسم - وهى حالة من السكر - تبدأ الأعراض الانسحابية فى الظهور، على شكل آلام عضلية شديدة، وغثيان وإسهال، وهياج وقلق نفسى، وتوتر عصبى شديد، مما يدفع المدمن دفعا إلى محاولة تعاطى جرعة من المخدر، حتى يتخلص من تلك الآثار الانسحابية المزعجة للأفيون، بأى طريقة من الطرق، ولو أدى الأمر إلى ارتكاب مخالفة أخلاقية، أو تصرف إجرامى. من أجل ذلك تكثر الجرائم الأخلاقية وجرائم السرقة والاختلاس فى المجتمعات التى يكثر فيها الإدمان على الأفيون خصوصا، والمخدرات عموما. من هذا ندرك معنى الحديث النبوى الشريف: «**لا تشرب الخمر فإنه مفتاح كل شر**»، وقوله ﷺ: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**».

تعاطى الهيروين

الهيروين من مجموعة عقاقير الهلاوس، التى تسبب هلاوس سمعية وبصرية مختلفة. كل متعاط للهيروين مدمن عليه، فإن الشمة الواحدة منه تسبب حالة إدمان عليه، وهو أخطر أنواع الإدمان، والهيروين مستحضر كيميائى، صنع لأول مرة سنة ١٨٧٤ فى لندن، ولما ظهرت آثاره فى إزالة الشعور بالألم بصورة قوية، استعمل فى الطب سنة ١٨٩٨م، وبعد ذلك استعمل فى معالجة إدمان الأفيون ونجح العلاج به، إلا أنه كان علاجا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد ترك المدمنون تعاطى الأفيون، وأدمنوا على تعاطى الهيروين، والإدمان على الهيروين



صورة لرجل يتعاطى الهيروين

أشد خطرا على الإنسان، وأصعب علاجا وأسوأ أنواع الإدمان على الإطلاق.

وفى عصرنا الحاضر صدرت قوانين مشددة تنص على منع تحضير مادة الهيروين فى كل دول العالم، وصار الآن ممنوعا حتى فى الأغراض الطبية، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أول دولة حرمت تحضيره وبيعه وصدرت قوانين بذلك سنة ١٩٢٤م.

وفى العصر الحالى انتشر إدمان الهيروين بين الشباب فى كثير من بلدان العالم، وابتدأت المآسى والكوارث تظهر وتشيع فى مجتمعات الشباب، وارتفعت معدلات الجرائم، وأصبحنا نسمع عن وقوع جرائم لم تكن تحدث من قبل، فالمدمن على الهيروين، لابد له من أن يحصل على الجرعة بأى وسيلة من الوسائل ولو أدى الأمر إلى بيع جميع ما يملك، ولو أدى الأمر إلى السرقة، بل وإلى القتل أحيانا بهدف الحصول على المال الذى يشترى به الهيروين. والإنسان المدمن تحت تأثير المخدر لا يقيم وزنا لأى قيم أخلاقية أو دينية، أو تقاليد أو عادات متبعة، إنه يضرب بكل ذلك عرض الحائط، وينسى نفسه ودينه وربه، ولا مانع عنده من بيع شرفه، وارتكاب جرائم السطو والسرقة، والزنا، والاغتصاب، وارتكاب أى جريمة أخرى.

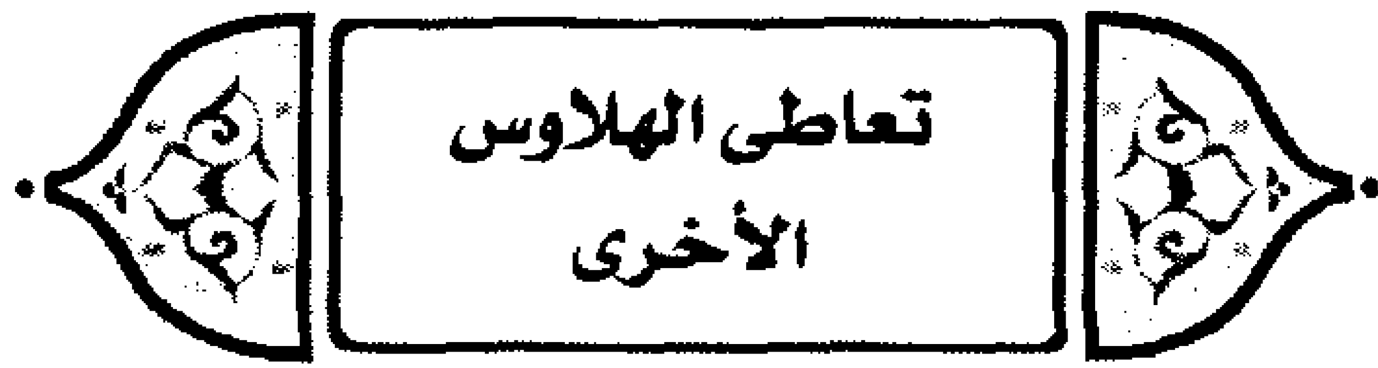
إن هذه المخدرات الرهيبة، حرب خفية ضد الشعوب، تحول صحة شبابهم مرضا، وقوتهم ضعفا، وذكاءهم بلادة، وطموحهم ضياعا، وغناهم فقرا، وتهدد الأمن بين الناس، ويشيع الإجرام والرذيلة والفساد فى المجتمع، لذلك يقف الإسلام من الإدمان على المخدرات موقفا حازما وشديدا، فيأمر الإسلام بإقامة الحد على المدمنين حتى يقلعوا عما هم فيه، وإن عادوا أعاد الإسلام عليهم الحد، ولن يجد المدمن أمامه منفذا من إقامة الحد عليه، إلا أن يتوب عن الإدمان ويترك تعاطى المخدر أو المسكر، ويعود إنسانا سويا، وإلا أقاموا عليه الحد كل مرة يتعاطى فيها ثمانين جلدة، ولا يُحد شارب الخمر أو متعاطى المخدرات أثناء حالة سكره، ولكنه يحد عندما يزول عنه السكر ويعود إليه الوعى. وقال الإمام مالك: إذا صحا يُحد. ومعنى ذلك أنه لو جُلد أثناء سكره، فإنه من الواجب أن يعيدوا إقامة الحد عليه ثانية بعد صحوه من سكره.

وعن قبيص بن ذؤيب أن النبى ﷺ قال: «**من شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه وإن عاد فاجلدوه**»، ولا يتوقف إقامة الحد عليه، فلن يجد مهربا من ذلك إلا أن يترك تعاطى الخمر أو المخدر تركا تاما، وهذا هو الحل السعيد لكل مدمن. فالإسلام لا يريد إيقاع العذاب والعقاب بالناس رغبة فى تعذيبهم، ولكن يريد للناس الحياة السعيدة، والشفاء من كل سوء. والخير له فى الدنيا والآخرة. ويتساءل بعض المدمنين: إن تعاطيهم لتلك العقاقير من ضمن حريتهم الشخصية، فما بال الإسلام يقيّد حريتهم الشخصية؟ إنهم يعلمون أن الله سيحاسبهم فى الآخرة، وهذا بينهم وبين ربهم، فلماذا يقيدون حريتهم الشخصية فى الدنيا، ولماذا يعاقبونه إذا شرب خمرا أو تعاطى مخدرات؟. وهب أن هذا المتعاطى ليس مسلما، فلماذا يحرم الإسلام عليه ذلك؟ ولماذا يُوقع عليه الحد؟

أولا: ولو فهم شاربو الخمر ومتعاطو المخدرات، ما وجدوا فى تحريم الإسلام لكل ذلك قيدا على حريتهم الشخصية، ولوجد كلّ منهم أن فى ذلك مصلحته هو، وحفاظا على مصلحة المجتمع ككل. فالإسلام يحرم السرقة ليحمى مال الناس من السارقين؛ بل ويحمى مال السارق نفسه من غيره من الناس السارقين. ولو تصورنا أن الإسلام لم يحرم السرقة ولم يأمر بإقامة الحد على السارق، لكانت أموال الناس وممتلكاتهم نهبا مباحا لأى إنسان يطمع فيها، وماذا تكون النتيجة؟ تكون سلسلة من الجرائم لا نهاية لها. إن الإسلام حرم الخمر والمخدرات ليحمى الإنسان من نفسه، ويحمى صحته وعقله، ويحافظ على ماله وأسرته، ويحمى المجتمع من المدمنين لأنهم مصدر خطر على غيرهم من الناس. ونظرة واحدة إلى بعض المجتمعات الغربية التى ينتشر فيها شرب الخمر ويشيع فيها تعاطى المخدرات، ويحدث من جراء ذلك من جرائم وموبقات وخسائر، تبيّن مدى أهمية تحريم الخمر والمخدرات، وضرورة ذلك التحريم لسلامة المجتمع الإنسانى.

فليس فى الأمر اعتداء على الحرية الشخصية، تماما كما يحرم الإسلام على الإنسان أن يقتل نفسه، وليس فى ذلك قيد على حريته الشخصية. فالحرية الشخصية فى الإسلام لها ضوابط وحدود، يضعها الإسلام فى موضعها الصحيح فى نطاق الحق والعدل والنظام، حفاظا على سلامة المجتمع ككل.

ثانيا: أن الخمر والمخدرات كما هى محرمة فى الإسلام فهى محرمة فى المسيحية أيضا. ولقد أفتى رؤساء العقائد المسيحية بتحريم الخمور والمسكرات والمخدرات. إذن فلا يشترط أن يكون الذى يقام عليه الحد مسلما أو غير مسلم، فالكتابيون من اليهود والنصارى الذين يعيشون فى دولة مسلمة، يقام على أى واحد منهم الحد إذا شرب الخمر أو تعاطى المخدرات. فالكتابيون المقيمون فى دار الإسلام لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ولأنها محرمة فى عقائدهم أيضا.



هى تلك العقاقير التى تخامر العقل، وتسبب الهلاوس السمعية والهلاوس البصرية، ومنها حبوب الهلوسة والحشيش والماريجوانا والبانجو والهيروين، إنها تحدث الهلاوس فى الحواس، وتنشط الجهاز العصبى نشاطا غير طبيعى، وتُحدث حالة من السكر؛ بالإضافة إلى الهلاوس التى يشعر بها المتعاطى وينزعج منها. منها هلاوس سمعية فيسمع أصواتا مختلفة قد تخيفه وقد تضحكه، كما يرى هلاوس بصرية كأن يرى مثلا وجوها لها ملامح غير متناسقة فيرى مثلا الإنسان الذى أمامه طويل الأنف جدا أو كبير الأذنين جدا، أو له عين واسعة جدا والأخرى ضيقة.. وهكذا؛ من الهلاوس البصرية التى قد تثير فيه الضحك المتواصل أو الفزع والخوف والقلق، وهذه الهلاوس تكون أكثر وضوحا فى الهيروين.

تعاطى الحشيش

والحشيش والماريجوانا يستخرجان من نبات القنب الهندى. ويحتمل أن تكون كلمة (حشيش) مشتقة من كلمة «شيش» بالعبرية ومعناها «السرور والبهجة».

ونبات القنب الهندى صنفان: ذكر وأنثى، ويمكن التفرقة بينهما، فأزهار الأنثى غير ظاهرة: أما أزهار النبات المذكر فظاهرة، وتوجد المادة الفعالة فى الأزهار والأوراق، وهى موجودة بنسبة أكبر فى الإناث من النبات.

تدهور مستمر فى طاقتهم العقلية وحالتهم النفسية والبدنية.

وفى بدء الستينيات، أو قبل ذلك بقليل، ظهرت مجموعة من الشباب أطلق عليهم «الهيبز»، وكانوا مجموعة من الشباب المدمن على الحشيش والماريجوانا، وكانت الغالبية العظمى من أولئك الشباب منعزلين عن المجتمع الذى يعيشون فيه. وكانوا مصرين على انتهاج أسلوب فى حياتهم، يرفض كل قيم وتقاليد اجتماعية متعارف عليها، وكل قيم دينية متبعة، وكانوا يتشبهون بالرهبان البوذيين. وكانوا يطيلون شعورهم،



وعند تعاطى الحشيش أو الماريجوانا، تختزن المادة الفعالة فى خلايا مخ المتعاطى، وهذا يفسر التأثيرات المزمنة السيئة للجهاز العصبى المركزى، وما يحدث لبعض المدمنين من الذهان (أى الجنون الحاد)، وتغيرات خطيرة فى شخصياتهم، وقد تؤدى إلى

ويلبسون ملابس قذرة، ولا يهتمون بنظافة أبدانهم، بل يعيشون بدون ضوابط وبدون أى نظام أو حدود. والتفسير المعقول لظهور تلك الفئة الشاذة من الشباب فى العالم الغربى أنهم كانوا مصابين بنوع من الذهان ذى طبيعة انفصامية، بسبب الإدمان على الحشيش

والماريجوانا. ولقد ذكرنا من قبل أن مختلف أنواع المخدرات والمشروبات الكحولية، تخامر العقل، وتخل بالوعى، فكلها خمر؛ وبالتالى فإن حكمها فى الإسلام حكم واحد، ويقام على كل منها حد واحد. كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله فى كتاب (السياسة الشرعية): إن الحشيشة حرام، ويحد شاربها كما يحد شارب الخمر؛ لأنها داخلة فيما حرم الله ورسوله من الخمر والمسكر لفظا ومعنى، فقد قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام**».

فالمخدرات محرمة بإجماع الآراء، وحدّها فى الإسلام كحد شارب الخمر. وقال الإمام ابن تيمية أيضا: (الحشيشة وآكلوها ومستجلبوها، موجبة لسخط الله تعالى، ومُعِرضةٌ صاحبها لعقوبة الله) وقال الإمام ابن القيم: (إن الخمر يدخل فيها كل مسكر، ويدخل فيها الحشيشة).

وقال الإمام الحافظ ابن حجر: (من قال إن الحشيشة لا تسكر وإنما تخدر، فهو مكابر، فهى تحدث ما تحدثه الخمر)، وقال الشيخ محمد مخلوف مفتى مصر الأسبق: (حكم الحشيشة، قليلها وكثيرها، كحكم الخمر قليله أو كثيره. فمن تناولها، وجب إقامة الحد عليه).

تعاطى القات

القات نبات تمضع أوراقه وتُخزّن فى الفم، وبها مادة مخدرة تخل بالوعى (كما ذكرنا من قبل) وهى مادة إدمانية، ويتناوله المتعاطون بعد الظهر، ويقعدون عليه إلى ما بعد العشاء. ويحدث حالة من الفتور والسكر والهذيان، فهو إذن حرام استنادًا إلى الحديث النبوى الشريف. وقال أحد الشعراء باليمن فى القات قصيدة طويلة نذكر منها الآتى:

إن رمت تعرف آفة الآفات
فانظر إلى إدمان مضغ القات

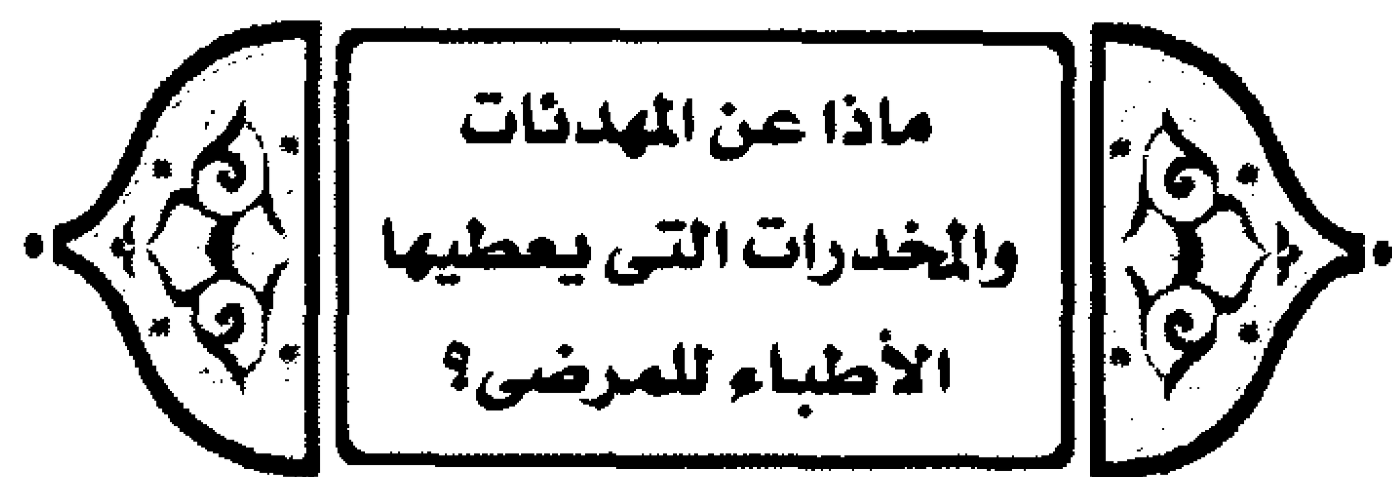
القات قتل للمواهب والقوى
ومُولِّدٌ للهم والحسرات

ويميت فى روح الشباب طموحه
ويذيب كل عزيمة وثبات

هو للإرادة والفتوة قاتل
هو ماحق للأوجه النضرات

فإذا نظرت إلى وجوه هواته
أبصرت فيها صفرة الأموات





إنها مجموعة من العقاقير، منها المهدئات العظمى، والمهدئات الصغرى، وعقاقير علاج الاكتئات النفسى.

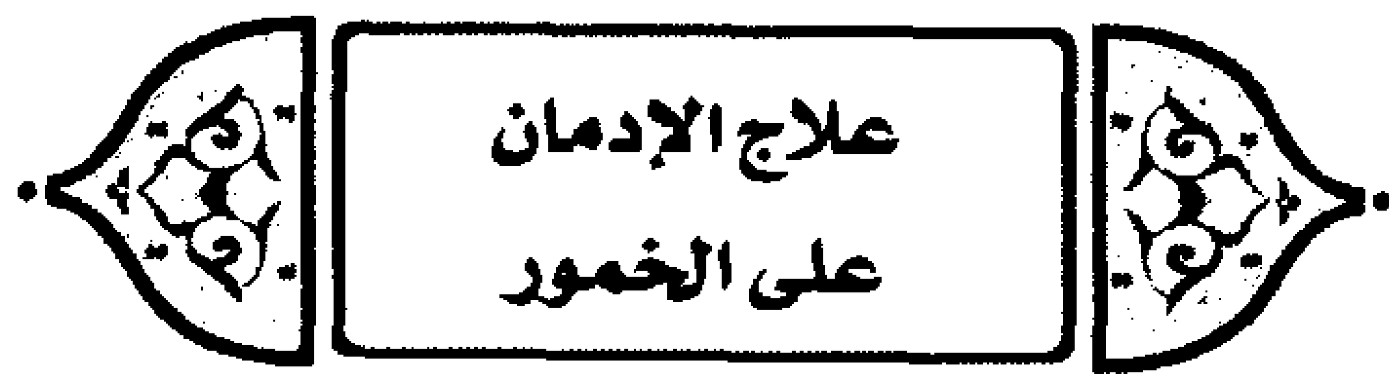
أما المهدئات العظمى: فهى لا تسبب الإدمان ولا تسبب الشعور بالسكر أو النشوة.

والمهدئات الصغرى: تستخدم فى علاج القلق والتوتر، وهى تؤثر تأثيرا نوعيا على المخ وتُعطى من قبل الطبيب فى جرعات محددة لا تسبب آثارا ضارة.

إن استعمال هذه الأدوية النفسية إذا لم يتم تحت إشراف طبيب مختص، ولضرورة صحية ملحة، وبالجرعات المحددة، وللمدة المحددة، فإنها تؤدى إلى الإدمان.

كلمة «خمر» فى اللغة، مأخوذة من الفعل خَمَرَ أى ستر، وكل شيء غطى شيئا فقد خمره ومنه خمار المرأة، فأى شيء يخمر العقل، يخل به وبوظائفه وطاقاته، فيسبب حالة من فقدان الوعى والسكر هو خمر، من هذا الفهم العلمى واللغوى لكلمة (خمر) فإن الخمر أو الخمور تعنى: المشروبات الكحولية بأنواعها المختلفة، والمخدرات بأنواعها الكثيرة، والعقاقير التى تخل بالوعى والإدراك، فذلك حديث رسول الله ﷺ:

«كل مسكر خمر. وكل خمر حرام»



تحدثنا عن الإدمان على الخمور والمسكرات - التى تشمل المخدرات والمشروبات الكحولية - ولقد ثبت أن كل المجهودات المبذولة حتى الآن من قبل الحكومات والهيئات مع كثرتها وكثرة تكلفتها المالية الضخمة، لم تنجح النجاح الذى كان متوقعا، ودليل ذلك، استمرار شرب الخمر والإدمان عليه وخاصة فى البلاد الغربية.

إن الشفاء من الإدمان على الخمور والمسكرات لن يتحقق إلا بالعلاج القرآنى، ودليل ذلك أن الشفاء القرآنى، نجح فى مجتمع بأسره كان مدمنا على المشروبات الكحولية، فكيف كان ذلك؟ وحتى نفهم الحكمة العلمية فى خطوات العلاج القرآنى، وأنها كان مؤسسة على علم وحكمة، ينبغى أولا أن نعرف أن مدارس العلاج النفسى الحديث تشمل:

١- مدرسة العلاج النفسى المسلكى.

٢- مدرسة العلاج الانفعالى المنطقى.

ومدرسة العلاج النفسى المسلكى تهدف إلى إزالة سلوكٍ غير مرغوب فيه، واكتساب سلوك مرغوب فيه. أما مدرسة العلاج الانفعالى المنطقى فتهدف إلى التركيز على إبراز المشاعر الإيجابية، والمعتقدات الصحيحة والمنطقية لدى المرضى النفسيين نتيجة الإدمان، ومساعدتهم على تقبل الواقع ومعايشة الآخرين.

ولقد بيّن الوحى الإلهى فى القرآن الكريم، الوسائل المسلكية المثلى فى العلاج النفسى، ونأخذ مثالا على ذلك فى المعالجة القرآنية لمشكلة الإدمان على الخمور، وتحقيق الشفاء منه، ونعلم اليوم أن أهم أسس العلاج النفسى فى الطب الحديث لمرضى إدمان أى مخدر أو خمر، العظام التدريجى من الخمر أو المخدر، ويُعطى المدمن جرعات أصغر فأصغر، وإطالة الفترات بين الجرعات تدريجيا، ولا يمكن أن يمنع الخمر أو المخدر عن المدمن فجأة، لأن الآثار الانسحابية سوف تدفع المدمن إلى أن يتعاطى العقار مرات ومرات، بطريقة قهرية لا قبل للمدمن بمقاومتها؛ ولذلك نجد أن العلاج القرآنى كان على درجات تدريجية فى أسلوب علمى، لم يتوصل إليه إلا علماء النفس فى عصرنا الحالى.

لم ينزل القرآن الكريم بأمر للمدمنين بالامتناع عن شرب الخمر فجأة، بل نزل بالامتناع عن ذلك على مراحل، وهو أمر يشبه إلى حد بعيد، ما يعرف فى الطب النفسى الآن بتشكيل سلوك غير مرغوب فيه إلى سلوك آخر مرغوب فيه.

نزلت أول مرحلة فى علاج الإدمان على الخمر فى سورة النحل الآية ٦٧ فى قول الله عز جل:

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

نلاحظ أن الآية الكريمة وصفت الرزق من ثمرات النخيل والأعناب بالحسن، ولم تصف الخمر المصنوع منهما بذلك، وهذه إشارة لم تغب عن فطنة المسلمين وفهموا منها أن السكر لا يُتصف بالحسن. وهذه المرحلة الأولى فى العلاج المسلكى، والتى تبدأ بتركيز ذهن المريض على المسلك المراد تعديله فقط، دون تعليق سلبى أو إيجابى، فتهيأت بذلك الخلفية الحيادية المطلوبة، وهى خلفية ضرورية للخطوات التى تأتى بعدها من خطوات العلاج النفسى للإدمان.

المرحلة الثانية فى علاج الإدمان على الخمر: فى سورة البقرة الآية ٢١٩ فى قول الله عز وجل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا...﴾

فى هذه الآية الكريمة، الأسلوب العلمى المثالى فى العلاج المسلكى، الذى يحاول أن يصل إليه علماء النفس فى عصرنا الحالى، قوله تعالى: ﴿**فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**﴾، تعنى العقاب، وأن الميل إلى الخمر والميسر يحيط به إثم كبير، ولا مخرج من ذلك الإثم إلا بالكف عن شرب الخمر ولعب الميسر واجتنابهما، أى أن القول هنا ترهيب أى هو دفع سلبى، ويلى هذا الترهيب ترغيب فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾، ثم يعود الدفع السلبى فى الظهور مرة أخرى فى قوله تعالى: ﴿**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾، والدفع السلبى الثانى فى الآية الكرية منقطع وليس مستمرا، وهو دفع نوعى لأنه يقترن بالاتجاه المطلوب دفعه مباشرة، ولو طبقنا قوانين

الدعم النفسى فى الطب النفسى، على الآية الكريمة، لوجدناها كلها متوفرة. فالدفع النفسى ليس مستمرا؛ لأن الدفع المستمر، سلبيا كان أم إيجابيا، أقل فاعلية فى تعديل السلوك غير المرغوب فيه، من الدفع المنقطع غير المستمر، وقال أهل النظر: حُرمت الخمر بهذه الآية، فلقد أخبر الله تعالى أن فى الخمر إثما كبيرا، ويكفى هذا فى تحريمها.

ثم جاءت الخطوة الثالثة فى علاج الإدمان:

وهى الخطوة الثانية فى عملية تشكيل السلوك فى سورة النساء الآية ٤٣ فى قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾

نلاحظ فى الآية الكريمة أن السلوك المرغوب هو الامتناع عن شرب الخمر قبل الصلاة، إلا أن الآية سكتت عن ذكر تحريم شرب الخمر فى غير أوقات الصلاة، وهى إشارة واضحة، فهم منها المسلم أن عليه أن يكف عن شرب الخمر قبل الصلاة، ولا مانع من شربها بعد الصلاة إن أراد، على أن يكف عن ذلك قبل الصلاة التالية. والصلاة هنا دعم إيجابى لترك شرب الخمر فى أوقاتها، وكسر لعادة الإدمان على شرب الخمر؛ إلا أنه نظرا لضيق الوقت بين كل صلاة وصلاة تالية، فكان على المسلم أن يقلل كمية الخمر التى يشربها بعد أى صلاة حتى لا تدخله فى حالة سكر فى الصلاة التالية. وهذا نوع آخر من مراقبة الذات، وهو نوع من أنواع العلاج المسلكى. وكانت النتيجة تقليل كمية الخمر التى كانت تُشرب قبل الصلاة، هذا فضلا عن أن الوقت بين كل صلاة وصلاة تالية، وقت قصير، لا يكفى لشرب الخمر والإفاقة منه.

وبذلك وضعت الآية الكريمة المسلم حينئذ أمام حتمية تقليل تعاطى الخمر تدريجيا، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية؛ لأنه يؤدى إلى الامتناع عن تناول الخمر فى نهاية الأمر، ولكنه فى الوقت نفسه، يؤدى إلى تجنب آثار الامتناع الفجائى عن شرب الخمر (أى الآثار الانسحابية) التى يعانى منها المدمن على الخمر إن توقف عن الشرب.

ونلاحظ فى الآية الكريمة أن التشكيل انتقل من تعديل الاتجاه فقط إلى تعديل السلوك المرئى وهو شرب الخمر.

الخطوة الرابعة فى علاج الإدمان:

وهى الخطوة الثالثة فى التشكيل النفسى فى سورة المائدة، فى قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

نلاحظ أن الآية الكريمة قرنت بين الخمر والميسر، والممارسات الوثنية وعمل الشيطان. وبأمر صريح بالاجتناب. والاجتناب أشمل من التحريم؛ لأن الاجتناب يشمل تحريم الشرب والابتعاد عن مجالسه أيضا. ولقد أعطت الآية الكريمة مثلا علميا

مثاليا فى أسلوب التشكيل فى تغيير مسلك غير مرغوب فيه إلى مسلك مرغوب فيه. وجاء فى تفسير القرطبى: ورد التحريم فى الميتة والدم ولحم الخنزير، وورد النهى والزجر والاجتناب فى الخمر والميسر، وهو أقوى من التحريم لأنه اجتناب مطلق.

الخطوة الخامسة فى علاج الإدمان:

وذلك فى سورة المائدة الآية ٩١:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

فلما سمعها عمر بن الخطاب قال: انتهينا، ولا خلاف بين المسلمين أن هذه الآية نزلت بتحريم الخمر نهائيا، ولم تنزل بعدها آية بتحريم الخمر.

وبهذا تم الشفاء، وتمت خطواته فى القرآن، إنها خمس آيات قرآنية وضعت الأسس الصحية والعلمية لشفاء مجتمع شارب للخمر شفاء ناجعا، وهى منهج متكامل يصلح لعلاج أى مجتمع مدمن على الخمر فى أى عصر من العصور، وفى أى مكان فى الأرض، وفى أى أمة من الأمم.

يقول بعض المفسرين إنها خمس آيات، كل آية تنسخ ما قبلها، وهذا ليس صحيحا، فهى آيات لم تُنسخ، فلكل منها تطبيق. وفى كل منها درجة هامة من درجات العلاج، لا يمكن الاستغناء عنها. فالآيات الخمس خطة شاملة متكاملة لشفاء متكامل للإدمان على الخمر، وتصلح للتطبيق فى علاج أى مجتمع مدمن على الخمر فى أى مكان وفى أى زمان، كمثل منهج دراسى متكامل لسنوات خمس فى مدرسة ثانوية أو جامعة من الجامعات، لكل سنة من تلك السنوات منهج تعليمى يهيئ الطالب لتلقى المنهج الذى يليه فى السنة التالية، وهكذا حتى السنة الخامسة، وليس معنى ذلك أن نلغى المنهج التعليمى للسنوات الخمس إذا تخرج الطلاب، أو أن المنهج التعليمى للسنة الثانية ينسخ المنهج التعليمى للسنة الأولى، أو أن المنهج فى السنة الثالثة ينسخ المنهج الدراسى فى السنة الثانية، لا، إن الأمر ليس كذلك، إنه منهج متكامل للسنوات الخمس كلها، يصلح لتعليم أى دفعة من الطلبة الجدد، والأمر نفسه فى الآيات الخمس والخطوات الخمس لعلاج الإدمان على الخمر، لم تنسخ آيةٌ آيةً سبقتها، ولم تبطل حجيتها للأمم التى ستأتى مستقبلا، فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة.



الميسر

القمار هو الميسر أو أن كل شيء فيه قمار فهو من الميسر، والميسر من عمل الشيطان، والشيطان ينزغ للإنسان منذ وجوده على هذه الأرض؛ لذلك عرف الناس الميسر منذ أقدم العصور. ولا ندرى متى بدأ الإنسان فى لعب الميسر، إلا أننا نعلم أن المصريين القدماء كانوا يمارسونه، وكذلك الصينيون والهنود القدماء، وكذلك فعل الإغريق والرومان والعرب فى الجاهلية، فالميسر رجس من عمل الشيطان، وهو شر مطلق.

وأخرج الإمام مالك عن داود الحصين أنه سمع سعيد بن المسيب رضى الله عنه يقول: (من ميسر أهل الجاهلية بيع الحيوان باللحم بالشاة والشاتين).

ولقد مارس الإنسان لعب الميسر فى صور مختلفة وفى كل عصر من العصور. وليس كل إنسان يلعب الميسر يدمن عليه، ولكن لاعب الميسر المستمر فيه، إنسان ذو شخصية غير مستقرة، وهو غير ناضج نفسيا، وقد يكون معقل الشخصية أو مريضا نفسيا، فهو إذ يلعب الميسر إنما يهرب من واقعه إلى سراب الثراء السريع، وتستهويه المتعة والإثارة التى يتوهمها فى لعب الميسر.

وتلعب البيئة أيضا دورا هاما فى الإدمان على الميسر، فالذى يرى والديه أو إخوته يلعبون الميسر، يتأثر بهم ويحاول أن يقلدهم. ويزعم بعض المقامرين أن الميسر ظاهرة حضارية، وهم فى ذلك مخطئون.

ومن أسباب الإقبال على الميسر ضعف ارتباط المقامر بالدين، وعدم تمسكه بأوامر الله ونواهيه.

ومما سبق نفهم أن إقبال بعض الناس على لعب الميسر يرجع إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: يرجع إلى أسباب اجتماعية تشجع على انتشار الميسر، وهى أسباب تعد الميسر نوعا من المتعة والتسلية البريئة مثل المجتمعات التى يعتمد اقتصادها على نوادى القمار كما هو الحال فى مونت كارلو، ومثل نوادى القمار المنتشرة فى كل مدينة وخصوصا فى العالم الغربى، وفى المجتمعات غير الإسلامية فى مختلف بقاع العالم.

الثانى: يرجع إلى ظروف البيئة السيئة التى نشأ فيها الإنسان، والتى تشجع على الإقبال على لعب الميسر، فالمقامر ينشأ غالبا فى طفولته فى بيت يلعب أفراده القمار ويشربون الخمر، وطفل كهذا سوف يتجه إلى الخمر والميسر عندما يكبر، وبذلك تقع المسئولية على الوالدين، فهما القدوة لأولادهم.

الثالث: سبب يعود إلى شخصية المقامر نفسه فهو إنسان معتل الشخصية، يعانى من القلق، وقد يكون عصابيا، ولا يمكن أن يكون ناضجا فكريا، ولا يوصف قط بقوة الشخصية أو بصفاء السريرة أو بحبه لدينه. وإنسان مريض نفسيا كهذا يقع بسهولة فى المعاصى والآثام ويسعى فى الفساد فى الأرض، وهو مهيأ تماما إلى الإدمان على الخمر والميسر، ويشبع الميسر فيه رغبات مرضية نفسية، تنطوى على نوع من السادية، وتتغلب عليه القسوة ويتملكه الحقد وعدم الاكتراث بحزن المغلوب وضياع مستقبله، ولو كان المغلوب أقرب الناس إليه، فالشعور بالمتعة فى الفوز فى الميسر شعور مرضى، وليس متعة بسبب الحصول على المال فقط.

ولاعب الميسر يبدأ بالميسر العرضى الذى قد لا يستمر فيه طويلا، إلا أنه يعود إليه بعد ذلك وينتهى به الأمر إلى الاندفاع فى لعب الميسر، ولا يستطيع أن يكبح جماح نفسه، فيلعب القمار مواصلا الليل بالنهار، ويظل جالسا على مائدة القمار طوال الليل حتى طلوع النهار ولا يدخل جوفه إلا الخمر ودخان التبغ، وشخص كهذا لا يكون مختل الشخصية فقط ولا يكون مريضا نفسيا فحسب، ولكن يكون مريضا بدنيا أيضا.

ولقد حرم الإسلام الميسر وقاية للإنسان من أضراره الصحية والنفسية والاجتماعية:

ومن الأضرار الصحية: الإسراف فى السهر والإرهاق البدنى والإسراف فى الخمر والتدخين، يؤدى كل ذلك إلى أمراض فى الجسم لا حصر لها لعل من أهمها الأمراض النفسية البدنية مثل أمراض: السكر، وارتفاع ضغط الدم، وقرحة المعدة والاثنى عشر وأمراض شرايين القلب والجهاز الهضمى العصبى (القولون العصبى) وما يترتب على ذلك من اضطرابات فى الهضم.

ومن الأضرار النفسية: المقامر إنسان فاقد الثقة بنفسه ويشعر بالذنب، وسرعان ما يقع فى الإدمان على التدخين والمسكرات، كل هذا بالإضافة إلى السادية، وكراهية الآخرين، والبغضاء للناس جميعا، وكثيرا ما يعتدى المقامرون على بعضهم البعض، فذلك قول الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾
[المائدة: ٩١]

لذلك فإن المقامر مريض نفسيا وبدنيا، ويعيش فى حياته محاطا بالمشاكل المالية والاجتماعية والعائلية وتكون نهاية المقامر الفشل فى كل شىء والبؤس والخسران فى الدنيا والآخرة.

ولم يذكر تحريم الميسر فى القرآن العظيم إلا مقترنا بتحريم الخمر والأمر باجتنابها، وهذا الاقتران بينهما مبنى على أساس علمى، وكيف كان ذلك؟

لماذا قرن القرآن بين تحريم الخمر وتحريم الميسر؟

ذلك للشبه الكبير بين إدمان كل منهما. فلاعب الميسر يبدأ أول ما يبدأ بدافع من اللهو وحب التجربة، أو بمصاحبة قرناء السوء ومجاراتهم وتقليد أفعالهم، وما تلبث نفسيته المهتزة وشخصيته المعتلة أن تجد فى لعب القمار تسلية ولذة ومأربا، فيذهب للعب القمار - مثلما يفعل شارب الخمر - كلما شعر بالملل أو بالتوتر النفسى، فيزول عنه التوتر فى اللعب ويزول عنه الملل. ومثل شارب الخمر الذى ينتظم بعد ذلك فى شرب الخمر، يصير المقامر منتظما فى لعب القمار، ولكل من شارب الخمر ولاعب القمار نفس الاتجاه الفكرى، ويصر كل منهما إذا نصحه أحد بالكف عما هو فيه، على موقفه ويدعى أنه إنما يفعل ذلك لمجرد التسلية، وأنه يستطيع أن يكف عنه متى أراد، وهو كاذب فى ذلك - يكذب على غيره ويكذب على نفسه - فهو لا يستطيع أن يكف عما هو فيه، ويشعر فى قرارة نفسه بالخطأ، ولكنه لا يستطيع المقاومة، ويشعر بالذنب، فتأخذه العزة بالإثم، فيتمادى فى لعب الميسر، حتى يصبح الميسر شغله الشاغل، وبذلك يرتبط بالميسر ارتباطا إدمانيا، ينفق فيه معظم وقته، ويهدر فيه معظم دخله، فيزداد شعورا بالذنب ويزداد غيظا وكمدا، ويزداد تماديا على أمل أن يعوض ما خسره. ولا يستطيع التوقف عن الإدمان على الميسر، مثله فى ذلك مثل المدمن على الخمر. وينتحل لنفسه الأعذار التى يحاول بها أن يبرر ما يفعل، وهى أعذار لا يكون هو نفسه مقتنعا بها فى قرارة نفسه. وتأتى المرحلة الأخيرة المدمرة التى يكون قد خسر فيها صحته وماله وروابطه الأسرية، فيزداد رغبة واندفاعا مجنونا إلى لعب الميسر، ويزداد إصرارا على الحصول على مال غيره من المقامرين وتحطيم معنوياتهم وإذلالهم وتدميرهم فى كل ناحية من نواحى حياتهم،



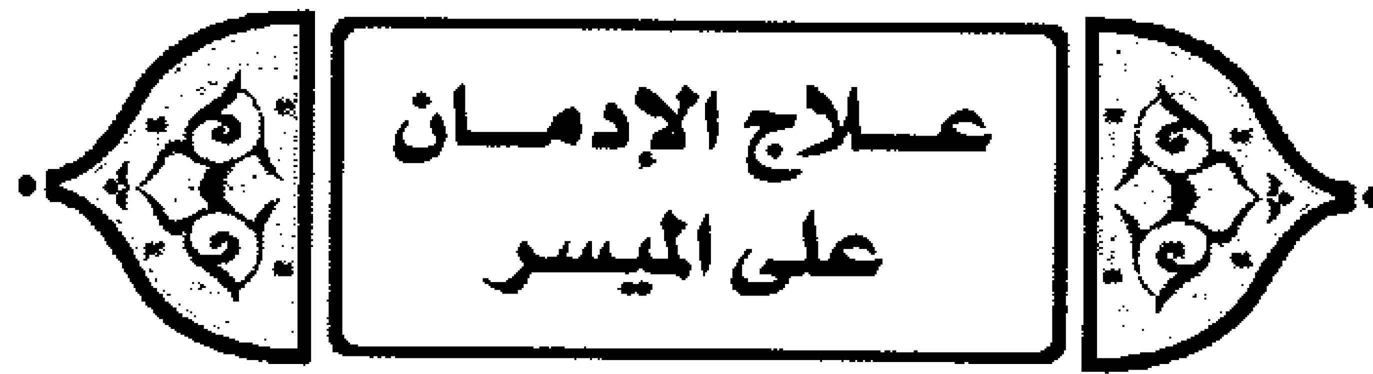
ويجد فى ذلك لذة نفسية. ولابد له من مال يلعب به، فإن لم يجد، يلجأ إلى الاستدانة من الغير، وكثيرا ما يرفض الناس إعطاءه دينا فهو لن يرده، فيلجأ إلى الاختلاس أو السرقة أو السطو على مال غيره. ولن يوقفه عن ذلك وازع من ضمير أو وازع من دين، وقد يرتكب جرائم القتل فى سبيل الحصول على المال.

وتكون النتيجة ضياع أسرته، وكثيرا ما يحدث الطلاق، ويتشرد أولاده، ويفقد عمله، وتدمر علاقاته الاجتماعية، ويفقد المال والصحة والمكانة بين الناس، ويهمل غذاءه ويهمل العناية بنفسه ويدمن التدخين ويدمن الخمر؛ اعتقادا منه أن ذلك ينسيه واقعه المر. وتهاجمه الأمراض من كل مكان، ولا يجد المال الذى يستطيع أن يعالج به نفسه، فيقع صريع الكثير من الأمراض البدنية والنفسية، فيصير إنسانا بلا دين وبلا قيم، وبلا خلق ولا ضمير ولا شخصية سوية، وكثيرا ما تقوده تصرفاته إلى دخول السجن.

إنه نفس الطريق الذى يؤدى بغيره إلى إدمان الخمر، ونفس المصير مع فارق واحد؛ وهو أن للخمر تأثيرا سيئا ومباشرا على أجهزة الجسم، وأن للميسر آثارا ضارة بصحة الإنسان بطريق غير مباشر. وفى معظم الأحوال يجتمع الخمر والميسر فى إدمان واحد ويمسكان معا بتلابيب الإنسان. وثبت من دراسات إحصائية أن كل لاعب للقمار يدخن، وأن أكثرهم يشربون الخمر، وينتهى الأمر بلاعب القمار بالوقوع فى الأمراض المختلفة والمشكلات التى لا يجد لها حلا.

من كل ما سبق نفهم لماذا قرن القرآن العظيم، الخمر والميسر معًا فى النهى والاجتناب. والاجتناب أشمل وأعم من التحريم. فلو اقتصر الأمر على تحريم الخمر والميسر لكان للإنسان أن يحضر مجالس الخمر والميسر، ولا حرج فى ذلك، ولكن لا يتعاطاهما. ولكن إذا أمر باجتنابهما لا يتعاطاهما ولا يحضر مجالسهما، ولا يقربهما من قريب أو من بعيد، وهذا هو معنى الاجتناب، فذلك قول الله عز وجل فى سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.



علاج الإدمان على الميسر

لا شك أن ذلك أمرا لا يقل صعوبة على علاج الإدمان على الخمر؛ لأن المعالج يحاول أن يصلح من أمر إنسان مدمر صحيا ونفسيا، وقد وقع فى ضياع فى مختلف وجوه الحياة.

والعلاج يكون على شقين:

١- العلاج الوقائى.

٢- علاج المقامر المدمن نفسه.

العلاج الوقائى: يعتمد على الأسرة قبل الدولة، فينبغى على رب الأسرة ألا يشجع أولاده على المقامرة، بأى صورة من الصور، ولو كانت فى ألعاب مسلية تبدو بريئة، ويجب أن يكون رب الأسرة المثل الطيب والأسوة الحسنة لكل أفراد الأسرة، وإذا لاحظ أى قلق أو توتر أو ملل لدى أولاده من الشباب فيجب أن يساعدهم بالعلاج لدى أخصائيين فى علم النفس وعلم الاجتماع، وبذلك ينمو الطفل فى بيئة مستقرة، ويحيا الشاب بعيدا عن الملل والتوتر النفسى الذى قد يدفعه إلى ممارسة شىء يزيل عنه ذلك، وقد يكون ذلك بداية النهاية له.

ومن أهم مقومات الإنسان السوى، سلامة عقيدته الدينية والتى فيها صلاح أمره كله، فالذى يريد أن يحمى أولاده من أى انحراف عليه أن يثبت الدين فى قلوبهم وينشئهم عليه، إن فى ذلك خير علاج وقائى، وينبغى أن توفر للأولاد وسائل الترفيه البرىء والمفيد فى إطار الدين لا يخرجون عنه؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

ومن الضرورى أن ندعو إلى عدم إذاعة الأفلام المستوردة التى تشجع على القمار والخمر، أو تصور أن ذلك أمرا عاديا وليس فيه عيب أو نقص، ومنع عرض الأفلام - أو اللقطات من تلك الأفلام - التى يلعب أبطالها القمار كتسلية مستحبة أو يشربون كئوس الخمر كشراب يريح أعصابهم - إن مثل هذا يضر بالشباب ضررا بليغا، لأنهم يفكرون فى تقليدهم.

أما علاج المقامر نفسه: فيجب أن يكون تحت إشراف طبيب نفسى متخصص. وفى ذلك لن نسترسل لأنه يخرجنا عن موضوع الكتاب.

ولابد من علاج إدمان الخمر والميسر معًا. ونلاحظ أن القرآن الكريم عالج إدمان الخمر على خطوات تدريجية - وذلك لضرورة علمية تحدثنا عنها من قبل - حتى شفى المجتمع من الإدمان على الخمر نهائيا فى غضون سنوات قلائل. أما الميسر فقد جاء النهى عنه قطعيا، والتحريم منه مطلقا، واجتنابه تماما، دفعة واحدة وعلى الفور وليس تدريجيا؛ لأن الامتناع عن شرب الخمر على الفور لا يقدر عليه شارب الخمر، فالأعراض الانسحابية ستضطره إلى معاودة الشراب، أما الامتناع عن الميسر دفعة واحدة وعلى الفور فهو أفضل من الامتناع عن لعب الميسر تدريجيا، فلا يتحقق الشفاء من المرض النفسى للاعب القمار إلا بالامتناع عنه دفعة واحدة. وجاء الزجر والتخويف بأن ربط بين الميسر وبين الكفر ووصفه بأنه رجس من عمل الشيطان، وأنه صد عن ذكر الله، وهذا أفضل علاج، بل هو الشفاء الصحيح لمدمن الميسر، كما قال الله عز وجل:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء: ٨٢].



تلوث البيئة



خلق الله تعالى كوكب الأرض، ووفر فيه كل أسباب الأرزاق وأسباب استمرار الحياة لكل الأحياء. وجعل فيه غلافا جويا ضروريا، ووفرة فى الماء، وخصوبة فى التربة، وظلت البيئة بدون تلوث حتى قامت النهضة الصناعية منذ القرن الماضى، وبدأت مشكلة تلوث البيئة معها. إن للمدنية الحديثة وجهين، وجه الرفاهية والتطور إلى الأفضل، ووجه تلوث البيئة والتغير إلى الأسوأ.

ولقد كان الظن أن المدنية الحديثة والتقدم التكنولوجى والصناعى سيحل مشكلات الإنسان وسيجلب الرفاهية والسعادة والحياة الأفضل، إلا أن الذى حدث كان عكس ما كان مرجوا ومأمولا. فقد تلوث الجو وتلوثت البحار والأنهار، الأمر الذى يحمل أخطارا كبيرة للأحياء على هذه الأرض.

إن مشكلة التلوث مشكلة كبرى، ويجب أن يكون لها حل، ولكن ليس معنى هذا أن نتخلى عن المدنية ونلغى التقدم الصناعى ونهدم المصانع، ونتوقف عن إنتاج السيارات والطائرات ونعود إلى ركوب الخيل والإبل. ولكن علينا أن نكون فى منتهى الحذر فى تعاملنا مع البيئة فى البر والبحر والجو، فلا نسبب لها تلوثا، ولا نقلب فيها الموازين، وبذلك نقضى فى النهاية على أسباب الحياة على هذه الأرض.

ولا شك أن التلوث من أهم المواضيع التى تشغل بال العلماء، وما يمر عام إلا وتعقد المؤتمرات الدولية التى تناقش المشكلة وتحاول أن تضع لها الحلول.

ويوجد ما يعرف بالتوازن البيئى، وهو التوازن بين كل عناصر البيئة من ناحية وبين الإنسان والبيئة من ناحية أخرى. والعلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة وثيقة، إلا أن الإنسان يحاول أن يغزو البيئة ويحاول تغييرها، وذلك يؤثر فيها تأثيرا سيئا. وما يتدخل الإنسان فى شىء إلا وأفسده، وما يكتشف شيئا جديدا إلا ويحاول أن يستخدمه فى الفساد، كما حدث فى اختراع البارود واكتشاف الانشطار النووى. وهذا ما يفعله الإنسان الآن فى البيئة، ما يتدخل فى شىء متعلق بالبيئة إلا أفسده. فالإنسان دائما تنزع نفسه إلى الفساد والإفساد، ونذكر قول الله عز وجل فى سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وفى سورة البقرة الآية ٢٠٥ يتحدث الله عز وجل عن الإنسان الذى يسعى فى الأرض فسادا:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

ونذكر قول الله عز وجل فى سورة الروم:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

نفهم من الآية الكريمة أنها تشير إلى التلوث فى البر والبحر والجو فهو أعظم فساد حدث فى تاريخ كوكب الأرض، الذى يؤدى إلى أشد الأذى بالأحياء على الأرض على المدى القريب، والفناء للحياة على المدى البعيد. إلا أن المفسرين القدامى فسروا الفساد فى البر والبحر والجو بما كان يحدث فى عصورهم قبل عصر تلوث البيئة، فقالوا فساد البر قتل ابن آدم أخاه كما قتل قابيل أخاه هابيل، وفى البحر بالملك الذى يأخذ كل سفينة غصبا، والفساد فى البر بقلة النبات وذهاب البركة. ومن الواضح أن الآية الكريمة لم تنزل للناس قديما، وإنما نزلت للعصور الحديثة بعد النهضة الصناعية وبدء وعصر تلوث البر والبحر والجو. ذلك التلوث الرهيب الذى يهدد الحياة على الأرض بالفناء. والتلوث هذا من عمل الناس وصنع أيديهم. فذلك قول الله عز وجل:

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾

ولقد ذاقوا صنوف الأمراض والأضرار والخسائر المادية، قال تعالى:

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾

ولو توقف الناس عن إحداث التلوث فى البر والبحر والجو، وتنبهوا إلى ما يقومون به من إفساد وفساد فإن البيئة ستتحسن، وبمرور الوقت تقل نسبة التلوث وتعود للبيئة

وجـهـها المشـرق النقى.. فـذلك قـول الله عز وجل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وآية سـورة الروم تدل على أن الفسـاد سيظهـر فى البر والبـحر والجو، فـهى منزلة على الناس الذين لوثوا البيئة بدون وازع من إيمان، وبدون محافظة على أسـباب استمرار الحيـاة على كوكب الأرض، ووضـعوا نصب أعينهم فقط المكاسب المـادية الصناعية، فكان أن أذاقهم الله تعـالى ويلات التلوث البـيئى، لعلهم يرجـعون. وفى نفس المعنى نقـرأ فى سورة الشورى قول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

١- تلوث الجو

ذكر القرآن الكريم الـتلوث والفساد فى البر والبحر بما كـسبت أيدى الناس ولم يذكر الجو، ذلك أن الـبر يعنى البـر وما فـوقه من جو، وإن البـحر يعنى البـحر وما فـوقه من هواء، فـذكر البـر والبـحر يـعنى ذكر الجـو أيضا.

وجعل الله تعالى للأرض غلافا جويا، يحـفظ الحـيـاة على سطح الأرض - من بر وبحـر - ويـمنع عن سطـح الأرض أخطار الفضاء الكونى، ويمد الـكائنات الحية بالهواء اللازم لتنفسها. وتوجد علاقة وثيقة بين الجو وبين الأرض، كمـا توجد عـلاقة وثيـقة بين



الجو والبحر، فالسحب تحملها الرياح فى جو الأرض، وهى تتكـون من سطح البـحـار، فلولا البحـار ما تكونت الـسحب التى تسبح فى جـو السمـاء. وينـزل المطر مـن السمـاء على الأرض فـيحـيى الأرض بعـد موتهـا، فذلك قول الله عز وجل فى سورة النحل:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وفى سورة طه الآية ٥٣:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، فتكوين المطر ونزوله صورتان من صـور العلاقـة الوثيقة بـين البر والبحر والجو.

إذن فنظافة الجو ضرورية لنظافة كل من البر والبحـر، فمن البر ما يصعـد إلى السماء ومن السماء ما ينزل إلى البر، كما قال تعالى فى سورة سـبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

جو الأرض كان نقيا حتى قبل اكتشاف الفحم:

الهواء موجود على سطح الأرض فى كل مكان. ومتوفر بدون ثمن لكل كائن حى، ومع ذلك فهو أغلى شىء فى كوكب الأرض. ووزن الغلاف الجوى حول الأرض نحو خمسة ملايين بليون طن. ولو وزعت هذه الكمية على سكان الأرض من البشر لكان نصيب كل إنسان منها مليون طن من الهواء بدون مقابل. وهذا من نعم الله على عباده التى لا يحصيها الإنسان، ولكنه أساء التعامل مع هذه النعمة، فكفر بها وظلم نفسه. فذلك قول الله عز وجل فى سورة إبراهيم:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

إننا قد ندفع ثمن الماء الذى نشربه، ولكن لا ندفع شيئا مقابل الهواء الذى نستنشقه. مع أن الهواء أهم من الماء؛ لأنه لولا الهواء ما تكون الماء، كما أن الإنسان قد يصبر على العطش يوما أو أكثر، ولكنه لا يستطيع أن يصبر عن الهواء دقائق. ويستطيع الإنسان أن يرفض ماء لا يستسيغه أو طعاما لا يشتهيه، ولكنه لا يستطيع أن يرفض استنشاق الهواء، ولو كان به غازا ساما، فهو مجبر على أن يستنشقه. لذلك فإن أكثر أنواع أسلحة الحروب خسة، هو إطلاق الغازات السامة فى الجو ضد الأعداء. والإنسان يستهلك من الهواء أكثر مما يستهلك من الطعام والشراب، فالفرد الواحد يستهلك فى اليوم الواحد عشرة كيلو جرامات من الهواء، ولا يستهلك من الطعام والشراب أكثر من ربع هذه الكمية. ومما سبق ندرك مدى أهمية الهواء للإنسان والكائنات الحية جميعا على هذه الأرض واستمرار الحياة عليها.

ومكونات الهواء الطبيعية: ٧٨٪ غاز نيتروچين، ٢١٪ غاز أكسچين، ٠,٩٣٪ غاز الأرجون الخامل وغازات أخرى مثل: الهيليوم والزينون والهيدروچين وغير ذلك من الغازات، ٠,٠٣ غاز ثانى أكسيد الكربون، هذا بالإضافة إلى بخار الماء وجسيمات التراب العالقة بالجو.

وبقى الهواء بمكوناته الطبيعية ثابتا بمرور مئات الملايين من السنين وبالرغم من ثورات البراكين، واشتعال الحرائق فى الغابات، إلا أن العوامل الطبيعية فى الجو استطاعت أن تعيد التوازن مستقرا ومستمرا.

إلا أنه منذ اكتشاف الفحم واستعماله كوقود، ومن بعده البترول والغاز الطبيعى، بدأ الغلاف الجوى يتلوث تدريجيا، وابتدأ عصر التلوث البيئى الرهيب. إلا أنه ظل محدودا حتى حلول عصر النهضة الصناعية الحديثة. وزاد عدد المصانع وعدد السيارات

والطائرات. وتقذف المصانع بالدخان في الجو، بالإضافة إلى عوادم السيارات والطائرات، وكأن الجو صندوق قمامة!..
وكأنه ليس سر استمرار الحياة على هذه الأرض، والذى نحن مضطرون إلى استنشاقه. ولا شك أن الجو على مستوى قمم الجبال نقى نسبيا، إلا أنه كلما هبطنا إلى أسفل زادت نسبة تلوث الجو. وإذا كنا فى المحيط، فإن تلوث الهواء يزداد كلما اتجهنا إلى الشواطئ خصوصا شواطئ البلاد الصناعية. وتلوث الجو فى المناطق الريفية عشر أضعاف التلوث الجوى فى وسط الصحراء مثلا. إلا أن تلوث الجو فى المدن الصناعية مائة وخمسين ضعفا!.

وهذا يعنى أن الهواء النقى غير موجود حاليا فى أى منطقة فى العالم، لأن ملوثات الجو تنتقل من مكان إلى مكان مع تحرك الغلاف الجوى وتيارات الهواء فيه.

وهذه كارثة من صنع الإنسان، ما كان أحد فى العصور السابقة، يتخيل حدوثها.

كوارث صحية سببها تلوث الجو:

فى بلجيكا - وفى مدينة إنجز Ingis بالذات - استيقظ الناس من نومهم صباح أحد أيام سنة ١٩٣٠ وهم يسعلون بشدة، وفتحوا نوافذ المنازل، فازداد سعالهم فقد كان الضباب فى الخارج كثيفا، وكان يسبب تهيجا شديدا بالبلعوم والقصبة الهوائية وبالشعيبات الرئوية. ونفق الكثير من الحيوانات والطير، ونقل الآلاف من الناس إلى المستشفيات وهم يشكون من ضيق التنفس والسعال المستمر، ومات العشرات، ودقت أجراس الكنائس تدعو الناس إلى الصلاة، لأن الله أرسل عليهم عقابا من السماء لكثرة ذنوبهم، وما علموا إنما هم الذين ظلموا أنفسهم وعاقبوا أنفسهم، كما قال الله عز وجل:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

وكان السبب تلوث الجو بمركبات الفلور وثانى أكسيد الكبريت، التى كانت تنفثها مداخن المصانع المجاورة للمدينة. وكونت تلك الغازات مع بخار ماء حامض الكبريتوز، وتأكسد جزء منه بالأكسجين وتحول إلى ثالث أكسيد الكبريت الذى تحول إلى حامض كبريتيك، بقى معلقا فى الضباب، وكان هذا هو سبب ما حدث للناس من تهيج بالمجارى التنفسية لآلاف الناس ومن موث لكثير من الدواب والطير.

وحدث نفس الشيء فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٤٨ فى مدينة دونورا فى بنسلفانيا فى أمريكا. إن مثل هذه الأحداث من تلوث الجو يسبب ركود الهواء. ويسمى العلماء ركود الهواء «الانعكاس الجوى». وفى سنة ١٩٥٢ حدثت كارثة تلوث جوى مماثل فى لندن، ونقل الآلاف إلى المستشفيات ومات المئات منهم، فقد ازدادت كثافة الضباب حتى تعذرت الرؤية، وجثم على لندن طبقات من الهواء الراكد (ظاهرة الانعكاس الجوى) وكان السبب حرق سبعين ألف طن من الوقود فى يوم واحد، وتصاعد الدخان من المداخن بكثافة، حتى تحول لون الضباب إلى لون أسود.

ولا شك أن عوادم السيارات سبب هام من أسباب تلوث الجو. وحتى نفهم ذلك ينبغي أن نعلم أن ألف سيارة تجرى لمدة ٢٤ ساعة تنفث فى الجو بالآتى:

٣٠٠ كيلو من أبخرة هيدروكربونية غير كاملة الاحتراق.

٨٠ كيلو من أكاسيد النيتروچين، ٨٠ كيلو من غازات ثانى أكسيد الكبريت ومركبات الرصاص.

فكيف يكون حال التلوث الجوى فى مدينة مثل لوس أنجلوس التى بها ملايين السيارات، بل إننا نرى ذلك فى القاهرة التى تحتوى على أكثر من نصف مليون سيارة. والذى يصعد جبل المقطم المشرف على القاهرة وينظر إلى القاهرة صباحا، يشاهد سحابة سوداء تغطيها، إنها بخار الماء المختلط بالدخان والسناج، الذى تنفثه عوادم السيارات.

كمية الملوثات التى يستقبلها جو الأرض من المدن الصناعية

فى إحصائية قام بها چورج مورجان سنة ١٩٦٨ فى الولايات المتحدة الأمريكية: أن الملوثات التى **أطلقت إلى جو الأرض من أمريكا وحدها سنة ١٩٦٨ كانت كالآتى:**

١٧ مليون طن من السناج.

٢٩ مليون طن من غاز ثانى أكسيد الكربون.

١٧ مليون طن أكاسيد النيتروچين.

٧٥ مليون طن غاز أول أكسيد الكربون.

٢٥ مليون طن من مشتقات بترولية غير كاملة الاحتراق.

وفى بريطانيا فى سنة واحدة يطلق إلى الجو الآتى:

مليون طن من السناج.

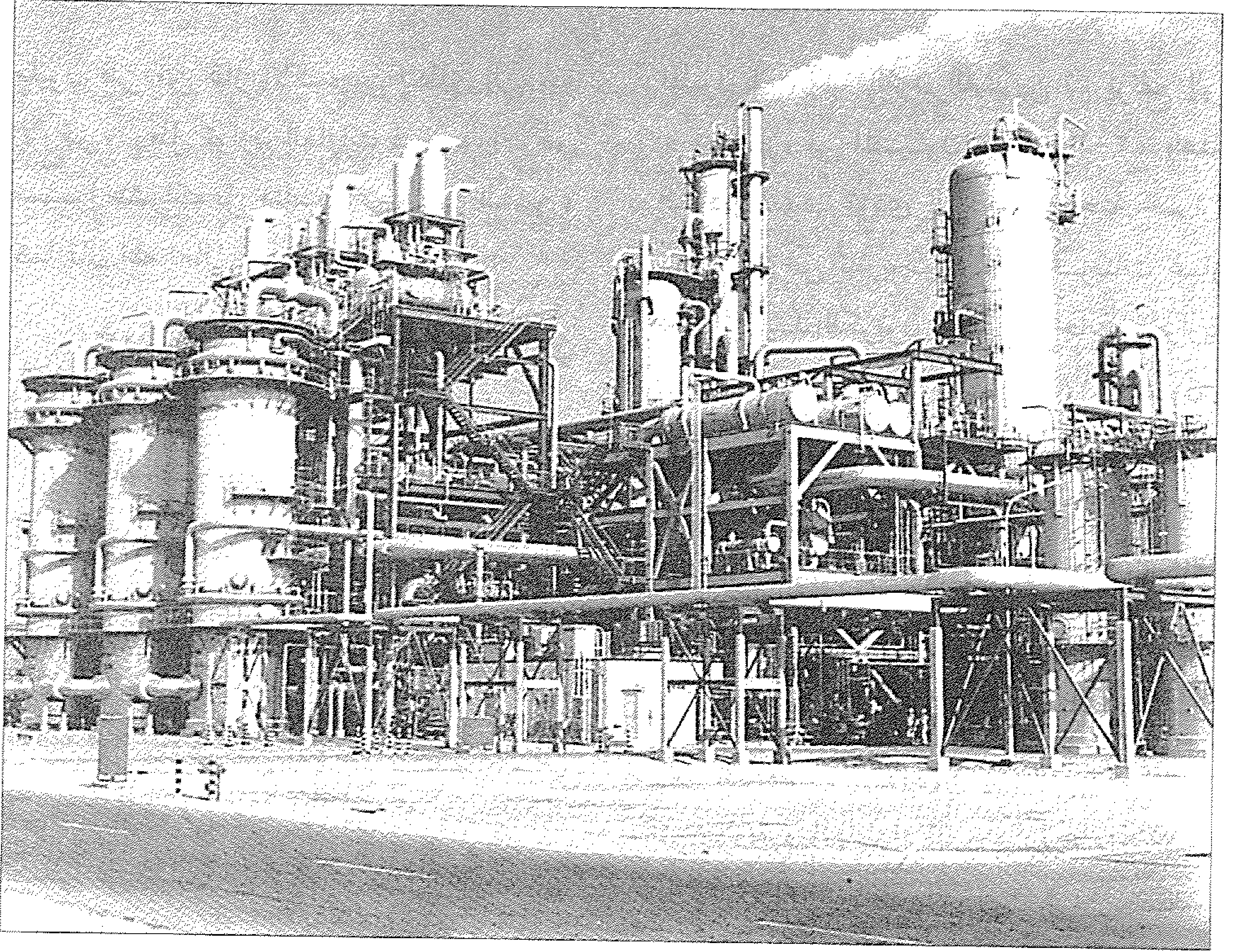
٢ مليون طن من الدخان.

٥ مليون طن غاز ثانى أكسيد الكبريت.

٣٠ مليون طن غازات ضارة أخرى.

وتوصلت الدراسات إلى أن أكثر من ألف طن من الغبار والسناج يتساقط سنويا على كل ميل مربع فى أرض المناطق الصناعية المزدحمة، أى أن كل متر مربع يتساقط عليه كيلو جرام من الغبار والسناج كل عام، إلا أن هذا القدر لا يزيد عن ٣ جرام فقط فى المناطق الريفية.

إن إنشاء المزيد من المصانع، وصناعة المزيد من السيارات والطائرات، معناه إنتاج المزيد من السيارات والطائرات، معناه إنتاج المزيد من الملوثات والنفايات الصناعية، وإذا كانت أمريكا وإنجلترا وحدها تطلقان هذه الكمية الهائلة من الملوثات الجوية سنويا فما هى الكمية التى تطلقها مدن العالم كلها إلى جو الأرض من ملوثات كل عام؟ وإلى متى سيتحمل الغلاف الجوى كل هذه الكميات الهائلة من الملوثات.



إن معدل الزيادة فى نسبة التلوث الجوى تزداد عاما بعد عام، بحيث إن الأمر وصل الآن إلى كارثة بيئية حقيقية تحمل أسباب الدمار للحياة على سطح الأرض، وتوقف الحياة عليها. ولابد من اتخاذ إجراءات عاجلة لإنقاذ كوكب الأرض ومن عليه من الفناء.

لو اطلع المفسرون القدامى على هذه الحقائق الرهيبة عن تلوث جو الأرض لعلموا التفسير العلمى لقول الله عز وجل فى سورة الروم:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قصة غاز ثانى أكسيد الكربون مع جو الأرض:

قبل عصر النهضة الصناعية الحديثة كان غاز ثانى أكسيد الكربون فى توازن محكم فى الغلاف الجوى للأرض، مما يتناسب مع دورة الكربون بين الجو والأرض حيث التمثيل الضوئى الكلورفيللى فى ورق النبات الأخضر، وحيث تنفس الأحياء، وحيث إشعال أى نار.

فالنباتات الخضراء تستنفد من الجو كل عام نحو ٥٥٠ مليون طن من غاز ثانى أكسيد الكربون، بالإضافة إلى ٤٥٠ ألف مليون طن ماء من التربة، لتنتج نحو ٣٧٥ ألف مليون طن من الحبوب والثمار، وينطلق من عمليات التمثيل الضوئى الكلورفيللى نحو ٤٠٠ ألف

مليون طن من غاز الأكسچين ينطلق إلى جو الأرض، وظل توازن الغازات فى جو الأرض مستمرا عشرات بل مئات الملايين من السنين، كما قال الله تعالى فى سورة الحجر:

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩)﴾

فالله عز وجل خلق كل شىء فى هذا العالم فى توازن تام. و(أنبتنا) أى وخلقنا.. كما قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧)﴾

أى خلقكم من الأرض خلقا. فما من شىء مخلوق فى هذه الأرض إلا وجعله الله تعالى فى توازن محكم مما كان السبب فى استمرار الحياة على هذه الأرض.

وكانت غازات الجو فى توازن محكم، إلى أن جاء عصر النهضة الصناعية منذ القرن الماضى فبدأ عصر التلوث، وجاء العصر الحالى وحدث الانفجار الرهيب فى معدل تلوث البر والبحر والجو وانقلبت كل الموازين رأسا على عقب، وحدثت مصائب كثيرة من جراء التلوث البيئى فى كل مكان، وصدق الله تعالى الذى قال فى سورة الشورى:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾.

ماذا تعنى زيادة نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو؟

تشير الدراسات إلى أن تركيز غاز ثانى أكسيد الكربون سيصل إلى ٤٠٠ جزء فى المليون فى نهاية القرن العشرين ثم يرتفع إلى ٦٠٠جزء فى المليون عام ٢٠٣٠، وهذه الزيادة سوف تؤدى إلى رفع درجة حرارة سطح الأرض تدريجيا؛ لأن جزيئات غاز ثانى أكسيد الكربون تمتص الموجات الحرارية التى تصل أطوالها من ١٢ إلى ١٨ ميكرون، وهذا يعنى أن غاز ثانى أكسيد الكربون يحتجز جزءا من الحرارة التى تشعها الأرض وتطلقها إلى السماء، وكلما زاد غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو حجز كمية أكبر من الحرارة فى الجو القريب من سطح الأرض.

ويقرر العلماء أن الحرارة عام ٢٠٣٠م سترتفع على سطح الأرض بمقدار خمس درجات فهرنهيتية وهذا سيؤدى إلى سلسلة رهيبة من الأحداث على سطح الأرض. لعل أهمها ذوبان جزء من ثلوج القطبين، الأمر الذى يرفع مستوى الماء فى المحيطات، وبذلك ستغرق كل المدن الساحلية فى القارات جميعا. كما سيحدث فيضانات عارمة على اليابسة.

وذكر بيرت بولين أستاذ الأرصاد الجوية بجامعة استوكهولم: (أن أعظم أنواع التلوث الذى تعانى منه الأرض الآن هو من صنع الإنسان نفسه، فهو يعبث بالتوازن البيولوچى فيسبب له الفساد. وبذلك ابتدأت تظهر أسباب الفناء للحياة على هذا الكوكب، أن دورة الكربون فى الطبيعة تعلمنا درسا بليغا ينبغى أن نستوعبه جيدا).

ولعل ما ذكره بيرت بولين يفسر قول الله عز وجل:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾.

اكاسيد النيتروچين:

ينطلق غاز ثانى أكسيد النيتروچين من آلات الاحتراق الداخلى فى السيارات والأفران، ففى لوس أنجلوس وحدها ينطلق إلى الجو يوميا ٥٠٠ طن من أكاسيد النيتروجين. أما ما يصعد إلى الغلاف الجوى كل عام منها فهو ٤٠ مليون طن. وغاز ثانى أكسيد النيتروچين من أخطر الغازات التى تلوث جو الأرض؛ لأنه يذوب فى السحب، ويتحول إلى حامض النيتريك، فتسقط أمطار حامضية تحرق الأشجار والنباتات، وقد تهلك الأحياء على الأرض أيضا، وحدثت أمثلة من ذلك فى شمال أوربا ويسمونها الأمطار القاتلة Killing rain ونذكر قول الله عز وجل فى سورة البقرة الآية ٣٠:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

فالإنسان يميل بطبعه إلى الإفساد، وتهفو نفسه إلى الفساد. والفساد الذى ذكرته الآية الكريمة ونسبته إلى بنى آدم، هو كل أوجه الفساد التى يمكن أن يقترفها الإنسان، وأكثرها بشاعة، إفساد الجو والبر والبحر.

الأمر الذى سينتهى بالبشرية وبالأحياء جميعا إلى الفناء لو استمر معدل التلوث الحالى ولم يتوقف. وعن بعض الناس أيضا يقول الله عز وجل فى سورة البقرة:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾

الحديث فى الآية الكريمة يحتمل أوجها كثيرة من العلم: منها ما كان من إتلاف الأموال، والتخريب والنهب والسلب، ومنها إفساد كل شىء يستفيد الناس منه، ويتسع المعنى أيضا لإفساد البيئة الجوية وتلويثها، وتحويل جو الأرض الذى يعيش الأحياء بسببه إلى ما يشبه صندوق قمامة، يلقون فيه بكل الملوثات والسموم. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن الأخنس مر بزرع المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحمر، وأهلك الحرث والنسل. والحرث كل ما يكون من النبات، والنسل كل ما يكون من الدواب، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

يدل على عموم المعنى، وأن الله تعالى لا يحب الفساد فى الأرض فى أى صورة من صور الفساد، ودل المعنى أيضا على أن الفساد، هو من المحرمات فى الدين، فما دام الله لا يحبه فهو من المحرمات، كما قال تعالى فى سورة المائدة الآية ٦٤:

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

وفى سورة المائدة أيضا ٨٧:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

وفى سورة آل عمران الآية ٢٣ :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

فـالله تعـالى لا يحب الفـسـاد، والمفسدين، والمعتدين، والكافرين، فدل ذلك على أن الفساد والاعتداء والكفر، من المحرمات قطعا.

من هذا نفهم أن أى إفساد لجو الأرض وبحارها وأنهارها وبرها، هو من المحرمات.. ومن صور إفساد الجو أيضا، **مركبات الرصاص** التى تنطلق من عوادم السيارات، وتتساقط على الأشجار، وتصل إلى الإنسان، فتسبب له أمراضا مهلكة منها الفشل الكلوى وفى بريطانيا قدروا أن ما ينطلق من مركبات الرصاص إلى الهواء فى العام الواحد، نحو ثلاثة آلاف طن. وفى العالم كله فى سنة واحدة مائة ألف طن. وتصل تلك المركبات السامة إلى جسم الإنسان عن طريق الهواء الذى يستنشقه أو الطعام الذى يأكله.

وفى غضون السنوات العشرين الماضية ارتفعت نسبة الإصابة بسرطان الرئة فى المدن الصناعية البريطانية إلى أكثر من ٤٠٠٪. ووجدوا أن تدخين السجاير أكثر من عشرين سيجارة يوميا، يزيد نسبة حدوث سرطان الرئة إلى عشرين ضعفًا.

إن كل يوم تظهر أخطار جديدة، وسلبيات مزعجة، بسبب النهضة الصناعية الحالية، التى أضرت بالإنسان أكثر مما نفعته.

فمثلا فى الغلاف الجوى على ارتفاع أكثرمن عشرين كيلو مترًا من سطح الأرض، توجد طبقة من غاز الأوزون، تمتص الأشعة فوق البنفسجية المهلكة، فلا يصل إلى سطح الأرض منها إلا القليل، الذى لا يسبب ضررا يذكر، ولقد وجد العلماء أن صناعة الأجهزة الإليكترونية، وصناعة البلاستيك، وصناعات المكيفات والثلاجات، تسبب تكوّن غاز «الكلور فلوريد كربون» وهو غاز يدمر طبقة الأوزون فى طبقات الجو العليا. ولقد اكتشف العلماء تآكلا فى طبقة الأوزون فوق منطقة القطب الجنوبى. وإذا استمرت هذه العملية، فإن ذلك يعنى بداية النهاية للجنس البشرى على هذه الأرض، ألم يخبرنا القرآن الكريم بهذا ويحذرنا ويقول:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

كل هذا بالإضافة إلى ملوثات حديثة، زادت تلوث البر والبحر والجو خطرا على صحة الإنسان، ودمارا على كل صور الحياة على الأرض إنها الملوثات الإشعاعية، وفى ذلك لن نسترسل طويلا فهو أمر معروف منذ عام ١٩٤٥، ويحدث التلوث الإشعاعى للجو بسبب التجارب الذرية والانفجارات الذرية وتسرب الإشعاع من المفاعلات، وكل ذلك الفساد مما كسبت أيدى الناس. وتطلق المواد المشعة جسيمات الإشعاع بدرجات متفاوتة، منها ما يقضى خمسا وعشرين سنة، لكى يفقد نصف إشعاعه، ومنها ما يقضى أكثر من

ألف سنة، مثل الراديوم الذى يقضى ١٦٢٠ سنة حتى يبعث بنصف إشعاعه، ومنها ما لا يستمر أكثر من أيام وأسابيع.

وينتقل الإشعاع الذرى إلى الإنسان من طريق الهواء الذى يستنشقه أو الطعام الذى يأكله أو الماء الذى يشربه، ولعل كارثة تسرب **الإشعاع** من مفاعل تشرنوبل بروسيا ليس ببعيد.

٢- تلوث البحار والأنهار

فى سورة إبراهيم الآية ٣٢ قال الله عز وجل:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾

وقال أيضا:

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

إن المحيطات والبحار على سطح الأرض تحتل أكثر من ثلثى مساحته، وكمية الماء فيها ٣٢٦ مليون ميل مكعب، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب فى البحار والمحيطات و٩ ملايين ميل مكعب مياه متجمدة على القطبين، قال تعالى فى سورة إبراهيم:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

فالشمس تعمل على تقطير مياه البحار، وبذلك يتوفر للأحياء على سطح الأرض والنباتات فيها، ثمانون ألفا من الأميال المكعبة من المياه العذبة كل عام، بالإضافة إلى خمسة عشر ألف ميل مكعب من المياه العذبة على سطح الأرض، بعيدا عن البحار والمحيطات، بمعنى أن خمسة وتسعين ألفا من الأميال المكعبة من المياه العذبة تدور بين السماء والأرض دورة مستمرة منذ بدء خلق الأرض وإلى اليوم وإلى ما شاء الله، تسمى (الدورة المائية) بين السماء والأرض.

ولا شك أن البحار والأنهار مستودع هائل لكثير من مصادر الغذاء للإنسان فى هذه الأرض. إلا أن الإنسان فى عصر النهضة الصناعية، امتدت يده إلى البحار والمحيطات أيضا، وأوسعها تلوثا وإفسادا، فحق عليه قول الله فيه: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾



فالناس يلقون فى البحار والمحيطات بكثير من النفايات والملوثات والسموم. نأخذ

منها مثلا مياه الصرف الصحى، ومخلفات الأسمدة الكيماوية، والأحماض والسموم الناتجة من الصناعة، والأملاح المعدنية الضارة المتخلفة من المناجم، ونفايات المصانع والمنظفات، والمبيدات الحشرية، والملوثات الإشعاعية، ويلقون كل هذا، فى البحار والأنهار والمحيطات!! فأى فساد وأى إفساد أبشع من هذا؟! ولقد أشار رئيس لجنة الطاقة الذرية الأمريكية أن كل أنهار الولايات المتحدة الأمريكية، سوف تكون أنهاراً ميتة، ليس فيها أى أحياء بحرية فى غضون عشرين عاما إذا استمر التلوث على معدلاته الحالية، ولسوف تنقرض الأسماك والحيوانات البحرية وينعدم وجودها، ولن نتحدث عن تلوث مياه البحار والمحيطات بالنفط، بسبب سوء تصرف أصحاب ناقلات النفط، وتنظيف مستودعاتها فى عرض البحار، أو غرق الناقلات نفسها وهى محملة بآلاف الأطنان من النفط.

ولقد صارت أنهار كثيرة شبه ميتة، مثل نهر الراين فى وسط أوربا. وشواطئ ملوثة تماما، مثل شواطئ إسكندنافيا، وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، وخاصة سواحله الشمالية الغربية، بين شواطئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا.

وتقول الدراسات: إن البحر الأبيض المتوسط، مهدد بأن يكون بحرا ميتا فى المستقبل القريب؛ لأن سبع عشرة دولة تطل على شواطئه، وتلقى كل منها فيه ملوثات كيماوية وصناعية وصرف صحى. كما يلقى فيه نفط متسرب من ناقلات النفط. وماء البحر الأبيض المتوسط لا يتغير إلا كل ثمانين عاما على الأقل، فهو بحر شبه مقفل، والخليج العربى لا يتجدد ماؤه إلا كل ثلاثين سنة على الأقل، والبحر الأحمر كذلك. ولذلك فإن تلوث هذه البحار تكون له عواقب وخيمة ووشيكة. ومن أسباب تلوث الأنهار إقامة المصانع الكبيرة على شواطئها، إنها تنفث بدخانها الكثيف فى السماء، فتلوث الجو، وتلقى بنفاياتها السامة فى الأنهار، إذا كانت على شواطئ البحار فتلقى نفاياتها فى البحار، فالمصانع تلوث البحر والجو، وتسبب سقوط الأمطار الحامضية، فتهلك الحرث على الأرض فهى تلوث البر أيضا.

ولم تكن كل هذه المشكلات من التلوث البيئى موجودة من قبل، ففى العصور السابقة كانت البيئة فى البر والبحر والجو أكثر نقاء وأكثر توازنا، فالإنسان فى عصرنا هذا عمل على إفساد كل بيئة، فكان الإنسان أول ضحايا ما كسبت يداه من إفساد، وأول من ذاق وبال أمره، وأول من عانى مما صنعت يداه، فذلك قول الله عز وجل فى سورة الروم: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (٤١)﴾.

﴿**لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾ لأن الفساد الذى سببه الإنسان فى البر والبحر والجو، لا يذوق الإنسان كل نتائجه المدمرة، ولكنه يذوق بعضها، بينما يعم الضرر غير الإنسان من كائنات حية ونباتات، فالإنسان

يذوق بعض آثار الفساد الذى جنته يداه. فذلك قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾.

٣- تلوث البر

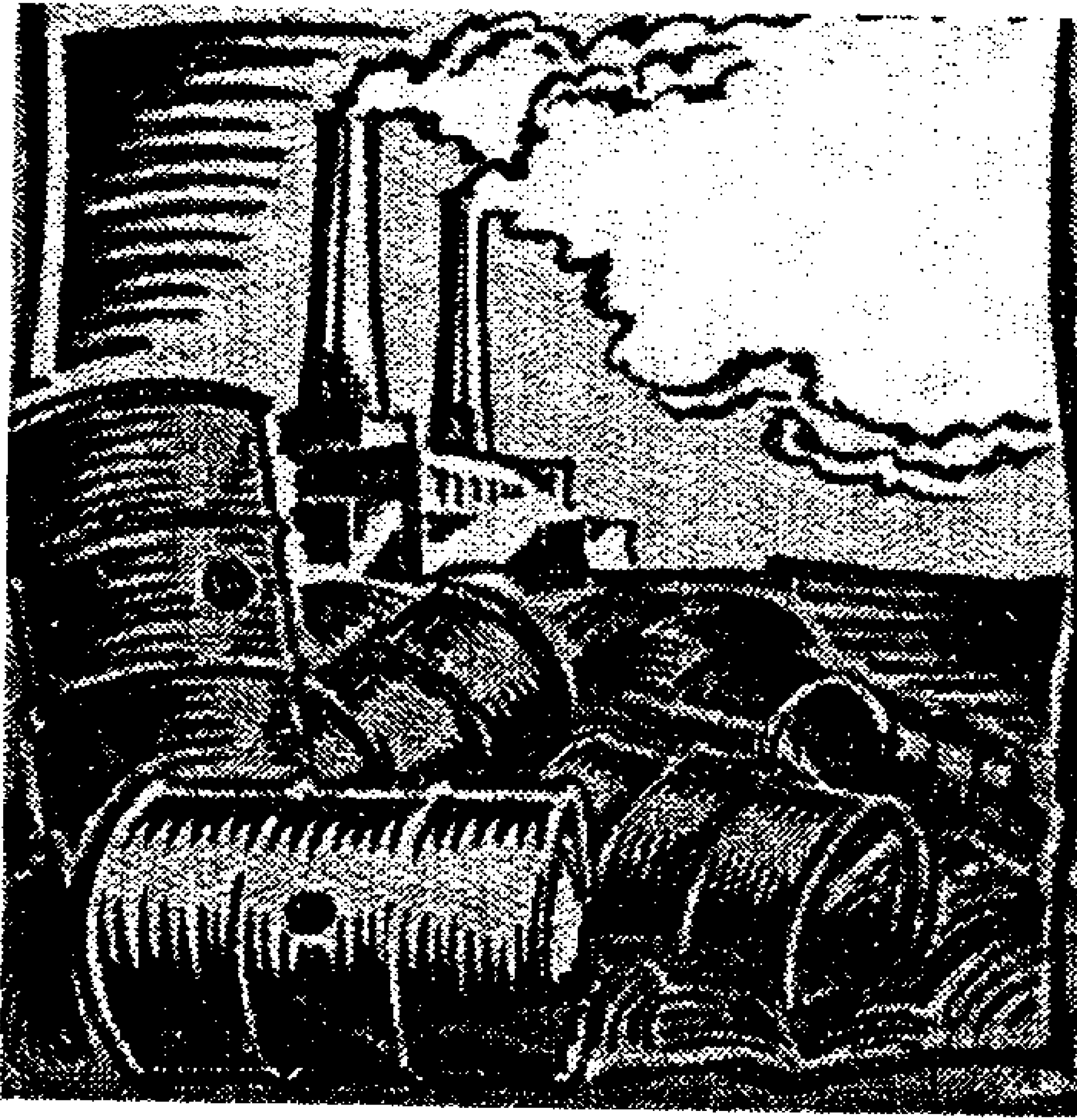
يتلوث البر بسبب تراكم مخلفات المصانع والصرف الصحى والمزارع والمنازل وغير ذلك. ولا شك أن الملوثات أو المخلفات التى تختلط بتراب الأرض الزراعية تفقدها خصوبتها وتؤثر تأثيرا سيئا على البكتيريا المفيدة الموجودة فى التربة، كما أن المخلفات الكيميائية للمصانع التى تلقى فى الأنهار تحتوى على عناصر سامة مثل الكادميوم والزئبق، وهذه تستقر فى أجسام الأسماك، وتروى بها الحقول فتنتهى إلى الحبوب، وحدثت كوارث صحية لآكلى تلك الأسماك ومستهلكى تلك الحبوب، كما حدث فى اليابان ونشرته الصحف والمجلات الطبية. (كارثة ميناماتا).

هذا بالإضافة إلى المبيدات الحشرية، التى ترش فوق الأشجار، فتنتهى إلى المياه والأسماك وإلى الثمار ولحوم الدواب، ومنها إلى الإنسان الذى يصاب بأمراض مهلكة فى العظام وفى الكبد والكلى، وأمراض مهلكة فى الجهاز العصبى المركزى، فكأن الإنسان صنع بيديه ما أهلك به صحته ودمرها. ولقد أشار الله عز وجل إلى ذلك فى القرآن الكريم فى سورة الروم:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

أى لعلهم ينتهون عما هم فيه من فساد وإفساد.

والأسمدة الكيماوية أيضا لا تقل ضررا عن المبيدات الحشرية، فالإنسان يصنع بيديه ما يضره وكأنما يسعى إلى حتفه بظلفه.



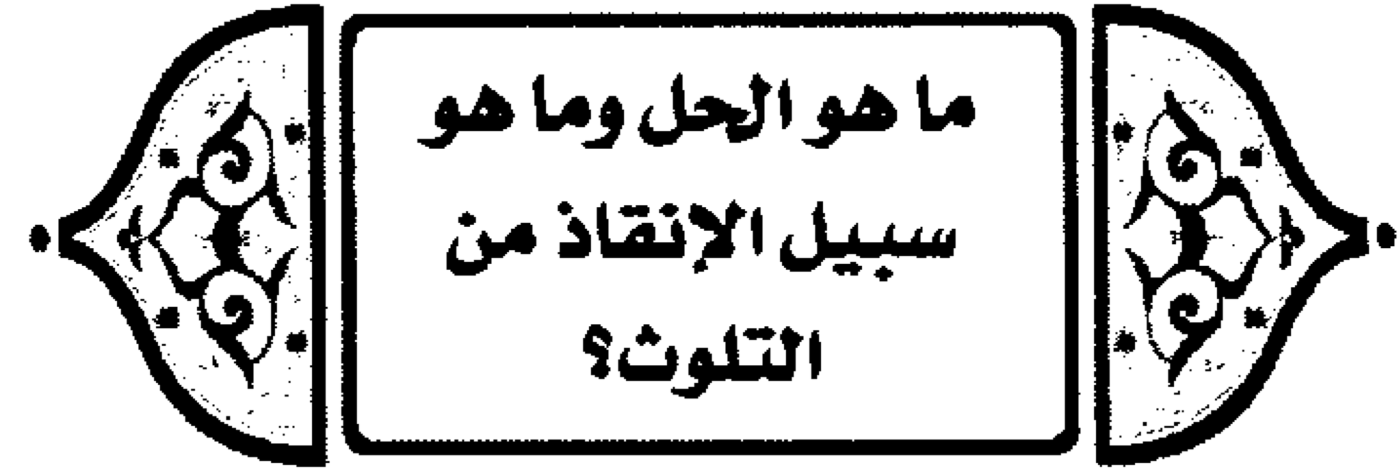
وكيف يرجع الإنسان عما يقوم به من فساد فى البر والبحر والجو؟

قال الله عز وجل:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وهذا يشير إلى أن الإنسان لابد أن يأتى عليه يوم يحاول أن يرجع عما هو فيه من إفساد. إن علماء الصناعة يدافعون عن التقدم الصناعى ويقولون: إن الأضرار التى يتعرض لها الإنسان بسبب التقدم الصناعى، أقل بكثير من الفوائد الجمة التى يجنيها منها، وإنه من

غير المعقول أن نقفل المصانع ونرجع إلى البدائية فى كل حياتنا حتى نتخلص من التلوث فى البر والبحر والجو، إلا أنه مما لا شك فيه أن التلوث الصناعى، بات يهدد استمرار الحياة على هذه الأرض، فلا بد من إيجاد حلول.



ما هو الحل وما هو سبيل الإنقاذ من التلوث؟

إن الإنسان ينزع دائما إلى الإفساد، وبذلك يكون ظلوما ويكون كفارا، أما الإنسان الذى يخاف ربه وينأى بنفسه عن كل فساد فلا يكون ظلوما ولا يكون كفارا. كما قال الله عز وجل فى سورة إبراهيم:

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

ويمكن أن ننقذ هذا العالم من أخطار التلوث بحلول وسط كالآتى:

١- يجب الحد من تصاعد الغازات والدخان من المصانع؛ وذلك باستخدام الطرق العلمية.

٢- منع قطع الأشجار بتاتا، والعمل على تشجير الأرض وتشجير الصحارى؛ لأن ذلك يساعد على نقاء جو الأرض وتقليل تلوثه. ولقد نهى رسول الله ﷺ من قطع الشجر إلا لضرورة، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: ما بين كداء وأحد، حرم حرمه رسول الله ﷺ، ما كنت أقطع به شجرة أو أقتل به طائرا. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: «**إذا قامت على أحدكم القيامة وفى يده فسيلة فليغرسها**»، وغرس فسيلة إذا قامت القيامة لا يفيد شيئا وإنما أمر الرسول بذلك ليبين الأهمية القصوى لغرس الشجر، وبالتالى حرمة قطع الشجر.

٣- الحد من استعمال المبيدات الحشرية، فإنها ترش على النباتات، ومصيرها فى النهاية إلى مياه الشرب.

٤- العمل على الحد من تصاعد الدخان والغازات وعوادم السيارات والطائرات.

٥- تحسين شبكات الصرف الصحى، ومنع إلقاء نفاياتها فى مصادر المياه.

٦- يجب منع التلوث البحرى بكل أسبابه وصوره بقوانين دولية صارمة، ولقد صدرت تلك القوانين، ولكن ليس على تنفيذها رقابة أو متابعة.

إن التلوث بلغ حد الخطر، ولابد من إيجاد حل وسط، وإلا كان مصير الحياة على الأرض الفناء، ونجد كل ما ذكرناه من أخطار التلوث فى **البر والبحر والجو** فى قول الله عز وجل فى سورة الروم:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

* * *

الجزء الثانى

الطب الوقائى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ . .

إن كل ما يفكر فيه العلماء تفكيرا صحيحا فى أى فرع من فروع العلم، هو نتائج تدبرهم لفطرة الخلق فى هذا الوجود. والقرآن والسنة وحى فاطر الفطرة، فلا عجب إذن أن نجد كل حقيقة علمية صحيحة، يكتشفها العلماء فى أى عصر من العصور، مذكورة فى القرآن العظيم أو الحديث النبوى الشريف، أو فيهما معا، إما تصريحًا وإما تلميحا.

من هنا نفهم أن المعطيات العلمية فى القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة، فى مختلف فروع العلم، هى أوجه متعددة ومتنوعة لحقيقة واحدة كبرى، هى من فطرة الله تعالى فى خلقه، ومن تقديره وأمره. وليس فى حقائق العلوم شىء إلا وله فى القرآن العظيم أصل، وله فى السنة النبوية المشرفة أساس. كما قال الله عز وجل: ﴿ ... **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ... ﴾ [**الأنعام**: ٣٨] .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله: «جميع مايقوله العلماء من حق، تفسير للسنة النبوية المشرفة، وجميع ماتقوله السنة النبوية المشرفة، شرح لما هو موجود فى القرآن الكريم » . . .

ومن الإعجاز العلمى فى الوحى الإلهى فى القرآن والسنة، أنه جاء بكليات العلوم مجتمعة فى كلماته، وترك تفصيلاتها لفكر الإنسان واجتهاده فى كل عصر من العصور بقدر ما آتاه الله تعالى من علم.

وفى هذا الكتاب «**الطب الوقائى على ضوء القرآن والسنة**» محاولة لبيان بعض حقائق الطب الوقائى، واجتهاد العلماء فيه عبر العصور، وأرجعنا كل ذلك إلى أصوله فى العلم المطلق فى القرآن والسنة، وإذا بوحى الله عز وجل فى القرآن والسنة سابق بالحق أبدا وبغير حدود.

ومع أن السنة النبوية هى المرجع العلمى لكثير من موضوعات الطب الوقائى، إلا أننا لانتفق مع إطلاق اسم «الطب الوقائى النبوى» على هذا الكتاب، وإلا لأطلقنا أسماء أخرى مثل «الفلك النبوى» و«علم الأغذية النبوى» و«علم النبات النبوى» و«علاج الأمراض

النبوى» وما إلى ذلك من أسماء لكتب فى فروع العلم المختلفة التى يجتهد فيها العلماء من الناس، ولم يبعث الله عز وجل رسوله ﷺ ليعلم الناس الطب أو الفلك أو الفيزياء أو أى فرع من فروع العلم، وإنما بعثه الله تعالى كافة للناس بشيرا ونذيرا ومعلما ومرشدا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. وما كانت الهداية العلمية فى القرآن والسنة فى مجال الطب أو غيره من العلوم ، إلا لخير الإنسان فى الدنيا والآخرة.

وما ينطق الرسول ﷺ إلا حقا، ولا يقول إلا صدقا، ولايتحدث إلا وحيا أو إلهاما، وإذا نحن تحدثنا اليوم عن الطب الوقائى، فإنما نتحدث عما اكتشفه العلماء حديثا ونرد كل ذلك إلى العلم المطلق فى القرآن والسنة.

إن الدين الذى ارتضاه الله تعالى لخلقه فى هذه الأرض هو الإسلام منذ خلق آدم وإلى يوم القيامة؛ إنه دين الحق والهدى. . ولم يفرّط الله تعالى فى كتابه من شىء، ولم يترك شاردة ولا واردة فى حياة الإنسان إلا ذكرها، وبين الهداية الصحيحة فيها.

والإنسان هو المخاطب بالرسالة، مما يدل على أهمية الإنسان فى هذه الأرض، وأن الله عز وجل يوليه العناية والرعاية، ويحافظ عليه بدنا ونفسا وفكرا وعقلا. كما أعطى الإنسان المنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة، فانطلق المسلمون الأوائل متمسكين بذلك المنهج الصحيح، ومستلهمين الحق فى كل فرع من فروع العلم فى القرآن والسنة، فانطلقوا انطلاقة صحيحة وبنوا الحضارة الإسلامية الكبرى.

إن أى اكتشاف علمى يصل إليه أى عالم من العلماء، ويتفق على ما جاء بالقرآن والسنة، يكون اكتشافا علميا صحيحا، وما لايتفق مع ماجاء بالقرآن والسنة، لايكون اكتشافا صحيحا؛ ذلك أن الوحى الإلهى فى القرآن والسنة هو الحق المطلق والعلم المطلق وأمر الله المطلق.

ومن باب حرص الإسلام على صحة الإنسان، نجد فى القرآن والسنة منهجا متكاملا لكل فرع من فروع الطب: الطب النفسى، والطب العلاجى، والطب الوقائى، وغير ذلك من فروع الطب. ولقد اكتشف العلماء الكثير من حقائق العلم فى الطب الوقائى وغيره من فروع الطب الأخرى.

ولقد حاولنا أن نجمع بعض الأمثلة فى الطب الوقائى فى هذا الكتاب وحاولنا أن نبدى بعض وجهات النظر على ضوء القرآن والسنة . . وأرجو أن يكون هذا الكتاب مفيدا فى مجال نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة.

المؤلف

د. أحمد شوقى إبراهيم

تمهيد لموضوع العدوى

نقرأ فى السنة المشرفة أحاديث نبوية كثيرة عن العدوى منها:

ما أخرجه الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لايوردن ممرض على مصح**»، وحديثا آخر أخرجه الإمام الترمذى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أكل مع مريض بالجذام فى قصعة واحدة وقال: «**آكل ثقة بالله وتوكلا عليه**». وحديثا آخر أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ينفى وجود العدوى ويبتها فى عبارة واحدة قال النبى ﷺ: «**لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ولاصفر، وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**».

هذه الأحاديث المشرفة قد ثبتت صحتها وثبت صدورها من رسول الله ﷺ، الأمر الذى أثار جدلا كثيرا فى الماضى، كما يثير جدلا أيضا فى العصر الحالى، وحيرة لدى بعض الناس .. فالذى لايتدبر الأحاديث النبوية المشرفة وبالتالى لايفهم مغزاها العلمى، يظن بها تعارضًا .. فالحديث الأول يحذر من العدوى من مريض، والحديث الثانى لايقر بحدوث العدوى، والحديث الثالث ينفى حدوث العدوى ويثبت حدوثها فى عبارة واحدة! لذلك قالوا مادام بالأحاديث النبوية عن العدوى تعارض، فهى ليست وحيا من الله تعالى لرسوله .. وإنما هى اجتهاد من رسول الله ﷺ بصفته بشرا وتصدى من العلماء ما وضح رأيه .. ورأى غيره من العلماء ـ مثل ابن خلدون من القدامى، وعفيف طبارة من المحدثين .. وأمثاله العشرات من العلماء فى عصرنا هذا ممن لهم نفس الرأى ونفس الاعتقاد ... وفهموا جميعا أن هذه الأحاديث النبوية عن العدوى اجتهاد من رسول ﷺ وليس وحيا من الله تعالى له، وبالتالى فهى تتعرض للخطأ . قال ابن خلدون فى مقدمة كتابه:

«إن الطب المنقول فى الشرعيات ليس من الوحى فى شىء، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال النبى ﷺ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل به .. فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث ليعلمنا الطب ولا غيره من العاديات. وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث النبوية المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك مايدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهه التبرك».

وقال عفيف طبارة فى كتابه (روح الدين الإسلامى): «إن ما جاء عن النبى ﷺ فى شئون الطب عامة لايؤخذ مأخذ الشريعة، فالنبى ﷺ يقول فيه بدون وحى. وهو بذلك قابل للخطأ، وأما ما كان من أمر الشريعة فهو وحى يوحى علَّمه شديد القوى. وهو معصوم».



وذكر الإمام ابن القيم أن بعض العلماء يعتقد أن أحاديث رسول الله ﷺ عن أمور الدنيا إنما يخبر الناس عنها بظن وهم أعلم بها منه !! فهذه الأحاديث ـ كما زعموا ـ اجتهاد من الرسول بصفته بشرًا، فلا تثبت أحكامها، فهكذا إخباره عن عدم العدوى بظن وإخباره عن عدم تأبير النخل .. ولاريب أن كليهما من أمور الدنيا مما لايتعلق بالشرع .. فلما تبين له ﷺ من أمور الدنيا وارتباط الأسباب بعضها ببعض، وتأثير التلقيح فى صلاح الثمر، وتأثير ورود الممرض على المصح، أقرهم على تأبير النخل، ونهاهم أن يرد الممرض على المصح .. ورد الإمام ابن القيم أن الأحاديث النبوية صحيحة ولاتعارض بينها بل إن لكل منها وجها .. إلا أن الإمام ابن القيم لم يذكر الأدلة العلمية على رأيه، ولم يعضدها بدليل ولا برهان ..

وقد نقل كثير من العلماء فى عصرنا الحالى عن ابن خلدون ومن وافقه من العلماء، واعتقدوا أن ماقاله رسول الله ﷺ فى أحاديث العدوى وتأبير النخل وما إليها من أمور الدنيا، هو اجتهاد ظنى منه كبشر، وليس وحيا من الله له .. وفى رأينا أنهم مخطئون فى ذلك خطأ عظيما، فهم قد جعلوا علمهم الناقص حكما على الحق المطلق فى الأحاديث النبوية .. وما ينبغى قط أن يكون العلم الناقص حكما على علم كامل وأخطأوا أيضا فى فهمهم للأحاديث النبوية عن العدوى وعن تأبير النخل، وما علموا أنها حق مطلق، وعلم صادق، ماكانوا يعلمون عنه شيئا .. وما ظن الرسول ﷺ ظنا، وإنما تحدث وحيا من الله عز وجل ..

وسنناقش هذه الأحاديث المشرفة مناقشة علمية ما كان يعلمها ابن خلدون ومن وافقه من العلماء القدامى والمحدثين .. حتى يصلوا إلى فهم صحيح لتلك الأحاديث المشرفة، ويتخلوا عن مفاهيمهم الخاطئة عن الأحاديث التى تتحدث عن أمور الدنيا .. وحتى يعلموا ـ وعن يقين ـ أنها وحى من الله عز وجل لرسوله ﷺ.

لذلك كان لابد لنا من أن نتحدث عن الثوابت التى فهمها بعض العلماء خطأ وهى:

١ ـ أن رسول الله ﷺ لاينطق إلا وحيا.

٢ ـ أحاديث تأبير النخل.

٣ ـ حادث آبار بدر.

٤ ـ حادث أسرى بدر.

وحديثنا عن هذه الثوابت الأربعة لن يخرجنا عن موضوع الكتاب (الطب الوقائى) لأننا سنثبت فيها بالدليل العلمى الأكيد أن ما قاله رسول الله ﷺ فى أحاديث العدوى حق وصدق ويقين، وأن العلماء السابقين والمحدثين لم يفهموا قط مغزاها العلمى العظيم .. وأنه لاتعارض بينها قط، وإنما هى أحاديث مؤسسة على حقائق علمية ثابتة لم يستطع العلماء أن يصلوا إلى فهمها إلا فى عصر العلم الحالى... وكان أولى بهم أن يسكتوا عما لاعلم لهم به ، وألا يدلوا بدلوهم فى ميدان من العلم لاناقة لهم فيه ولاجمل .. وإنه من الثابت واليقين أن رسول الله ﷺ معلم الأمة .. وهو الذى ينزل عليه الوحى، ويعلم الناس أمور دينهم وأمور دنياهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

اجتهاد الرسول ﷺ

يزعم كثير من الناس فى عصرنا هذا أن رسول الله ﷺ كان يجتهد رأيه فى بعض أمور الدنيا بصفته بشرا، يخطئ ويصيب، فإذا أخطأ فى بعض اجتهاده كان الوحى يأتيه يصحح له ما أخطأ فيه .. وقد لايأتيه فيصحح له غيره، كما حدث فى حادث آبار بدر .. ولايتحول أولئك الناس عن رأيهم هذا فى موضوع اجتهاد الرسول قط.. واعتبروا أنفسهم أنهم وصلوا فيه إلى الرأى الصحيح والحق المطلق ... وزعم بعضهم أن العلماء «فرغوا من هذا البحث» أى أنهم لايقبلون أى مناقشة فيما وصلوا إليه من رأى فإذا قيل لهم: إن الله تعالى يقول فى سورة النجم عن رسوله ﷺ : ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾**﴾ [**النجم**] قالوا: إن هذه الآية تدل على أنه ﷺ ما كان ينطق عن هوى فيما يبلغ عن ربه من القرآن والشرعيات والعبادات ومايتحدث من أحاديث فى صميم العقيدة، أما إذا تحدث فى أمور الدنيا مما هو خارج الدين، فكان يتحدث فيها بدون وحى ويجتهد بصفته بشرا.. وقالوا: إن الأحاديث النبوية التى تتحدث عن أى شىء من أمور الدنيا خارج الدين لايؤخذ بها تشريعا.

وعجيب قولهم هذا .. فأى أمر من أمور الدنيا خارج عن الدين ؟! وأى قضية تعترض الإنسان فى حياته اليومية لايكون للإسلام فيها دخل؟! .. إن كل شىء يخص الإنسان فى أمور الدنيا هو من صميم الدين، حتى سيره فى الطرقات، وحتى فى إلقاء السلام على غيره، وحتى فى نظافة ثيابه وطعامه وشرابه، وكذلك ما كان من طب وعلاج للإنسان فهو من الدين وإليه .. فإذا تحدث رسول الله ﷺ فى أمر من أمور الطب أو العلاج، أو الزراعة، أو أى أمر من أمور الدنيا، فمحال أن يكون حديثه اجتهادا منه كبشر عادى، لأن الاجتهاد فى الرأى يقتضى القياس والاستنباط .. ويمكن لأى عالم من العلماء أن يجتهد رأيه معتمدا على القياس والاستنباط ... إلا أن رسول الله ﷺ لايمكن أن يعتمد على ذلك لأن الرسول ﷺ إنما يوحى إليه من ربه .. أو يتكلم بإلهام النبوة الذى خصه الله به دون سائر البشر، فدل ذلك على استحالة الاجتهاد بالنسبة لرسول الله ﷺ.

ولو تفهم الناس الآية الكريمة، لعلموا أن الله عز وجل يوحى لرسوله ﷺ بكل كلمة يتكلم بها ، وبكل لفظ ينطق به. قال الله عز وجل فى سورة النجم : ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾**﴾ [**النجم**] النطق ضد الصمت.. ويتحقق النطق ولو بحرف واحد يتحرك به

اللسان ويخرج من بين الشفتين. وفى لسان العرب لابن منظور قال: النطق كلام أى شىء. وإذا لاحظنا الأسلوب البلاغى فى الآية الكريمة لوجدناه «أسلوب قصر» لا استثناء فيه.. أى إن كلام الرسول ﷺ مقصور على الوحى، إذن فلايوجد فى النص القرآنى مايدل على أن الرسول ﷺ يوحى إليه فى أمر، ولايوحى إليه فى أمر آخر.. وكأن الله تعالى لما قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ قال قائل: فبماذا ينطق إذن؟، هل عن دليل أم عن اجتهاد؟ فقال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.. ونزول الآية الكريمة بأسلوب القصر أو الحصر يدل على أن الرسول ﷺ لاينطق قولا، ولايخرج من بين شفتيه لفظ إلا وحيا من الله تعالى له، إما وحيا صريحا أو وحيا خفيا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ [آل عمران] أسلوب قصر، ينفى عن الرسول أى صفة غير الرسالة، فهو مقصور على الرسالة. ونلاحظ أن كلمة «الوحى» تكررت مرتين فى الآية الكريمة قال (وحى يوحى) فلم يقل الله تعالى: (إن هو إلا وحى) ولو قال ذلك لأدى المعنى، ولكنه تعالى قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأكد النطق بالوحى، تأكيدًا للمعنى المأخوذ من أسلوب القصر، وتأكيدًا أيضًا عن تكرار كلمة الوحى مرتين، مرة بالاسم ومرة بالفعل، إذن فقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ تأكيد بأسلوب قصر لعموم النطق النبوى بأى لفظ، والأسلوب العام فى اللغة لايخصص إلا بمخصص، مثل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف] هذا أسلوب عام يشمل كل شىء، خصصه الله تعالى بعد ذلك بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف] أى سأكتب رحمتى للمتقين وأخصهم بها.

وقديما قالت قريش ما يقوله بعض الناس قديما وحديثا، قالوا لابن عمرو تكتب عن رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يغضب كما يغضب البشر(*).. فأبلغ عبدالله بن عمرو رسول الله ﷺ بما قالته قريش. فأشار رسول الله ﷺ إلى شفتيه وقال: **«والذى نفسى بيده ما يخرج منهما إلا الحق فاكتب»**.

والوحى إعلام فى خفاء، وله أساليب كثيرة، منها الكلام ومنها التوجيه ومنها الإلهام. وكل هذه الأساليب فى الوحى خص الله تعالى رسوله بها.. فالوحى خصوصية وصفة للرسول ﷺ، وليس حالا من أحواله.. وهذا ماغفل عنه بعض الناس الذين تكلموا عن اجتهاد الرسول بصفته بشرا فى بعض الأمور.

وإذا قرأنا سورة الكهف لوجدنا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف].. لم يقتصر القول فى الآية الكريمة على القول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وإنما قال: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فدل على

(*) قولهم عن رسول الله ﷺ: (يغضب كما يغضب البشر) يريدون أنه يجوز عليه الخطأ والصواب، لأن الإنسان يخطئ عادة إذا غضب.

أن الوحى خصوصية من خصوصيات الرسول ﷺ، وصفة من صفاته، وسمة من سماته، لاتفارقه أبدًا، ولاتغادره مطلقا، وليست حالا من أحواله . . وكلمة (إنما) تدل على أسلوب القصر فى الآية أيضا.

ولقد أرسل الله عز وجل رسوله ﷺ إلى الأمة معلما لها فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة . . فمحال إذن أن يجوز عليه الخطأ فى أى شيء، كما قال الله عز وجل فى سورة البقرة : ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴿١٥١﴾﴾ [**البقرة**] نلاحظ أن كلمة (العلم) فى الآية الكريمة كررت ثلاث مرات ونسبت إلى الرسول ﷺ وأجمع المفسرون أن قوله تعالى: (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) يدل على أن الله أرسل رسوله ليعلم الناس كل أمور دينهم ودنياهم جميعا . . وهذا أمر منطقى، فقد أرسل الله تعالى رسوله وكلفه بتعليم الأمة كل أمورها فأراد الله تعالى ألا يترك الناس على عاداتهم وأمور حياتهم اليومية للفكر الوثنى الجاهلى . . فقام رسول الله ﷺ بتعليم الأمة كل أمور حياتهم الدنيا والآخرة بوحى من ربه تعالى، وليس اجتهادا منه كبشر؛ لأن ذلك أمر محال، فمن أين للرسول ﷺ بصفته بشرا العلم الذى يعلم به الأمة وهو أمى لايقرأ ولايكتب! . . وإذا ظهر لبعض الناس وظنوا أن الرسول ﷺ أخطأ، فقد كان خطأ مقصودا منه ﷺ ومتعمدًا، كأسلوب تربوى تعليمى، لتعليم أمة بلغت حضيض الجهل فعلمها مالم تكن تعلم فى كل أمور الدنيا والآخرة . وهداها سبل الرشاد. ولقد استدل بعض الناس ـ جهلا منهم بالحق ـ بحادث تأبير النخل، وحادث آبار بدر وحادث أسرى بدر، على اجتهاد الرسول ﷺ كبشر فى أمور الدنيا . . وهم فى ذلك مخطئون.





حادث تأبير النخل

النخل من النبـاتات المزهرة .. وأزهار النخل ثنائيـة الجنس .. فـهناك نخل ذكـر وهناك نخل أنثى. والنخل الذكر هو الفحل. يحمل حبوب اللقاح فى كـيزان خاصة تسمى (الطلع). وإذا شقت ظـهرت حبـوب اللقاح على شمـاريخ. وتقطع الشمـاريخ إلى أجزاء صـغـيرة .. توضـع على الأزهار الأنثى فى النخلة فيحدث التلقـيح وبذلك تنمو الثمرات ويكتمل نموها بمرور الوقت.

ويذكرنا تلقـيح النخل بموضوع لم ينتـبه إليـه بعض علماء التـفـسيـر .. وهو المنهج العلمى فى البحث والـدراسة. لقد استـغرق تطور الفكر الإنسانى قـرونا عديدة .. وكان لكل عصر من العصور منهج علمى، فالمنهج الإغريقى فى الدراسـة والبحث ـ والذى كان سائدا بين المـفكرين والعلماء فى عـصر نزول القـرآن الكريم وقـبله وبعـده بقـرون ـ كـان منهجا مخطئا . فقد كان يبدأ بالمسلَّمات؛ أى إنهم كـانوا يعـتـبـرون آراء الآباء والأجـداد حقائق لاتناقش ومسلَّما بصـحتها ... وكان ذلك منهجا مخطئـا خطأ كبيرا. لذلك حدث ركود فكرى فى تلك العـصور استمـر قرونا عديدة .. ورد القرآن الكريم الناس إلى الحق ورفض ذلك المـنهج الفـكرى فى البـــحث والدراســة ،كمـا قال الـله تعالى فى سـورة البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة].

وكان المنهج الإغريقى فى الفكر والبحث والدراسة لايـعتمـد على الملاحظة والتـجربة كأساس للبحث العلمى .. وظل ذلك المنهج المخطئ متبعا بين الفلاسفة والمفكرين عشرين قرنا مـن الزمان، من أول القرن الـثالث ق م إلى القرن السابع عشر الميلادى، حتى توصل علمـاء الغرب ومنهم ليـونار دى ديفنشى، وفرنسيس بيكون، واليفربريدج وغيرهم، إلى المنهج العلمى الـصحـيح فى البـحث والفكر والدراســة، والذى رفض المنهج الإغـريقى القـديم .. ولا زال العلمـاء يعـملون بهـذا المنهج الـعلمى الحـديث حـتى اليــوم .. وبواسطتـه حدثت النهـضة العلمـية والتـقدم العلمى فى العصر الحديث.

ويبدأ المنـهج العلمى الحديث والصـحيح فى دراسة أى قضيـة علمية **بالفرض العلمى** Hypothesis وهو فـرض ظنى .. ولابد من إخضـاعه لتـجربة تستمـر مدة حتى تـظهر نتـائجـهـا .. والفـرض العلمى فى مـرحلة التجـربة يسمى «**نظرية علمـية**» Theory .. وتتعـرض النظرية للخطأ والصواب، ونتيـجة التـجربـة هى التى تحدد ذلك. فـإن أثبـتت التـجـربة صـحة الـنظرية، صـارت النظرية

«حقيقة علمية» Fact وإن أثبتت التجربة خطأ النظرية، صارت خطأ لايؤخذ به ولايستدل به. والاعتقاد لدى العلماء الآن، أن علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوربا كانوا أول من أسس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر والبحث والدراسة . . . وهذا الاعتقاد غير صحيح . . أما الصحيح فهو أن الإسلام هو الذى أرسى قواعد المنهج العلمى الصحيح قبل أن يتوصل إليه علماء أوربا بنحو ألف عام. لقد ذكر القرآن الكريم أن الغرض الظنى لا يكون حقيقة علمية بدون دليل ثابت فقد قال الله عز وجل فى سورة النجم : ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ...﴾ [النجم] وكان من المسئولية الملقاة على عاتق رسول الله ﷺ أن يطبق ماجاء فى القرآن الكريم عمليا بين الناس فى حياتهم اليومية . . فكان حادث تأبير النخل، أول حادث انتهزه رسول الله ﷺ ليعلم الناس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر والبحث والدراسة، فماذا حدث؟ روى الإمام مسلم فى الصحيح عن طلحة بن عبد الله قال:

مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل فرأى قوما يلقحون النخل فقال: **«ماذا يصنع هؤلاء؟» قالوا: يلقحون النخل يأخذون الذكر فيجعلونه فى الأنثى فيلقح. فقال ﷺ: «ما أظن ذلك يغنى شيئًا» وفى رواية رافع : «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا» فتركوه ونزلوا عنها فنقصت (أى سقط ثمرها) ، وقيل : صارت شيصًا (أى ثمرًا لا يؤكل). فبلغ ذلك النبى ﷺ قال: «إنما هو الظن، إن كان يغنى شيئا فاصنعوه. فإنما أنا بشر مثلكم. وإن الظن يخطئ ويصيب. وأنتم أعلم بشئون دنياكم .ولكن ماقلت لكم قال الله فلن أكذب على الله»**.

والذى يطالع الحديث النبوى الشريف ولايكون على علم بالمنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة فى عصر العلم الحالى، يظن أن رسول الله ﷺ اجتهد رأيه فى موضوع تأبير النخل وجاء الواقع يخالفه فقال: أنتم أعلم بشئون دنياكم . . وبنوا على ظنهم الخاطئ هذا اعتقادهم أن رسول الله ﷺ اجتهد رأيه بصفته بشرا وليس وحيا من الله تعالى له، وليس إلهاما من الله عز وجل له . . لذلك قال ابن خلدون ماقال . . ونقل عنه المفكرون الذين عاصروه وماجاءوا بعده مانقلوا . . وأفتى خطأ من العلماء المعاصرين من كتب فى موضوع اجتهاد الرسول بغير علم.

أما الذى يتدبر الحديث الشريف وهو على علم بما وصل إليه علماء المنهج العلمى فى الدراسة والفكر والبحث فى عصر العلم الحالى. فإنه يجد فيه علما عظيما، وتأسيسا للمنهج العلمى التجريبى الصحيح، وهدما للمنهج الإغريقى المخطئ الذى كان سائدا فى عصر نزول الرسالة وأدى إلى ركود فكرى كبير.

سؤاله ﷺ: ماذا يصنع هؤلاء؟ سؤال من يعلم، فليس من المقبول عقلا أن الرسول ﷺ لم يكن يعلم تلقيح النخل، وهو الذى عاش فى الصحراء وسافر إلى الشام فى قوافل التجارة، والذى هو أكثر الناس علما، بل وهو الذى كلفه الله تعالى بأن يعلم الناس مالم يكونوا يعلمون من أمور حياتهم الدنيا إذن فقد ثبت أن سؤال رسول الله ﷺ كان سؤال من يعلم، كأسلوب تعليمى وتربوى قال: ماذا يصنع هؤلاء؟ .. ففهم طلحة رضى الله عنه القصد من السؤال فأجابه.

أما قوله ﷺ: **«ما أظن ذلك يغنى شيئا»** تعليم للناس كيف يبدأون بحث أى موضوع بإقامة (الفرض الظنى) وهو المعروف علميا الآن باسم Hypthesis .. فكان قوله ﷺ : **«ما أظن ذلك يغنى شيئا»** مدخل علمى صحيح لبحث أى مسألة علمية، لم يفهمه إلا العلماء فى أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. والفرض الظنى ـ كما ذكرنا ـ لابد أن يوضع فى تجربة تطول مدتها حتى تظهر نتائجها.. وحدث ما أراده الرسول ﷺ منهم فقد نزلوا عن النخل، وتركوا تلقيحه، وفى ذلك وضع المسألة فى تجربة.. إذن فقد قام فرض علمى ووضع موضع تجربة.. وهذا من الأسس الضرورية فى المنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة. وكان لابد من الانتظار حتى تظهر نتائج التجربة، وظهرت أخيرا، فى قول طلحة رضى الله عنه (فصار شيصا) إذن فهى نتيجة سلبية للتجربة، ودل ذلك للناس على أن الفرض الظنى لم يكن صحيحا.. ليس قولا ولكن عن تجربة وعلم. وبذلك علموا أن الفرض الظنى يخطئ ويصيب، والفيصل فى ذلك هو نتائج التجربة.. لذلك قال رسول الله ﷺ: **«إنما هو الظن إن كان يغنى شيئا فاصنعوه فإنما أنا بشر مثلكم»** أى افعلوا ما ترونه صحيحًا فإنما أنا بشر مثلكم، وهو فى الحقيقة ليس مثلهم.. فى حديث آخر قال : **«إنى لست كهيئتكم أنى أبيت عند ربى»** وقال الله عز وجل : ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾ [**الكهف**]... إذن فقوله ﷺ فإنما أنا بشر مثلكم أى اهتدوا بما أقوله لكم فإنما أنا بشر مثلكم.

ثم يزيد الرسول ﷺ الأمر وضوحا وقال: **«وإن الظن يخطئ ويصيب»**.. شرح ماهية الفرض الظنى والفرض العلمى.. ولا أدرى لماذا لم يلاحظ بعض المفسرين للحديث النبوى أنه قال : **«وإن الظن يخطئ ويصيب»** كشرح لماهية الفرض الظنى ولم يقل (وأنا أخطئ وأصيب) أبدا لم يقل ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قد عصمه ربه عز وجل من الزلل والخطأ.. فهو معصوم مطلقا.

أما قوله ﷺ : **«أنتم أعلم بشئون دنياكم»** قول كريم أخطأ فى فهمه بعض المفسرين أيضًا، فاعتقدوا جهلا منهم بالحق أن المعنى أنتم أعلم منى بشئون دنياكم!!.. وهذا يتعارض عقلا مع ما جاء بآية سورة البقرة: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ**

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ [البقرة] فالله تعالى أرسله معلمًا للبشر جميعا، كل أمور الدين وكل أمور الدنيا ـ وهكذا قال جمهور المفسرين للآية الكريمة. وما دام الأمر كذلك فليس من المقبول عقلا أن يفهموا من الحديث النبوى أن رسول الله ﷺ كأنه يقول لهم: أنتم أعلم منى بشئون دنياكم.. وإنما المعنى الذى كان يجب عليهم أن يفهموه من نص الحديث الشريف «أنتم أعلم من بعضكم البعض بشئون دنياكم» وليس هناك وجه مقبول لفهم الحديث إلا هذا الوجه.. أما قوله ﷺ: **«ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله»** أنه قول شريف يضع الحد الفاصل بين علم الإنسان فى مجال العلم التجريبى وبين كلام الله عز وجل الذى لا يجب أبدا أن يضعه فى فرض ظنى أو يخضعونه لتجربة.

لقد أخطأ ابن خلدون ومن نقل عنه أو وافقه فى أن الرسول ﷺ يجتهد رأيه فى أمور الدنيا كبشر وليس عن وحى فى أمور العدوى والطب وغير ذلك من العلوم.. وما علموا أن الرسول ﷺ ما كان يقوم بعمل أو ينطق قولا إلا عن وحى أو إلهام النبوة.. وإنه ﷺ ما كان ينطق عن هوى إن هو إلا وحى يوحى.. وقياسا على حديث تأبير النخل الذى فهمه العلماء خطأ، وفهمناه نحن فى عصر العلم الحالى على وجهه الصحيح، فإننا نفهم أحاديث العدوى على وجهها الصحيح أيضًا.. وذلك الفهم الذى لم يبلغه بعض العلماء القدامى وبعض العلماء المحدثين أيضًا.

حادث آبار بدر

كان مبدأ الشورى قد تقرر فى الإسلام فى سورة الشورى (وهى سورة مكية ترتيب نزولها ٦٢) قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)**﴾ [الشورى] وهذا مبدأ رسول الله ﷺ مكلف بتطبيقه، وتربية الفكر الإسلامى عليه فى كل موقف يتطلب الشورى، مهما كانت الظروف، ومهما كانت النتائج. ومن هذا ما حدث فى موقعة بدر الكبرى.. وهو حادث آبار بدر الذى لم يفهمه بعض الفلاسفة والمفكرين الفهم الصحيح، وزعموا أن الرسول ﷺ اجتهد فيه رأيه كبشر، فجاء الواقع يخالفه، بل وأشار عليه أحد الصحابة بالرأى الأصح.. ولقد بنوا رأيهم هذا على جهل مبين.. فإن حادث آبار بدر، كانت فرصة اغتنمها رسول الله ﷺ ليرسخ مبدأ الشورى ويعلم الناس كيف يمارسونه.. وبالتالى ينفضون عن أنفسهم الجمود الفكرى الذى كان سمة الفكر الإنسانى فى تلك العصور، اتباعا للفلسفة اليونانية القديمة التى كانت تعتبر آراء الكبار حقائق مسلما بها لاتناقش.

لما تأهب جيش المسلمين لخوض معركة بدر، وأشار الرسول ﷺ إلى جيش المسلمين أن يتخذوا موقعا فى أدنى ماء من بدر. وحدث هذا أمام جميع أفراد الجيش. فقام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله أرأيت

هذا المنـزل، أمنزل أنزلـكه الله، ليس لـنا أن نتقـدمه أو نتأخـر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فسرَّ رسـول الله ﷺ لكلام الحباب وقـال له: بل هو الرأى والحـرب والمكيـدة: فقـال الحبـاب: يارسول الله، فـإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القـوم فننزله، ثم نغور مـا وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حـوضا فنملأه مـاء.. ثم نقاتل فنشرب ولا يشـربون.. واستـمع رسول الله ﷺ لكلام الحـبـاب بن المـنذر ثم قـال على مـسمع مـن الجمـيع: **لقـد أشـرت بالرأى.** فنهض بالجـيـش حـتى إذا أتى أدنى مـاء من القـوم نزل عليه، ثم أمـر بالقلب فغـورت. وبنى حـوضـا على القليب الذى نزل عليـه. فملئ ماء. فأقبل نفـر من قريش ليشربوا من الحوض، فما شرب منه رجل منهم يومئذ إلا قتل.

من هذا الحادث نفهم أن الرسول ﷺ لم يجتهد رأيه فى الأمر كبشر عادى، ولكنه كان من إلهام النبوة الذى أودعه الله فـيه، وخصه به. فكان ما حدث أمرا مقصودا ليكون تطبيقا لمبـدأ الشورى فى الإسـلام، وتعليمـا للناس كـيف يمـارسونه حـتى مع رسـول الله ﷺ نفسه، فيمـا لم ينزل فيه وحى صريح من الله تعـالى، وتطبـيقـا لقـوله تعـالى: ﴿ ... **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ... ﴾ [آل عمـران: ١٥٩] وقـوله تـعـالى : ﴿ ... **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ... ﴾ [الشـورى:٣٨] لذلك رد رسـول الله ﷺ على الحـباب بن المنذر قـال : « **لقد أشرت بالرأى**» أشرت: أى أعطيت المشورة، ولا يشير بالرأى إلا الذى يستشار فيه.. فكأن رسول الله ﷺ طلب من القـوم المشورة دون أن يعلن عـن ذلك باللسـان، فلمـا تكلم الحبـاب، بادره الرسول ﷺ بالـقول: « **لقد أشرت بالرأى**» أى أعطيت المشورة. وبذلك علم رسول الله ﷺ المسلمين كـيف يمارسون مبدأ الشورى.. وهو مـبدأ هام فى الإسلام، لا يتـحرر الفكر الإنـسانى إلا به، ولا يقـوم المنهج الصحيح فى الفكر البشرى بسواه.

فـالمسـألة إذن لم تكن كـمـا فكر الناس بسطحيـة أبعدتهم عن الحقـيقة، فـقالوا: إن الرسول ﷺ اجتهد رأيه فى حادث آبار بدر، فجاء الـواقع يخالفه، ولو تعمـقوا فى الفكر والفهم، لعلموا أن الرسول ﷺ كان حينئذ - وكل حين - يقف للأمة معلما ومرشدا وهاديا إلى سواء السبيل.



حادث أسرى بدر

ذكر بعض الفـلاسفة والمـفكرين أنه كان اجتهادا من الرسول ﷺ بـصفته بشرا، ونزل القـرآن الكريم بعد ذلـك يخالفـه.. مما يدل على أن رأى الرسـول ﷺ كان اجـتهـادا منه كبشـر ولم يكن وحيا، وإلا ما خـالفه القرآن الكريم. ولكن الحقـيقة ليست كـما ظنوا.. فالرسول ﷺ ما اجتهد رأيه فى شىء إلا من الرسالة وإليها. ومـا بَعُدَ أى قول أو عمل أو تقـرير له عن الوحى، أو إلهـام النبـوة أبدا. ونزل فى سـورة الأنفال قول الله عـز وجل: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٦٧) ﴾ [**الأنفال**]

الآية الكريمة فيها عتاب من الله تعالى لأصحاب النبى.. ومن معانى الآية: ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبى أسرى، قبل الإثخان أى كثرة القتل. ولم يكن العتاب من الله تعالى لرسوله: وإنما لأصحابه، ودليل ذلك ضمير الخطاب فى الآية الكريمة ﴿... **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...**(٦٧)﴾ [**الأنفال**] والرسول لم يأمر باستبقاء الأسرى وقت الحرب، ولا أراد أبدا عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور جيش المسلمين، فالتوبيخ والعتاب كان موجها لمن أشار على الرسول ﷺ بأخذ الفدية. وهذا قول أكثر المفسرين. وهو الذى لا يصح غيره.. وما حدث من مشاورات فى ذلك الموضوع كان من قبيل تطبيق مبدأ الشورى. وقد ألح بعض المسلمين على رسول الله ﷺ على أخذ الفداء. وأسند الطبرى وغيره أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه قبل نزول الآية: «**إن شئتم أخذتم فداء الأسرى، ويقتل منكم فى الحرب سبعون على عدوهم، وإن شئتم قتلوا وسلمتم**» فقالوا: نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون. وذكر ابن حميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبى ﷺ بتخبير الناس ومشورتهم هكذا. وقال عبيدة السلمانى: طلبوا الخيرتين كلتيهما.. فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا. وبذلك تحقق قول رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق إلا حقا عن وحى أو إلهام النبوة.. وقد يقال إذا كان التخيير، فلم وقع التوبيخ والعتاب؟ الجواب على ذلك : إن التوبيخ وقع أولا لحرصهم على أخذ الفداء ثم وقع التخيير بعد ذلك. ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتل عقبة بن أبى معيط، قال: المقداد: إنه أسيرى يارسول الله!.. وقال مصعب بن عمير للذى أسر أخاه: شد عليه يدك فإن له أما موسرة.. إلى غير ذلك من القصص التى تدل على شدة حرصهم على أخذ الفداء. ولماذا جاء ذكر النبى ﷺ فى الآية الكريمة وهو لم يأمر بأخذ الفدية؟ ذلك لأنه ﷺ لم ينه عنه، وذكره عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة.. ولكنه ﷺ شغله بغت الأمر ونزول النصر، فترك النهى عنه.

ولم يخطئ الرسول ﷺ فيما قضى فى أسرى بدر، قبل أن ينزل الوحى الصريح فيهم بغير ما قضى رسول الله ﷺ.. ودليل ذلك أن قضاء رسول الله ﷺ لم يغير بعد نزول الآية، وهذا دليل على أن الرسول ﷺ قضى بالصواب.. ولا يصحح الصواب. وإنما نزل القرآن الكريم بالأصوب.

كل ما سبق من حادث تأبير النخل وآبار بدر وأسرى بدر، كان ردا على ما قاله ابن خلدون ومن وافقه ومن نقل عنه من المفكرين والفلاسفة القدامى والمحدثين، الذين لم يتدبروا الأحاديث النبوية الشريفة وفهموها فهما خاطئا وبنوا على فهمهم الخاطئ هذا اعتقادا خاطئا وهو أن الرسول ﷺ اجتهد رأيه فى بعض أمور الدنيا وضربوا مثلا على ذلك بالأحداث الثلاثة المذكورة، وقالوا: إنه ﷺ اجتهد فيها كبشر فجاء الواقع يخالفه مما يدل على أن ما قاله رسول الله ﷺ لم يكن وحيا.. وكانوا فى اعتقادهم هذا مخطئين.

ومما سبق أيضا ندرك أن فهمهم لأحاديث العدوى كان فهما خاطئا. وبنوا على فهمهم الخاطئ هذا اعتقادا خاطئا أيضًا وهو الذى ذكرنا من قبل.. أما الصحيح فهو أن الرسول ﷺ لا ينطق أبدا عن هوى ولا يتكلم مطلقا كبشر عادى بدون وحى أو إلهام، إنما هو الوحى الصريح من الله تعالى له أو الإلهام النبوى الذى خصه الله تعالى به دون سائر البشر.

العدوى من الأمراض

العدوى هى انتقال مسبب المرض، من فيروس أو بكتيريا أو طفيل، من مريض إلى سليم فيحدث فيه نفس المرض.. ولم تكن العدوى من الأمراض معروفة من قبل عصر العلم الحالى، لأن مسببات الأمراض المعدية لا ترى بالعين المجردة أبدًا.. ولكنها ترى بالميكروسكوب العلمى الذى لم يستخدم فى هذه الأغراض إلا فى القرن الثامن عشر وما بعده.. الميكروبات والطفيليات تشاهد بواسطة الميكروسكوب العلمى. أما الفيروسات فلا ترى إلا بالميكروسكوب الإليكترونى الذى يكبر المرئيات آلاف المرات.

والأمراض التى تصيب الإنسان، منها ما هو غير معد، ومنها ما هو معد:

والأمراض غير المعدية :

كثيرة جدا ولايمكن أن نحصرها جميعا، وهى أمراض تصيب جسم الإنسان، ولكنها لا تنتقل من المريض إلى السليم، ومثال ذلك مرض هبوط القلب، وأمراض شرايين القلب، وارتفاع ضغط الدم، ومرض السكر.. وأمراض ناتجة عن اضطرابات الغدد الصماء.. والأمراض الوراثية التى لا حصر لها. والأمراض التى تسبب عيوبا خلقية، وأمراض الأورام الحميدة والأورام الخبيثة.. وما إلى ذلك من أمراض لا تعدى.. فهى لا تنتقل من إنسان مريض بها إلى إنسان سليم فيصاب بها.

أما الأمراض المعدية :

فهى التى فيها ينتقل مسبب المرض من المريض إلى السليم فيعديه فيصاب بنفس المرض.

وانتقال مسببات الأمراض المعدية بطرق العدوى المختلفة الآتية:

أ ـ بواسطة الرذاذ : الذى يخرج من الجهاز التنفسى محملا بالجراثيم الضارة بواسطة السعال أو العطاس أو هواء الزفير. فالهواء الخارج من الجهاز التنفسى قد يحمل جراثيم الأمراض أو فيروساتها من إنسان مريض إلى إنسان سليم فيعديه.. مثال ذلك الإنفلونزا.. الدفتريا، والسل الرئوى، والحمى الشوكية الوبائية.

ب ـ عن طريق الفم : (فى الطعام أو الشراب الملوث بإحدى مسببات المرض المعدى).

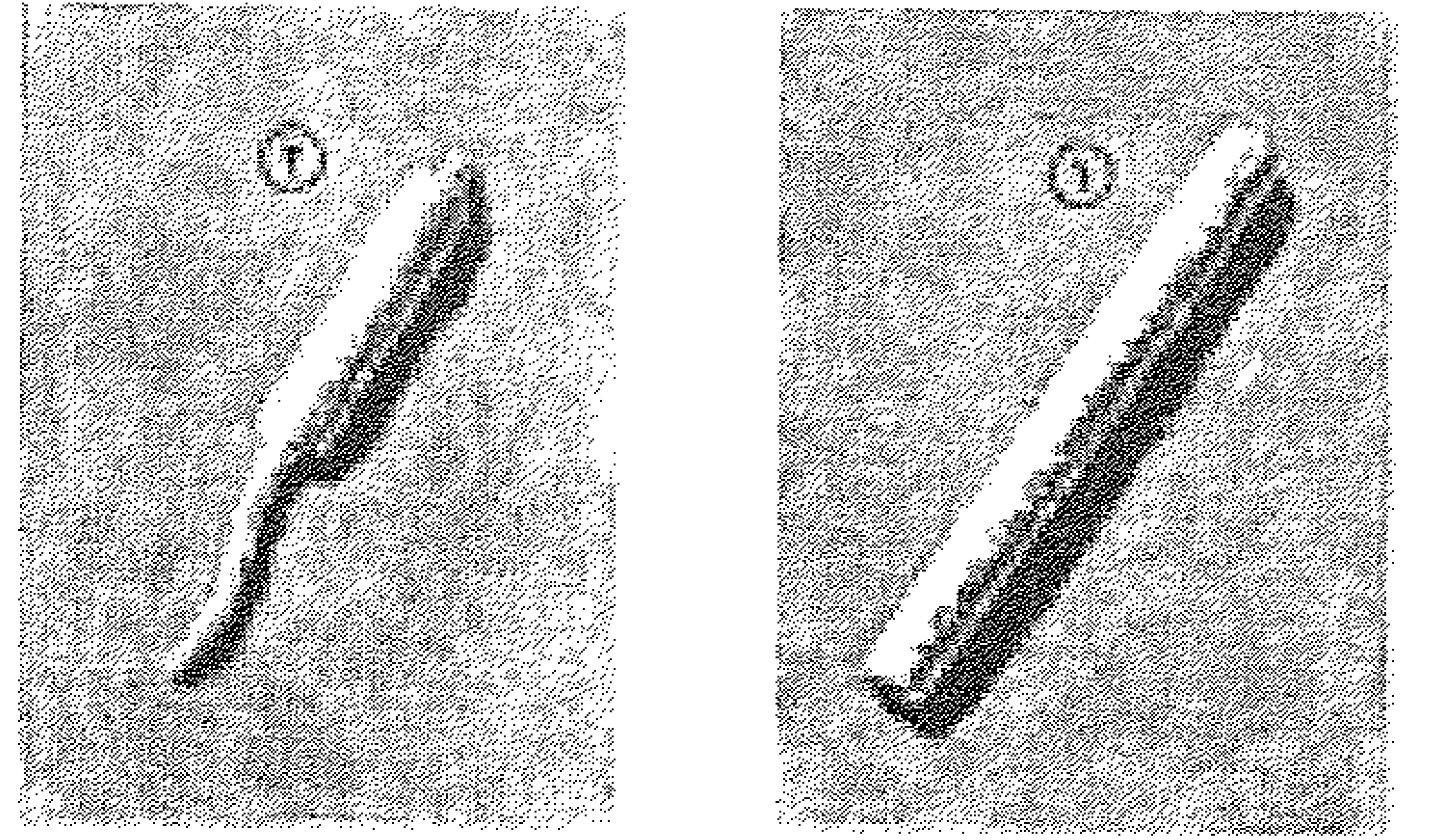
مثل الأمراض الطفيلية بالجهاز الهضمى، كالديدان المعوية، وبعض أنواع

الالتهاب الكبدى الفيروسى، والتهاب القولون الأميبى، والديدان الشريطية والحلزونية والخيطية بأنواعها المختلفة..

والأمراض البكتيرية المعدية مثل الدوسنتاريا الباسيلية والكوليرا، والتيفويد، وغير ذلك.

جـ - عن طريق الاتصال الجنسى: مثل أمراض السيلان، والزهرى، والإيدز، والأمراض الجنسية الأخرى.

د - عن طريق ملامسة الجلد: مثل أمراض الجذام، والجرب، وغيرها.



صور ميكرو إلكترونية لڤيروس موزايكو الطباق مكبرة حوالى ٢٠٠ ألف مرة (١) الڤيروس (٢) الڤيروس وقد أزيل جزء من غطائه البروتينى ليكشف عن محوره الداخل من حامض النيوكليك.

هـ - عن طريق نقل الدم: مثل الإيدز والزهرى، وبعض أنواع الالتهاب الكبدى الفيروسى.

و - بواسطة وخز الحشرات: مثل البعوض ناقل الملاريا، والبعوض ناقل الفيلاريا، والحمى الصفراء، وذبابة تسى تسى الناقلة لمرض النوم، ومثل القمل الناقل للتيفوس والحمى الراجعة، ومثل البراغيث الناقلة للطاعون.

وما هى الفيروسات؟ إنها كائنات صغيرة الحجم جدا، لا ترى إلا بالميكروسكوب العلمى، إلا أنها ترى بالميكروسكوب الإليكترونى الذى يكبر الصورة آلاف المرات.. وهى آلاف الأنواع.. وهى ليست خلايا بها أنوية، وتتكاثر بطريقة عجيبة، وهى أنها تدخل فى الخلايا الحية وتتكاثر داخلها بالعشرات والمئات فتموت الخلية الحية، وتنطلق منها الفيروسات بالعشرات والمئات، لتدخل كل منها خلية حية أخرى وهكذا.. وتختلف الفيروسات عن جميع الكائنات الحية فى كل شىء.. فهى مكونة من حامض نووى واحد.. بينما خلايا جميع الكائنات الحية بها حامضان نوويان. المعروفان باسم DNA, RNA.

ومن الأمراض التى تنقلها الفيروسات من المريض إلى السليم: الإنفلونزا، ونزلات البرد، وشلل الأطفال، والتهاب الغدة النكفية، والحصبة، والجدرى، والجديرى، والتهاب الكبد الفيروسى، والحمى الصفراء.

وما هى البكتيريا:

هى خلايا صغيرة الحجم جدا لا ترى إلا بالميكروسكوب.. وتنمو وتتغذى وتتكاثر وتتنفس، وبها الحامضان النوويان DNA, RNA.. ويمكن للبكتيريا أن تعيش مستقلة، وتنتقل من مريض إلى سليم فتعديه.. ومن الميكروبات ما هو نافع، ومنها ما هو مضر.

ومن الميكروبات النافعة التى تختر الحليب إلى لبن رائب وجبن.. ومنها التى تتعلق بجذور النباتات وتمدها بالنيتروجين.. ومنها البكتيريا التى تعيش فى الأمعاء وتساعد على هضم المواد الغذائية. ومنها التى تعمل على تكوين فيتامين ب مركب.. ومنها ما يتعايش مع بكتيريا أخرى على سطح الجلد. وتعيش آلاف الملايين من البكتيريا فى فم الإنسان، وعلى جلده، وأنفه، وفى أمعائه، دون أن تحدث ضررا. ومن الميكروبات الضارة ما تنقل الأمراض إلى الجسم كالكوليرا والسل والدفتريا والتيفوس.. وغيرها من الأمراض المعدية البكتيرية.

ومن العجيب فى الفيروسات والبكتيريا التى تصيب الإنسان بشتى الأمراض، أنها أحيانا تكون وديعة وحميدة لا تسبب مرضا للجسم الذى يحملها. وتظل فيه ساكنة بينما يكون الجسم الحامل لها لايشتكى شيئا.. بل إن بعض هذه الكائنات الضارة بالإنسان قد تصير كائنات تدفع عن الإنسان المرض.. وفى أحيان أخرى تسبب له مرضا شديدا.. وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد.. وقد تتعامل الجرثومة الواحدة مع الناس تعاملا مختلفا.. فتتعامل مع بعض الناس فى شدة وبطش وعدوان.. وهى نفسها تتعامل مع بعض الناس الآخرين فى سلام ووئام.

ومثال ذلك بكتيريا الحمى الشوكية الوبائية فإن من طبيعتها شدة العدوان والضرر. فهى تنتقل من المريض إلى السليم عن طريق الرذاذ الخارج من الفم والأنف، فتسبب له مرضا وبيلا، كثيرا ما يؤدى إلى وفاته... ونفس هذه البكتريا العدوانية للإنسان، قد تصل إلى إنسان آخر ، أو إلى ناس آخرين، فتكون مسالمة فلا تسبب مرضا.. وفى بعض أوبئة هذا المرض، يهاجم الميكروب الآلاف من الناس، إلا أن من ٥ إلى ١٠٪ منهم تظهر عليهم أعراض المرض، أما ٩٠ إلى ٩٥٪ منهم فلا تظهر عليهم أى أعراض مرضية.. ويظل كل منهم حاملا للمرض.. والأمر نفسه فى التيفود فبعض الناس يصابون به، إلا أن نسبة منهم تظهر عليهم أعراض المرض، ونسبة أخرى منهم يستكن الميكروب فى أجسامهم، وخاصة فى الكيس المرارى، دون أن يحدث للجسم مرضا. إلا أنه يصير مصدرا للعدوى بالمرض للغير.. فنفس الميكروب قد يعيش فى سلام فى أجسام، وهو نفسه قد يكشر عن أنيابه ويصير شديد الشراسة فى أجسام أخرى.

ما السبب فى هذه الظاهرة فى كل من الفيروسات والبكتيريا؟

إن الإجابة ليست سهلة حتى لدى العلماء المتخصصين. وقد تفسر على تفاوت المناعة من شخص لآخر.. أو على اختلاف قوة خطوط الدفاع فى جسم عن قوتها فى جسم آخر.. وقد تفسر على اختلاف يحدث لطبيعة الميكروب نفسه.. والأمر ليس بهذه البساطة.. ولكن الحقائق العلمية التى تتحدث عن هذه الظاهرة، فى العلاقة بين الفيروس والميكروب من جهة والإنسان من جهة أخرى؛ هى حقائق فى منتهى الدقة

والتعقيد.. إلا أن النتيجة النهائية هى أن هناك أسرارا فى هذه العلاقة لا يعلمها إلا الخالق عز وجل.. فالميكروبات لا تدرك ولا تعقل.. وأجهزة المناعة فى أجسام الناس لا تدرك ولا تعقل هى الأخرى.. ولكن التعامل بين البكتيريا والأجسام قائم على الفطرة التى فطر الله تعالى كلا من البكتيريا والأجسام عليها.. وتبقى حلقة مفقودة فى علم الإنسان، وهى السر الحقيقى فى تغير هذا التعامل، فيكون مرضا حينا، ولا يكون مرضا حينا آخر. إن هذه الحلقة لم تعد مجهولة لمن يتدبر الأحاديث النبوية عن العدوى فيدرك أن الأمر أولا وأخيرا معلق بإرادة الخالق عز وجل الذى بيده الخلق والأمر. الذى بيده الأسباب ونتائجها جميعا.. إن شاء عطل الأسباب فظلت النتائج بدون أسباب.. وإن شاء عطل النتائج فظلت الأسباب بدون نتائج.. وإن شاء عطل كلا من النتائج والأسباب، فلا يكون لهما أثر أو تأثير.. ويعكف العلماء على تفسير ما يحدث أمامهم من أمور.. ويخرجون بتفاسير كثيرة إلا أن السر الحقيقى لا يزال بعيدا عن إدراكهم.. ويستقل الله تعالى بالعلم به.



ما ترك الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى أمرا من أمور الدنيا والآخرة، إلا أخبرنا به، وبين لنا الطريق الصحيح والمنهج القويم فيه كما قال الله عز وجل: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [**الأنعام**] وكما قال تعالى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** (٨٩) ﴾ [**النحل**] وأرسل الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ ليبلغ الرسالة وينصح الأمة، ويعلم الناس من أمور دينهم ودنياهم ما لم يكونوا يعلمون.. كما قال الله عز وجل:

﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** (١٥١) ﴾ [**البقرة**].

ويعلم رسول الله ﷺ الأمة الكثير من أمور حياة الناس فى مأكلهم ومشربهم ونومهم ويقظتهم.. ويعلم الناس كيف يتصرفون فى كل أمر من أمورهم فى الدنيا التصرف الصحيح.. وحتى العدوى من الأمراض، تعلمنا السنة النبوية الشريفة كيف نتفادها.. كما تعلمنا الأسرار الحقيقية وراء العدوى من الأمراض.. تلك الأسرار التى لم يدركها كثير من الناس. فقد روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يوردن ممرض على مصح**» أى لا يدخل إنسان مريض بمرض يعدى على إنسان سليم فيسبب له العدوى بالمرض. وفى حديث آخر رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال: «**لا عدوى ولاطيرة ولا هامة ولاصفر، وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد**» ففى أول الحديث نفى لوجود العدوى وفى آخر الحديث إثبات لها، وأمر بتجنبها والفرار منها. وأخرج الإمام الترمذى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال: «**كل ثقة بالله وتوكلا عليه**» والحديث الشريف يدل على أن فى الأكل مع المجذوم فى قصعة واحدة خطرا ما، ويدفعه التوكل على الله والثقة فى رحمته.

وقد ظن كثير من العلماء تعارضا فى تلك الأحاديث المشرفة عن العدوى، كما تحدثنا من قبل.. وحتى الإمام ابن القيم الذى لم يوافقهم على ذلك ومع ثقته بما قال لم يستطع أن يعطى دليلا علميا أو برهانا ثابتا، يدل على أن هذه الأحاديث لا تتعارض مع بعضها البعض.. ذلك لأن الأدلة العلمية التى تثبت ذلك لم تكتشف إلا حديثا فى عصر العلم الحالى ولم تكن معروفة من قبل قط.

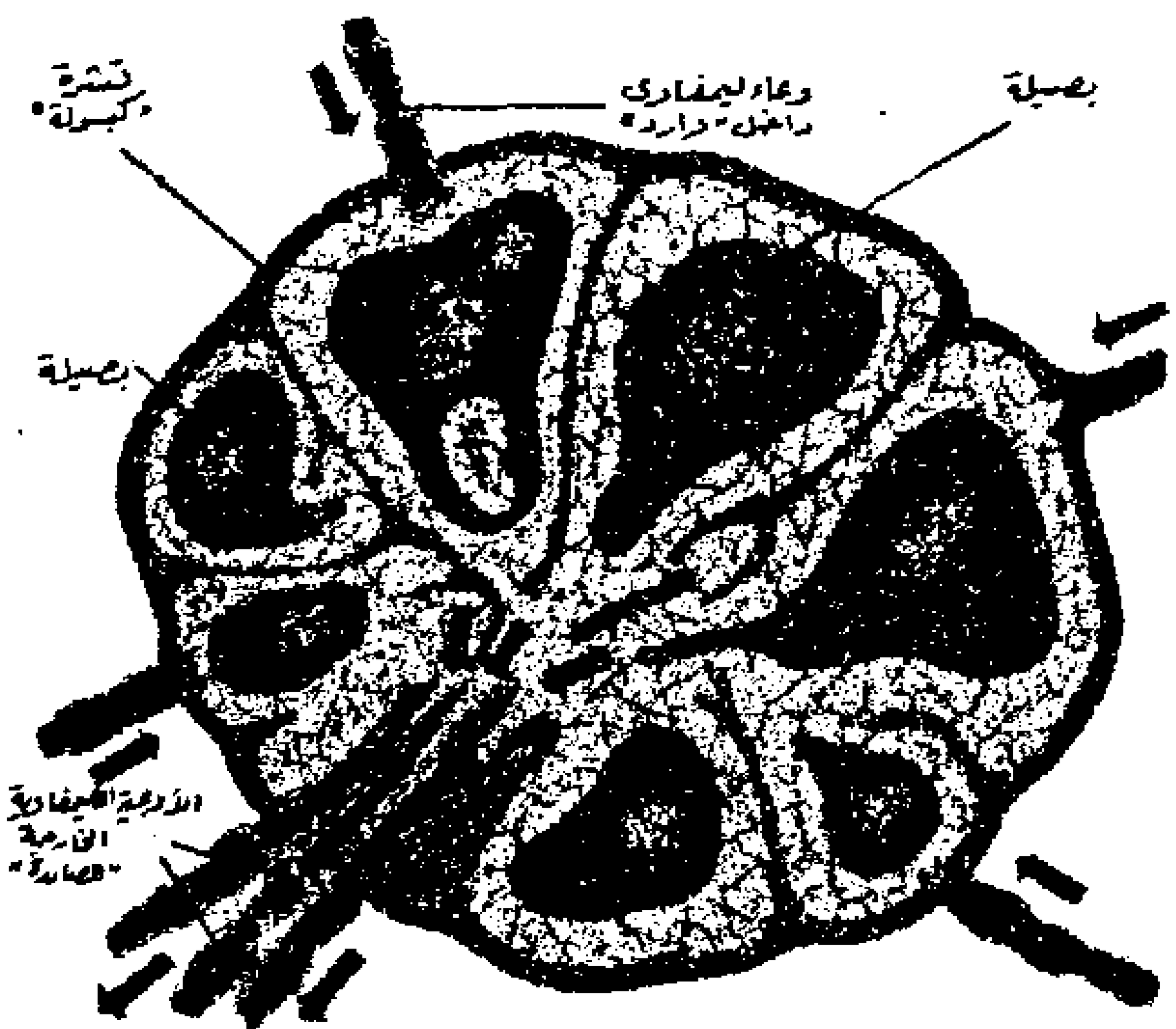
وعن بعض الأسرار العلمية عن العدوى سيكون حديثنا فى الصفحات التالية.

خطوط الدفاع وجهاز المناعة

يعيش جسم الإنسان فى محيط ملىء بالجراثيم التى تسبب الأمراض.. فهى فى طعامه وشرابه، وهى فى الهواء الذى يستنشق به أيضًا.. ومادام الأمر كذلك فما الذى يحفظ الجسم ويمنع العدوى عنه فى كثير من الأحيان؟.. إنها من الناحية العلمية خطوط الدفاع فى الجسم وجهاز المناعة فيه.. وكيف يحدث ذلك؟

أولا: الجلد خط الدفاع الأول فهو يفرز سوائل حمضية تعمل على قتل ما يقع على الجلد من الجراثيم.

ثانيا: تدخل الجراثيم الجهاز التنفسى مع هواء الشهيق.. فتقابلها فى الرئتين



قطاع فى عقدة ليمفاوية يوضح تركيب الأوعية.

لكل عقدة ليمفاوية غلاف ليفى أو كبسولة تمتد منها حواجز Trabeculae إلى الداخل، حيث توجد القشرة التى تتكون من بصيلات ليمفاوية، وفى مركز العقدة توجد الكتل شبه الليمفاوية غير المنتظمة للنخاع Medulla، وتتشابك الجيوب الليمفاوية مثل خلية عسل النحل، حاملة الليمف نحو الأوعية الليمفاوية الخارجية.

خطوط دفاع قوية، وتعمل على القضاء عليها. فتوجد مواد كيميائية قاتلة للجراثيم على الأغشية المبطنة للشعيبات الهوائية، كما توجد سوائل مخاطية تجمع تلك الجراثيم.. ومن ثم تطرد إلى الخارج بواسطة أهداب متحركة على طول الشعيبات. والسعال عامل فعال لنظافة الشعيبات الهوائية من كل جسم غريب يكون فيها.. فالسعال أحد خطوط الدفاع الهامة فى الجهاز التنفسى.. فإذا دخلت الميكروبات الضارة من إنسان مريض إلى الجهاز التنفسى لإنسان سليم.. فهذه عدوى.. ولكن خطوط الدفاع فى جسم الإنسان السليم، تجعل هذه العدوى فى كثير من الأحوال وكأنها لا عدوى.. أو كأن لم تكن.

ثالثا: تصل الميكروبات الضارة مع الطعام والشراب إلى معدة الإنسان، فهذه عدوى.. ولكن الوسط الحامضى للمعدة يعمل على قتل الغالبية العظمى من تلك الجراثيم.. فتصير العدوى لا عدوى.

رابعا: توجد فى الجسم خلايا تجوب الجسم ـ كالحراس ـ ما إن تقابل ميكروبا إلا وتلتهمه.. كما توجد خلايا ملتهمة ثابتة فى جدران الأوعية الدموية فى العقد الليمفاوية والكبد والطحال، ما إن يمر أى ميكروب بالدم هناك حتى تلتقطه تلك الخلايا وتلتهمه التهاما.. فكثير من حالات العدوى تصير كأن لم تكن.

خامسا: جهاز المناعة بالجسم: هو جهاز فى منتهى الدقة وغاية الإحكام، يعمل على قتل الجراثيم التى تهاجم الجسم وتغزوه، وقد

تغلبت على كل خطوط الدفاع التى ذكرناها من قبل.. هناك يتصدى جهاز المناعة لتلك الجراثيم الغازية ويحاول قتلها.. ويفرز جهاز المناعة موادًا مضادة لتلك الميكروبات Anti-bodies وتظل فى الدم، فما إن تدخل تلك الميكروبات الجسم فى أى وقت بعد ذلك فى المستقبل، إلا وتقتل بصورة أو بأخرى وتحدث ملايين المعارك فى الجسم بين خطوط الدفاع فيه والميكروبات التى تعديه.. والإنسان لايدرى عما يجرى داخل جسمه شيئًا من أحداث وأحداث.

وهناك عوامل كثيرة تغير من قوة جهاز المناعة، فتزيده قوة حينًا. وتزيده ضعفا حينا آخر. والأمر نفسه بالنسبة للجراثيم، فإن صفاتها الوراثية قد تزيدها قوة تارة، وقد تضعفها تارة أخرى.

وما نتيجة كل ما سبق؟ النتيجة أن العدوى بالجراثيم قد تصيب الجسم بالمرض فى وقت من الأوقات.. وهى هى نفسها قد لا تسبب له مرضا فى وقت آخر.

فالعدوى قد تسبب مرضا تارة.. وقد لا تسبب مرضًا تارة أخرى، وبذلك تصير العدوى.. لاعدوى.. وليس الأمر فى كل ذلك بيد الإنسان.. ولا دخل للجراثيم فيه أيضا.. فالإنسان لا يستطيع أن يقوى أو يضعف من خطوط الدفاع فى جسمه.. فهى تعمل بأمر خالقها تعالى ومنصاعة لأمره.. وكذلك الأمر فى أجهزة المناعة بالجسم.. منصاعة لأمر ربها.. وكل ما يحدث فيها من أحداث، هى آيات من إعجاز الخلق، وإبداع الفطرة التى فطر الله تعالى الإنسان عليها.. وكل من الجراثيم وخطوط الدفاع وخطوط المناعة بالجسم، مسيّرة بأمر الله تعالى..

من هنا نفهم أن أمر العدوى، تكون أولا تكون، هى من أمر الله تعالى ومشيئته أولا وأخيرا. وهذه حقيقة لاشك فيها يجب أن نتفهمها جيدا، إذا أردنا ان نفهم المغزى العلمى فى الأحاديث النبوية عن العدوى.

ومن الميكروبات ما يضر الإنسان ومن الميكروبات ما لا يضر الإنسان شيئا، ويتعايش مع جسم الإنسان فى سلام.. وتوجد الميكروبات غير الضارة بالإنسان على جلده وفى أمعائه.. وهى تقوم أحيانا بالدفاع عن الجسم ضد العدوى بالأمراض.. فهى تتصدى للميكروبات الضارة وعادة ما تقضى عليها.. وحينئذ لا تسبب العدوى بالميكروبات الضارة مرضا.. وتصير العدوى بها.. «عدوى». **إذن فالعدوى ببعض الميكروبات كثيرا ما تكون «لاعدوى».. وفى بعض الأحوال تصير عدوى**.. فضلا عن أن الأمر كله أولا وأخيرا معلق بإرادة الله عز وجل، الذى يريد للعدوى أن تكون عدوى أو لا تكون.

وهذه الأسرار العلمية التى ذكرناها قد تعيننا على تفهم بعض المغزى العلمى فى حديث رسول الله ﷺ : **«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولاصفر، وفر من المجذوم فرارك من الأسد»** وقد يجادل الإنسان ـ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ـ ولا يقتنع بما ذكرنا من أدلة، لذلك نسوق أدلة علمية أخرى، تقرع

عقولهم فيقتنعون، بأن ما قاله رسول الله ﷺ ليس ظنا، ولكنه حق وصدق ويقين.

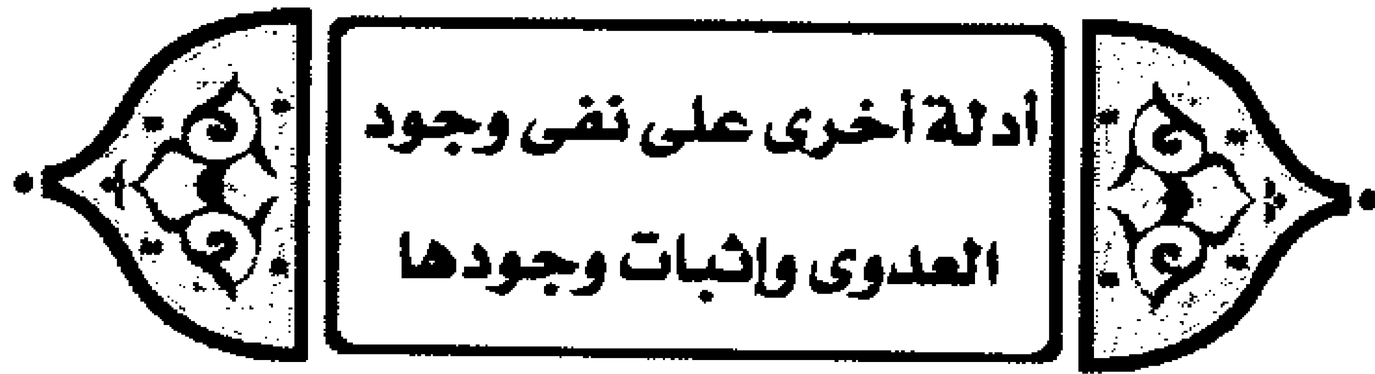
ونحن كثيرا ما نُحدث العدوى لإنسان سليم حتى نقضى على العدوى أو نحول دونها.

وبذلك تصير العدوى حائلا دون حدوث العدوى.. ولكن كيف يكون ذلك؟

يحدث أن يحقن الأطباء جسم إنسان سليم بميكروب المرض نفسه.. بهدف تفادى حدوث العدوى بذلك المرض مستقبلا.. وهذا ما يسمى **التطعيم ضد العدوى من الأمراض**.. مثل التطعيم ضد الكوليرا، أو ضد التيفويد، أو ضد شلل الأطفال، أو ضد الجدرى، أو ضد السل، أو غير ذلك من ميكروبات الأمراض التى نعدى بها الجسم السليم. ويحقن بالجسم ميكروب عولج فى المعامل ليصير ميكروبا ضعيفا لا يقوى على إحداث المرض.. ولماذا نحقنه فى جسم الإنسان السليم إذن؟ نفعل ذلك لنثير أجهزة المناعة بالجسم فتعلن التعبئة العامة لتقتل الميكروبات المرضية الغازية وتفرز ضدها مواد مضادة Antibodies تظل بالجسم مدة طويلة.. قد تطول لسنوات أو طول العمر فى بعض الأنواع.. حتى إذا حدثت عدوى بميكروب قوى، من هذه الميكروبات مستقبلا، فإن هذه المواد المضادة التى تكونت من قبل، تقتله.. وبذلك تحدث العدوى فعلا ولكنها تصير كأن لم تكن، **أى أن العدوى تصير لا عدوى..**

هذه حقائق علمية لم تكتشف إلا فى القرن الحالى، ما كان يعلمها الناس قديما وإذا رددنا الأمر إلى علم الإنسان، فهناك عدوى من بعض الأمراض، يجب الاحتراس والحذر منها، فإننا لا ندرى هل تسبب بعض هذه الحالات من العدوى مرضا، أو إنها تصير «لاعدوى»، أما إذا رددنا الأمر إلى الله تعالى فالعدوى إن شاء الله تعالى لها أن تصير مرضا، فإنها تصير مرضا.. وإن شاء الله تعالى لها ألا تسبب مرضا فإنها تصير «لاعدوى».. الأمر فى ذلك - وفى كل شىء فى الوجود - معلق بإرادة الله عز وجل فهو الذى يسيِّر كل شىء فى الكون.. وهو الذى إذا أراد شيئا أن يكون، كان.. وإذا أراد شيئا ألا يكون، لايكون.

وهو القائل عز وجل: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾﴾ [يس] وهذا هو الفهم العلمى لحقيقة العدوى من الأمراض، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى**» وفى آخر الحديث قال: «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» وقال أيضا: «**لايوردن ممرض على مصح**».



أدلة أخرى على نفى وجود العدوى وإثبات وجودها

بالإضافة إلى الأدلة العلمية السابقة، هناك دليل آخر.. وهو فى قضية **حامل الميكروب**.. فكثير من الناس يصاب بالعدوى بميكروب المرض مثل ميكروب التيفويد، أو ميكروب الالتهاب السحائى الوبائى، ولا تظهر أى أعراض مرضية على الإنسان الذى

أصيب بالعدوى. وغالبا ما يصير ذلك الإنسان حاملا للميكروب المرضى وليس مريضا.. ولكنه يكون مصدر العدوى لغيره من الأصحاء الآخرين. إن هناك عدوى لا شك ولكنها لا تحدث مرضا.. إلا أن حامل المرض يكون خطرا على الأصحاء..

إذن فهناك عدوى لاشك فى ذلك.. وعلى هذا المستوى من العلم حديث رسول الله ﷺ للناس:

«لايوردن ممرض على مصح».. ويقول أيضا: **«وفر من المجذوم فرارك من الأسد»** إلا أن هناك عوامل أخرى كثيرة تجعل العدوى بجراثيم الأمراض كأن لم تكن.. أو لا تُحدث لمن انتقلت إليه مرضا ـ مثل حامل الميكروب ـ **إذن فمن العدوى ما يكون دواء ـ كما فى حالات التطعيم ـ ومن العدوى ما يكون داء، ومن العدوى ما لا يكون داء.**

إن القول بأن العدوى بميكروب المرض هو السبب الوحيد فى إحداث المرض، قول يدل على جهل قائله بأسرار الحقائق العلمية. وفيه ضلال، لأن فيه إنكارا لفطرة الخلق، ونسيانا أو تناسيا لمشيئة الله تعالى وأمره فى خلقه، من الذرة إلى المجرة ومن الميكروب إلى الإنسان، فليس الأمر بيد الميكروب، فالميكروب ليس له من أمره شيئا، وليس له إدراك أو مشيئة، بل هو مخلوق مسير تماما بأمر ربه ومسخر تماما لمشيئة الله عز وجل ـ وهذه حقيقة لاشك فيها ولاينكرها عاقل ـ **إذن فالأمر كله فى العدوى تكون ولاتكون معلق بأمر الله ومشيئته وإليه يرجع الأمر كله** وهو القائل عز وجل: ﴿**...أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ..**﴾ [**الأعراف**] وهو القائل أيضا: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿٢٩﴾﴾ [**التكوير**]، وهو القائل أيضا: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾ [**الأنفال**].

من هذا المستوى من الفهم يمكن أن ندرك المغزى العلمى لحديث رسول الله ﷺ:

«لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ولاصفر وفر من المجذوم فرارك من الأسد» فإننا إذا ناقشنا إنسانا فاهما نقول له: إنك لو رددت الأمر إلى الحق المطلق لن تجد عدوى.. فيقول:

هذا صحيح تماما، ولكن أعطنى دليلا ملموسا.. كيف لاتكون عدوى لمرض السل أو الجرب مثلا؟

نقول له: إنك تنظر إلى الحالات الفردية والتى تراها. وإلى الأسباب والنتائج التى تشاهدها... ولكنك لو غصت وراء الحقيقة وفى أعماقها؛ لظهر أمامك سؤال هام: من أعدى هذا المريض بالسل؟

فيقال لك: مريض آخر سبقه بالمرض فتقول: ومن أعدى ذلك المريض السابق؟ فيقال لك: مريض أسبق منه.. فتقول له: إذن تسلسل معى إلى الماضى البعيد جدا.. حتى نصل إلى أول إنسان أصيب بالسل أو الجرب مثلا، لم يكن إنسان قبله مصابا لا بالسل ولا بالجرب.

وأسأل: من أعدى هذا الإنسان؟ فيقال لك: لا أحد.. فتبرز أمامك حقيقة لاشك

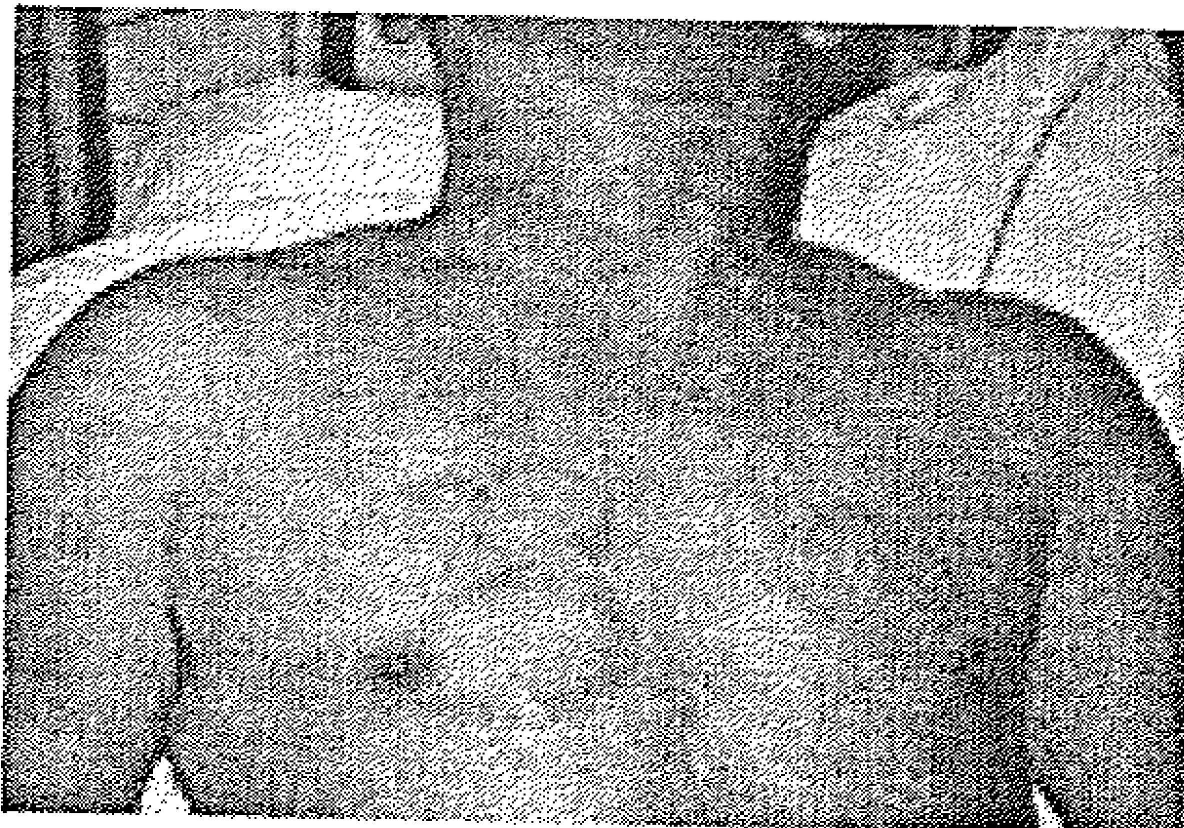
فيها : **إنه لاعدوى بصفة قطعية** .. ونجد كل هذا فى الحديث النبوى الشريف.. فقد أخرج الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**» فقال أعرابى : فما بال الإبل تكون كالظباء فى الرمل، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال ﷺ : «**فمن أعدى الأول**» أى فمن أعدى أول بعير أصيب بالجرب فى الماضى البعيد جدا حيث لم تصله أى عدوى أصلا .. وإنما كانت إرادة الله وأمره دون أية أسباب.

العدوى من الجذام

الجذام مرض مزمن، أصيب به الإنسان منذ العصور القديمة، ويغلب على الظن أن الهند هى موطنه الأصلى، وانتشر إلى جنوب شرق آسيا، وشمال استراليا، وأفريقيا الاستوائية كلها .. ومن الهند انتشر فى أوربا منذ أكثر من ألفى عام عن طريق جيش الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٦ ق. م. ولم يكتشف ميكروب الجذام إلا سنة ١٨٧٣م .. ولايعرف الأطباء حتى اليوم طريق العدوى بميكروب الجذام .. والرأى السائد الآن أن العدوى به تحدث عن طريق ملامسة جلد المريض مرات عديدة ومتكررة ولزمن طويل لذلك يظهر فى المخالطين للمريض .. إلا أنه لايظهر إلا فى ١٪ فقط من المخالطين، مما يدل على أن ملامسة جلد المريض لاتنقل العدوى إلا بعد زمن طويل

ولاينتقل ميكروب المرض عن طريق الطعام أو الشراب، لأنه ميكروب ضعيف جدا، ولو وصل إلى المعدة لقُتل فورا فى الوسط الحامضى للمعدة .. من هنا نفهم المغزى العلمى فى السنة النبوية ولماذا تجنب رسول الله ﷺ مصافحة مريض الجذام، فقد أخرج الإمام مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى ﷺ إنا قد بايعناك فارجع. وفى يوم آخر أكل مع مريض آخر بالجذام فى قصعة واحدة، فقد أخرج الإمام الترمذى عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال له: «**كل ثقة بالله وتوكلا عليه**» ولقد علمنا فى عصر العلم الحالى أن الجذام لاينتقل عن طريق تناول الطعام .. فليس هناك تعارض بين أحاديث رسول الله ﷺ فى تعامله مع المجذوم كما تخيل العلماء قبل العصر الحالى..



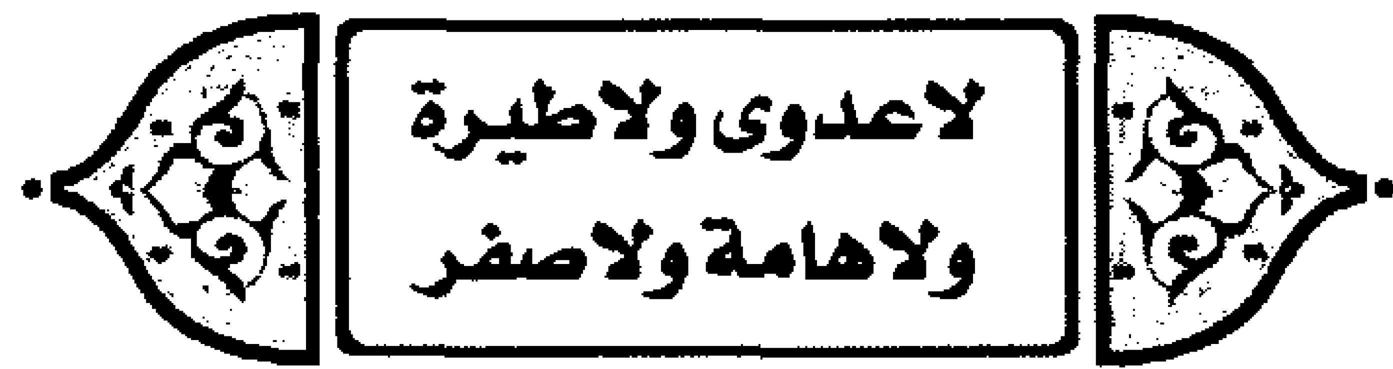


قال رسول الله ﷺ: **«وفر من المجذوم فرارك من الأسد»** فما هو الفهم العلمى لذلك؟

بعض أنواع الجذام الشائعة، تحدث تشوها بالوجه .. فيغلظ الجلد، وترتفع الجبهة، ويسقط الشعر عن الوجه والحواجب وفى القرن الماضى سنة ١٨٤٧م كان أول وصف لمريض الجذام كتبه طبيبان هما دانيال وبويك. وقالا فى وصفهما بالكلمة الواحدة **«إن وجه مريض الجذام يشبه وجه الأسد»** ولم يوصف وجه مريض الجذام بهذا الوصف أبدا قبل سنة ١٨٤٧ .. إلا أننا نلاحظ أن رسول الله ﷺ ذكر هذا الوصف العلمى فى قوله : **«وفر من المجذوم فرارك من الأسد»** ونتعجب ونعجب من كلمات الحديث النبوى الشريف فى اختيار لفظ « **الأسد**» ولماذا لم يقل مثلا وفر من المجذوم فرارك من الوحش، أو فرارك من الأفعى، ولكنه اختار لفظ «الأسد» لتصف كلمات الحديث النبوى الشريف الموصوف وصفا يجمع المعنى والصورة، ويصور المظهر أيضًا.. كل ذلك فى كلمة واحدة مما يعجز عن قوله البشر، مما يدل على أنه وحى من الله تعالى لرسوله .. ولم يتطرق أحد من المفسرين للحديث النبوى لهذا الوجه من الإعجاز العلمى فيه. فلم يلاحظ أحد من الأطباء أن وجه مريض الجذام يشبه وجه الأسد قبل سنة ١٨٤٧م فى كتب الطب ... ويصف الأطباء وجه مريض الجذام Leonine Face يعنى «وجه الأسد».

ولكن الحديث النبوى سبق بالعلم فى ذلك .. ولايُقبل عقلا أن يكون هذا الحديث الشريف اجتهادا من الرسول ﷺ كبشر كما ادعى ابن خلدون ومن وافقه من المفكرين جهلا منهم بالعلم فى ذلك.

وميكروب الجذام لايعقل ولايدرك ولايعى .. وكذلك خطوط الدفاع والمناعة فى الجسم. إذن فالعدوى تكون أو لاتكون، أمر بيد الله وحده .. وإذا رددنا الأمر إلى الحق المطلق، ما وجدنا إلا أمر الله وقدرته ومشيئته .. إن شاء جعل ميكروب الجذام عدوانيا وبذلك تتحقق به العدوى .. وإن شاء جعل الميكروب فى منتهى الضعف لايقدر على إحداث المرض فى إنسان آخر، وبذلك تصير العدوى لا عدوى.



قال رسول الله ﷺ : «لاعدوى» .. وقد تحدثنا من قبل عن بعض المعانى فى هذه العبارة من الناحية العلمية .. إن العدوى من مريض بمرض معد، أمر نعرفه فى حياتنا اليومية .. والعدوى قد تسبب مرضا .. إذن فالعدوى «سبب» والمرض «نتيجة». والنتائج مترتبة على الأسباب فى نظرنا نحن كبشر .. فمثلا (نأخذ العلاج فنشفى) فالعلاج «سبب» والشفاء «نتيجة». و(أعمل فى السوق فى التجارة فأكسب مالا) فالتجارة «سبب» وكسب المال «نتيجة» .. إلا أن النتائج فى حقيقتها غير مترتبة على الأسباب .. والله عز وجل بيده الأسباب والنتائج جميعا يصرِّفها كيف يشاء.. فقد يحقق نتيجة بدون سبب .. نجد ذلك فى قوله تعالى عن السيدة

مـريم عليـها السـلام ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم] فتساقط الرطب «نتيجة» وهز النخلة بيد مـريم «سبب» . . والحـقيـقة أن السـيدة مريم لم يكن فى استطاعـتها هز جذع النخلة الأمـر الذى لايقـدر عليـه إلا عـصبـة من الرجال . . إذن «فالنتيجة» هنا غير مترتبة على «سبب» . . وقـياسا على ذلك فـإننا إذا قلنا: إن المرض المعـدى لابد من عـدوى تـسببـه، نقول إن ذلك فى اعتقـاد البشر، أما إذا رددنا الأمـر إلى قدر الله تعـالى، فلا عـدوى . . وأخرج الإمام الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: « **لايعدى شىء شيئًا** ».

وإذا تسـاءلنا عن ذلك يجـيبنا حـديث نبوى آخر أخـرجه الإمام الترمـذى عن جابر رضى اللـه عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «**لايؤمن عبـد حتى يؤمن بالقدر خيـره وشره حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه . وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه** ».

مما تقدم نفـهم الحقـيقة الكـبرى المعلق بإرادة الله تعالى وأمره «**لا عدوى**» أى عدوى بالمعنى الذى يفهمه الناس.

لا طيرة : الطيرة هى التشاؤم. وكانت العرب فى الجـاهلية إذا خرج أحـدهم لأمر، أطلق الطير فى الجـو، فإذا طار الطيـر يمينا، أقدم إلى ماعزم عليه. وإذا طار الطير يسارا، تشاءم ورجع عما عزم عليه. فنهى رسول الله ﷺ عن الطيـرة هذه وقال: «**لا طيرة**» أى لا أساس لها من الصحة.

ولا هامة: كـان العرب فى الجـاهليـة تقول إذا قتل رجل ولم يؤخذ بثأره، خرجت من رأسه دودة ـ أى هامة ـ فتدور حول قبره، وتقول «اسقونى اسقونى» ولاتزال تفعل ذلك حتى يؤخـذ بثأره(*). فعلَّم رسـول الله ﷺ الناس قال: «**ولا هامة**» أى لا أساس لها من الصحة.

ولاصفـر: كان العـرب فى الجاهلـية يعتـقدون أن فى البطن دودًا يهـيج عند الجوع وربما قتل صاحـبه. فنهى رسول الله ﷺ عن الاعتقاد فى هذا التصور الخاطئ.



(*) يقول الشاعر الجاهلى:

يا عمرو لا تدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حتى تقول الهامة اسقينى

قال رسول الله ﷺ : **«لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ولا صفر، وفر من المجذوم فرارك من الأسد»**. اعتقد ابن خلدون ومن نقل عنه من العلماء القدامى والمحدثين، أن فى هذا الحديث تعارضا، لأن أوله نفى لحدوث العدوى وآخره إثبات لوجودها .. وبالتالى اعتقدوا أنه حديث لايؤخذ به؛ لأنه كان ظنا من الرسول بصفته بشرًا يجوز عليه الخطأ .. ولم يكن وحيا من الله تعالى له .. وهكذا وضعوا علمهم الناقص حكما على العلم المطلق فى الوحى الإلهى .. فأخطأوا خطأ عظيما ..

وقال ابن خلدون ماقاله ، وقال من نقل عنه ما قالوا، بسبب جهلهم بحقيقة العدوى وبحقائق علم البكتريا .. تلك الحقائق التى لم يكتشفها العلماء إلا حديثا، وبسبب تأثرهم بالفلسفة اليونانية القديمة .. ونسوا أن هذا الحديث لو قاله أى إنسان غير رسول الله ﷺ لكان متناقضا حقا .. لماذا؟ لأن أى إنسان غير رسول الله إذا تحدث بحديث، فهو يتحدث لإنسان معين، أو لقوم معينين، وفى موضوع معين، وله ظروف معينة، وله زمن معين، وينقل معلومة محددة لاتحمل معنى آخر .. أما رسول الله ﷺ فهو إذ يتحدث، إنما يتحدث بوحى من ربه، أو بإلهام النبوة الذى خصه الله تعالى به دون سائر البشر .. وهو ﷺ إذ يتحدث، لا يتحدث لفرد معين، ولا لمجتمع معين، ولكن يتحدث للناس جميعًا كما قال الله عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ..﴾ [سبأ: ٢٨] .. ويتحدث ﷺ لا لمستوى واحد من الفهم والعلم، ولكنه يتحدث للبشر جميعا على اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية والإيمانية.

ويتحدث لا لزمن معين، ولا لعصر معين، ولكنه ﷺ يتحدث للبشر جميعا فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة .. فالوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى، يعطى الناس جميعًا فى كل عصر وزمان ومكان، وعلى اختلاف مستوياتهم، علما وفهما وبيانا .. كل إنسان يفهم منه قدرا معينا من العلم حسب مستواه الفكرى والثقافى والإيمانى.

ففى حديث رسول الله ﷺ : **«لاعدوى ولا طيرة ولاهامة ولاصفر، وفر من المجذوم فرارك من الأسد»** نجد أنه يوجه أول حديثه للمؤمن العارف بربه، الذى يعلم يقينا أن أمر فى هذا الوجود لا يحدث إلا بإرادة الله تعالى وأمره وقدره.. فيقول له

«لاعـدوى» .. ويوجـه الجزء الأخيـر من الحديث الشـريف للإنسان الذى لم يصل إلى هذا المستـوى والإيمان فيـقول له: **«وفر من المجـذوم فرارك من الأسـد»** كـما يقـول له: **«لايوردن ممرض على مصح»** ..

إن أسلوب أحـاديـث رسـول الله ﷺ أسلوب بلاغى معـجز، يعطى الناس جميـعا هداية وعلما على اخـتلاف فهمـهم وإيمانهم وعلمهم .. فـهى ليست مثل أحاديث غـيره من البشر .. والأحـاديث التى ثبتت نسبـتها لرسول الله ﷺ، هى وحى من الله تعالى له ـ سواء كانت تحـدث عن أمور الدين أو أمور الدنيا ـ وإن لم تكن وحـيا صريحًـا فهى من إلهام النـبوة الذى خص الله تعالـى رسوله به دون سـائر البـشـر .. وهـو نوع من الوحى أيضـا ... والرســول ﷺ لايتـحـدث إلا صـدقـا، ولا ينطق إلا حـقـا، ولايتكلم إلا وحيا .. وما ينبغى لابن خلدون أو غيره من الناس قديما أو حديثا، وهم مهما بلغ علمهم لم يصلوا إلى العلم كله .. لاينبغى عليهم ـ وهم ناقصو علم ـ أن ينصبـوا أنفسهم حكاما على العلم الـكامل فى أحـاديث رسـول الله ﷺ .. إنهـم بذلك أخطـأوا.. والخطأ هـنا خطيئة، وجهل كبير.



فى القرن التاسع والعشرين ق م كان أمحتب . أشهر أطباء مصر القديمة . . يعالج المرضى فى المعبد، فقد كان من رجال الكهنوت أيضا . . وكان العلاج يتكون من بعض الأعشاب والعسل، بالإضافة إلى طقوس وثنية، وتعليق التمائم، وقراءة التعاويذ، وتقديم القرابين لآلهتهم المزعومة فى المعابد الوثنية . . وكان رجال الكهنوت يقومون بعلاج المرضى فى مصر القديمة على المنهج الذى وصفه أمحتب . . لذلك سموه إله الطب . .

أما فى عصر الإغريق فقد ظهر أطباء يمارسون مهنة الطب . . وكان أشهرهم أبقراط، وكان يعالج المرضى فى المعبد أيضا وكان من أهم خطوات العلاج تقديم القرابين لآلهتهم المزعومة فى معابدهم الوثنية أيضا، وظل الحال فى الطب كما كان عليه . . لم يطرأ عليه أى تقدم حتى ظهرت الحضارة الإسلامية . . فتأسس علم جديد أو علوم جديدة منها الطب والصيدلة والفلك وغير ذلك من فروع العلم . . وكانت مزاولة الطب فى عصر الحضارة الإسلامية مؤسسة على أسس علمية لأول مرة فى تاريخ الطب، وظهر كثير من الأطباء الذين برعوا فى مجال الطب، منهم ابن سينا، وابن النفيس، وانتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا فى العصور الوسطى . فبدأت الحضارة فى أوربا من حيث انتهت إليه الحضارة الإسلامية . . إلا أن الأمر فى الطب والعلاج لم يتقدم فى العصور الوسطى فى أوربا، بل عاد إلى الوراء، وذلك بسبب تدخل رجال الدين فى ممارسة مهنة الطب ، وبذلك عادوا بالطب إلى عصوره الأولى.

وبعد انتهاء العصور الوسطى وظهور الاكتشافات العلمية الحديثة اضطر رجال الدين إلى ترك تعاطى مهنة الطب للأطباء . . وبذلك ظهر الكثير من الأطباء، وتوصل العلماء شيئا فشيئا إلى اكتشافات علمية جديدة . . ومنذ القرن الماضى ابتدأ الأطباء يمارسون الطب على أسس علمية صحيحة لم تكن معروفة من قبل . وتتابعت الاكتشافات العلمية . . وازداد الطب تقدما، ولازال فى تقدم مستمر حتى يومنا هذا. . إلا أنه لازالت حتى اليوم بعض القبائل فى المناطق الاستوائية تعالج المرضى بالتمائم والتعاويذ وتقديم القرابين فى المعابد، فى مجالس تقرع فيها الطبول، وتقام فيها بعض الطقوس الغريبة. .

ولا يختلف الباحثون فى تاريخ الطب فى أن الطب قد تأسس على علم صحيح منذ ظهور النهضة الإسلامية الأولى . فقد دعا الإسلام إلى علاج المرضى بواسطة الأطباء المؤهلين لممارسة الطب دون سواهم. . وعلى المريض أن يلتمس أسباب العلاج عند الأطباء فى عياداتهم ومستشفياتهم . . كما ظهرت مهنة تحضير الأدوية «الأقربازين» على أسس علمية لأول مرة فى تاريخ الطب. . ولقد حددت السنة النبوية المشرفة لمهنة الطب كيانا

خاصا، ومسئولية قانونية، لم تكن معروفة للناس من قبل. فإذا مارس إنسان مهنة الطب ولم يكن مؤهلا لتعاطى مهنة الطب، فإنه يكون مسئولا من الناحية القانونية ويتعرض للعقاب، وهذا ماتوصل إليه علماء القانون فى عصرنا هذا .. ولقد قننت السنة النبوية المشرفة هذا المبدأ القانونى من قبل أن يعرفه علماء القانون بقرون كثيرة.. فقد روى الإمامان أبو داود والنسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال:

«**من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن**» أى من تعاطى مهنة الطب وليس مؤهلا علميا لذلك، فإن مسئولية قانونية تقع عليه .. وإذا تذكرنا ما كان عليه الناس فى عصر نزول الرسالة على رسول الله ﷺ .. لتذكرنا مدى التأخر الفكرى فى مختلف فروع العلم فى العالم كله حينئذ. ولأدركنا مدى الإعجاز الطبى والقانونى فى هذا الحديث الشريف والأحايث النبوية المشرفة التى تحدثت فى مجال الطب والأطباء.

وروى الإمام أبوداود أيضا أن النبى ﷺ قال : «**أيما طبيب تطبب على قوم ولم يعرف له تطبب قبل ذلك، فأعنت، فهو ضامن**» أى أخطأ وأضر بالمريض فهو مسئول مسئولية قانونية .. ولقد علم رسول الله ﷺ بوحى من ربه الطريق الصحيح الذى ينبغى على المريض أن يسلكه فى رحلة العلاج .. وأن يترك ما كان يفعله الناس قديما من تعليق التمائم وتقديم القرابين وقراءة التعاويذ .. فقد روى الإمام مسلم أن النبى ﷺ قال:

«**لكل داء دواء فإذا أصاب الدواء الداء، برأ المريض بإذن الله تعالى**».

وروى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء إلا داء واحدا هو الهرم**» .. وروى الإمام أحمد فى المسند أن نفرا من الناس سألوا النبى ﷺ: يارسول الله أنتداوى (كانوا يريدون أن يفهموا أيتركون الرقى والتعاويذ والتمائم التى كانت شائعة فى تلك العصور ويتجهون إلى العلاج بالدواء . أم ماذا) فقال النبى ﷺ : «**ياعباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا داء واحدا**» قالوا: ماهو ؟ قال «**الهرم**» أى الشيخوخة.

ولكن هل يرد العلاج من قدر الله شيئًا؟

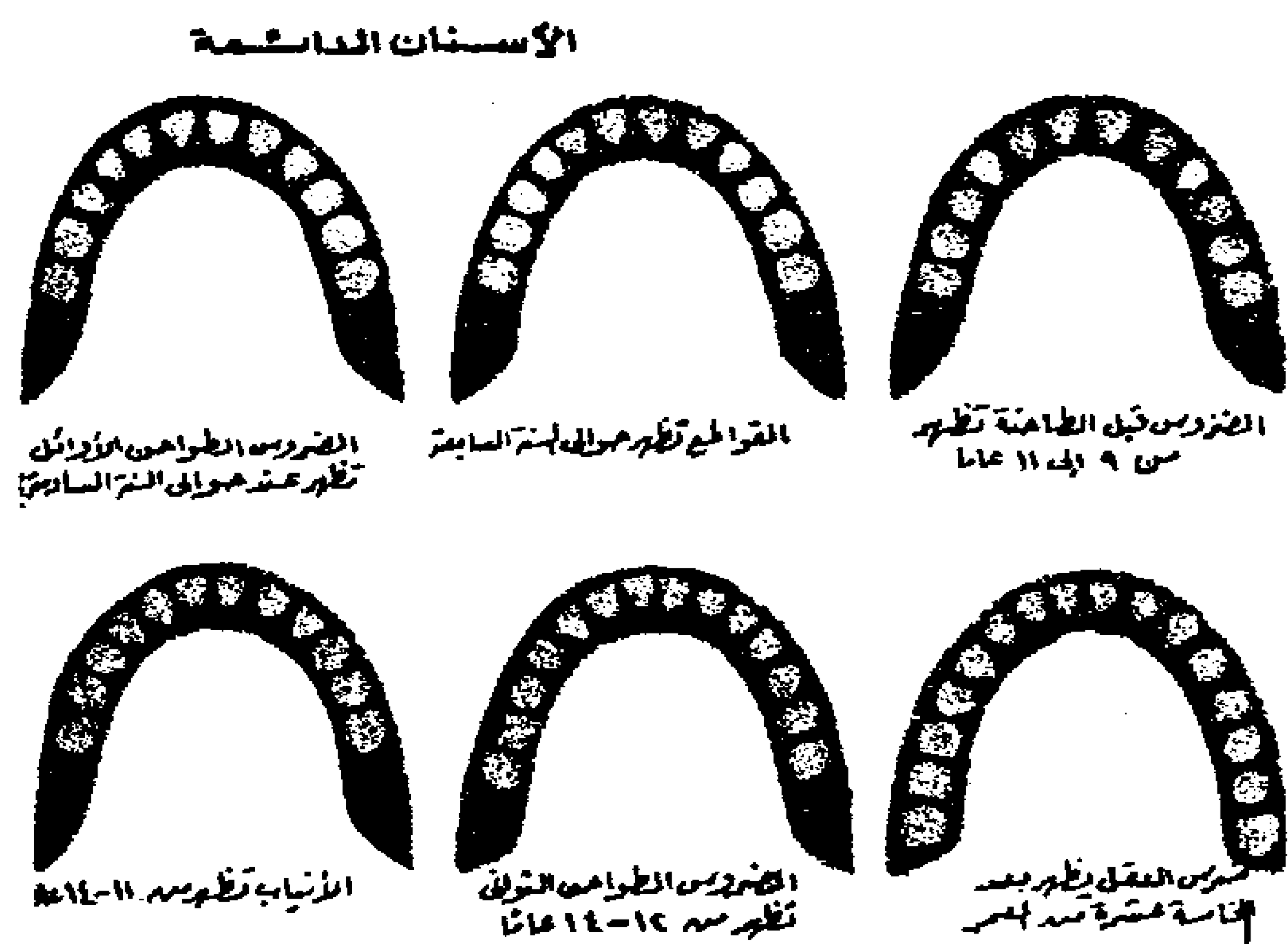
جاء الجواب على ذلك فى الحديث النبوى الشريف. فقد روى الإمامان أحمد والترمذى عن سفيان عن الزهرى عن أبى خزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ: يارسول الله ،أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به .. وتقاة نتقيها .. هل ترد من قدر الله شيئا؟ (لو قال النبى ﷺ: «إنها ترد من قدر الله» لقالوا له وكيف ترد من قدر الله .. ولو قال «لاترد من قدر الله» .. فسيقولون له : ولماذا إذن نتعاطاها؟) ولكن رسول الله ﷺ أجابهم وقال: «**هى من قدر الله**».

ومن الرقى ما هو مشروع فى الإسلام، مثل قراءة المعوذتين، أو أى دعاء جاء فى السنة الصحيحة. أما رقى الجاهلية فقد أبطلها الإسلام لخطئها وفسادها.

الأسنان الدائمة

وعندما يصبح عمر الطفل ست سنوات، تظهر أربع أسنان جديدة، وهذه هى الضروس الطاحنة الأولى التى كثيرا ما تسمى «طواحن السنوات الست "Six Year Molars" وهى أول الأسنان الدائمة فى البروز.

وبعد ذلك، وأثناء فترة خمس أو ست سنوات، يتم دفع الأسنان اللبنية بواسطة الأسنان الدائمة التى تنمو تحتها. وعندما يتم فقد كل الأسنان اللبنية، تظهر الطواحن الأربعة التالية مباشرة خلف الطواحن الأولى، ولايتبقى سوى الطواحن الثالثة، لكى يتم طاقم كامل من الأسنان الدائمة.



وهذه الضروس الأربعة عادة ماتسمى بضروس العقل "Wisdom Teeth" ونادرا ماتظهر قبل سن الخامسة عشرة، وفى بعض الأشخاص يتأخر ظهورها حتى سن الخامسة والعشرين. وفى أشخاص آخرين ربما يعاق ظهورها بسبب الضروس الطواحن الثانية، وهذه الحالة تعرف باسم ضروس العقل المدفونة، ولأن هذه الحالة تسبب ألما مبرحا، فلابد من التخلص من هذا الضرس.

صحة الفم والأسنان

كل الكائنات الحية تحتاج إلى طعام، والطعام يحتاج إلى هضم فى الجهاز الهضمى، وحتى يهضم الطعام جيدا لابد أن يصل إلى الجهاز الهضمى مطحونا ومفتتا، وبذلك يمكن للعصارات الهضمية أن تهضمه.

والفم وما به من أسنان وغدد لعابية، أول الجهاز الهضمى، وخلق الأسنان يدل على قمة الإحكام فى الخلق، وغاية الإبداع فى الصنع. فلكل سن تركيب دقيق وخلق عجيب . .

والذى يحدث فى الفم هو أن اللعاب يلتصق باللثة والأسنان، ويكون عليهما طبقة رقيقة جدا، سرعان ماتلتصق بها الميكروبات، وتزداد الميكروبات عددا كلما أهمل الإنسان تنظيف الفم والأسنان. .

وإذا أزيلت هذه الطبقة من اللعاب بالفرشاة أو السواك ، فسرعان ماتعود مرة أخرى وسرعان ماتلتصق بها الميكروبات أيضا وتتكاثر فيها .

من هنا نفهم أن اللثة والأسنان فى حاجة ماسة إلى التنظيف المتكرر كل يوم.

ولو لم يحدث ذلك لتسوست الأسنان.. ولاستمرت عملية تآكل السن حتى تصل فى النهاية إلى لب السن حيث الأوعية الدموية والأعصاب.. هنالك تحدث مضاعفات جديدة وآلام لم تكن محسوسة من قبل.. وتصل الميكروبات إلى الدم، ومنها إلى أجهزة الجسم الأخرى، فتصيبها بالضرر أيضًا. من هنا ندرك أهمية تنظيف اللثة والأسنان بالفرشاة أو السواك، والعناية المستمرة بهما والرعاية الدائمة لهما..

وكثير من الناس لايدركون الإعجاز فى خلق الأسنان.. ولا أهمية العناية بنظافتها. ولم يكن الناس قبل قرنين من الزمان يدركون أهمية تنظيف الأسنان والعناية بهما. وذلك بسبب جهلهم التام بوجود الميكروبات.. إلا أن السنة النبوية علمت الناس ما لم يكونوا يعلمون.

واكتشف العلماء حديثا أن بالسواك مواد فعالة تعالج اللثة المريضة، وتقوى الأوعية الدموية فيها وتنظف الأسنان أفضل تنظيف، فالسواك مطهر للفم والأسنان وجاء ذلك الاكتشاف حديثا إلا أننا نقرأ عنه فى السنة النبوية علمًا..

فقد روى الإمام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**السواك مطهَرة للفم مرضاة للرب**».

وكلمة مطهرة فى الحديث النبوى الشريف، تدل على وجود مواد مطهرة، وهذا أمر لم يكتشفه العلماء إلا منذ سنوات قليلة فحسب..

ولما كانت الأسنان فى حاجة مستمرة للنظافة، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بذلك.

فقد روى الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«**لولا أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**».

وروى الأئمة أبو داود ومسلم والنسائى عن المقدام بن شريح عن أبيه قال: قلت للسيدة عائشة رضى الله عنها: بأى شىء كان يبدأ رسول الله ﷺ إذا دخل البيت قالت: بالسواك.

وإذا صام الإنسان فإن الميكروبات تتكاثر فى فمه وذلك يؤثر تأثيرا سيئا على صحة الفم والأسنان. ولكن السنة النبوية بينت لنا العلاج فى ذلك، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ مالا أعد ومالا أحصى يتسوك وهو صائم..



تشميت العاطس

يمر الهواء عبر الجهاز التنفسى العلوى الذى يبتدئ بالأنف، وينتهى بالحنجرة، ثم يمر الهواء إلى الجهاز التنفسى السفلى الذى يبتدئ بالقصبة الهوائية وينتهى بالحويصلات الرئوية..

ولاتُرى الحويصلات الرئوية بالعين المجردة ،وفى كل رئة عدة ملايين منها، وفيها يتم تبادل الغازات فى منتهى الدقة وغاية النظام، وبعد أن يتم ذلك، يحدث الزفير، فيخرج الهواء من الرئتين إلى الخارج فى عكس طريق دخوله.

وكثيرا مايعطس الإنسان .. من أسباب العطاس:

أولا: الحساسية الأنفية ولها أنواع ولكل نوع أسباب.

ثانيا: استنشاق مواد أو روائح مهيجة لأعصاب الأنف كالسعوط مثلا..

وإذا تهيجت الأغشية المخاطية بالأنف تنبهت نهايات العصب الخامس الدماغى .. فترسل شحنة كهربائية إلى مركز ذلك العصب بجذع المخ.. فيتنبه ويُحدث شهيقا عميقا، ويرسل فى نفس الوقت إشارات كهربائية عاجلة، إلى مراكز الأعصاب التى تغذى عضلات التنفس .. لتنقبض تلك العضلات بسرعة .. وتضغط فجأة وبشدة على الرئتين.. فيندفع الهواء من الرئتين إلى الخارج على شكل عطاس يأخذ الإنسان أولا شهيقا عميقا قبيل العطس مباشرة... ثم يعطس كمية كبيرة من الهواء.

وماهى نتائج العطاس؟

إن الأنف مصمم على أن يتحرك الهواء فيه ببطء .. وذلك من خلال ممرات الهواء الثلاث فيه والتى تحيط بها عظام القرنيات الثلاثة الغنية بالأوعية الدموية، فإذا حدث عطاس .. زاد احتقان الأوعية الدموية بالأنف إلى حد يعرض العاطس إلى حدوث نزيف من الأنف..

إلا أن هذا لايحدث فى معظم الأحيان، وذلك من رحمة الله تعالى على عباده.

وإذا نظرنا إلى الرئتين .. رأينا نظاما متقنا وعجيبا.. أثناء الشهيق تنتفخ الرئتان بالهواء .. وتقاوم هذا الانتفاخ الأغشية المطاطية بالرئتين. مثل بالون من المطاط تنفخه بالهواء، وإذا فتح البالون فإن جداره المطاطى يضغط على الهواء فيندفع الهواء من فوهة البالون بشدة إلى الخارج .. والرئة لها نظام مشابه..

والشهيق عملية إيجابية والزفير عملية سلبية ؛ لأن الشهيق يحدث بسبب انقباض عضلة الحجاب الحاجز وعضلات التنفس

الأخرى فيتسع التجويف الصدرى . . ويقل بالتالى الضغط الجوى فيه إلى ماتحت الضغط الجوى الخارجى بكثير، فيندفع الهواء من الخارج إلى الرئتين . .

أما الزفير فهو عملية سلبية، فارتخاء عضلات التنفس وعمل الأغشية المطاطية بالرئتين، يجعل الهواء يخرج من الرئتين إلى الخارج فى عملية الزفير . .

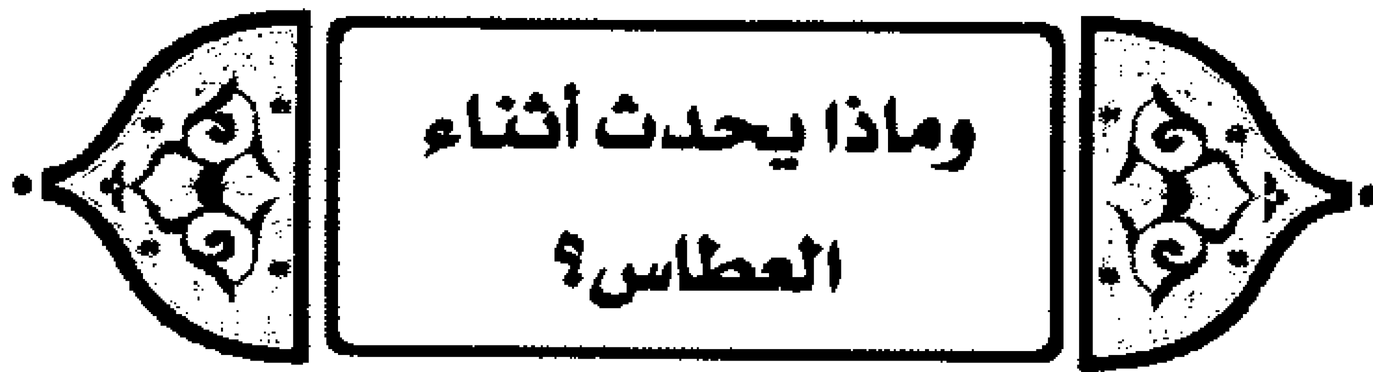
وما الذى ينظم عملية التنفس؟ إنه نظام عجيب ومدهش، ويمكن إعطاء تصور مبسط له إذا فهمنا أن فى جذع المخ مركزا للتنفس، يرسل إشارات كهربائية تصل فى النهاية إلى عضلات التنفس كل أربع أو ثلاث ثوان فتنقبض، وذلك يسبب عملية الشهيق تعقبه عملية الزفير السلبية، وما أهم ما ينشط عمل مركز التنفس؟ إنه ارتفاع مستوى ثانى أكسيد الكربون بالدم؛ لذلك إذا قام الإنسان بمجهود عضلى فى الجرى مثلا . . ارتفع مستوى غاز ثانى أكسيد الكربون بالدم وبالتالى زاد نشاط مركز التنفس وبالتالى أيضا زادت سرعة التنفس؛ لتطرد ما زاد من غاز ثانى أكسيد الكربون فى الدم، ولتوفر ما زاد من احتياجات الجسم من غاز الأكسجين.

ونجد أن الرئة عندما تنتفخ بالهواء يتوقف الشهيق؛ لأن الرئة عندما تنتفخ إلى درجة معينة؛ ترسل إشارات كهربائية عاجلة إلى مركز التنفس بجذع المخ كأنها تقول له: كفى، قف. فيتوقف عن التنبيه فترخى العضلات ويبتدئ الزفير وتستمر الدورة التنفسية سواء كان الإنسان مستيقظا أو نائما.

والمسألة ليست بهذه البساطة ولكنها فى نظام فى غاية التعقيد والإحكام. وفى دقة فى منتهى الإبداع إلى درجة تذهل العقول وتذكرنا بقول الله تعالى: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ **[الذاريات]**.

إن الضغط داخل القفص الصدرى أقل من الضغط الجوى الخارجى . . فإذا أصيب إنسان بجرح نافذ من خارج الصدر فهل يتحرك الهواء من الداخل إلى الخارج؟ أم من الخارج إلى الداخل؟ . . يتحرك الهواء من الخارج إلى الداخل لأن الضغط الجوى داخل القفص الصدرى أقل منه فى خارجه. والنتيجة أن الرئة تنكمش فورا وتصير فى حجم قبضة اليد بسبب وجود الأغشية المطاطية داخلها، وتتوقف عن العمل . .

إذن فالضغط الجوى المنخفض داخل القفص الصدرى هام جدا فى عملية التنفس وامتلاء الرئة بالهواء وفى ورود الدم إلى القلب أيضا.



وماذا يحدث أثناء العطاس؟

تحدث تغيرات فجائية فى معظم أجهزة الجسم ، مثلا :

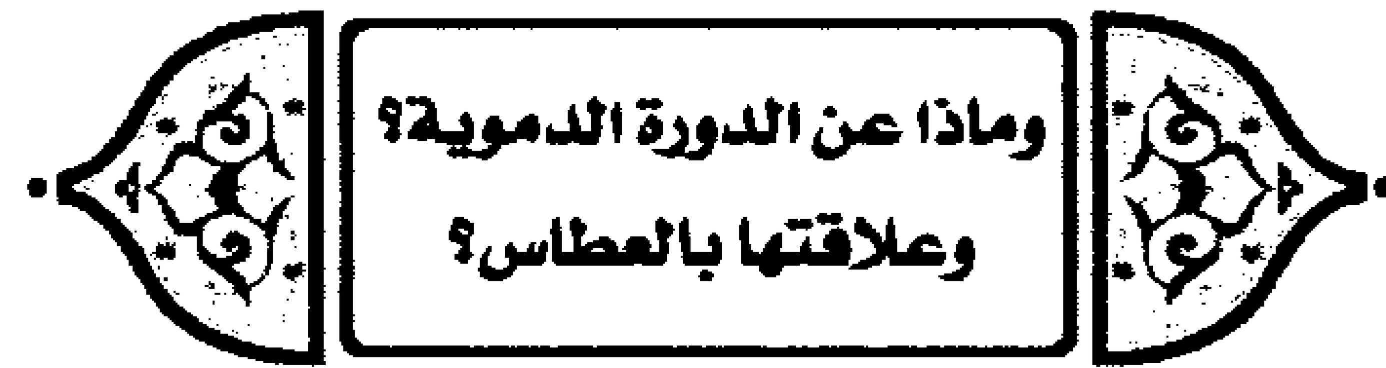
(١) يرتفع الضغط داخل الصدر ارتفاعا كبيرا وفجائيا . . وهذا يسبب تغيرا فى ديناميكية الدورة الدموية.

(٢) يتوقف ورود الدم إلى القلب فيزداد احتقان المخ . . ويقل ضخ الدم من البطين الأيمن للرئتين.

(٣) قد تتمزق بعض الحويصلات الرئوية، وخاصة إذا كانت الرئة غير سليمة أو كان بها بعض الفقاعات الهوائية التى قد تنفجر أثناء العطاس، ويتسرب الهواء من الرئتين إلى البلورا (الفراغ المحيط بالرئتين) (وهو ما يسمى الاسترواح الصدرى) وهى بمثابة جرح نافذ فى الصدر من الداخل.

وهذه حالة خطرة تؤدى إلى انكماش الرئة وتوقف عملها، وهى حالة طبية عاجلة تستدعى علاجا سريعا، أما فائدة العطاس الوحيدة فهى طرد المواد المهيجة التى سببته فى الجهاز التنفسى.

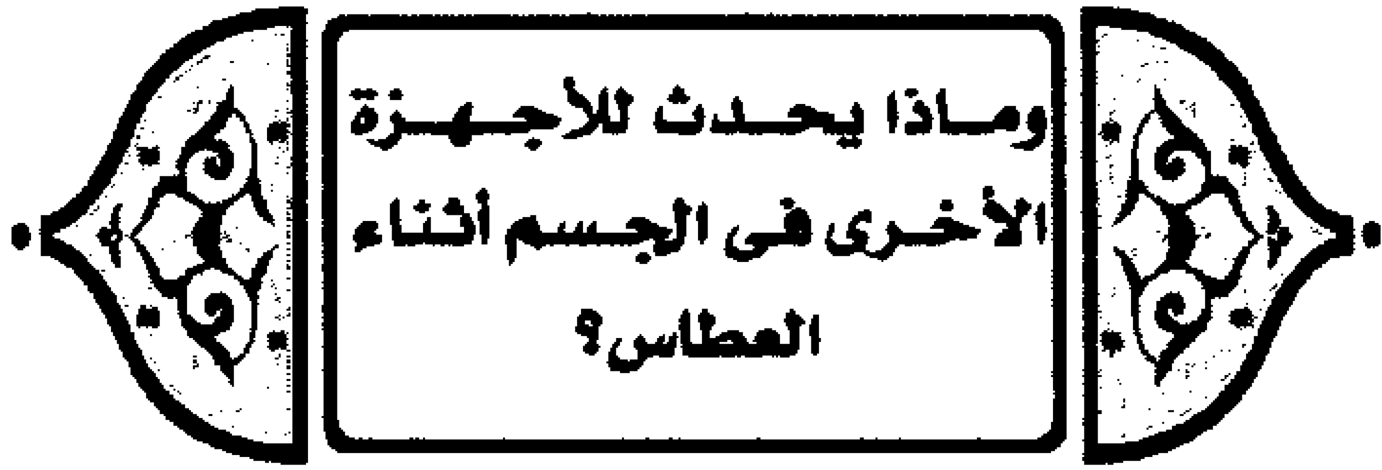
إذن فالعطاس قد يضر بالرئتين، وخاصة إذا كانت مريضة إلا أن العطاس غالبا يمر بسلام ولا تحدث أضرار بالرئة وذلك من رحمة الله تعالى بعباده.



القلب ينقسم إلى قسمين منفصلين أيمن وأيسر ولكل منهما أذين وبطين يعنى ذلك وجود أربع حجرات فى القلب، والضغط فى الحجرات الأربع مختلف، فالضغط فى الأذين الأيمن حوالى الصفر وأقل، وفى البطين الأيمن يصل الضغط الانقباضى إلى ٣٠مللى متر زئبق، وفى الأذين الأيسر ٥مللى متر زئبق، وفى البطين الأيسر ١٢٠مللى متر زئبق، ولكل حجرة من حجرات القلب عمل، ولكل منها وظيفة فى منتهى الدقة وغاية الإتقان.

أثناء الشهيق يصير الضغط فى الأذين الأيمن أقل من الصفر؛ لذلك يندفع الدم من الأوردة إليه - الوريد الأجوف العلوى من الرأس والذراعين والوريد الأجوف السفلى من الساقين والبطن - .

وأثناء الزفير يصل الضغط فوق الصفر بقليل فيقل اندفاع الدم من الأوردة إلى القلب شيئا قليلا.



يرتفع الضغط داخل البطن ويعانى من ذلك الحوامل والمرضى بالاستسقاء والمرضى بالفتق السرى أو الأربى.

إلا أن معظم هذه الأمور تمر بسلام، فتوتر عضلات جدار البطن، وتحمى الإنسان من أخطار العطاس وذلك من رحمة الله تعالى بعباده.

وخلاصة كل هذه المناقشة: أن العطاس، وخاصة إذا كان شديداً قد يعرض صاحبه إلى أضرار فى المخ أو الأنف أو الرئتين أو الدورة الدموية أو البطن.

إلا أن رحمة الله تعالى تدرك الإنسان، وذلك على شكل خطوط دفاع فى الجسم تحمى الإنسان من كل تلك الأضرار فى معظم الأحيان.

وإذا منع الله عن الإنسان ضرراً، فأقل شيء يفعله الإنسان هو أن يحمد ربه، وواجبٌ على السامع أن يدعو للعاطس بدوام هذه الرحمة التى منّ الله عليه بها، ويحتمل أن يكون هذا الفهم العلمى مفسرا لأمر رسول الله ﷺ بتشميت العاطس: (أى الدعاء له بالرحمة).

فعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: عطس رجل عند رسول الله ﷺ قال: ما أقول يارسول الله قال: « **قل: الحمد الله** » قال القوم: ما نقول له يارسول الله قال: «**قولوا له يرحمك الله**» قال: ما أقول لهم يارسول الله قال: «**قل: لهم يهديكم الله ويصلح بالكم**» رواه الإمام أحمد.

وعن أبى مالك الأشعرى مرفوعا: «**إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله على كل حال**». رواه الترمذى والطبرانى لأن الله أدركه برحمته أثناء العطاس ومروره بسلام.

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه**» رواه مسلم (شمتوه أى ادعو له باستمرار الرحمة).

وعن أنس رضى الله عنه قال: عطس رجلان عند النبى ﷺ فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر فقيل له: فقال: «**هذا حمد الله، وهذا لم يحمده**»، رواه البخارى.

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**للمسلم على المسلم من المعروف ست: يسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويجيبه إذا دعاه، ويشهده إذا توفى، ويحب له ما يحب لنفسه، وينصح له بالغيب**».

وظاهر الحديث يقتضى وجوب التشميت لثبوت الأمر الصريح به «إذا عطس أحدكم وحمد الله فشمتوه».

وعن أبى بردة عن أبيه قال: كان اليهود يتعاطسون عند النبى ﷺ (أى يتظاهرون بالعطاس) رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله فكان يقول لهم: «**يهديكم الله ويصلح بالكم**». رواه الإمام أحمد

ويخرج من الفم والأنف هواء غير هواء التنفس وغير العطاس، وهو أثناء التثاؤب مثلا، ولكنه لا يحدث ضررًا إلا أنه يسبب كسلاً بالإنسان وتراخيًا؛ لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التثاؤب فى الوقت الذى أمر فيه بتشميت العاطس.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا عطس فحمد الله فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فليرده ما استطاع**». رواه البخارى

أما الذى يخرج هواء من فمه آتيا من المعدة يعنى يتجشأ، فلا يحدث ضررا بالجسم كالعطاس، وفى الوقت نفسه يدل على أن الإنسان أسرف فى تناول الطعام والإسراف مضر بالإنسان وبالمجتمع أيضا.

عن ابن عمر رضى الله عنها قال: تجشأ رجل عند رسول الله ﷺ فقال: «**كف جشاءك عنا فإن أطولكم جوعا يوم القيامة**

أكثرهم شبعا فى الدنيا». رواه الإمام ابن ماجه.

ولم يكن الناس يعلمون شيئا عن الميكروبات والجراثيم الناقلة للأمراض، إلا منذ القرن الثامن عشر وأثناء العطاس يخرج رذاذ من الفم والأنف، وقد يعدى العاطس من حوله من الناس.

وما هى الوقاية من ذلك؟ أفضل وقاية أن يغطى العاطس أنفه وفمه بيده أو بثوبه أو بمنديله حتى لا يتسرب الرذاذ إلى الهواء المحيط به والناس من حوله.

ولقد أعطتنا السنة النبوية المشرفة فى ذلك هداية وعلما من قبل أن يعلم الناس عن كل ذلك شيئا.

فقد روى الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ: كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه وغض بها صوته.



التسمم بغاز الفحم

تحدث للإنسان كثير من الأمراض تسبب ارتفاعا شديدا بحرارة الجسم.. ويعطى الأطباء المريض علاجا يقضى على مسبب المرض.. وإذا ارتفعت الحرارة إلى درجة عالية فإن خلايا الجسم تتعرض لأذى قد لا تحمد عواقبه. فإن فى خلايا الجسم أنزيمات تقوم بمئات العمليات الكيميائية الحيوية، وهذه لاتقوم بعملها إلا فى حرارة معينة من ٣٦ إلى ٤٠ درجة مئوية، أما إذا زادت حرارة الجسم ووصلت مثلا إلى ٤٢درجة مئوية، فإن أفضل علاج هو التخلص من حرارة الجسم بواسطة تبريده بالماء بالإضافة إلى وسائل العلاج الأخرى.. وهذه من طرق العلاج فى الطب الحديث.. وقد ذكر الحديث النبوى الشريف عن ذلك علما، فقد روى الإمام البخارى فى الصحيح عن رافع بن خديج قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الحمى من فوح جهنم فأبردوها بالماء»**.

ولكن ماذا يصنع الإنسان إذا كان الجو شديد البرودة كما يحدث فى ليالى الشتاء؟ إنه يحاول أن يلتمس الدفء.. وسبل التدفئة الآن بالأدوات الكهربائية والمكيفات الهوائية.. إلا أنه كان قديما ـ ولازال حتى اليوم ـ من يستعمل النار كمصدر للدفء، فيغلق الأبواب والنوافذ، ويوقد النار..

وإذا استعمل الفحم فإن الاشتعال إذا لم يكن كاملا ـ وهذا يحدث فى معظم الأحوال ـ فإن غاز أول أكسيد الكربون يتصاعد من الفحم المشتعل.. وغاز أول أكسيد الكربون غاز سام وخطورته تكمن فى أنه لا رائحة له.. فيحدث للإنسان تسمم به وهو لايدرى.. وخطورته فى الجسم هو أنه غاز سريع الارتباط بالهيموجلوبين الموجود بكرات الدم الحمراء، الأمر الذى يؤدى إلى أن غاز الأكسچين الضرورى لخلايا الجسم لا يجد مكانا على جزىء الهيموجلوبين ليتحد معه.. وبذلك يقل مستوى غاز الأكسچين بالدم تدريجيا حتى يصل إلى مستوى خطير.. فى الوقت الذى يرتفع فيه مستوى غاز أول أكسيد الكربون فى الدم إلى مستوى خطير أيضا.. وإذا استمر الحال على هذه الصورة ساعات، فإن العمليات الحيوية بالجسم تتوقف ويموت جسم الإنسان.

العلاج إذن يكمن فى الوقاية من التسمم بغاز الفحم.. وفى فصل الشتاء يصل إلى المستشفيات بعض الناس فى حالة يرثى لها، وقد تسمموا بغاز الفحم (أول أكسيد الكربون).. ولم يكتشف غاز الفحم إلا حديثا.. ولم يكن معروفا حتى القرن الماضى..

إن خطر إشعال النار داخل المنزل بدون أى تهوية، يحمل أخطارًا كثيرة لسكان ذلك

المنزل، فهو يرفع من مستوى غاز أول أكسيد الكربون السام كما ذكرنا، كما يقلل من مستوى غاز الأكسجين فى جو المنزل؛ لأنه استهلك فى عملية اشتعال النار.. وبذلك يفسد جو المنزل.. ويستنشق سكان المنزل هواء فاسدًا.. ولم يكن الناس يعلمون شيئا عن كل هذه الحقائق العلمية قبل العصر الحديث.. لذلك فإن الأطباء ينصحون الناس فى عصر العلم الحالى بألا يتركوا النار مشتعلة داخل المنازل وهم نيام، وأن يطفئوها قبل نومهم ليلا..

ولقد ذكر ذلك فى الحديث النبوى الشريف. فلقد أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«لا تتركوا النار فى بيوتكم حين تنامون»** نلاحظ قوله: **«فى بيوتكم»** أى داخل بيوتكم المحكمة الإغلاق.. فلا ضرر من النار إذا تركت خارج المنزل فى الهواء الطلق. وأخرج البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : **«إن هذه النار إنما هى عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم»**.

وفهم الناس من الحديث النبوى الشريف قبل عصر العلم الحالى، أن خطر النار المشتعلة داخل البيوت ليلا، هى فى احتمال نشوب حريق بالمنزل من جرائها.. ولكن مع تقدم العلم، فهم الناس من الحديث النبوى الشريف فهما آخر.. وكلا الفهمين صحيح ذلك أن الوحى الإلهى فى الحديث النبوى، موجه للناس جميعا فى كل عصر من العصور.. يفهم الناس منه فى كل عصر على قدر ما آتاهم الله من علم..وما يأتى أى عصر من العصور، إلا ويجد الناس فى القرآن والحديث النبوى فهمًا جديدًا وعلمًا جديدًا ونورًا على نور.



كثيرا ما يحك الإنسان جلده أثناء نومه، هنا وهناك فى أى موضع فى الجسم. ومن البدهى أنه يفعل ذلك بدون إرادة.. فهو يشعر بمكان يثيره فيحكه، فتهدأ إثارة المكان من كثير من الأحوال.. وأثناء حك الأصابع تعلق بالأظافر الكثير مما يوجد على سطح الجلد، مثل بعض الجراثيم ،وبويضات بعض الطفيليات، إذا كان الإنسان مصابا بها.

ولم يكن العلماء يدركون هذه الحقائق قبل العصر الحالى؛ لأن كلا من الجراثيم وبويضات الطفيليات أجسام لا ترى إلا بالميكروسكوب، ومحال أن يراها الإنسان بالعين المجردة.. وفى الطب الوقائى فى عصرنا هذا يمكن تنظيف الأصابع والأظافر واليدين جيدا والتخلص مما علق بها بالغسل الجيد، بعد أن يستيقظ من نومه، وقبل أن يضعها فى أى طعام.

ويوجد نوع من الديدان الخيطية صغيرة الحجم تعيش فى آخر القولون.. وتخرج الأنثى منها أثناء النوم من فتحة الشرج وتضع بويضاتها على الجلد المحيط بهذه المنطقة، وتفرز مادة مهيجة للجلد.. الأمر الذى يثير النائم إلى أن يحك جلد هذه المنطقة بأصابعه وأظافره، فتتعلق بها تلك البويضات، وبذلك تنتقل إلى الطعام إذا لم يغسل الإنسان يده وأصابعه جيدا قبل أن يضعها فى الطعام.. فتنتقل العدوى إليه مرة أخرى، أو إلى غيره، ممن يشاركه الطعام ذلك أن بويضات تلك الديدان بها يرقات كاملة النمو لا تحتاج لفترة حضانة.. فما أن تصل إلى المعدة على طريق الطعام حتى تفقس، وسرعان ما تصل إلى طور البلوغ فى الأمعاء الغليظة.

فالعلاج الوقائى هو غسل اليدين جيدا بعد القيام من النوم مباشرة، وقبل وضعها فى أى طعام.. ولو اتبع الناس هذا العلاج الوقائى لتوقفت دورة حياة تلك الدودة ولامتنعت الإصابة بها..

ولقد بين رسول الله ﷺ هذه الحقيقة العلمية. فقد روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثا، فإن أحدكم لايدرى أين باتت يده**».

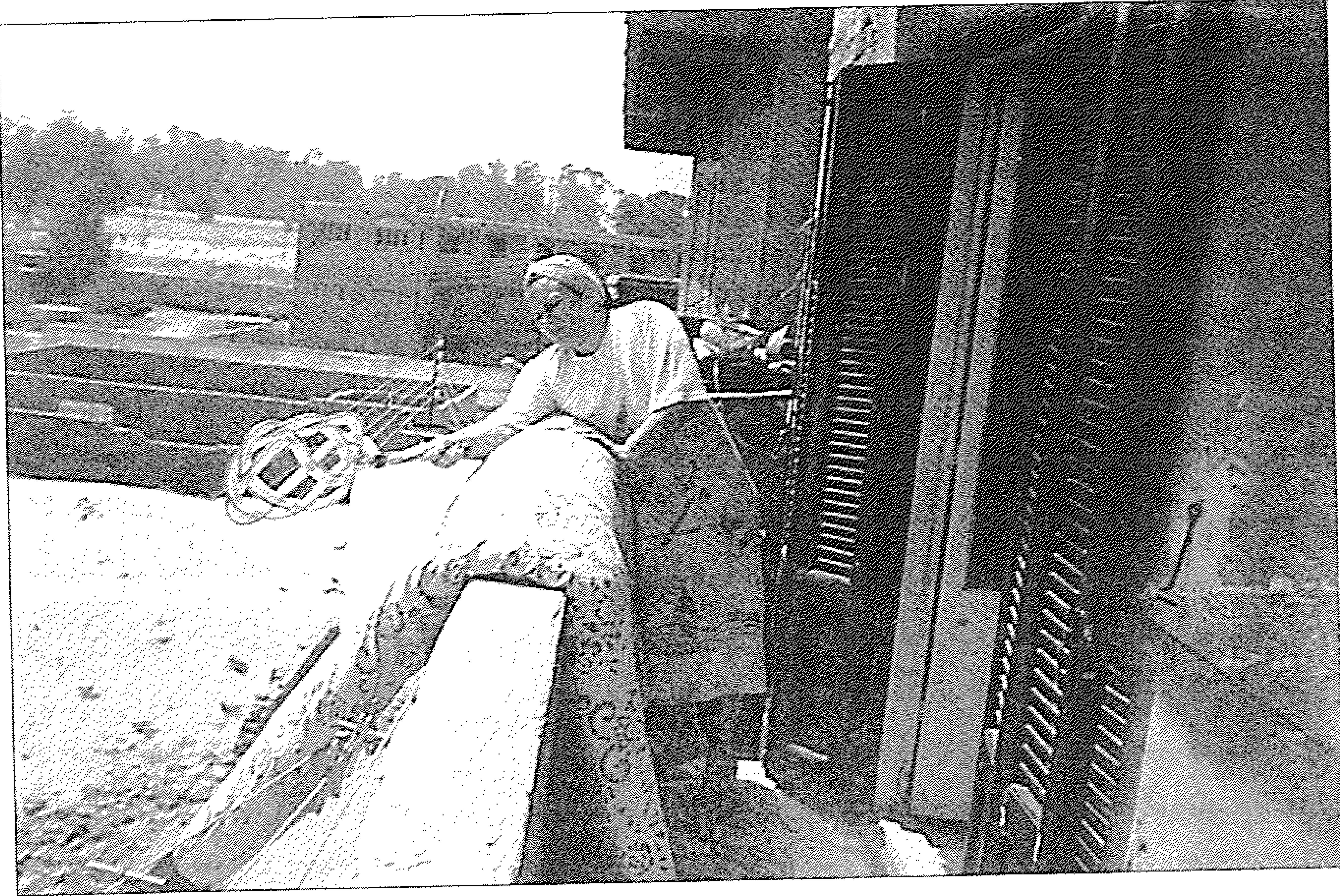
إن الرسول ﷺ قد علَّم الناس ما لم يعرفه العلماء إلا فى العصر الحالى... وما ينبغى أن يقال أن مثل هذه الأحاديث فى الطب الوقائى اجتهاد من الرسول ﷺ كبشر، إذ لا يمكن لأى إنسان مهما أوتى من علم إنسانىّ عظيم، أن يتحدث عن حقائق علمية لم تكتشف إلا بعد عصره بخمسة عشر قرنا من الزمان.. بل ويتحدث عن حقائق علمية لا تعرف إلا بالاستعانة بالميكروسكوب.. هذا أمر مستحيل.. وليس هناك إلا احتمال واحد، وهو أن هذه الأحاديث النبوية وحى من الله عز وجل لرسوله ﷺ.

عثة الفراش

فى أوائل السبعينيات من هذا القرن، اكتشف عالم إيطالى ما يعرف بعثة الفراش Pterygoides ptyronessinus وهى كائنات حية طولها أقل من نصف المللى متر.. فلا ترى بالعين المجردة.. وهى موجودة فى غبار المنازل وعلى أغطية الفراش.. وهذه العثة سواء كانت حية أو ميتة تتطاير فى جو المنزل.. وإذا استنشقها الإنسان سببت له أنواعًا من الحساسية.. مثل الأرتكاريا أو الربو الشعبى.

والطب الوقائى لهذه العثة يكمن فى التخلص منها من أغطية الفراش بطريقة أو بأخرى، مفادها أن ينفض الفراش خارج المنزل.. ولم تكن هذه الحقائق الصحية الوقائية معروفة من قبل، إلا أن الحديث النبوى الشريف ذكرها فى حديث رسول الله ﷺ قال: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه**» أخرجه الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه - (داخلة إزاره) أى طرف إزاره.

وهذا الحديث الشريف يشير إلى أن بأغطية الفراش أسبابا لا يعلمها الإنسان يجب إزالتها، قال عنها: (فإنه لايدرى ما خلفه عليه).. وربما يشير هذا إلى عثة الفراش التى تم اكتشافها حديثا فى الفراش، والتى تسبب أمراض الحساسية المختلفة للإنسان الذى يستنشقها وأنه يجب على الإنسان أن يتخلص منها. وفى هذا الحديث النبوى الشريف إعجاز علمى واضح وعجيب.



سيدة تنفض فراش النوم

لم يكن الناس قديما يدركون أهمية نظافة الأجسام من الناحية الصحية.. ذلك لأنهم لم يكونوا على علم بوجود الميكروبات الموجودة فى كل مكان.. ولم يتعرف الإنسان على الجراثيم إلا بعد اختراع الميكروسكوب فى القرن السابع عشر ومابعده، وما تعرف على أهمية نظافة الأجسام إلا فى أواخر القرن الثامن عشر وما بعده.

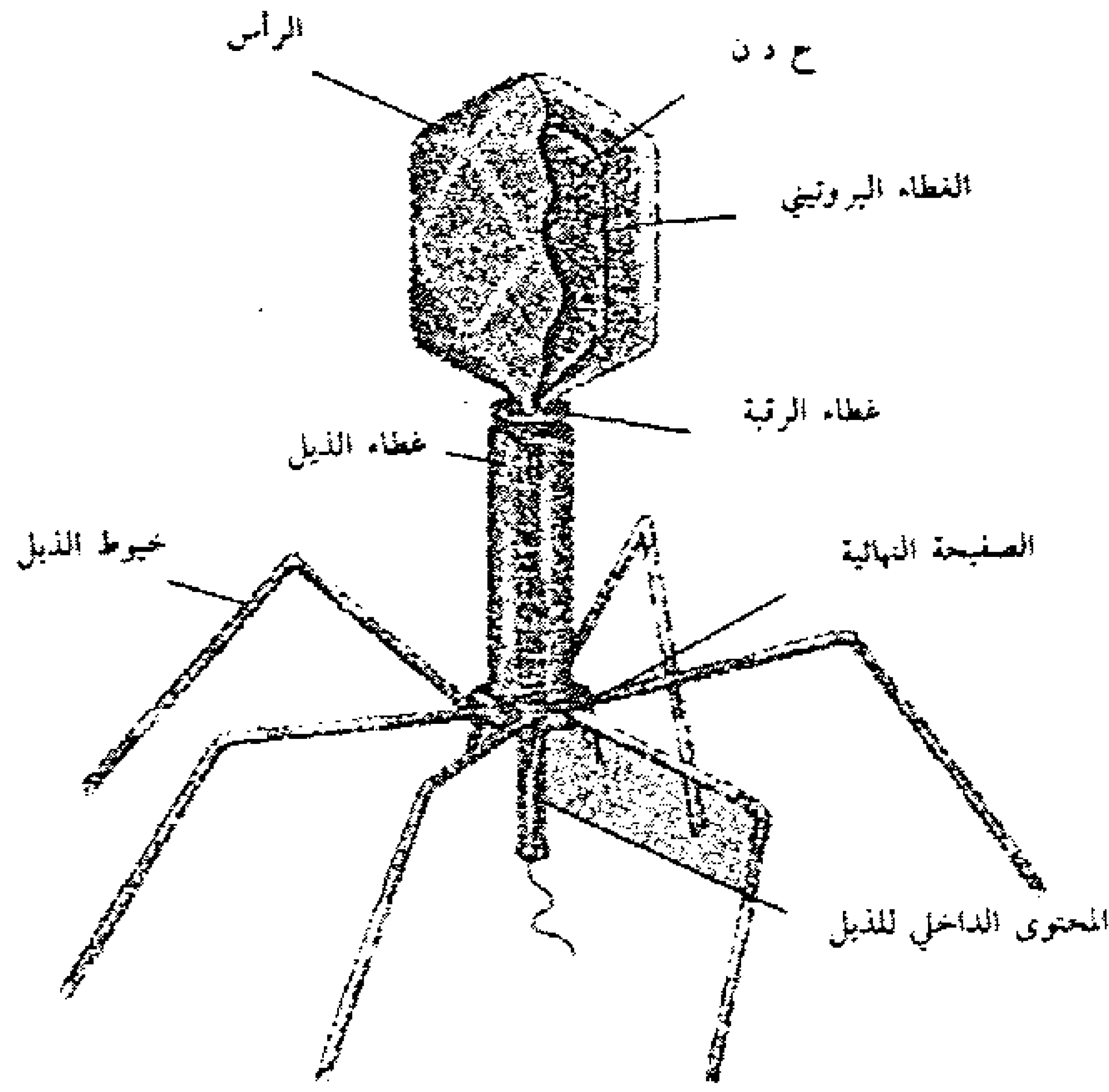
وفهم الإنسان فى القرن الماضى فقط أن الميكروبات والجراثيم توجد فى كل مكان، على الجلد، وفى الطعام والشراب والماء والجو، وداخل الجسم أيضًا.

وليست كل الجراثيم ضارة.. فبعضها مفيد .فعلى الجلد ميكروبات مفيدة تنافس الميكروبات الضارة، وتحاول أن تقضى عليها.

وفى أمعاء الإنسان ميكروبات مفيدة تصنع بعض أنواع الفيتامينات.. وتنافس الميكروبات الضارة حتى لا تجد لها مكانا تستقر فيه..

وتنمو الجراثيم بسرعة رهيبة جدا ولكنها تموت بسرعة تكاثرها..

ولو لم تمت البكتريا لمدة شهرين فقط، لغطت البكتريا سطح الكرة الأرضية بعمق عدة أمتار.. ولما كان لأى كائن حى آخر أى فرصة للحياة.. ولكن الله تعالى قيض للبكتريا والجراثيم أعداء لها من الفيروسات، تنقض عليها وتغزو أجسامها وتفجرها



صورة توضيحية لبكتريوناج وهو فيروس يخترق البكتريا ويتكاثر بداخلها ثم يفجرها ويخترق غيرها وهكذا..

تفجيرا، وبذلك تظل البكتريا موجودة وتظل الجراثيم موجودة ولكن بدون زيادة أو نقصان..

وتوجد على جلد الإنسان أنواع من الجراثيم والبكتريا بعدد كبير، وخصوصا فى إنسان لا يراعى نظافة جسمه، والعدد بعشرات الملايين فى الميكروبات والكثير من الطفيليات أيضًا.

من هنا تبدو لنا أهمية نظافة جسم الإنسان، وأهمية الوضوء قبل الصلاة خمس مرات كل يوم.

لم يكن الناس يعرفون شيئا عن الجراثيم المسببة للأمراض قبل أواخر القرن الثامن عشر.. لذلك كانت الأوبئة قديما أشد

خطرا مما هى عليه الآن.. لأن أسبابها لم تكن معروفة للعلماء، وبالتالى لم تكن طرق الوقاية فيها مفهومة.. وكان علاجها سرا مستغلقًا.

لذلك كانت الأوبئة تنتشر فى الأرض طولا وعرضا، كما تنتشر النار فى الهشيم.. ولم يستطع أحد من العلماء والأطباء لها مقاومة.. ولم يستطع أحد منهم لها دفعا.

ومن أمثلة الأوبئة التى كانت تجتاح الأرض: الطاعون، والجدرى، والكوليرا، والتيفوس وغيرها وغيرها .

فى العصور السابقة ما كان وباء يظهر، حتى ينتشر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.. ويفتك بالآلاف والملايين.. ولايتوقف إلا من تلقاء نفسه بعد أن تتكون المناعة المكتسبة ضده فيمن تبقى من الناس.. وحل وباء الطاعون فى العالم مئات المرات وكان القدماء يطلقون كلمة «طاعون» على كل وباء مهلك كالتيفوس والطاعون والكوليرا والحمى الصفراء.. فكلها كانت تعرف بالطاعون.. أى أن كلمة طاعون كانت تعنى كلمة وباء.

وآخر مرة ظهر الطاعون فى الجزيرة العربية كان سنة١٩٢٦م إلا أنه لم يدخل المدينة المنورة قط.. ولم يدخلها أى وباء من قبل قط.. وكان هذا أمر يدعو إلى العجب حقا. ولقد أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه رسول الله ﷺ قال : **«على أنقاب المدينة ملائكة لايدخلها الطاعون ولا الدجال»**.

وما سبب انتشار الأوبئة فى العصور السابقة؟ ولماذا كان يجتاح قارة بأكملها كما حدث سنة ١٣٤٨م فى أوربا، وكما حدث فى سنة ١٨٩٤م عندما اجتاح الوباء العالم كله حتى وصل الأمريكتين.

ونتساءل ما سبب انتشار الأوبئة فى العالم كله طولا وعرضا فى العصور السابقة؟

كان السبب ذعر الناس وفرارهم من أى مكان يظهر فيه الوباء إلى مكان آخر لايوجد فيه.. وكان هذا هو السبب فى انتشار الوباء من مكان إلى مكان.. فقد كان الذين يحملون جرثومة المرض معهم أينما ذهبوا.. وبذلك كانت الأوبئة تجتاح قارات بأكملها وتقضى على كثير من الناس فيها.. إن جهل الناس بسبب المرض وبسبب انتشاره كان السبب فى سرعة انتشاره .

وكان الكهنة يطلقون أدعيتهم لطرد الأرواح الشريرة التى اعتقدوا أنها كانت السبب فى الوباء.. ولم يستطع الأطباء أن يفعلوا أكثر مما كان يفعل الكهنة.

وفى القرن الرابع عشر اجتاح وباء التيفوس أوربا، وأعلن الأطباء أن السبب كان الخوف من الزلازل، وفى سنة ١٣١٨م أعلن أحد كبار أطباء فرنسا أن السبب كان انحراف كوكب المشترى زحل..

ونصح الأطباء الناس بالهروب من أى بلد ينتشر فيها المرض إلى بلد آخر خال منه..

وفى عام ٣٢ ق م اجتاح الطاعون معظم بلاد المعمورة وقتل الكثير من الناس..

إلا أن أخطر وباء الطاعون حل بالأرض كان فى منتصف القرن الرابع عشر؛ ابتدأ فى وسط آسيا ثم انتشر سريعا حتى اجتاح أوربا سنة ١٣٤٨و وقل عدد سكان قارة أوربا إلى النصف، وفى سنة ١٣٥٢م اجتاح روسيا كلها وقتل الملايين من البشر فيها ،ثم توقف بعد ذلك من تلقاء نفسه. وفى سنة ١٦١٥م قتل الطاعون فى لندن ستين ألفا من الناس وكانوا ربع سكانها. وقتل فى الهند عشرة ملايين نسمة.. وفى سنة ١٨٩٤م حدث وباء عالمى للطاعون حتى وصل إلى أمريكا أيضا وقتل الملايين من البشر. وفى سنة ١٩٠٤م حدث وباء آخر للطاعون فى الهند.. وكان الناس يهربون من المكان الذى يحل فيه الوباء إلى مكان آخر لايكون منتشرا فيه.. وبذلك كانوا ينشرون الوباء دون أن يشعروا.

أما فى القرن الحالى فقد عرفت طرق العدوى وطرق الوقاية.. وتعتمد الوقاية أساسا على عزل المصابين.. وملاحظة المخالطين.. ومنع اتصالهم بالغير وفرض الحجر الصحى عليهم.. ومنع خروج أى إنسان من المرضى والمخالطين من المنطقة الموبوءة، ومنع دخول الناس إليها.

فى وسط الجهل المطبق فى فهم أسباب الأمراض وطرق الوقاية منها.. نقرأ فى السنة النبوية هداية وعلما.. فقد أخرج الإمام البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خرج إلى الشام فى ربيع الآخر سنة ثمانى عشرة من الهجرة ليتفقد أحوال الرعية هناك، وعندما وصل إلى مشارف الشام أخبروه أن الطاعون بها، فاستشار القوم وبدأ بالمهاجرين الأولين، فاختلفوا، قال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم الآخر: معك بقية من أصحاب رسول الله ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء..

ثم دعا عمر الأنصار، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا فى الرأى كاختلافهم فكر عمر ثم نادى فى الناس: **«إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه»**

يعنى إنه سيرحل فى الصباح على ظهر راحلة فليصبح كل على راحلته.. ليعودوا جميعا من حيث أتوا إلى المدينة المنورة.

فقال أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله ياعمر؟

فقال عمر: لو قالها غيرك يا أبا عبيدة.. نعم.. نفر من قدر الله إلى قدر الله.. أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة.. أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدرالله.. وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، يعنى أن كل شيء بقدر الله.. فنعود من قدر الله إلى قدر الله.

وجاء عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ وكان متغيبًا فى بعض حاجته فلما علم بما حدث قال:

إن عندى فى هذه علمًا.. فلقد سمعت رسول الله ﷺ يقول عن الوباء:

«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه.. وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» .

فقـال عمر: الحمـد لله.. ثم انصرف القوم راجعين إلى المدينة المنورة.

وقد يقال: إن الحديث النبوى الشريف تكلم عن الطاعـون فـقط، وليس عن سـائر الأوبئة. وليس ذلك صحيحًا ، فهو قد تكلم عن أى وباء.. فإن كلمة طـاعون فى اللغة: من طعن كمـا يقال تطاعن القـوم فى الحرب طعانًا. فالطاعون فى اللغة: هو كل وباء عام تفسـد به الأبدان، ويؤدى بالكثيـر من الناس إلى الموت، فـكل وباء فى اللـغـة يسـمى طاعونا؛

من هذا الحديث النبوى نفهم أن سيدنا رسول الله ﷺ قـد أخبر بحقـيقة علمـية لم يدركهـا العلماء إلا فـى هذا العصـر فقط.. فمحال إذن أن يكون ما قاله اجـتهادا شخصيا منه.. فمهما بلغ علم الإنسان واجتهاده فلن يعلن عن حقيقة علميـة يجهلها الناس جميعا فى عـصره.. بل ويجـهلونهـا بعده بقـرون كثيرة.

فلا منـاص أمام أى عاقل مـن الإيمان بأن ما قـاله رسول الله ﷺ هو من وحى الله تعـالى إليه.. هذا يؤدى بنا إلى الإيمـان بأن كل حـديث نبوى، هو من وحى الله تعـالى لرسـوله، سـواء كـان فـى الشـرعـيات أو العبـادات، أو أى أمر من أمور الدنيـا يتعلق بالصحة أو الطب أو الغـذاء أو غير ذلك من العلوم.. كل ذلك فـى نطاق هداية علمـيـة وعـقلية تهـدف إلى هداية دينيـة، هى لخيـر الإنسان فى الدنيا والآخرة..

ولو اتبع الناس فى أوربا وغير أوربا فى العصور الوسطى، الهداية العلمية النبوية فيما ينبغى عليهم أن يفعلوا عند حدوث أى وباء؛ مـا انتشـر أى وباء من مكان ظـهوره، ومـا انتـشرت الأوبئـة واجـتاحت القـارات طولا وعرضا.

وما بعث الله تعالى عبده ورسوله ﷺ طبيبا أو متخصصا فى فرع من فروع العلم.. ولكنه كان أكبر من ذلك كثيرا.. وأعظم من ذلك وبغـيـر حدود ..إنه كـان رسـول الله تعالى إلى الناس جـميعًا.. ومعلمـا ومرشدا لهم وبشيرا ونذيرا.. وداعيا إلى الله بإذن.. وسراجا منيرا.



الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى يأمر الناس بأن ينظفوا أجسامهم وبيوتهم.. حتى لقد جعل الإسلام النظافة شرطا من شروط الصلاة والعبادات. ففى سورة المائدة يقول الله عز وجل : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ...**﴾ [**المائدة**].

وقال رسول الله ﷺ :«**الطهور شطر الإيمان**»

ولا تصح الصلاة إلا بنظافة الجسم كما قال رسول الله ﷺ: «**لايقبل الله صلاة بغير طهور**».

وروى الإمام الترمذى حديثا لرسول الله ﷺ يقول فيه : «**إن الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم**» والأحاديث النبوية التى تأمر المسلمين بمراعاة نظافة أجسامهم كثيرة.

ولم يدرك الناس أن مراعاة النظافة تحفظ الجسم وتقيه الكثير من الأمراض. لم يعرفوا ذلك إلا منذ نحو مائة وخمسين عامًا فقط، فلم يدرك الناس أن النظافة أهم شرط فى الطب الوقائى.. وإن عدم مراعاة نظافة الأجسام سبب رئيسى فى كثرة الأمراض، وكانوا يعتقدون أن سبب الأمراض هو دخول الأرواح الشريرة فى الجسم فيمرض.. لذلك ركزوا العلاج فى محاولة إخراج تلك الأرواح الشريرة المزعومة من داخل أجسام المرضى!

وفى وسط ذلك الجهل ظهر عالم كان يدعى فراكستوريوس سنة ١٥٤٦م أى فى القرن السادس عشر فى أوربا وأعلن أن انتقال الأمراض إلى الأجسام هو بسبب أجسام ناقلة للأمراض، وليست أرواحا شريرة كما كان الاعتقاد.. ولم تكن لدى فراكستوريوس صورة محددة عن تلك الأجسام الناقلة للأمراض .

وفى القرن السابع عشر وتحديدا سنة ١٦٧٥م اخترع انطونى ليفانهوك عدسة مكبرة وشاهد من خلالها قطرة ماء من مستنقع، فرأى الميكروبات.. وكان هو أول إنسان يرى الميكروب بعينيه... ورسم أشكالا لها. وفى القرن الثامن عشر فى سنة ١٧٢٠م توصل عالم كان يدعى بنيامين مارتن إلى حقيقة علمية جديدة، وهى أن الأمراض المعدية قد تكون بسبب كائنات حية دقيقة جدا تنتقل من المريض إلى السليم.

وفى النصف الأول من القرن الماضى فى سنة ١٨٣٥م توصل اجستينوباسى إلى أن الجراثيم هى سبب كثير من الأمراض.. وفى منتصف القرن الماضى ظهر العالم الفرنسى لويس باستير ووضع الأساس العلمى الصحيح لعلم البكتريا الحديث. وظهر بعده

علماء كثيرون، اكتشفوا جراثيم جديدة لأمراض جديدة، مثل العالم الألماني كوخ الذى اكتشف ميكروب السل..

وفهم الناس حينئذ أهمية نظافة الأجسام التى دعا إليها الإسلام على أساس علمى صحيح.

وفى هذا القرن اكتشف العلماء جراثيم أخرى أصغر كثيرا من البكتريا.. ولاترى بالميكروسكوب العادى التى تُرى بواسطته البكتريا.. ولكنها تُرى بواسطة الميكروسكوب الإليكترونى الذى يكبر الصورة ملايين المرات وأطلقوا عليه اسم (فيروس).

وكلمة **فيروس** كلمة لاتينية معناها «سم»؛ ذلك لأن العلماء لاحظوا أن الكثير من هذه الجراثيم الدقيقة جدا تفرز سموما تسبب بواسطتها الأمراض فى الأجسام.. وتنتقل من المريض إلى السليم فتصيبه بالعدوى.. ومن تلك الأمراض الفيروسية: الأنفلونزا، والالتهاب الكبدى، وشلل الأطفال، ونزلات البرد، والحصبة، والنكاف، ومرض الكلب، والجدرى، والهربس والإيذر، ومن العجيب أن تسبب جراثيم لا ترى حتى بالميكروسكوب كل هذه الأمراض بالإنسان.

وفى الوقت الذى لم يكن سبب الأمراض معروفا.. ولم تكن طرق العدوى بها متخيلة.. أوحى الله تعالى إلى رسوله بالحق، يعلم الناس كل ما فيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة. فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يوردن ممرض على مصح»

ولم يذكر الحديث الشريف السبب فى ذلك.. ولا العلة فى النهى.. لأنه لو أخبرهم به ما صدقوا.. وترك فهمها للناس فى العصور المستقبلة.. كل عصر يفهمه حسب فهمه وتصوره..



ربط الإسلام بين النظافة والعبادات.. فجعل الوضوء شرطا للصلاة خمس مرات كل اليوم..

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ [المائدة:٦].

وروى الإمام أبو داود عن أنس رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى ﷺ وقد توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر دون غسله، فقال له النبى ﷺ: **«ارجع فأحسن وضوءك»** وحث الرسول ﷺ المؤمنين على أن يغسلوا أبدانهم جيدًا بالماء النقى فى الوضوء خمس مرات فى اليوم، والاغتسال أيام الأسبوع وخصوصا يوم الجمعة، وفى كل ذلك طهارة للجسم وطهارة للنفس أيضًا.

وروى الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء. فمن استطاع أن يطيل غرته فليفعل».

والغرة والتجحيل: بياض فى وجه الفرس وقوائمه، وذلك مما يزيده حسنا وجمالا.

والأحاديث النبوية التى تأمر بالنظافة كثيرة وأغلبها مقترن بالعبادات.. فهى هداية علمية وصحية، فى سياق الحديث عن الهداية الدينية.. وما من هداية دينية إلا أسست على علم صحيح، وحكمة بالغة.

وكما أمر الإسلام بنظافة البدن، أمر أيضا بنظافة الطعام والشراب.

ونعلم أن الرذاذ الذى يخرج من الأنف والفم فى حال السعال والعطاس، يحتوى على الكثير من الجراثيم والميكروبات. لذلك إذا سعل إنسان فلا ينبغى أن يسعل فى وجه أحد.. وإذا عطس فليغط وجهه بشىء حتى يمنع الرذاذ من الانتشار فى جو المكان..

وروى الإمام الترمذى أن رسول الله ﷺ كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه.

وإذا شرب أحد من أناء فلا يتنفس أو يسعل فيه، فإن ذلك يلوث الماء فيه بالجراثيم والميكروبات، ولا يعود صالحا للشرب.. وأخرج الإمام البخارى عن قتادة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى الإناء».

وتوجد الجراثيم والميكروبات فى الهواء.. لذلك إذا ترك طعام أو شراب دون أن يحفظ من الجو بتغطيته، فإن الجراثيم بالجو تسقط عليه وتلوثه.. وليس فى الهواء جراثيم

فحسب بل فيه حشرات وهوام أيضا. فلابد من تغطية الطعام والشراب حتى لا تتساقط عليه الميكروبات أو الحشرات من الجو فتفسده.

وروى الإمام البخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكئوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب» أى غطوه.

لقد أوحى الله تعالى لعبده ورسوله بالهدى ودين الحق، وعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون..

ولا توجد الميكروبات فى الفم فقط، ولكنها توجد فى الأنف أيضا.. والأنف هو أول الجهاز التنفسى العلوى.. ووجود الميكروبات فى الأنف سبب من أسباب أمراض الجهاز التنفسى.. لذلك ينصح الأطباء فى عصر العلم الحالى الإنسان أن ينظف أنفه بالماء، بأن يستنشق الماء فى أنفه ثم ينثره عدة مرات.. وذلك ينظفه مما به من جراثيم وميكروبات..

ولقد ذكر الحديث فى ذلك علما. فقد أخرج الإمام أبو داود إن النبى ﷺ قال:

«إذا توضأ أحدكم فليجعل فى أنفه ماء ثم لينثر» وجاء فى حديث آخر:

«وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائما».. وتحت أظافر أصابع اليدين من أهم الأماكن التى يختبئ فيها الميكروبات.. وغسل ما تحت الأظافر والتخلص منه أمر صعب.. وأفضل وقاية لهذا الخطر هو تقليم الأظافر. ونقرأ فى السنة النبوية فى ذلك علما.. فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«من الفطرة تقليم الأظافر وقص الشارب...» إلى آخر الحديث الشريف.

وتتكاثر الفطريات بين الأصابع؛ لذلك يتعرض الجلد بين الأصابع. وخاصة أصابع القدمين للالتهابات الفطرية.. والوقاية من ذلك، تنظيف ما بين الأصابع.. وجاء ذلك فى السنة النبوية أيضا. فقد أخرج الإمام الترمذى أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا توضأت فخلل بين الأصابع»..

وأخرج الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: **«أسبغ الوضوء وخلل بين الأصابع وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائما»** وأخرج الإمام الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال: **«تخللوا فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه فى الجنة»**.

جعل الله تعالى من الماء كل شيء حى.. وجعل حياة الإنسان متصلة بالماء اتصالا وثيقا.. إلا أنه ينبغى أن يكون اتصالا مبنيا على أسس صحية سليمة، وعلى مراعاة تامة بالنظافة.. والإسلام يدعو إلى النظافة، فقد روى عن سعيد بن المسيب أن رسول الله

ﷺ قال: «إن الله نظيف يحب النظافة» وأى فعل يتنافى مع النظافة، فإنه يتنافى مع الإسلام أيضا.. ونقرأ فى القرآن الكريم الأمر بالتطهر بالماء النقى، كما فى سورة الأنفال ١١ فى قوله الله عز وجل:

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ... ﴾ وفى سورة المدثر يقول الله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ وفى سورة البقرة يقول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ فالإسلام يأمر الناس بمراعاة النظافة والطهارة فى كل أمر من أمور الدنيا(*).

ومن الناحية الصحية والطبية، نجد أن النظافة شرط لاكتمال صحة الجسم، وأن عدم مراعاة النظافة يؤدى بالإنسان إلى كثير من الأمراض البدنية.

وفى بعض البلاد النامية، لا يراعى كثير من الناس النظافة التامة فى المأكل والمشرب وغير ذلك من الأمور اليومية التى تتعلق بالإنسان.. ومن أجل ذلك يصاب الكثير من الناس هناك بكثير من الأمراض. ومن هذه الأمراض مرض البلهارسيا.



مرض البلهارسيا

هو مرض يصيب الكبد والجهاز البولى والهضمى، بكثير من الأضرار التى تهدد حياة المريض.. وهو أنواع عديدة، منها ما يسبب ضررا أكثر بالكبد، ومنها ما يسبب ضررا أكبر بالأمعاء، ومنها ما يسبب ضررا أكبر بالجهاز البولى.

وسبب هذا المرض طفيل معين. وهو من ذكر وأنثى. والبلهارسيا مرض يصيب جسم الإنسان، بسبب اتصاله بالماء بطريقة غير صحيحة.. ولما كان المزارعون لا بد لهم من الاتصال بالماء فى الترع والأنهار، فإن معظمهم يصاب بذلك المرض.. لأن الطور المعدى من الطفيل ويسمى (السركاريا) تسبح فى المياه الراكدة فى الترع والقنوات.

وهو مرض سريع الانتشار فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وأمريكا الجنوبية..

ومرض البلهارسيا أنواع: منه ما يصيب الحيوان فقط ولاينتقل إلى الإنسان ومنه ما يصيب الإنسان ولا ينتقل إلى الحيوان. ومنه ما يصيبهما معًا.

ولم يكن سبب هذا المرض معروفا حتى سنة ١٨٦١ م عندما اكتشف العالم الإنجليزى تيودور بلهارز طفيل هذا المرض بالقاهرة وأطلق اسمه عليه فصار اسمه مرض البلهارسيا، نسبة إلى اسم مكتشف طفيل المرض، ومرض البلهارسيا مرض قديم قدم التاريخ، ولقد اكتشف العلماء وجود بويضات

(*) راجع «الاتصال الجنسى فى الطهر والمحيض» فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

السركاريا تخترق جلد الإنسان

الدورة الدموية الوريدية الرئوية

الرئتان

الكبد

الوريد البابى حيث يتزاوج الذكر والأنثى من طفيلات البلهارسيا

الأمعاء أو الكلى حيث تضع إناث طفيل البلهارسيا بويقاته

البويضات تخرج من الجسم فى بول الإنسان المريض أو برازه

ميراسيديوم يفقس من البويضات فى الماء

تدخل الميراسيديوم القوقع المناسب له فى الترعة

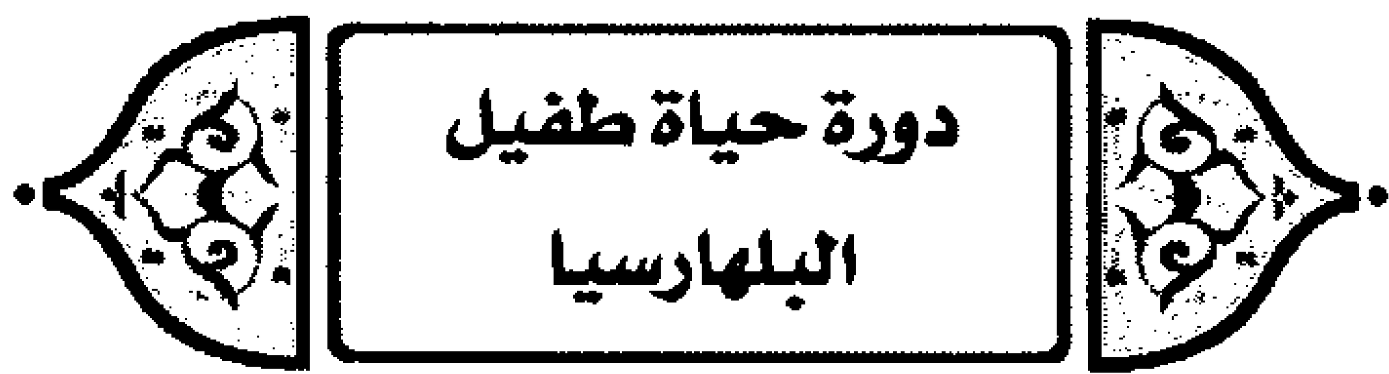
سركاريا تخرج من القوقع وتسبح فى ماء الترعة

دورة حياة طفيل البلهارسيا بين الماء الراكد فى الترع والأنهار وبين جسم الإنسان

البلهارسيا فى مومياء فرعونية يرجع تاريخها إلى ١٢٥٠ عاما قبل الميلاد.. ومن أهم أنواع مرض البلهارسيا التى تصيب الإنسان ثلاثة:

البلهارسيا البولية، والبلهارسيا المعوية، والبلهارسيا اليابانية، أما البلهارسيا البولية فتصيب الجهاز البولى أكثر مما تصيب الكبد والأمعاء، والبلهارسيا المعدية تصيب الكبد والأمعاء أكثر مما تصيب الجهاز البولى، أما البلهارسيا اليابانية فهى مثل البلهارسيا المعوية ولكنها أشد خطرًا.

وليس هنا مجال الحديث عن تفاصيل المرض ويكفى أن نعلم أن لطفيل المرض دورة حياة عجيبة جدا فهو من الديدان المفلطحة لا يرى بالعين المجردة، وتلك الديدان تعيش أزواجا من ذكر وأنثى فى الوريد البابى للكبد وتضع الأنثى بويضاتها فى جدار المثانة، وأماكن أخرى من الجهاز البولى أو الأمعاء.



يكمن خطر البويضات فى أن لكل منها شوكة حادة جدا، تخترق بها جدران المثانة أو الأمعاء، وتخرج فى البول أو البراز، وأثناء خروجها تمزق الأوعية الدموية فى جدران المثانة أو الأمعاء وتسبب التقرحات فيها، والنزف منها.

ولا تستمر دورة حياة الطفيل إلا بوجود الماء الراكد فى البرك والقنوات، حيث تعيش أنواع خاصة من القواقع، والتى فيها تستكمل دورة الحياة، فإذا تبول المريض أو تبرز فى موارد الماء الراكد فى تلك المصادر، وصلت البويضات إلى الماء الراكد فى تلك البرك والجداول والقنوات. وسرعان ما تفقس البويضات فى الماء وتخرج منها يرقات صغيرة تسمى الميراسيديوم وتسبح فى الماء حتى تجد القوقع المناسب لها وهو قوقع معين، لاتختار سواه، ولا يقبلها سواه أيضًا، وتظل اليرقات تسبح بين القواقع المختلفة الموجودة فى الماء الراكد، ولكنها لا تدخل إلا قوقعا معينا خاصا بنوعها، فإن لم تجده بين القواقع جميعًا ،تظل فى الماء حتى تموت بعد يومين على الأكثر وإن وجدته دخلته على الفور واخترقت رئة القوقع وكبده وسكنت فيه وأتمت فيه دورة حياتها وأطوار خلقها طورا بعد طور، حتى تصير اليرقة الواحدة مئات اليرقات المعدية التى تسمى (سركاريا). وتخرج اليرقات المعدية من القوقع زرافات ووحدانا تسبح فى الماء الراكدة فى تلك الترع والقنوات، وتظل تسبح فى نشاط حتى إذا وجدت قدم إنسان، أو يده فى ذلك الماء، اخترقت جلده على الفور، وانطلقت داخل جسمه، لا تضل طريقها أبدا وكأنها تعرفه حق المعرفة، تدفعها فطرةُ خلْقِها التى فطرها الله تعالى عليها حتى تصل إلى الدورة الدموية، فالقلب، فالرئتين، ثم تسير عكس تيار الدم وتصل فى النهاية إلى الوريد البابى للكبد، وهناك تنمو إلى الطور البالغ للدودة، وتثبت نفسها فى جدار الوريد، وتعيش هناك طوال حياتها التى تستمر سنوات كثيرة. تعيش تلك الديدان الذكر والأنثى معًا لا تترك الأنثى الذكر أبدًا إلا عندما تنطلق إلى وضع البيض فى جدار المثانة أو الأمعاء، والذكر يحملها معظم الطريق.

إذن ففى الماء الراكد فى الترع والقنوات، خطر الإصابة بمرض البلهارسيا، إذا كانت القواقع الخاصة به موجودة، والسبب المباشر للإصابة والعدوى، أن يبول المريض فى الماء الراكد ثم يغتسل منه، أو لا يحافظ على نفسه منه. لم يدرك العلماء ذلك كما قلنا إلا بعد سنة ١٨٦١ م أى منذ ما يزيد قليلا عن قرن واحد من الزمان.

إلا أن الوحى الإلهى فى القرآن والسنة أعطى الناس الهداية الصحيحة فى سياق الحديث عن العبادات.

فقد روى الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال فى الماء الراكد وقال رسول الله ﷺ: **«لا يبولن أحدكم فى الماء الراكد ثم يتوضأ منه»**.

إن الإسلام يضع المنهج الصحيح للإنسان مع كل شأن من شئون حياته، ليس فى العبادات والمعاملات فحسب، بل وفى كل تصرف من تصرفاته، ويعلمه كيف يأكل، وكيف يشرب، وكيف ينظف نفسه، وكيف يحافظ على صحته وصحة الآخرين، وكيف يغتسل، بل وكيف يبول.

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل منه».

وفى رواية أخرى عن الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تبل فى الماء الدائم الذى لا يجرى ثم تغتسل منه»

نلاحظ أن الحديث النبوى نهى عن أن يبول الإنسان فى الماء، ووصف ذلك الماء بثلاث صفات: الراكد أو الدائم أو الذى لا يجرى، وكلها صفات الماء الموجود فى البرك والقنوات والذى تعيش فيه قواقع البلهارسيا، أما الماء الذى يجرى فى الأنهار فلا تعيش فيه ومن ذلك نلاحظ الدقة العلمية فى التعبير اللغوى فى الحديث النبوى الشريف.. وكل هذه الأسباب كما قلنا لم تعرف للعلماء إلا بعد سنة ١٨٦١م مما يدل على أن رسول الله ﷺ لم ينطق بهذه الأحاديث اجتهاداً منه كبشر. ولابد أن تكون وحيًا من الله تعالى إليه. وهذا يعنى أن أحاديث رسول الله ﷺ جميعها وحى من الله تعالى إليه وليس له فيها من اجتهاد بصفته بشرا وهذا ينفى ادعاء بعض المفكرين المسلمين أن أحاديث الرسول ﷺ فى غير العبادات والمعاملات والشرعيات هى اجتهاد منه كبشر.

ونحن لانتفق مع هؤلاء، فأحاديث رسول الله ﷺ جميعها وحى من الله تعالى لرسوله أو إلهام.. هو إلهام النبوة الذى خصه الله تعالى به دون سائر البشر، والإسلام ليس مقتصرا على العبادات والمعاملات والشرعيات فحسب، بل هو فى كل تصرف يتصرفه الإنسان، فى المسجد، والبيت، والسوق، فى الطعام، والشراب، واليقظة، والنوم، وحتى فى الحديث مع غيره، وحتى فى السير فى الطرقات، إنه منهج صحيح كامل متكامل للإنسان يهدف لخيره فى الدنيا والآخرة.

هناك أمراض أخرى يتعرض لها الإنسان بتعامله مع الماء تعاملا غير صحى، هو:



مرض الإنكلستوما

إن التبول فى موارد الماء والبرك والقنوات والماء الذى لا يجرى والتبرز فيه؛ يسبب استمرار دورة حياة طفيلات البلهارسيا المعوية، وطفيلات أخرى تصيب الإنسان بالأمراض، مثل مرض الإنكلستوما، وبكتريا لأمراض عديدة تصيب الإنسان أيضا مثل حمى التيفويد والباراتيفويد والكوليرا.

ولسوف تستمر هذه الأمراض ولن يشفى منها البشر، إلا باتباع تعاليم الإسلام فى النهى عن التبول والتبرز فى ماء البرك والنهيرات ، ولقد روى أبو داود عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن سيدنا رسول الله ﷺ قال:

«اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل».

الملاعن: جمع ملعنة.. وهى الفعلة التى يلعن بها فاعلها.

الموارد: هى الطرق إلى الماء، والأرض القريبة منه، مثل الشواطئ أو القنوات والحقول المروية بالماء.

ولا أمل فى القضاء على أمراض الاتصال بالماء اتصالا غير صحى، مثل أمراض البلهارسيا والإنكلستوما، إلا بالإقلاع نهائيا عن التبول والتبرز فى الماء، وقد تبدو هذه مسألة سهلة الحل، ولكنها فى منتهى الصعوبة من الناحية الواقعية خصوصًا مع الأطفال وصغار السن. ونقرأ فى بعض المراجع الطبية الأجنبية تقول:

السبب فى استمرار مرض البلهارسيا هو تعاليم الإسلام التى تحتم على المسلم أن يتبول ويتغوط فى ماء النهر قبل أن يتوضأ منه!

ونحن لا ندهش لذلك كثيرا ولكننا نشعر بالأسف.

لا ندهش؛ لأن الهجوم على الإسلام من أعداء الإسلام، لم يتوقف منذ نزول القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ حتى اليوم وإلى ما شاء الله ويفترى أعداء الإسلام عليه بشتى الطرق الكاذبة على أمل تشويه صورته أمام غير المسلمين. هذا كله لا يدهشنا لأنه أمر عرفناه من قديم..

إلا أننا نشعر بالأسف؛ لأنه كان يجب أن ترتفع المراجع العلمية الطبية عن الاشتراك فى الافتراء على الإسلام، وأن تراعى الأمانة العلمية.

وكذبهم واضح، فهل تعاليم الإسلام سبب انتشار البلهارسيا فى فنزويلا والبرازيل؟! أم أنها سبب انتشارها فى كينيا وأوغندا؟! أم أنها سبب انتشارها واستمرارها فى الصين والفلبين وكوريا وفيتنام؟!!

ولقد اكتشف العلماء وجود بويضات البلهارسيا فى مومياء الفراعنة فهل كان الفراعنة أيضًا مسلمين؟!

وفضلا عن كل ذلك، فليس من تعاليم الإسلام أن يتبول المسلم أو يبرز فى ماء النهر قبل أن يتوضأ منه، بل إن الإسلام نهى عن ذلك نهيًا صريحًا ولو اتبع الناس، مسلمون وغير مسلمين، ما أمر به الإسلام، لاختفى هذا المرض، قال رسول الله ﷺ:

«لايبولن أحدكم فى الماء الراكد ثم يتوضأ منه» وهذا قول صريح لا يحتاج إلى تفسير.

وقال أيضا: **«لايبولن أحدكم فى الماء الراكد ثم يغتسل منه»**.

إن الإسلام دين النظافة، ودين الطهر والنقاء.

روى الإمام مسلم عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال:

«الطهور شطر الإيمان».

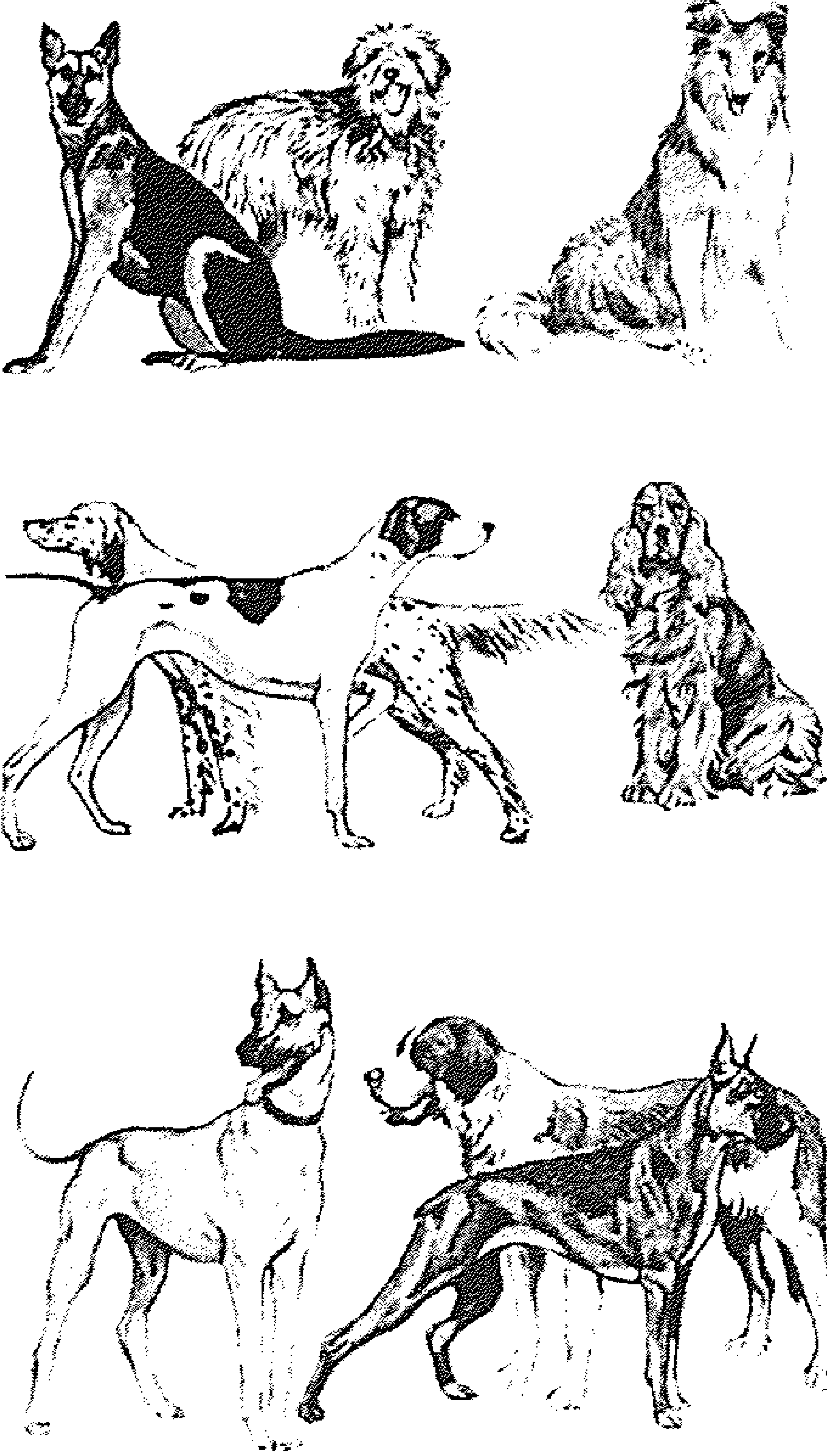
وروى الإمام الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال:

«تخللوا فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه فى الجنة».

الكلاب وصحة الإنسان

خلقت الكـلاب فى هذه الأرض قـبل خلق الإنسـان بملايين السنين.. وقد كـانت تعيش حياة برية قـبل ظهور الإنسان.. ولعل الكلاب أول الدواب التى استـأنسهـا الإنسان واستخـدمها فى الصيـد والمرعى والحراسة.. وصار للإنسان علاقة وثيقة بالكلاب.. ونقرأ عن فتـية الكهف إذ فروا من قريتـهم وأخذوا كلبـهم مـعـهم، ودخلوا الكهف، وكلبـهم لايفارقهم. وضرب الله تعالى على آذانهم فى الكهف سنيـن عـددا قـال الله تعـالى يحكى عنهم فى سورة الكهف: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ... ﴾ [الكهف] لقـد أخـذ الفتيـة الكلب معهم إلى الكهف للحـراسة.. وكان الإنسان منذ القرون الأولى يسـتخدم كلبه فى حراسة بيـته أو كهفه أو خيـمته.. ولم يكن العربى فى الصحراء ولا يزال حتى اليوم ـ فى غنى عن الـكلاب للحـراسـة.. ونـقـرأ فى قـصائد الشـعراء العـرب، ما يصـور أهميـة الكلاب، فى الحراسة والصيد والمرعى.. ولم يتـخـذ العـرب الكلاب للزيـنة قط.. ولم يمسكوها داخل بيوتهم.

وتتنوع الصفات البـدنية للكلاب تنوعا كبـيرا، شـأنها فى ذلك، شـأن كل نوع من



المخلوقات، وهذا التنوع فى الصفات يصاحبه ثبات فى خـصائص النوع، وثبـات فى نظامه الوراثى..

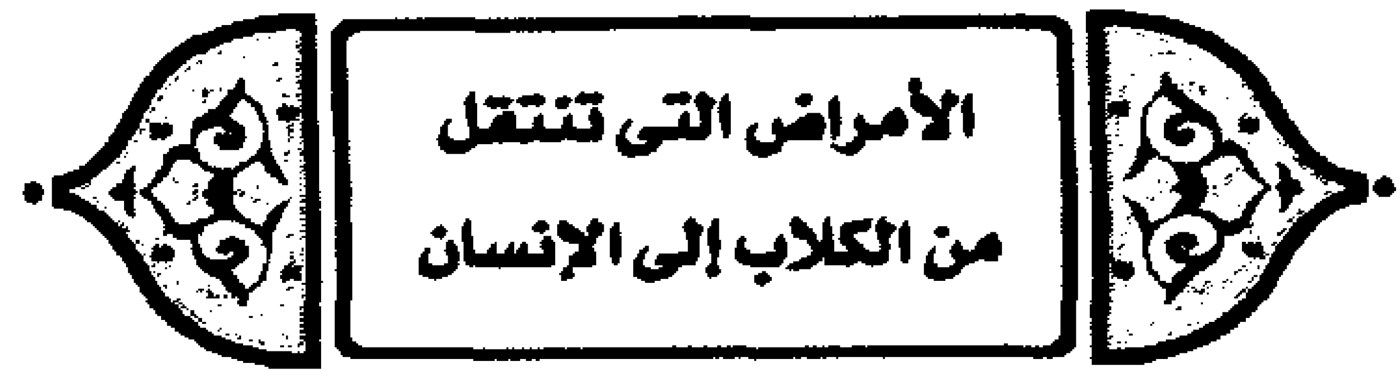
ومن أنواع الكلاب، كلاب الحـراسة، ولها صفـات بدنية خاصة، فـهى قوية الجسم سريعة الـعدو. وكلاب الرعى كبـيرة الحجم قـوية الجسم، ليكون فى قـدرتها الدفـاع عن القطيع ضـد الذئاب.. أما ما يـعرف بكلاب الزينة، أو كلاب المنازل، ففيها صفات أخرى

غير صفات القوة البدنية وسرعة العدو، مثل طول الشعر وجمال ألوانه، ودقة الجسم وتناسق الأعضاء فيه.

وكثير من الناس فى عصرنا هذا - وخاصة فى العالم الغربى ومن يقلدهم فى بلاد أخرى - يقتنون الكلاب للزينة فقط، ويحملونها ويداعبونها ويزينونها، ويعتنون بمظهرها وغذائها، وينفقون الأموال الطائلة فى هذا العبث، فى وقت يشكو فيه ملايين الناس فى العالم من قلة الغذاء.. أما العرب فلم يتخذوا الكلاب للزينة قط وإنما اتخذوا الخيل وغيرها من الدواب للزينة كما قال الله تعالى: ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ...** ﴾ [**النحل**:٨].

وكل إنسان يلهث إما من إعياء وإما من جهد بدنى زائد.. وكذلك سائر الحيوان إلا الكلب، فهو يلهث فى كل الأحوال، سواء كان فى راحة أو كان فى جهد بدنى، وسواء كان مريضا أو سليما، مرتويا أو عطشانا.. فعن طريق الجلد يتخلص جسم الإنسان من جزء من سوائل الجسم وبهذه الطريقة يتخلص من قدر كبير من حرارته.. فيتخلص جسم الإنسان من حرارته عن طريق تبخر عرقه عن جلده.. أما الكلب فهو يلهث دائمًا، ويدلى لسان خارج فمه؛ ليتخلص من حرارة جسمه عن طريق لسانه.. لأنه لا توجد غدد عرقية فى جلده.. وضرب الله تعالى مثلا لمن كذَّب بآيات الله تعالى.. فالمكذب إن وعظته ضل وإن تركته ضل ،والكلب بالمثل إن تركته يلهث وإن طردته يلهث. كما قال الله عز وجل: ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ...** ﴾ [**الأعراف**: ١٧٦].

ويعتبر الإسلام الكلب حيوانا يسبب النجاسة، ويعترض أعداء الإسلام على ذلك ويقولون: إن الكلب حيوان نظيف لا يسبب نجاسة أبدًا.. لذلك يدللون الكلاب ويحملونها بين أيديهم ويقبلونها أيضا.. ولو علموا الحقيقة ما اعترضوا على حقيقة نجاسة الكلاب؛ ذلك لأن الكلب هو الحيوان الوحيد الذى يلعق مؤخرته بفمه.. وهو الحيوان الوحيد الذى لا يبول فى مكان واحد، وإنما يفعل ذلك فى أماكن متفرقة. لذلك فإن فم الكلب ملوث بالجراثيم دائما، ولقد أشار الحديث النبوى الشريف إلى هذه الحقيقة. فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن الأعمش عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليُرِقْه ثم يغسله سبع مرات**» ولغ: أى وضع أنفه فى الإناء وشرب بطرف لسانه. ثم يغسله سبع مرات: أى يغسل الإناء بعد أن يريقه، غسلا جيدا لإزالة ما يكون قد علق فيه من لعاب الكلب، ومن أنفه، وفمه ،من أنواع لا تحصى من الجراثيم الضارة.



وتنتقل العديد من الأمراض من الكلاب إلى الإنسان، تصل إلى نحو خمسين مرضا، منها مرض الكلب Rabies ويسببه فيروس يحمله الكلب فى لعابه وينقل الكلب إلى الإنسان أمراضا أخرى مثل:

١ ـ مرض دودة الكلب الشريطية

Echinococcus granulosus

وتعيش هذه الدودة فى أمعاء الكلب وتخرج بويضاتها فى براز الكلب.. ولما كان الكلب يلعق مؤخرته بفمه.. فإن بويضات تلك الدودة تتعلق بفم الكلب المصاب.. والإنسان الذى يحمل الكلب المصاب بين يديه ويداعبه بيديه، أو يحتفظ به داخل بيته، ويصل الكلب بالتالى إلى آنية طعام الإنسان.. كل هذه الوسائل تؤدى إلى أن تصل بويضات تلك الدودة إلى فم الإنسان. ومن الفم إلى الأمعاء. وتسبب العدوى للإنسان بتلك الدودة من الكلب، أكياسا فى أماكن شتى من جسمه وأكثرها فى كبد الإنسان فى ٦٣٪ من الحالات. وفى الرئتين فى ٢٤٪ من الحالات، وفى العظام فى ٣٪ من الحالات، وفى الطحال فى ٣٪ من الحالات، وفى الكلى فى٢٪ من الحالات، وفى المخ فى ١٪ من الحالات.. ومن هذا نجد أن تلك الأكياس أو الحويصلات توجد فى الكبد والرئتين فى الإنسان.. وتلك الأكياس تسبب أخطاراً للجسم ولابد من استئصال تلك الحويصلات جراحيا.. وتصل العدوى من الكلب المصاب إلى الإنسان عن طريق مداعبة الكلب المصاب، أو ملامسة فمه ووصول بويضات الدودة إلى فم الإنسان، كما أن العدوى تحدث للإنسان عن طريق تناول خضروات ملوثة ببراز الكلب المصاب.

٢ ـ مرض النزف اليرقانى Leptospirosis (Weil's disease) توجد أنواع كثيرة من هذا المرض، منها نوع لا ينتقل إلا عن طريق الكلاب، ويسببه طفيل يسمى Leptospira canicola ويعيش فى دم الريفى.. وينتقل من الكلب المصاب إلى الإنسان الذى يعايشه داخل المنزل ويحمله بيديه.. والعدوى تكون عن طريق بول المريض.. ومن طباع الكلب أنه يتبول فى كل ركن من أركان المنزل.. وقد يلوث أوانى طعام الإنسان المقيم بنفس المنزل.. وقد يخترق طفيل المرض الموجود فى بول الكلب، جلد الإنسان ويصل إلى دمه.. فيصاب الإنسان بهذا المرض الوبيل الذى قد يسبب له الوفاة.

٣ ـ الدودة الشريطية الكلبية Diplydium caninum توجد تلك الدودة فى أمعاء الكلب المصاب.. لذلك تخرج بويضاتها فى براز الكلب.. وتنتقل بالتالى إلى هواة حمل الكلاب ومداعبتها ومعايشتها داخل المنزل، فيصابون بهذه الدودة ، وما تسببه من أعراض مرضية.

٤ ـ داء الديدان القوسية Taxa cara canis وهذه الدودة موجودة فى أمعاء الكلب المصاب، وتخرج بويضاتها فى برازه.. فإذا

كان الكلب يعيش داخل المنزل، فإن بويضات تلك الديدان ستصل إلى أوعية طعام الإنسان بطريقة أو بأخرى.. ومنها إلى طعام الإنسان، فيصاب الإنسان بهذه الديدان القوسية، التى تنتقل من مكان إلى مكان فى جسمه، مسببة الكثير من المتاعب الصحية ومنها أمراض الحساسية، ومنها الربو الشعبى، وتضخم الكبد والطحال فى بعض الحالات.. وقد يصاب أى عضو آخر فى جسم الإنسان.

٥ ـ داء اليرقات الجلدية

Cutaneous Larva migrans

سبب هذا المرض فى الإنسان كلب مصاب بديدان الإنكلستوما الكلبية.. وتخرج البويضات فى براز الكلب المصاب، وإذا كان معايشا للإنسان داخل المنزل أو ملامسا له، فإن بويضات تلك الديدان تصل إلى فم الإنسان بطريقة أو بأخرى وتفقس فى أمعائه وتخرج منها يرقات.. وقد تخترق تلك اليرقات جلد الإنسان وتسبب لها متاعب كثيرة أخرى.

٦ ـ والحديث عن الأمراض التى ينقلها الكلب المصاب إلى الإنسان كثيرة فهى تبلغ نحو خمسين مرضا وذكرنا بعضها إلا أن أخطرها على الإنسان، مرض الكلب Rabies.

وهذا المرض يسببه فيروس يوجد فى لعاب الكلب المريض.. وينتقل المرض إلى الإنسان السليم بواسطة عضة كلب مريض.. وقد ينتقل المرض من الكلب المصاب إلى الإنسان السليم حتى بدون عضة، وذلك إذا لمس لعاب المصاب جرحا أو خدشا فى جلد الإنسان الذى يحمله..

من هنا نفهم أن ملامسة الكلاب وكثرة الاختلاط بها وحملها وتدليلها، من أسباب العدوى بهذا المرض، فضلا عن عشرات الأمراض الأخرى. وهذا المرض فى الكلاب يسمى علميا مرض الكلب Rabies أما إذا انتقل إلى الإنسان، ومرض به الإنسان، صار المرض باسم آخر هو «مرض الخوف من الماء» Hydrophobia. ذلك لأن المريض إذا شاهد الماء يصاب بتقلصات عضلية شديدة فى عضلات الجسم وخاصة بالبلعوم، ويحدث له ذعر شديد .. وتمتد فترة الحضانة إلى أكثر من شهر، وتعتمد على كمية الفيروسات التى تدخل الجسم، وعلى مكان العضة، ودرجة قربها من الرأس، فكلما كان مكان العضة قريبا من الرأس، كانت فترة الحضانة أقصر. (وفترة الحضانة هى الفترة بين حدوث العدوى وظهور أعراض المرض).

ومن أعراض مرض «الخوف من الماء» ما يأتى :

١ ـ فقدان الشهية للطعام.

٢ ـ صداع وقىء وغثيان.

٣ ـ ألم بمكان العضة لم يكن موجودا من قبل.

٤ ـ يصير الإنسان سريع الإثارة للمؤثرات الخارجية، من ضوء، ولمس، وصوت، فتتوتر عضلات الجسم كلها.

٥ ـ يزداد إفراز اللعاب (كما يفعل الكلب المريض).

٦ ـ الخوف من منظر الماء، ويصاحب ذلك تقلصات عضلية بالجسم كله عموما وبعضلات البلعوم خصوصا.

وبعد هذه المرحلة يدخل المريض فى مرحلة أخرى، يحدث فيها توتر عضلى عام، وفقدان للصوت، وضعف عضلى عام يصل إلى الشلل، ويظل المريض هكذا حتى يموت. وإذا ظهر المرض على الإنسان فلا أمل له فى الشفاء. فالأمل الوحيد فى الشفاء من عضة كلب مريض هو العلاج الوقائى:

أولا: البعد عن الكلاب. وإعدام الكلاب الضالة والتى يشك أنها مريضة بالكلب.

ثانيا: الكشف الدورى على كلاب الحراسة والصيد والرعى.

ثالثا: إذا حدث وعض كلب مريض إنسانا. فعلى ذلك الإنسان المبادرة بالعلاج الوقائى، وذلك بحقن فاكسين خاص، وخطوات علاجية وقائية أخرى.

ولم يكن الناس قديما على علم بالأضرار الصحية التى تسببها الكلاب للإنسان، إلى أن تنبه الناس إلى ذلك حديثًا ففى بريطانيا مثلا ستة ملايين كلب يربيها، الناس ويقتنونها داخل منازلهم **فماذا كانت النتيجة؟**

تقول بعض الدراسات الإحصائية الآتى:

١ ـ تخرج هذه الكلاب كل يوم مليون كيلو جرام من البراز فى حجرات المنازل، فضلا عن مائة ألف لتر من البول يوميا فى حجرات المنازل أيضا. ولنا أن نتصور كم من النجاسة والقذارة تصيب المنازل هناك من جراء الإمساك بالكلاب داخل المنازل.



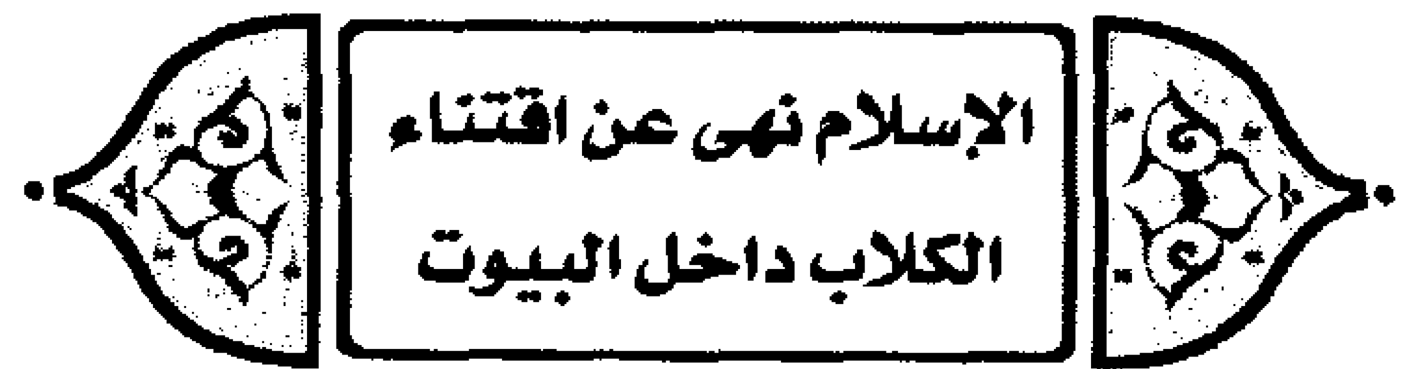
٢ ـ تسبب الكلاب داخل البيوت فى بريطانيا وحدها، أمراضا لمائتى ألف إنسان كل عام، بالأمراض التى تصاب بها الكلاب وتنقلها إلى الإنسان، وهى نحو خمسين مرضا كما ذكرنا من قبل.

٣ ـ أظهرت تلك الدراسة أن خمسمائة مليون جنيه استرلينى تصرف كل عام لأجل تربية تلك الكلاب وإطعامها والعناية بها.

وأخيرا ارتفعت أصوات تطالب بإعدام الكلاب التى لا أصحاب لها. وفى الصين أمرت الحكومة المركزية بمنع اقتناء الكلاب فى المدن الكبيرة .. وجرى إعدام الكلاب فيها، وذلك محافظة على الصحة العامة، ووقاية للناس من أضرار الكلاب على صحة الإنسان.



مما سبق ندرك بعض المغزى العلمي في حديث رسول الله ﷺ : **«إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليُرِقْه ثم يغسله سبع مرات»** فليس الخوف من النجاسة فقط كما كان الاعتقاد قديما، ولكن المراد هو الإمعان في غسل الإناء للتخلص تماما من أثر أي ميكروب أو فيروس أو طفيل، يكون قد علق بالإناء، بواسطة الكلب المصاب، سواء من لعابه أو بوله أو برازه. إذن فالاحتكاك المباشر بين الإنسان والكلاب داخل المنازل والاختلاط بها، وملامستها، وحملها وتدليلها، كما يحدث في العالم الغربي، وكما يحدث من قلة من الناس في بلادنا أيضا ممن يقلدون الغربيين تقليدا أعمى .. فإن هذا الاختلاط بالكلاب داخل البيوت يؤدي إلى الأخطار والأمراض التي ذكرناها بعضها من قبل .. إذن فلا ينبغي على الإنسان أن يقتني كلابا داخل بيته.



مما سبق ندرك تمامًا أسبابا كثيرة ضارة بالإنسان من جراء الاحتفاظ بالكلاب داخل البيوت، تلك الأسباب التي كانت مجهولة للناس تماما من قبل، إلا أن الإسلام نهى عن اقتناء الكلاب داخل البيوت، فقد روى الإمام البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من أمسك كلبا يُنقص من عمله كل يوم قيراط، إلا كلب حرث أو كلب ماشية».

وروى الإمامان مسلم والبخاري عن أبي طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

«لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة تماثيل» .. ومن خلال التقدم العلمي في عصر العلم الحالي، نفهم بسهولة الإعجاز العلمي في الأحاديث النبوية المشرفة التي نهت عن الإمساك بالكلاب داخل البيوت.

أما من يصر على تقليد الغربيين في عادتهم السيئة بالاحتفاظ بالكلاب داخل بيوتهم، فينبغي عليه أن يتبع مارواه الإمام مالك عن النبي ﷺ إذ قال : **«لاضرر ولا ضرار»** والحديث ثابت الورود، ثابت الدلالة، فيجب اتباعه نصا وروحا .. فيجب أن يتحرى الإنسان عدم الإضرار بنفسه، وعدم إضراره بالآخرين. والضرر من الكلاب وارد، والقاعدة الشرعية تقول :(التحريم يتبع الضرر) .. وهذه القاعدة تشير صراحة إلى تحريم الإمساك بالكلاب داخل البيوت.

والضرر : هو أن يضر إنسان إنسانا آخر.

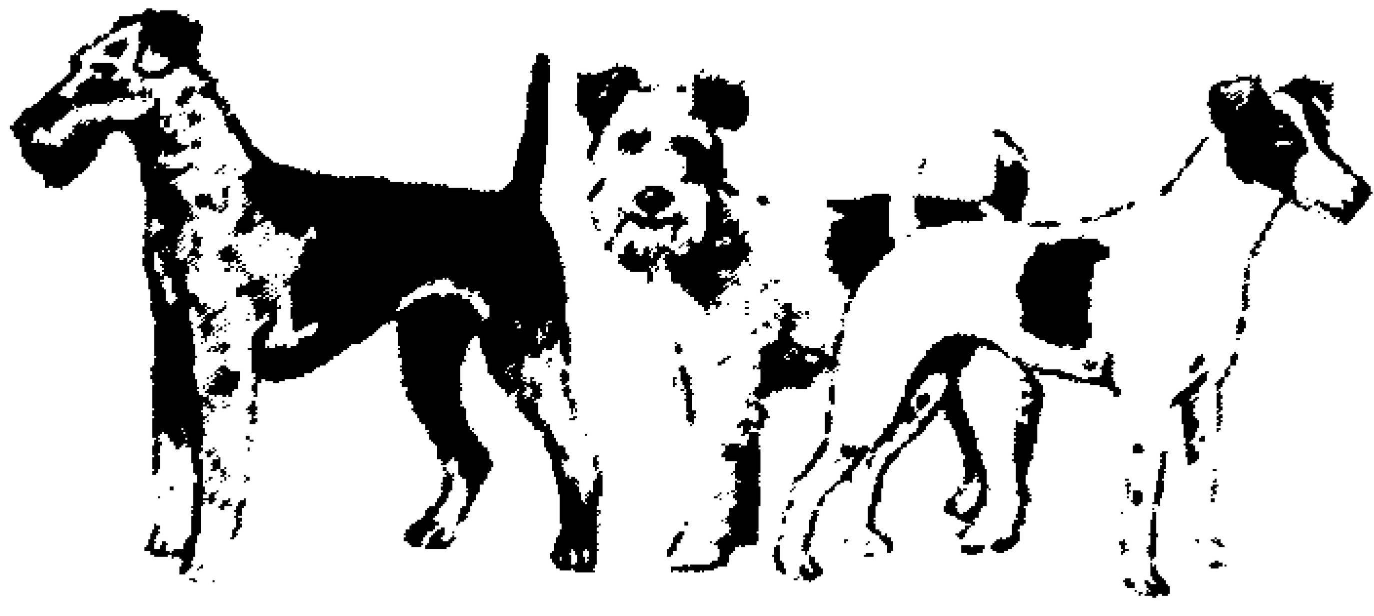
والضرار: هو أن يرد المتضرر بضر آخر إلى غيره، وإلى من سبب له الضرر. فالضرر فعل واحد. والضرار فعل اثنين.

وعلى الذي يصر على اقتناء كلب داخل بيته أن يقوم بفحص طبي دوري له، وأن يقوم بعلاجه من الأمراض التي تكون فيه. وعليه ألا يعوِّد أولاده على اقتناء الكلاب داخل المنازل، حفاظا على صحتهم، ودرءًا للأخطار عنهم.

الإسلام يأمر بالرفق بالحيوان

نهى الإسلام عن الإمساك بالكلاب داخل المنازل .. ونهى عن أن تشارك الإنسان مسكنه وطعامه وشرابه، ونهى عن حملها وتدليلها وملامستها، ولكن ليس معنى ذلك أن الإسلام يحض على كراهية الكلاب، أو غيرها من الحيوان وتعذيبها أو قتلها .. ولكن الإسلام يأمر بالرفق بالحيوان والرحمة به، والعطف عليه .وجعل ذلك من أسباب المغفرة ودخول الجنة . فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**بينما رجل بطريق فاشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش، مثل الذى كان بلغ منى. فنزل البئر، فملأ خفه ماءً، فسقى الكلب. فشكر الله له فغفر له**» قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرًا؟ قال ﷺ: «**فى كل ذات كبد رطبة أجر**» أى إن لنا أجرًا فى كل حيوان نطعمه من جوع، ونسقيه من عطش.

وروى الإمام البخارى عن ابن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:«**إن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش، فأخذ الرجل خفه، فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له ، فأدخله الجنة**» .. وروى الإمام البخارى عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**غُفر**



لامرأة مومسة، مرت بكلب على رأس ركىّ (أى بئر) يلهث، يكاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فسقته إياه فغفر لها بذلك».

إذن فالرحمة والرفق بالحيوان ـ ومنها الكلاب ـ أمر مقرر فى الإسلام ، وسبب من أسباب دخول الجنة .. ولن يبلغ الناس فى البلاد الغربية فى الرفق بالحيوان والرحمة بها. مابلغ الإسلام فى ذلك، وإنما أمر رسول الله ﷺ بعدم اقتناء الكلاب داخل المنازل، لا كراهية فيها، ولا تشجيعا للناس على إهمالها وإيذائها، ولكنه أمر بذلك درءًا لأخطارها على صحة الإنسان، ووقاية للإنسان من أمراضها، ومحافظة على نظافة البيوت؛ ولأن الكلاب لا فائدة منها داخل البيوت. ولقد اكتشف العلماء أخطار إمساك الكلاب داخل البيوت فى عصر العلم الحالى. وبذلك ظهر لنا المغزى العلمى فى الأحاديث النبوية المشرفة .. والمكان الطبيعى لوجود الكلاب هو خارج المنازل وذلك للحراسة . وفى المراعى لحراسة الماشية والدفاع عنها .. فالإسلام إذ ينهى عن معايشة الكلاب داخل البيوت،علمنا الرفق بها والعطف عليها، ولكن من غير ضرر ولا ضرار، ومن غير إفراط ولاتفريط.

أعجب الكلاب

اعـتـاد ابن أبى لهـب أن يلقى الروث على رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى، فكان الرسول يصفح عنه ويدعو له بالهداية.. إلى أن زاد الرجل فى غيـه . فالتفت إليـه رسول الله ﷺ ودعا عليه قال : «**يأكلك كلب الله**» فأخـبر شيـعتـه بذلك، فأعطوه عصـا غليظة ليدافع بهـا عن نفسه ضد أى كلب يهـاجمه، وحـدث أن كان فى قـافلة فى الشام وخـاف على نفســه من دعاء رسول الله ﷺ فـجعل رجال القافلة جـميعا من حوله حـتى يحموه من أى هجوم عليـه - وإذا بأسد ضخم يقـفز فـوق الرجـال المحـيطين به ويـقع عليـه من وسطهم ويأكله .. وفـر الرجال مـذعورين، ورجعـوا إلى أهله وأخبـروهم بأن أسدًا أكل الرجل فقالوا : ما صدقت نبوءة محمد. فما أكله كلب كـمـا قال ودعـا عليـه، وإنما أكله أسد. فـقالوا لهم: إنكم لم تفـهمـوا ، لقد صـدق رسـول الله ﷺ إذ قـال لصـاحـبكم «**يأكلك كلب الله**». فـمـا ينبـغى أن يكون كلب الله إلا الأسد ..



تخفيف صلاة الجماعة

يتعرض الإنسان للصحة تارة وللأمراض تارة أخرى.. والإنسان فى كلتا الحالتين مكلف بأداء الصلاة على قدر طاقته، وقد يصلى المريض وهو جالس إذا لم يستطع الوقوف، وقد يصلى وهو راقد على فراشه إذا لم يستطع الجلوس..

وروى الإمام مسلم فى الصحيح عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن صلاة رسول الله ﷺ أثناء مرضه الذى لحق فيه بالرفيق الأعلى، قالت: «فأجلساه إلى جنب أبى بكر.. وكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة النبى ﷺ والناس يصلون بصلاة أبى بكر.. والنبى ﷺ قاعد» إذن فالصلاة تصح والمصلى قاعد إذا لم يستطع الوقوف.. وبعض الأمراض تمنع الإنسان من الذهاب إلى المسجد، فيصلى فى بيته ولو على فراشه، إلا أن هناك من الأمراض البدنية لايمنع من الذهاب إلى المسجد لصلاة الجماعة إلا أن الإنسان قد لا يقدر على إطالة الجلوس أو إطالة الوقوف، أو إطالة الركوع أو السجود.. ومن هذه الأمراض:

أولا: فى كبر السن تتآكل الغضاريف فى مفاصل الجسم، مما يسمى فى الطب (الالتهاب العظمى المفصلى Osteoarthritis وهذه تصيب مفاصل الجسم وخصوصا مفاصل الرجلين، ومفاصل العمود الفقرى وأمراض كهذه، شائعة فى كبار السن، وهى تسبب آلاما شديدة لصاحبها إذا أطال القعود



فى وضع معين، وقد تسبب له آلاما شديدة فى الركوع والسجود إذا أطال فيها.. كل ذلك بالإضافة إلى الضعف العام فى الشيخوخة، الأمر الذى يجعل حركات الجسم بطيئة ومجهدة للإنسان ،ولا يستطع الإنسان معها إطالة القعود. ولا يقدر على إطالة الوقوف أو الركوع أو السجود.

ثانيا: بعض مرضى السكر يصابون بالتهاب بأعصاب الأطراف Peripheral Neu-ropathy وهى حالة تجعل إطالة الوقوف أو الجلوس شديدة الوطأة على الجسم.. كما أن مرض السكر يصاحبه كثرة إدرار البول، الأمر الذى يصعب على المريض الاحتفاظ بوضوئه وقتا طويلا.

ثالثا: أمراض العمود الفقرى كثيرة ومتعددة، ومنها مايمنع من السجود أو حتى الجلوس على الأرض إلا دقائق معدودات فإطالة الإمام الركوع والسجود يصيب هؤلاء بآلام مبرحة لاطاقة لهم بها وكل ما يقدرون عليه هو السجود والركوع لوقت قصير..

وبعض أمراض مفاصل الفخذ تمنع من الجلوس بين السجدتين أو الجلوس أثناء التشهد. فالمفصل لايستريح إلا فى وضع مستقيم . وأمراض مفصل الركبة قد تمنع من الركوع أو السجود . وقد يجهد المريض نفسه ليؤدى الركوع والسجود ولو للحظات . وإطالة الإمام السجود وللركوع يسبب عذابا لهؤلاء المرضى .

رابعا: بعض أمراض الحبل الشوكى أو الجهاز العصبى المركزى أو الطرفى أو اللاإرادى قد يسبب سلسا بالبول، مما لايستطيع المريض معه إطالة الانتظار للصلاة بسبب طول خطبة الجمعة . . وهناك أمراض بالجهاز البولى لايقدر المريض معها أن يحبس البول لمدة طويلة . .

خامسا : المرضى بهبوط القلب كثيرون. وهؤلاء لايستريحون إلا فى وضع الجلوس ولايستطيعون إطالة الجلوس قط . ولو أطال الإمام السجود لشعروا بالاختناق والأمر نفسه فى مرضى الربو الشعبى المزمن وانتفاخ الرئتين أو ماشابه ذلك من أمراض الرئتين. فإن إطالة السجود مجهدة جدا لهؤلاء وتسبب لهم العذاب . .

سادسا : بعض الناس يشكو إسهالا أو آلاما بالبطن أو انتفاخا بالأمعاء . . وهؤلاء لايمكنهم الاحتفاظ بالوضوء إلا وقتا قصيرا وإطالة الخطبة قبل الصلاة، أو إطالة الركوع أو السجود، لايتوافق مع حالتهم الصحية . .

وهناك أمراض أخرى كثيرة، وقد ذكرنا أمثلة من الأمراض فقط، مما يدل على أن أسبابا مرضية كثيرة تمنع صاحبها من إطالة القعود أو إطالة الوقوف أو إطالة الركوع والسجود . . والناس فى المسجد جماعة كثيرة العدد . . وليسوا جميعا أصحاء . . ولابد أن فيهم مرضى بأمراض مثل التى ذكرنا، فإذا أخذ الحماس الإمام ـ فأطال الخطبة قبل الصلاة أو ملكه الخشوع لله فأطال الوقوف وأطال الركوع أو السجود فإن بعض المصلين يلاقون أثناء ذلك تعبا كبيرا ونصبا عظيما، وقد لايقدرون عليه . .

وماذا تعلمنا السنة النبوية المشرفة فى ذلك؟ إنها تعلمنا السلوك الصحيح فى الصلاة فى المسجد فمن هدى رسول الله ﷺ أنه كان لا يطيل فى صلاة الجمعة لا فى الخطبة ولا فى الصلاة كما يفعل الآن كثير من أئمة المساجد . . وروى الإمام مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : «ماصليت صلاة وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ».

فينبغى على أئمة المساجد أن يتأسوا بسيدنا رسول الله ﷺ حتى لايثقلوا على الكثيرين من المرضى، والكثيرين من كبار السن فى المسجد . . ولو اطلع عليهم رسول الله ﷺ لغضب منهم غضبا شديدا؛ لأنهم بإطالتهم فى الخطبة والركوع والسجود قد خرجوا عن السنة النبوية المشرفة . .

وروى الإمام البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : والله يارسول الله إنى لأتأخر عن صلاة الظهر من أجل فلان مما يطيل بنا

الصلاة قال ابن مسعود: فما رأيت رسول الله ﷺ فى موعظة أشد غضبا منه يومئذ قال ﷺ: «**إن منكم منفرين .. فأيكم ماصلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف وذا الحاجة**» فليتجوز : أى فليخفف الإمام من القيام والركوع والسجود تخفيفا لايخل بأداء الصلاة أداء صحيحا . .

وروى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير. وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء**» جمع هذا الحديث الشريف الحكمة العلمية بحذافيرها . . وجمع فأوعى . . وأجمل كل المطلوب علميًا وطبيًا فى كلمات قليلة العدد كبيرة المعنى . . وهى واضحة تماما لكل ذى عقل . . وينبغى على كل مسلم يصلى بالناس أن يتبع ما جاء بهذا الحديث النبوى الشريف .

«وروى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض**».

ونقرأ فى صحيح البخارى عن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه قال: أقبل رجل بناضحين (أى زوج من الإبل) فى جنح الظلام فوافق معاذا يصلى . . فترك ناضحيه . . وأقبل إلى الصلاة خلف معاذ . فقرأ معاذ سورة البقرة أو سورة النساء . . فانطلق الرجل (أى ترك صلاة الجماعة)، وبلغه أن معاذا نال منه (يعنى أن معاذًا لما رآه قد خرج من الصلاة تكلم عنه بما لا يرضيه واتهمه بضعف الإيمان) فأتى الرجل النبى فشكا إليه معاذا . . فبعث النبى ﷺ إلى معاذ وقال له :

«**يا معاذ أفتَّان أنت.. أفتَّان أنت.. أفتَّان أنت**» فتان: أى منفر للناس قال : «**فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى. فإنه يصلى وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة**». وهكذا علم رسول الله ﷺ الأمة الطريق الصحيح فى أداء الصلاة . . ولقد علم العلماء فى عصر العلم الحالى المغزى العلمى فى الحديث النبوى الشريف .

نفهم مما سبق أن الكثير من الأمراض أو الحالات تمنع أصحابها من أن يطيلوا الجلوس أو الوقوف أو الركوع والسجود . . إلا أن بعض أئمة المساجد ـ وليس كلهم وإنما البعض منهم - يستبد به الحماس فى الدعوة إلى الله، فتمتد خطبته طويلا . . والمصلون جلوس على الأرض ومنهم من لا يستطيع أن يطيل الجلوس . . وكان يمكن أن يجمع الخطيب كل ما قال فى وقت وجيز . وقد يطيل فى الوقوف والركوع والسجود . ويتناسى أن وراءه بعض المصلين ـ حتى ولو كان واحد منهم فقط ـ يجد فى ذلك تعبًا كبيرًا ونصبًا عظيمًا . . وينبغى أن نتبع سنة سيدنا رسول الله ﷺ فنحن جميعا أتباعه وهو القائد والمعلم الذى يجب طاعته فى كل كلمة تخرج من شفتيه الكريمتين، والذى قال: «**إن منكم منفرين فإذا صليتم بالناس فأوجزوا فإن خلفكم الضعيف والكبير والمريض وذا الحاجة**» وقال ﷺ أيضا : «**إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن بينهم الكبير والمريض. وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء**».

صدق رسول الله ﷺ.

زواج الأقارب والأمراض الوراثية

كان موضوع زواج الأقارب محل اهتمام الشعوب منذ أقدم العصور.. ففى المجتمعات البدائية كان تحريم الزواج من الأقارب حسب النظام الذى تقرره القبيلة فمثلا عند الشوشون وهم قبيلة من قبائل الهنود الحمر بأمريكا الشمالية يحرمون زواج الأخت بأخيها كما يحرمون الزواج من بنت العم والخال أيضا؛ لأنهن فى اعتقادهم فى حكم الأخوات.

أما فى الأسر الفرعونية فى مصر، وفى قبائل الإنكا القديمة فى بيرو، فقد كان زواج الأخت بأخيها مرغوبًا فيه؛ لأن الملكية كانت مقدسة وكان الاعتقاد أن الزواج بغير شخص ملكى يؤدى إلى تدنيس قدسية الدم الملكى.

وفى كتاب (تاريخ الزواج الإنسانى) كتب «وستر مارك» أن أمر الشعوب التى تحرم الزواج من الأقارب يرجع إلى أسباب بيولوجية، ووافقه فى ذلك «مورجان» فى كتابه «المجتمع القديم» واعتقد أن المجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور لاحظت أن الزواج بالأقارب المقربين يسبب ظهور أمراض وراثية بالذرية، وهى نظرية لم تثبت صحتها تماما فى عصر العلم الحديث كما سنتحدث فيما بعد.

وقال «مالينو فسكى»: إن إباحة الزواج من الأقارب المقربين سيدمر النظام الأسرى لأنه سيحول علاقات الحب والود العائلى البعيدين عن الجنس إلى علاقات قائمة عليه.

وقال الفيلسوف الإنجليزى «لورد بولنج بروك» : إن زواج الأباعد ظاهرة عامة تهدف إلى تقوية النزعة الاجتماعية بين الأسر وتشجيع الانتشار العائلى والثقافى بينها.. وزعم أن الزواج بين الأقربين من شأنه أن يضعف احترام الأبناء للآباء، ومن ثم يقضى على الاحترام الذى يقوم عليها النظام العائلى، وهو بذلك وافق على رأى «ماليتوفسكى»..

إلا أن الإسلام حرم زواج الرجل من أقارب معينين.

يقول الله عز وجل :

﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣)﴾ [النساء].

لقـد حددت الآية الكريمـة القريبـات اللاتى يحـرم الزواج بهن، ولقـد وجـدنا أن ذلك يتفق تماما مع ما توصل إليه علم الوراثة فى العلم الحديث.

دور علم الوراثة

إن جـسم الإنسـان مـكون من خـلايا عديدة، اتفق كثير من الباحثين أنها تبلغ أكثر من ستين مليـارا من الخلايا، كل هذه الخلايا تموت بعد أيام أو شهور معدودات وتحل محل الخلايا التى تموت خلايا، جديدة طبق الأصل من الخـلايا التى مـاتت - مـا عـدا الخـلايا العصبية - وانتهت وخرجت من الجسم.

وما الذى يجعل الخـلايا الجديدة صورة طبق الأصل من الخـلايـا التى مـاتت؟ إنهـا العوامل الـوراثية الموجودة فى نواة كـل خلية من خلايا الجسم، والله تعالى يبدئ الخلق ثم يعـيده ، أمـا كيف يحـدث هذا فإن لعلمـاء الوراثة حديثـا طويلا فى هذا الموضوع لايهم غـيـر المتـخـصـصـين، قـال الله تعـالى : ﴿ ... إِنَّهُ يَبْـدَأُ الْخَـلْقَ ثُمَّ يُعِـيدُهُ ... ﴾ [يونس: ٤] حـقيـقة ثابـتة تصـدق على كل خلق فى السموات والأرض.

والعوامل الوراثية وظيفتها نقل الصفات الوراثيـة مـن الآباء إلى ذريتـهم، ولـنقل الصـفات الوراثيـة من إنسان إلى ذريتـه نظام محكم مـؤسس على قوانين ثابتـة فطرها الله تبارك وتعالى، هى مجال بحث علماء الوراثة والخلية فى العالم كلـه الآن.. ويعلمون عنها شيـئا ومـا لا يعلمون عنهـا أكثـر كثيرا.. والعوامل الوراثية فى خـلية الإنسان تزيد عن مائة ألف عامل وراثى.. وهى مـسئولة عن نقل الصفات الوراثيـة من جيل إلى جيل.. ومثلها مثل الختم يختم آلاف الملايين، فيعطى فى كل مرة نفس الصورة لا تفـاوت فيها ولا تبديل.. ويسـتمد كل إنسـان تلك العوامل الوراثيــة من أبويه.. نصـفـــهـا من الأب والنصف الآخر من الأم تلتقى معا فى النطفة الأولى أو البـويضة الملقـحـة التى تتكون فى أول لحظة من لحظات الحمل.. لذلك تنتقل الصـفـات الوراثـيـة من الأب ومن الأم إلى الأبناء والأحفاد..

وليس الأمـر بهـذه البسـاطة.. فـإن انتقال الصـفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء علم كبـير هو علم الوراثة، فـيه علماء كـبار يقـضون حـياتهم فى تلك الدراسـة.. ولم يؤسس عـلم الوراثة علـى أسس علمـيـة صحيـحة إلا فى هذا القرن فقط إذا اسـتثنينا القـوانين الوراثيـة الثـابتـة التى اكـتـشفـهـا «جريجور مندل» فى أواخـر القرن الماضى فى دراساته على بذور البازيللا.

ويظهر الطفل يشبه أبويه وأجداده. وقد تظهـر به صفـة من صفـات الأم أو الخال أو الأب أو الجـد أو الجدة.. وروى الإمـامـان الترمـذى والبخارى أن أنـس بن مالك رضى الله عنه قـال : لم يـكن أحـد منهم أشـبـه برسول الله ﷺ من الحـسن بن على. وروى

الإمام الترمذى عن أبى جحيفة قال : رأيت رسول الله ﷺ وكان الحسن بن على يشبهه - يقصد أنه يشبهه فى صورة الجسم.

وروى الترمذى عن هانئ عن سيدنا على كرم الله وجهه قال : الحسن أشبه برسول الله ﷺ مابين الصدر إلى الرأس. والحسين أشبه برسول الله فى غير ذلك.

ولكن ماهى العوامل الوراثية والصفات الوراثية.

تنتقل الصفات الوراثية من الآباء والأمهات إلى الذرية . . وذلك فى نظام مدهش وعجيب، وهو محل دراسة علماء الوراثة والخلية الوراثية منذ أوائل هذا القرن وحتى الآن . . ولسوف يكتشف العلماء من أسرار علم الوراثة مايشاء الله تعالى لهم بالكشف عليه فى مستقبل العصور.

والصفات الوراثية تحمل على جزىء إلى الحامض النووى فى الكروموسومات فى نواة كل خلية حية . . ولكن لماذا تظهر صفات وراثية على الذرية من أحد الأبوين من الآخر بمعنى أن الابن قد يكتسب صفات من أبيه أكثر من صفاته من أمه أو العكس، ولماذا لا تكون نصف الصفات الوراثية فى الأبناء من صفات أمهم ونصفها الآخر من صفات أبيهم ماداموا قد أخذوا نصف العوامل الوراثية من الأب ونصفها الآخر من الأم؟

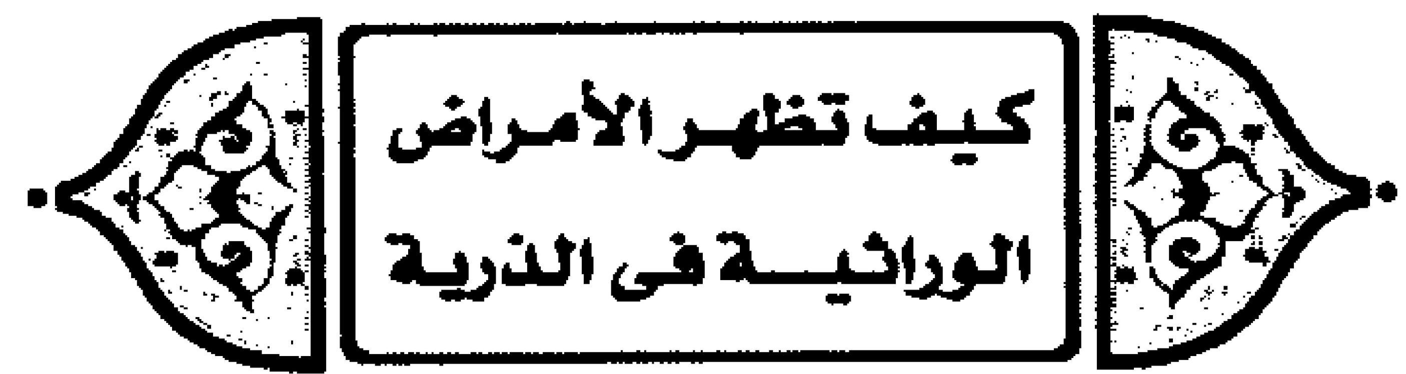
السبب فى ذلك أن الصفات الوراثية تختلف فى القوة فبعضها سائد وبعضها متنحى، فالصفة الوراثية السائدة هى تلك الصفة التى لها القدرة على الظهور وحدها أى أن صفة وراثية سائدة واحدة انتقلت إلى أحد الأبناء سوف تظهر عليه مثل لون الجلد الأسود فهى صفة سائدة إذا انتقلت من أى من الأب والأم إلى الطفل فسيكون ذا جلد أسود اللون.

أما الصفات الوراثية المتنحية :

فليس لها القدرة على الظهور إلا إذا اجتمعت مع صفة متنحية مثلها من أحد الأبوين . . . بمعنى أنها موجودة فى كلا الأبوين وتنتقل إلى أحد الأبناء لصفتين متنحيتين فتظهر الصفة الوراثية المشتركة فى الوالدين . . تظهر فى الأبناء وتعبر عن نفسها . . ومعنى هذا أن صفة وراثية سائدة واحدة من أحد الأبوين تظهر فى الأبناء وصفة متنحية واحدة من أحد الأبوين إذا انتقلت إلى أحد الأبناء لاتظهر فيه . . أما صفتان وراثيتان متنحيتان من الأبوين معا إذا انتقلت إلى أحد الأبناء تظهر فيه، ولن ندخل فى أى تفصيلات فى علم الوراثة؛ لأن هدفنا هو التوصل إلى معرفة الآثار الوراثية الناتجة عن زواج الأقارب.

يقول كثير من العلماء: إن الصفات الوراثية المتنحية تتجمع فى الأقارب . . فإذا استمر زواج الأقارب جيلا من بعد جيل، فإن

الأبناء والأحفاد يتعرضون لاستقبال تلك الصفات الوراثية المتنحية من كلا الأبوين، وتظهر الصفة كمرض فى الذرية إذا كانت صفات وراثية متنحية مرضية، وبالتالى لاينصحون بزواج الأقارب . ولقد تحمس كثير من العلماء لهذا الرأى وجاء بعضهم بأحاديث أسندوها إلى النبى محمد ﷺ تنصح بزواج الأباعد ولاتشجع عن زواج الأقارب لهذا مثل الحديث القائل: «اغتربوا لا تضووا» يعنى تزوجوا الأغراب حتى لاتضعف الذرية . . وقد رأينا أن آراء العلماء فى هذا الموضوع آراء قديمة، ولا أقول: إنها عارية عن الصحة تماما . . ولكننى أقول: إنها ليست صحيحة بدرجة كاملة . . وإن الأحاديث التى ساقوها لم تثبت صحة إسنادها إلى النبى ﷺ.



كيف تظهر الأمراض الوراثية فى الذرية

انتقال الأمراض الوراثية يحدث عن طريق الصفات الوراثية السائدة والمتنحية. ويكفى عامل وراثى مرضى سائد واحد من أحد الأبوين لظهور مرض وراثى فى نسبة معينة من الأبناء . . ولكن الصفات الوراثية المتنحية لابد أن تنتقل إلى الأبناء من الأبوين معا حتى تظهر الصفة الوراثية، إذن فتوارث صفة متنحية مرضية واحدة سواء من الأم وحدها أو من الأب وحده ، لا تحدث مرضا وإنما تظل مختفية . .

وتدل الإحصاءات أن أولاد العم، وأولاد الخال، يحملون نفس العامل الوراثى المتنحى بنسبة ١ إلى ٨ وأن هذه النسبة تقل كثيرا فى غير الأقرباء . . لذلك اعتقد العلماء أن زواج الأقارب يحمل خطر انتقال الأمراض الوراثية إلى الأبناء. وفى رأينا أن زواج الأقارب ليس له آثار ضارة كما اعتقدوا إذا اتبع المقدمون على الزواج الطريق العلمى الصحيح . . أما الأحاديث التى ذكروها وقالوا: إنها أحاديث نبوية مثل (اغتربوا لاتضووا) أى تزوجوا الأغراب حتى لا تضعف صحة ذريتكم هذا الحديث لم تثبت صحة إسناده إلى النبى ﷺ.

وزواج الأقارب ليس هو وحده المسئول عن الأمراض الوراثية فى الذرية. . ولكن **ماهو الدليل على ذلك؟ الأدلة العلمية كثيرة جدا :**

أولا : إن النسبة الحقيقية لظهور الأمراض الوراثية الناتجة من الصفات المتنحية من كلا الأبوين، ليست معتمدة على زواج الأقارب فحسب، ولكنها تعتمد أساسا على مدى انتشار العامل الوراثى المرضى المتنحى بين أفراد المجتمع ككل . . وتبعا لذلك فإن زواج الأباعد ليس ضمانا لإنجاب ذرية بدون أمراض وراثية . . ولقد أثبتت الدراسات أن ظهور الأمراض الوراثية فى الذرية فى المجتمعات التى تنتشر بين أفرادها العوامل الوراثية المتنحية لمرض ما، تتساوى نسبتها فى زواج الأقارب وزواج الأباعد على حد سواء.

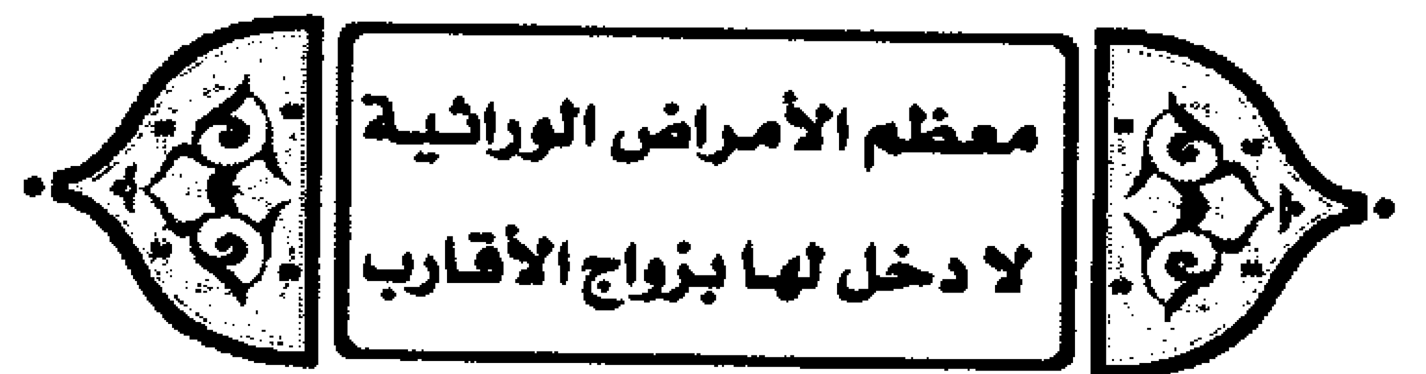
ثانيا: فى زواج الغرباء إذا كان يحمل كل منهما صفة وراثية مرضية متنحية لمرض

ما، فإن الذرية ستكـون معرضة لذلك المرض الوراثى بنسبة ربع عـدد الذرية فـقط وليس الكل . . وقـد يتم الزواج بين قـريبـين وكل منهما خال من أى صفة مرضية، حينئذ تكون ذريتهـما سليمـة وراثيا ١٠٠٪ إذن فالمسئول عن الذرية المريـضـة ليس زواج الأقـارب أو الأباعد بصفة مطلقة.

ثالثا: أما الأمراض الوراثية التى تنتقل بعامـل وراثى سائد واحـد سواء من الأب أو من الأم فـهى تحدث فى زواج الأقـارب وفى زواج الأباعد على حد سواء.

رابعا: معظم الأمراض الوراثية لادخل لها بكل العـوامل السابقة. . وتبـعا لذلك لا دخل فى حدوثها لزواج الأقارب.

إذن فـالخطر المزعـوم لزواج الأقـارب ينحصـر فى عدد قليل من الأمـراض الوراثية وينتـفى هذا الخطر عـن زواج الأقـارب إذا كـانت تلك الصـفات الـوراثية منتـشـرة فى المجتمع ككل مثل انتشارها بين الأقارب.



ذكرنا من قبل كـيفية انتـقال الأمراض الوراثية من الأب والأم إلى ذريتهـما، وذكرنا أن الأمراض الوراثيـة الناتجة من انتقـال عامل وراثى سائد لا دخل لزواج الأقارب فـيها. . كما أن معظم الأمراض الوراثية فى الذرية لا دخل فى حدوثها لزواج الأقارب، وقلنا: إن نقل الأمراض الوراثية ليس متوقفًا على زواج الأقـارب فحـسب، إذا كـان العـامل الوراثى المرضى المتنحى منتشرا فى أفراد المجتمع، مثل انتشاره بين الأقارب.

كمـا أن معظم الأمـراض الوراثية، فى الذرية لا دخل فى حـدوثهـا لزواج الأقـارب ومثال ذلك:

(١) مرض الأنيـميا المنجلية: - Sickle cell anaemia يحـــدث هذا المرض بســـبب انتقـال عامل وراثى مـتنحى من كل من الأب والأم إلى طفلهـما، وتزداد نسـبة ظهـور هذا المرض فى الذرية فى زواج الأقـارب إذا كـان العـامل الوراثى للمـرض منتـشرا بين أفـراد الأسرة وغـير مـنتشر فى أفـراد المجتـمع من حولهم بمعنى أن يكون أفـراد الأسرة، مرضى وراثيا . . وأفراد المجتمع أنقياء وراثيا.

ولكن لـيس هذا الحـال فى مـــعظم الأحوال . . فقد يكون العامل الوراثى المسئول عن المرض منتـشر فى المجـتمع. فـمثـلا فى بعض مناطق إيطاليا نسبة انتـشاره فى المجتمع تصل إلى ١٠٪ . . وفى كينيا يصل إلى ٤٠٪ وفى غرب أفريقيا يصل إلى ٢٥٪ من الناس، إذن فـحدوث المرض فى الذرية ليس نـتيجـة لزواج الأقـارب؛ لأنه يحـدث أيـضـا بنفس النسبة فى زواج الأباعد فى تلك المجتمعات.

(٢) مرض الفاتحة البحرية -Thalassaemia وهو مرض ينتقل وراثيا فى منطقة كبيرة من العـالم تمتـد من جنوب شـرق آسيـا إلى غرب أوربا ونسبة انتشار العامل الوراثى تصل إلى ١٢٪ مـن الناس، فـــفـى هذه المنـاطق تتساوى نسبة حدوث المرض الوراثى فى زواج

الأقارب وزواج الأباعد على حد سواء، أما إذا زادت نسبة انتشار العامل الوراثى فى المجتمع إلى ٢٠٪ مثلا، فإن زواج الأقارب قد يكون أكثر ضمانا من زواج الأباعد إذا كان الأقارب أنقياء وراثيا.

(٣) عندما يندر وجود العامل الوراثى المتنحى لمرض ما مثل مرض تليف وتكيس البنكرياس Cystic fibrosis فهو مرض وراثى ينتقل وراثيا من أم وأب يحملان نفس العامل الوراثى للمرض، لذلك فهو مرض يحدث فى طفل واحد لكل ألفى طفل فى زواج الأقارب والأباعد على حد سواء، ونفس الشيء عن مرض البول ألكيتونى.

وليس فى الأمر صدفة أو عشوائية كما يتبادر إلى ذهن بعض الناس، فالله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، إلا أن الله تعالى أمرنا باستنفاد الأسباب والاحتياط والوقاية وأمرنا رسول الله ﷺ بالتخير إذ قال ﷺ : **«تخيروا لنطفكم»** والتخير أمر واجب على كل مقدم على الزواج والتخير يكون فى أمور كثيرة وفى صفات شتى.



إن الغالبية العظمى من الأمراض الوراثية فى الأولاد ليس لها علاقة مطلقا بزواج الأقارب، ومثال ذلك:

أولا: الأمراض الوراثية الناتجة من انتقال عامل وراثى سائد واحد من أحد الأبوين مثل مرض التعظم الغضروفى Achondroplasia ومرض التصلب الدرنى Epilaoia ومرض الداء البوليبى المعوى ومرض اضطرابات الكوليسترول بالدم ومرض مارفان Marfan ومرض الأورام الليفية العصبية، وغيرها وغيرها من الأمراض الوراثية التى تنتقل من أحد الأبوين فقط، وليس لها علاقة بزواج الأقارب أو الأباعد لا فرق بينهما.

ثانيا: هناك أمراض ليس لها علاقة بزواج الأقارب بصفة مطلقة.

مثل الأمراض الناتجة من اختلاف عامل روسوس من الزوج والابن ومرض الطفل النقولى وبعض الأمراض الوراثية التى تسبب عيوبا خلقية بالقلب، وغير ذلك كثير.

ثالثًا: أمراض وراثية ناتجة من الزيادة أو النقص فى عدد الكروموسومات مثل مرض تيرنر والمولود يكون أنثى لا تنضج جنسيا ، بالإضافة إلى صفات غير طبيعية أخرى ومرض كلاينفلتر والمولود يكون ذكرًا لا ينضج جنسيا ومتخلف عقليا.

وأمراض عديدة تسبب تخلفا عقليا لها علاقة بنظام الكروموسومات أو غيرها وليس لها علاقة مطلقا بزواج الأقارب.

رابعًا: أمراض مثل مرض الهيموفيليا (أى مرض النزف الدموى) ومرض عمى الألوان هما من الأمراض المرتبطة بالجنس، بمعنى أن الأم سواء كانت قريبة من الأب أو ليست من أقربائه وتحمل عامل المرض، فإنها لا تعانى منه، ولكنها تنقله إلى أولادها الذكور فيظهر عليهم المرض، أو بناتها فيحملن بالعوامل الوراثية للمرض ولا يظهر

عليهن كل هذه الأمراض الوراثية التى ذكرناها ليست لها علاقة بزواج الأقارب ولا وقاية منها إلا بالتخير ونعنى بذلك الاستشارة الوراثية قبل الزواج والتخير أمرنا به رسول الله ﷺ إذ قال : «**تخيروا لنطفكم**».

الطفرة الوراثية

الطفرة: هى تغير وراثى فجائى وله أنواع وأسباب شتى وتسمى فى اللغة نزعة عرق، وليس لها علاقة بزواج الأقارب من قريب أو من بعيد. . روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ولدت لى امرأتى غلاما أسود فقال ﷺ: «**هل لك من إبل**» قال الرجل: نعم. قال ﷺ: «**ما لونها؟**» قال الرجل : حمراء. فقال ﷺ: «**هل فيها من أورق**» (يعنى رمادى اللون) قال الرجل: نعم. قال ﷺ: «**فأنى ذلك؟**» فقال الرجل : لعله نزعة عرق فقال ﷺ: «**فلعل ابنك هذا نزعة عرق**» والمراد بالعرق: الأصل فى النسب تشبيها بعرق الشجرة ،ومنه قولهم: فلان عريق أى أصيل. . نفهم مما سبق أن زواج الأقارب ليس هو المسئول وحده عن نقل الأمراض الوراثية من الآباء إلى الأبناء وحتى فى الأمراض المعدودة التى تنتقل بين الأقارب نجد أن زواج الأقارب لايكون مسئولا عن نقل تلك الأمراض إلى الذرية، إلا إذا كان المجتمع من حولهم نقيا وراثيا، أما إذا كانت العوامل الوراثية المسئولة عن تلك الأمراض منتشرة فى أفراد المجتمع بنسبة متساوية مع الأقارب، فإن تلك الأمراض تنتقل إلى الذرية فى زواج الأقارب والأباعد على حد سواء.

وفضلا عن كل ذلك فإن غالبية الأسر أنقياء وراثيا، فلا يخشى إذن من زواج الأقارب. . وينسى الكثيرون أن زواج الأقارب قد يكون مفيدًا جدًا إذا كان بالأسرة عوامل وراثية مرغوبة، مثل صفات الجمال والذكاء والقوة أو طول العمر فإن زواج الأقارب أفضل فى هذه الحالات من زواج الأباعد والعكس صحيح إذا كان بالأسرة عوامل وراثية غير مرغوبة، فالزواج بالأباعد، حينئذ يكون أفضل، إذن تتساوى الاحتمالات فى زواج الأقارب والأباعد حتى فى هذه الحالات.

وسواء كان الزواج من أقارب أو أباعد فهناك وقاية من الأمراض الوراثية بواسطة الاستشارة الوراثية قبل الزواج. هو نوع من التخير الذى أمرنا به رسول الله ﷺ إذ قال: «**تخيروا لنطفكم**».

إن الغالبية العظمى من انتقال الأمراض الوراثية إلى الذرية، ليس له علاقة بزواج الأقارب، فهو فى زواج الأباعد أيضا على سواء، وفضلا عن كل ذلك فإن زواج الأقارب كما ينقل بعض الصفات المرضية ، فإنه ينقل بعض الصفات الحسنة والمرغوبة مثل صفات الجمال أو صفات القوة، فالقبائل التى تعيش فى جبال فى كنتكى بأمريكا لا يحرّمون زواج الأقارب، ومع ذلك نتج جيل وأجيال تتميز بصفات بدنية وعقلية ممتازة، بينما فى

قبـائل أخرى فى نفـس المنطقة فـيها يـتزاوج الأقارب المقـربون، نتج عنها أجيال بصـفات مرضـية وراثية معـينة. وكليوبترا مثـلا كانت تتمـتع بصفـات بدنية مرغـوبة مثل صـفات الجمـال والطول، وصـفات عقلـية كالـذكاء الحاد، ومع ذلك كانت ثمرة لاثنى عشر جيلا من زواج أقرب المقربين.

إذن فـزواج الأقارب قـد يكون سـببـا لاكتـساب صفـات مرضيـة فى الذرية، وقد يكون سببًـا لاكتساب صفات بدنيـة وصحية مرغوبة، وتتـساوى الاحتمالات بصفـة عامة فى زواج الأقارب والأباعـد، وقد يكون من الأفـضل جـدا لمن أراد أن يـحـتـاط للأمـر ويتحـرى الاختيار الصـحى السليم لذريته أن يتـخيـر على أساس علمى وهو الاسـتشـارة الوراثيـة قبل الزواج لأى مـرشحـين للزواج وهذا يدخل فـى بعض المعـانى فـى حـديث رسول الله ﷺ : **«تخـيـروا لنطفكم»** ولقد ساق كثير من المفكرين أحاديث نسبوها للنبى ﷺ تحـذر من زواج الأقـارب وتدعـو الناس إلى زواج الأباعد مـثل الحديث **«اغتـربوا لا تضووا»** وهذه ليست أحاديث نبوية صـحيحة ولم نجـدها فى كتـب الحديث ولا فى كـتب الغـريب ولم نجد تلك الأحـاديث موصـولة السند إلى النبى ﷺ.

أما الأحاديث النبوية التى وجدناها فى كتب الحـديث فى موضـوع الزواج، فلم نجد فيها أى حديث نبوى شريف يحذر من زواج الأقارب، ولكن من الأحاديث النبـوية ما أمر بالاحـتيـاط والتخـير قـبل الزواج للصفـات الخلقية والخلقية، وهذا هو غاية ما وصل إليه العلم الآن فى أهمية فحص المرشحين للزواج فى عيـادات الاستـشارات الوراثيـة إذا كانت الأحـوال تسـتـدعى ذلـك ضـمـانا لحسن الاختيار، وذلك فى حدود الرغـبة الشخصية ولا إلزام فـيه، وهـذا ما يحـدث فى مـعظم الدول المتقـدمة، وهذا ما يوافق تماما مـا جاء بالحـديث النبوى الـشريف الذى رواه الأئمـة البخارى وابن ماجه والبيهقى وصححه الحاكم فى المسـتدرك عن السـيدة عـائشة مـرفوعـا **«تخيـروا لنطفكم وأنكحوا الأكفـاء وأنكحوا إليـهم»** لم يذكـر الحـديث الشـريف درجـة القـرابة فى الزواج، ولكنه بين للجـمـيع أن عليهم أن يخـيروا فى كل الصفـات المرغوبة لهم وذلك بالوسائل المتاحة لهم، ونلاحظ أن العلم فى عـصرنا هذا اسـتطاع أن يرتفع إلى مستوى بعض ما فى هذا الحديث الشريف من علم عظيم.

وروى الإمام الـترمذى عن أبـى حاتم المزنى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«إذا جـاءكم من ترضـون دينه وخلقـه فأنكحوه».

وفضلا عن ذلك، فإن هناك أقوى دليل على أن زواج الأقـارب لاشـىء عليـه إذا تم على أساس التخـير، ولو كان زواج الأقارب غير مرغوب فيه، ما تزوج النبى ﷺ من ابنة عـمتـه السيـدة زينب وهى من بنى أسـد بن خزيمـة المضرى وأمها عمـة شقيقـة للرسول ﷺ فهى أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم.. ونقرأ فـصل الخطاب فى سـورة الأحزاب فى قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ...﴾ [الأحزاب]

ولو كان فى زواج الأقارب ضرر، ما أحله الله تعالى لرسوله ﷺ، وإنما حرم الله تعالى الزواج من أقرب المقربين كالأخت والعمة والخالة وبنات الأخ وبنات الأخت كما جاء فى سورة النساء فى الآية الثالثة والعشرين

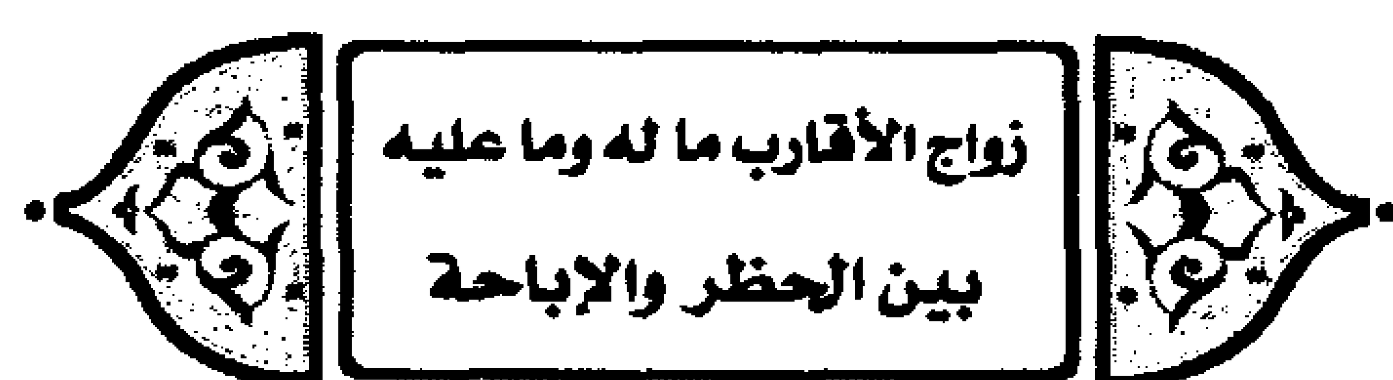
وإليكم هذا البحث العلمى الإحصائى قام به كل من:

الدكتورة / صديقة على العوضى

الدكتور / محمد كمال نجيب

الدكتور / أحمد شوقى إبراهيم

وهو بعنوان :



يعتبر زواج الأقارب من الزيجات المفضلة فى كثير من المجتمعات الشرقية، وخاصة العربية، منها بسبب العادات والتقاليد التى ما زالت راسخة على مر العصور وحتى عصرنا الحاضر. ويعود هذا التفضيل إلى العوامل البيئية والاقتصادية، كالعصبية العائلية والقبلية والحرص على عدم خروج الملكية من الأسرة، وكذلك شيوع الزواج المبكر للشباب غير الناضج عاطفيا، مما يجعل زواج الأقارب مفضلا على زواج الأباعد. وتختلف نسبة زواج الأقارب من مجتمع إلى آخر فهى ٠,٥ فى الألف فى المجتمعات الأمريكية وأكثر من ٧٠٪ فى صعيد مصر. أما فى حضر مصر فهى نحو ٣٤٪ (El - Sherbini 1967 & Naguib 1975) أما فى الكويت فهى تقدر بنحو ٥٤٪.

وتقل هذه النسبة فى المجتمعات الأوربية والآسيوية وتتراوح بين ١٢٪ فى بعض المجتمعات اليابانية، إلى أقل من ١٪ فى المجتمعات الأوربية (Naguib, 1984) وإذا نظرنا إلى زواج الأقارب من الناحية الوراثية البحتة، نجد أن زواج الأقارب فى حد ذاته لايعتبر العامل المؤثر على صحة الإنسان، ولكنه يلعب دور مفتش المباحث فى إظهار الجريمة. فدور زواج الأقارب هو تجميع الجينات المرضية المتواجد فى أفراد الأسرة وإظهار تأثيرها فى الجيل الذى ينتج عن هذا النوع من الزواج. إذا فهو ليس المسبب لهذه الأمراض ولكنه يساعد على ظهورها. والجدير بالذكر أن زواج الأقارب يلعب دورا فى إظهار الأمراض التى تحكمها الجينات المتنحية أما الأمراض التى تحكمها الجينات السائدة، فإن زواج الأقارب لا يلعب دورا فيها، والفرق بين الجينات المتنحية والجينات السائدة هو أنه فى الأول يتحتم وجود زوج من الجينات المرضية المتنحية فى الفرد لكى يظهر المرض. أما فى الثانى فإن وجود جين واحد مرضى يؤدى إلى ظهور المرض. ونشير هنا إلى أن كل إنسان على سطح الأرض يحمل فى المتوسط من ٥ ـ ٨ جينات مرضية متنحية إذا ما تواجدت مزدوجة فإنها تؤدى

إلى الوفـاة (Lethal genes) وهذه الجـينات المتنحية تتحكم فى أمراض مـختلفة باختلاف الفـرد الذى يحمـلها، وفـرصـة التقـاء هذه الجيـنات المتنحيـة المتشـابهة تقل بين الأبـاعد وتزيد بين الأقارب.

ونظرا لما لزواج الأقـارب من أهمـيـة علمـية، فـقد قـام مركـز الأمراض الوراثيـة بالكويت بعمل بحثين عنه؛ الأول عن تحديد حجم مشكلة زواج الأقارب فى دولة الكويت وتأثير هذا النوع من الزيجات على الإجهاض وموت الجنين سـواء كان قـبل أو بعد الولادة مباشرة.

(Al - Awadi et al, 1985 and 1986)

وأسفر البحث عن الآتى:

أولا : ـ من بين ٥٠٠٧ أسـرة كويتـية شملهـا البحث من مخـتلف مناطق الكويت وممثلة للأسرة الكويتية تمثيـلا إحصائيا (تعداد الكويت ٠٠٠ر١,٥٠٠ نـسـمـة نصـفـهـم كويتـيون تقريبـا) كانت نسبـة زواج الأقارب ٥٤٪ منهم ٣٠,٢٪ أولاد عـمـومـة ومـا شابهها.

ثانيًا : بين البحث وجود زيادة طفـيفة فى نسبة موت الأطفـال خلال الأسبوع الأول والشـهـر الأول الناتجـين عن زواج الأقـارب (١٤,٢٪، ٢,٩٧٪) تباعا، عن نسـبة موت الأطفـال فى خـلال هذا العمـر الناتجـين من زواج الأباعـد (١٣,٩٧٪، ٢,٥٤٪) إلا أننا نلاحظ أن الفرق غير ذى مدلول إحصائى.

ثالثًا : لايوجـد نمط محـدد فى زيادة الإجـهاض ونزول الأجنة مـيـتة كلمـا زادت درجة القرابة.

وكان الاستنتاج من هذا البحث هو أنه لايوجد نمط فى الزيادة فى الإجـهاض وموت الجنين كلما زادت درجة القرابة.

أما البحث الثانى فكان عن نسبة الخلل الكروموسومـى بأطفال الأزواج الأقارب Na-guib 1984 بعد إعلان كثـير من المصادر عن ظنها بوجود علاقة بين زواج الأقارب والخلل فى الصبغات مثل (penrose, 1961, Backer et al, 1976; Puri et al, 1977 and Alfi et al, 1980).

وافـترض هذا الفـرض اعـتمـادا على وجود أكثر من فـرد فى العائلة الواحدة يعانى من خلل كرومـوسومى، ولقد عـزى السبب إلى وجود جـين متنح يسـبب عدم انفـصال الصبـغيات أثناء الانقـسام وهذا الجـين يظهر تأثيره بزواج الأقارب، الذى يؤدى إلى تواجد هذا الجين بجـرعة مزدوجـة فى الذرية، فتم اخـتيـار عشـوائى لمائة أسرة تـبين بالتـحليل السيـتولوجى(*) أن أحـد أفرادها يعـانى من خلل فى الصـبغيـات، وقام المركز بالـتحليل الإحصائى لهـذه العينة، وبالمقابل تم اختيار مائة أسـرة أخرى اخـتيـارا إحصـائيا كعـينة مقارنة، وتم التوصل إلى الآتى:

أولا : أن نسـبـة زواج الأقـارب بين المرضى كانت ٤٦٪ وفى العينة المقارنة ٣٤٪.

(*) أى بفحص كروموسومات (صبغيات) الخلية.

ثانيًا : أنه لا يوجد فرق ذو مدلول إحصائى فى الإجهاض أو ولادة الجنين ميتا فى العينة الناتجة من زواج الأقارب عنها الناجمة من زواج الأباعد.

ثالثًا : يوجد فرق إحصائى بين عمر الأم فى العينة الناجمة من زواج الأقارب، والتى نجمت من زواج الأباعد، وهذا الفرق يفسره كثير من العلماء أنه المسبب فى خلل الصبغيات، بالمقابل لا يوجد تأثير ذو مدلول إحصائى فى عمر الأب فى كلتا العينتين.

رابعًا : قمنا بتحليل هذه النتائج بطرق إحصائية مفترضين أن زواج الأقارب له تأثير على الخلل الصبغى، لكن النتائج لم تتفق مع هذا الافتراض.

من هذا استنتجنا عدم وجود مثل هذا الجين، وبالتالى فزواج الأقارب لا يلعب دورا هاما فى مثل هذه الأمراض، وإذا كان له دور فإن هذا الدور ليس عن طريق وجود جين متنح وتتفق هذه النتائج مع النتائج التى توصل إليها بعض العلماء مثل.

Kwiterovich et al (1966), Matsunage (1966), Forssman and Akesson (1976), Stene (1977) and Jiberg & Daois (1978).

أمكننا التوصل إلى النتائج التالية:

١ - إن زواج الأقارب يكثر فى المجتمعات العربية بسبب العادات والتقاليد والعوامل البيئية أو العوامل الاقتصادية.

٢ - إن زواج الأقارب يلعب دورا فى إظهار الأمراض الوراثية المتنحية شريطة أن يكون المورث المتنحى موجودًا فى العائلة.

وهنا لابد من الإشارة إلى أهمية مدة شيوع زواج الأقارب فى المجتمع، وهل هى ظاهرة تاريخية قديمة واسعة الانتشار، أو قريبة العهد قليلة الحدوث. وإذا كان زواج الأقارب شائعا فى مجتمع ما من قديم الزمان، فلا شك أنه أدى منذ زمن بعيد إلى إظهار الأمراض المتنحية، وهى كثيرا ما تكون قاتلة، أى إنه خلص المجتمع فعلا من مورثين مرضيين متنحيين ونقاه بمرور الزمن منها، أما إذا كان زواج الأقارب ممنوعا فى المجتمع أو نادرا، فإن هذا سوف يؤدى إلى بقاء كثير من الأفراد فى المجتمع الذين يحملون المورثات المرضية المتنحية، وبالتالى فإن فرصة احتمال تزاوج شخصين غير أقرباء يحملان المورثات المرضية المتنحية لمرض معين تكون كبيرة، ومن ثم ارتفاع نسبة ظهور هذا المرض فى هذه المجتمعات.

وخير مثال على ذلك Cystic fibrosis of pancreas وهذا المرض محكوم بمورث متنح منتشر فى بريطانيا، رغم ندرة زواج الأقارب فيها ويرجع ذلك إلى وجود نسبة عالية من حاملى جين المرض كما شرحنا فى السابق (١ : ٢٢) مما أدى إلى زيادة فرصة تزاوج حاملى هذا المرض وبالتالى إلى ظهوره بين ذريتهم.

مما سبق توصلنا إلى أن منع زواج الأقارب أو إباحته لن يمنع ظهور الأمراض

التى تتحكم فيها الجينات المتنحية وسواء هذا أو ذاك فإنه يبقى جيل يضحى من أجل جيل آخر. . فإذا حرمنا زواج الأقارب فالأجيال الأولى ستقل فيها هذه النوعية من الأمراض وستكون الأجيال القادمة هى التى ستعانى من زيادة نسبة تلك الأمراض فيها. . وإذا أبحنا زواج الأقارب فإن الأجيال الأولى هى التى تعانى من أجل تقليل نسبة هذه الأمراض فى الأجيال القادمة. . ومن هنا نفهم أن الإسلام إذا أباح زواج الأقارب إباحة متحفظة ومشروطة بالاختيار، فإنه يكون قد عمل على التوازن الطبيعى فى الأجيال جميعًا.

وإذا أردنا أن نعرف الحق واليقين فى هذا الموضوع فأمامنا القرآن والسنة، نجد فيهما الحدود الصحيحة التى وضعها الله تعالى.

وفيهما حرم الزواج بين درجات قرابة أقل من الدرجة الرابعة، يأتى لنا العلم الحديث مبينًا ضرر هذه الزيحات (أقل من الدرجة الرابعة) وأكدت ذلك جميع الأبحاث. فعلى سبيل المثال بحث Adams & neel (1971) على ٣١ طفلاً ناتج من علاقة آثمة بين الأب والبنت أو بين الأخ والأخت (فى العالم الغربى) وجد الآتى : وفاة ٦ أطفال فى الشهور الأولى من العمر، وجود ١٢ طفلاً متخلفًا عقليا، و١٣ الباقين كانوا أصحاء. ويمكن تعليل ذلك بازدياد الفرصة لتواجد الجينات المرضية المتماثلة كلما زادت درجة القرابة، وبالتالى ازداد تأثير هذه الجينات.

وفى بحث آخر أجرى فى الهند (Puri et al, 1977) عن زواج الأقارب وتأثيره على الخلل الكروموسومى، وجد الباحثون علاقة بين زواج العم بابنة أخيه، والخال بابنة أخته والخلل بالصبغيات وهذا النوع من الزيجات محرم فى دين الله.

والدارس للسنة النبوية الشريفة لا يجد حديثا نبويا يحذر من زواج الأقارب، أما القول (اغتربوا لا تضووا) فليس بحديث نبوى، ولكنه قول أحد الصحابة وقد يكون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. إن الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة أمرت بالاختيار قبل الزواج؛ اختيار الصفات الخلقية والدينية أيضًا.

نفهم ذلك من الحديث النبوى الذى رواه الإمام البخارى وصححه الحاكم فى المستدرك عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعًا.

«تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم».

فإن الحديث النبوى لم يأمر بزواج الأقارب أو الأباعد، ولكن أمر بالتخير قبل الزواج. وذلك يتحقق فى عصرنا الحاضر بفحص المرشحين للزواج فى عيادات الاستشارة الوراثية. . ونجد نفس المعانى فى حديث نبوى آخر رواه الإمام الترمذى عن ابن حاتم المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»**.

ولو كان زواج الأقارب غير مرغوب فيه ما تزوج النبى ﷺ من ابنة عمته أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بن رئاب، وهى بنت عمة الرسول ﷺ نفسه السيدة أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فهى عمة شقيقة لسيدنا رسول الله ﷺ كما جاء فى كتاب (الإصابة فى تمييز الصحابة) لابن حجر العسقلانى.

وأكبر دليل على أن زواج الأقارب من الدرجة الرابعة فأبعد من ذلك (أولاد العم والعمة والخال والخالة) هو ما جاء فى قول الله عز وجل:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ** .. ﴾ [**الأحزاب**: ٥٠].

المراجع:

١ ـ نشرة الطب الإسلامى العدد الأول طبعة ٢سنة ١٩٨١م.

٢ ـ فتح البارى لشرح صحيح البخارى للإمام الحافظ العسقلانى جزء ٩ باب النكاح ص١٢٥.

٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى.

٤ ـ سنن الترمذى.

زواج الأقارب.. هل له ضرر وراثى؟

سؤال وجواب مع أ.د. أحمد محمد الكباريتى (*)

السؤال الأول: هل هناك ضرر وراثى من زواج الأقارب؟

الجواب: أحب أن أنوه بادئ ذى بدء على أن التشوهات التى يولد بها الطفل ليست كلها تشوهات وراثية. وإن كان الغالب منها كذلك.

السؤال الثانى: كيف نفرق بين التشوه الخلقى الوراثى والتشوه غير الوراثى؟

الجواب: إذا ظهر تشوه متناسق بمعنى أن يكون فى الذراعين معًا أو القدمين معا، فهذا يكون فى الغالب تشوها وراثيا. أما إذا وجد فى ناحية واحدة فقط، فإنه يكون فى الغالب بسبب اختلال فى الوظائف أثناء تكوين هذه الأطراف فى الجنين ـ وهذا خارج عن نطاق الوراثة.

السؤال الثالث : وما هو التفسير العلمى لذلك؟

الجواب: التغيير نتيجة الوراثة مبرمج، أما التغيير نتيجة البيئة أو العوامل الأخرى فهو تغيير عشوائى.. أعطيك مثلا بسيطا: إذا أصيب إنسان بحادث فقد ينكسر أو يبتر ذراع

(*) أ.د. أحمد محمد الكباريتى ـ رحمه الله ـ كان من أكبر علماء الوراثة فى العالم العربى، عمل سنوات عديدة فى جامعات ألمانيا أستاذًا فى علم الخلية والوراثة، وكان آخر عمل له، قبل وفاته فى حادث أليم، رئيس قسم الوراثة فى جامعة الكويت.

واحـد له. . ومن النادر أن يـكون الكسـر أو البـتر فى الناحـيتـين بنفس الطريقـة وبنفس الشكل أو الدرجة. أما التغـيير الوراثى: فهو تغـير حـدث فى العـوامل الوراثيـة التى من وظيفتها تكوين الـذراعين مثلا. وهذا العامل الوراثى موجود فى كل خلية من خلايا جسم الإنسان، سواء كانت هذه الخلـية خلية الكبد أو خلية فى الذراع. . وإذا حـدث بها تغـيير فيحدث فى كل الخلايا دون استثناء. . وتكون النتيـجة ضـمور الذراعـين معا ولـيس ذراعا واحدا. . لذلك قلت أن التغيير الوراثى تغيير مبرمج وليس عشوائيا.

السؤال الرابع: زواج الأقارب منتـشر فى العالـم العربى. . فمـا هو رأيك فى هذه الظاهرة ؟

الجواب: الإجابة على السؤال له ثلاثة أوجه:

الأول: أزيل شعورا بالذنب.

الثانى: أصحح خطأ شائعًا.

الثالث: أنبه إلى خطر جديد.

أما عن إزالة الشعـور بالذنب: فإن من الـمعـتقـدات الـقديمـة أن ولادة طـفـل مـصـاب بمرض وراثى، لابد أن يـكون من فـعـل الشـيطان أو نتـيجـة لتـأثيـر السحـر والسحرة. والأخطر من ذلك اعـتقاد البعض أنه غـضب من الله تـعـالى، قـد حل على الطفـل وذويه. . ويمكـن أن أسـرد علـيك حكايات كـثيرة مـرت بنا، وخرافـات عديدة اعتـقدها كثيـر من الذين اتصلوا بنا فى هذا المجال الوراثى. وحتى فى مجتـمعنا المتحضر لا زال ينظر إلـى الآباء الذين يولد لـهم طفل مصاب بمرض وراثـى بوصمة غير مـرئية من الخزى، تسبب لهم شعورا بالخجل. ولو علم الناس الحقـيقة مـا وجدوا فى كل ذلك سبـبا يدعو إلى الخـزى والخجل؛ فـالإصابة بمرض وراثى مـثلهـا مـثل الإصـابة بـأى مـرض عـضـوى. . فكمـا أن الإصـابـة بالسكَّر أو اختلال بالغدد أو مـرض خبيث، لاتدعو إلى الخـجل أو الشعـور بالذنب، فكذلك الأمـر بالنسبة للمرض الوراثى. . والأمراض الوراثية لها مـسبباتهـا العلمية المعـروفة، ومن الممكن علاجها وقائيا فى معظم الحالات.

ويمكن الوقايـة من كثيـر من الأمراض الوراثية بطرق كـثيرة قد لا تتـأتى للوقاية من الأمراض العضوية.

وكيف يمكن الحـد من ظهور الأمراض الوراثية أو الوقاية من حدوثها؟

يمكن ذلك بواسطة طرق كثيرة أسهلها الاستـشارات الوراثيـة قبل الزواج فى مـراكز متخصصة تسمى مـراكز الاستشارات الوراثية Genetic counselling centers وهذه المراكز تفتح أبوابها للراغبين فى الاستشارات الوراثية قبل الزواج وبعده.

السؤال الخـامس: ومـا هى الخدمـات الطبـية الـوقائيـة التى تقـدمهـا تلك المراكـز للناس؟

الجواب: والدان رزقـا بطفل مصـاب بأحد الأمراض الوراثية ويسألون سؤالا ملحا: هل هناك خطورة من ظهـور نفس المرض فى المولود الثانى أو الثالث؟ وهل بالإمكان إنجاب

طفل أو أطفال آخرين أصحاء؟ وما هى الطريقة إلى ذلك؟.. وهذا الموضوع الذى يسألون عنه يمثل الجزء الأكبر من عمل المستشارين الوراثيين. يقوم المستشار الوراثى بتشخيص المرض الوراثى. ثم يقوم المحلل الوراثى بتحليل شجرة العائلة تحليلا وراثيا دقيقًا..

وقد يتطلب هذا جلسات طويلة ومتعددة، حتى يصل فى النهاية إلى الإجابة العلمية الصحيحة للسؤال المطلوب.

السؤال السادس: وهل تحضر لكم مثل هذه الحالات فى العيادات الاستشارية كثيرا؟

الإجابة: نعم، وأستطيع أن أقرر أن مئات الحالات كانت تأتى إلينا، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى.. ثم بعد الفحص الوراثى الدقيق، تنكشف الغمة عن نفس الكثير من تلك العائلات.. فقد كانت تأتى على اعتقاد مخطئ وهو أن زواجهما من بعضهما، كان السبب فى إصابة طفلهما بمرضه الوراثى، وكل منهما يرمى التهمة على الآخر، ثم يتضح بعد الفحص الوراثى أن الوراثة لم يكن لها أى دخل فى مرض الطفل، وأن ما حدث له من تشوه خلقى، كان بسبب تعرض الأم أثناء الحمل لمرض معين مثل الحصبة الألمانية، أو أن الأم أثناء الحمل كانت تدخن أو تشرب القهوة بكثرة، وكان معظمهم يخرج من العيادات الوراثية فرحين مستبشرين لإمكانية إنجاب أطفال آخرين أصحاء.

السؤال السابع : أشرت فى كلامك أن كثيرا من الأزواج الأقرباء يأتون إلى العيادة الاستشارية الوراثية وفى اعتقادهم أن زواج الأقارب هو السبب فى الأمراض الوراثية فى ذريتهم .فما هو تعليقكم على ذلك.

الإجابة : من الشائع أن زواج الأقارب هو السبب فى ظهور الأمراض الوراثية فى الذرية، وهنا لابد أن أصحح خطأ شائعًا : وهو أن زواج الأقارب هو السبب دائما فى ظهور أطفال مصابين بأمراض وراثية.. وهذا اعتقاد غير صحيح. إننى أعمل أستاذا للوراثة منذ ثلاثين عاما فرأيى ليس رأيا سطحيا أو مأخوذا عن كتاب من الكتب، ولكنه مؤسس على خبرة طويلة.. وأقول هذا لأننى أعلم أن ما سأقوله لن يلقى قبولا ممن لهم دراية سطحية بعلم الوراثة؛ لأنه على عكس ما يعتقدون . والجواب الصحيح هو الآتى :

لقد أثبتت البحوث العلمية المتأنية الحديثة أنه إذا كان تاريخ العائلة خاليا من الجينات الوراثية المرضية أى أنهم «أنقياء وراثيا» وهؤلاء هم الكثرة ،فلاضرر مطلقا من زواج الأقارب وحتى لأجيال عديدة.. أما إذا كان هناك مرض وراثى فى أحد الأجيال العائلة - أو حتى شك فى وجود هذا المرض- فسواء كان الزواج زواج الأقارب أو أباعد، فإن عليهم أن يتقدموا للفحص الوراثى فى أحد المراكز الاستشارية الوراثية قبل الزواج. سيجدون هناك الجواب العلمى الصحيح. والفحص الوراثى قبل الزواج ليس بدعة

مستحدثة بل هى مصداق لقول رسول الله ﷺ: **«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»** وإننى كعالم فى علم الوراثة أشعر أمام هذا الحديث بإعجاز علمى كبير.. وأشعر أنه ذكر أهم أسرار علم الوراثة التى لم تكتشف إلا حديثا. والعرق دساس فعلا، فالمعروف لنا الآن فى علم الوراثة أن هناك عوامل وراثية تسمى «العوامل الوراثية المتنحية» تكون موجودة بالجسم، ولا تظهر أعراض لها ربما لأجيال كثيرة ومتعاقبة- أى أنها تنتقل من جيل إلى جيل آخر دون أن تعبر عن نفسها، حتى تأتى لها فرصة فى تركيب وراثى معين فتظهر مرضا وراثيا ظاهرا.. فهى تندس وتندس أجيالا متعاقبة حتى تواتيها الفرصة فى زواج من مثل النوع فتظهر مرضا وراثيا فى الذرية.



الإسراف فى تناول الطعام والشراب

لم يذكر الإسراف فى القرآن والسنة إلا مذموما وفى مجال النهى عنه. نقرأ عن ذلك فى سورة غافر ٤٣ ﴿.. وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ وفى سورة الأنعام ١٤١ ﴿.. وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.. وفى سورة الأعراف ٣١ تحدث عن الإسراف فى الطعام والشراب فقال :﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]

والإسراف يكون فى أى تصرف وفى أى عمل كما يكون فى المعاصى، وفى الإنفاق كما يكون فى أى صفة من الصفات المذمومة، كالإسراف فى الاعتداء والإسراف فى ارتكاب المعاصى. وفى مجال الطب الوقائى نجد أن الإسراف فى تناول الطعام يضر بصحة الجسم، ولا يعنى الإسراف فى تناول الطعام والشراب أكثر مما يحتاج الجسم فحسب، بل يعنى الإسراف فى الحرمان والتقليل من الطعام والشراب أيضا.

إن جسم الإنسان يحتاج إلى طاقة حرارية ليعيش عليها.. ويحصل على تلك الطاقة من الطعام الذى يتناوله وكمية هذه الطاقة متغيرة تبعًا لزيادة أو لنقص المجهود العضلى الذى يقوم به الجسم، وسرعة نشاط العمليات الحيوية فيه.

فالإنسان البالغ الذى يقوم بمجهود عضلى بسيط كطالب العلم مثلا، يحتاج إلى نحو ألفين وخمسمائة من الوحدات الحرارية كل يوم، يستمدها من الطعام الذى يتناوله.. أما الإنسان الذى يقوم بمجهود عضلى شديد كالحداد أو النجار مثلا، فإنه يحتاج إلى وحدات حرارية أكثر ربما تصل إلى خمسة آلاف وحدة حرارية كل يوم عليه أن يستمدها من الطعام الذى يأكله، إذن فالوحدات الحرارية المطلوبة للجسم تزيد أو تنقص تبعا لدرجة النشاط العضلى الذى يقوم به الجسم.. أما النشاط العقلى والتركيز الذهنى أثناء الدراسة مثلا، فلا يحتاج إلى زيادة ذات شأن فى استهلاك الوحدات الحرارية بالجسم وإذا تناول الإنسان قدرا من الطعام يعطى طاقة حرارية أكثر مما يستنفد الجسم فإن ما يتبقى من الطاقة يتحول إلى دهن يترسب فى الجسم، فيزداد الجسم سمنة ويزداد وزنا، وإذا تناول الإنسان قدرا من الطعام يعطى طاقة حرارية أقل مما يحتاجه الجسم فإن العمليات الحيوية بالجسم حتى تستمر؛ لابد لها من تعويض الناقص من عناصر الغذاء فى الطعام تعويضه من خلايا الجسم نفسه وذلك من الدهون المختزنة فى الخلايا ومن البروتينات الموجودة فى الخلايا العضلية ومن النشويات الموجودة فى الجليكوجين فى الكبد وغيره من

الأعضاء، وتكون النتيجة نقص وزن الجسم تدريجيا.

إذن فالإسراف فى تناول الطعام سواء الزيادة منه أو النقصان يؤدى إما إلى زيادة فى وزن الجسم وإما إلى نقصان فيه، أما إذا تناول الإنسان طعاما يعطى الطاقة الحرارية بما يكفى المطلوب للعمليات الحيوية بالجسم؛ فلا يزيد وزنه ولا يقل.

من هذا نفهم أن الاعتدال فى تناول الطعام مفيد للجسم وأن الإسراف مضر له. وقد يكون ذلك هو السبب فى نهى الوحى الإلهى فى القرآن والسنة عن الإسراف فى تناول الطعام والشراب، والإسراف بكل صوره وأشكاله. كما قال الله تعالى فى سورة الأنعام ١٤١ :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ .

﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ : بدأت الآية الكريمة بذكر نعمة الله تعالى على عباده بتوفير الرزق لهم قبل الأمر بدفع الحق؛ ليبين أن إعطاء الإنسان الكفاية من الرزق يكون قبل تكليفه بدفع الحق..

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: يعود إلى قوله تعالى: **﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾** فيكون النهى عن الإسراف فى أكل الثمار والطعام..

وقد يدعو إلى قوله تعالى : **﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** فيكون النهى عن الإسراف فى الإنفاق، وقد يكون النهى عن الإسراف فيهما معا وكما نهى القرآن الكريم عن الإسراف فى تناول الطعام نهت السنة النبوية عن ذلك أيضا فقد روى مسلم والترمذى وابن ماجه عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **«طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الثمانية»**.

وروى الأئمة، ابن ماجه وابن أبى الدنيا والبيهقى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :**«من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت»**.

وروى الإمام النسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال :**«كلوا واشربوا وتصدقوا ما لم يخالطه إسراف ولا مخيلة»** أى من غير إسراف ولا اختيال وكبرياء.

إن الهدف من تناول الطعام أن يعيش الجسم. فالإنسان يأكل ليعيش بدنه ويصح، أما الحيوان فهو يعيش ليأكل، وليس له هدف آخر فى حياته. ومادام تناول الطعام والشراب ليس هدفا فى ذاته فى حياة الإنسان فينبغى إذن أن يتناول الإنسان من الطعام والشراب ما يحقق الهدف فقط، وهو إقامة الصلب واستمرار حياة البدن، وأن يتجنب الإنسان ملء المعدة بالطعام وأن يتبع ما جاء فى الأثر:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».

وبذلك تتحقق الغاية من تناول الطعام، وتتحقق الفائدة منه. وهذا ما يعلمنا إياه الوحى الإلهى فى القرآن والسنة، وهذا ما اكتشفه العلم فى عصرنا هذا أيضا.

وروى الإمامان الترمذى والبيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

«تجشأ رجل عند رسول الله ﷺ فقال: كف جشاءك عنا - فإن أطولكم جوعا يوم القيامة أكثركم شبعًا فى الدنيا».

وأصبح من الأمور البدهية فى العلوم الطبية اليوم أن الإنسان إذا أراد أن يستفيد من طعامه وشرابه ويتجنب الكثير من المتاعب الصحية فى عمليات الهضم عليه أن يكف عن تناول الطعام قبل الشعور بالشبع وأن يتجنب ملء البطن بالطعام والشراب ويكفى من الطعام ما يسد الرمق فحسب وما يكفى حاجة الجسم إليه.

ولقد ذكر الحديث النبوى الهداية العلمية فى مقادير الطعام والشراب، وذلك فى زمن كانت غاية الناس الإكثار من الطعام والشراب، وكان اعتقادهم أن الإنسان يزداد قوة وصحة ونشاطا كلما ازداد أكلا. فقد روى الإمامان الترمذى وابن حبان فى صحيحيهما عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلا، فثلث لأكله، وثلث لشربه، وثلث لنفسه» .

ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن: ذم للإسراف، ونهى عن ملء البطن بالطعام.. حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه أى ما يكفيه من لقيمات. وهى إشارة إلى وجوب تناول قدر من الطعام يكفى متطلبات الجسم فقط لايزيد عن ذلك شيئا ولايقل واختيار لفظ لقيمات يدل على ذلك. وقوله يقمن صلبه أى تكون كافية تمامًا لاحتياجات الجسم من طاقة لازمة له.

وحدد الحديث النبوى الشريف أقصى قدر من الطعام والشراب بقوله ﷺ: **« فإن كان لابد فاعلا، فثلث لأكله، وثلث لشربه، وثلث لنفسه»** وحتى نفهم معنى هذا الجانب من الحديث الشريف ينبغى أن نفهم ما توصل إليه الطب فى عصر العلم الحالى، وهو وجود عضلة الحجاب الحاجز تفصل بين التجويف الصدرى والبطن، وهذه العضلة من أهم عضلات التنفس بل هى أهمها على الإطلاق. وهى تهبط على المعدة والأمعاء أثناء الشهيق، فتمتلئ الرئتان بالهواء، وفى عملية الزفير يحدث العكس لذلك إذا تناول الإنسان طعاما وشرابا بإسراف، وملأ المعدة والأمعاء بها أصبحت حركة الحجاب الحاجز مقيدة ومحدودة، وبالتالى أصبح التنفس صعبًا وإذا لم تمتلئ البطن بالطعام والشراب تصير حركة الحجاب الحاجز سهلة، وبالتالى يصير التنفس سهلا فامتلاء البطن بالطعام يقلل من دخول الهواء إلى الرئتين أثناء الشهيق. ومن هنا نستطيع أن نفهم المغزى العلمى فى قول النبى ﷺ:

«فإن كان لابد فاعلا، فثلث لأكله، وثلث لشربه، وثلث لنفسه».

ولم يدرك الناس قديما المغزى العلمى الصحيح فى الحديث النبوى الشريف. وهذا الحديث النبوى هداية علمية وصحية للإنسان فى تناول الطعام والشراب؛ تعلم الإنسان التصرف الصحى السليم فى تناول الغذاء، والنهى عن الإسراف فيه، والحديث الشريف تفسير لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ...وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) ﴾ [الأنعام].

ولقد نهى القرآن العظيم عن الإسراف فى الطعام والشراب ونهى الحديث النبوى الشريف عن ذلك أيضا كما قال رسول الله ﷺ: **«طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الثمانية»**.. وكما قال ﷺ: **«من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت»**.

وكما قال ﷺ: **«ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلا، فثلث لأكله، وثلث لشربه، وثلث لنفسه»**.

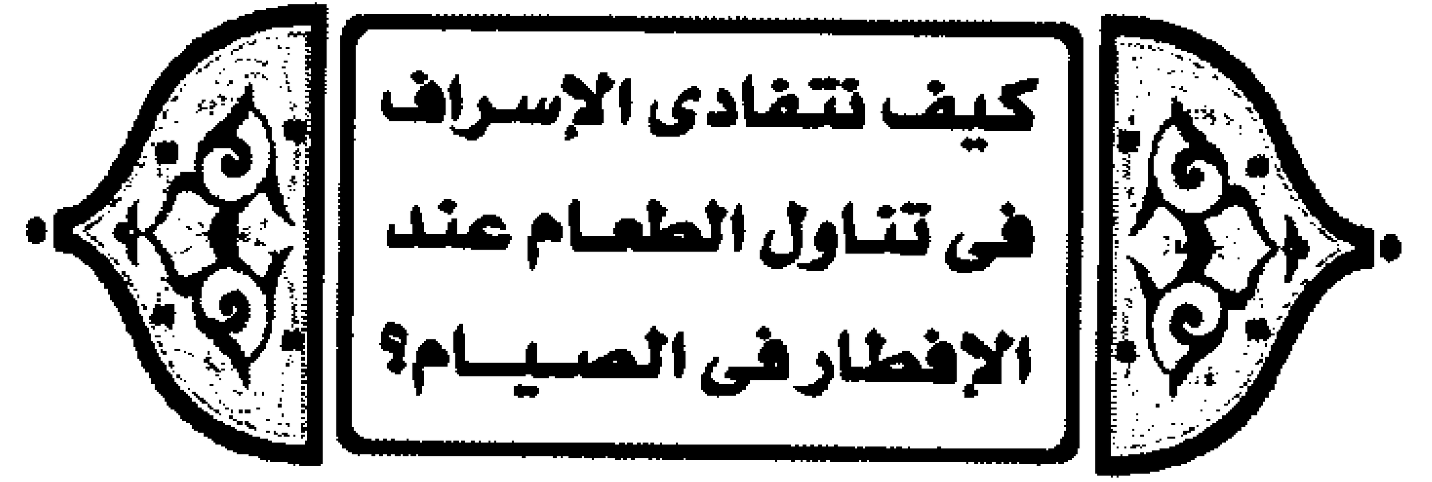
ولقد تأكدنا من علم الأغذية فى عصرنا الحاضر أن السبب الأصيل للسمنة هو تناول كميات من الطعام أكثر من متطلبات الجسم، أما شرب الماء فلا يسبب سمنة بالجسم لأن الماء لا يعطى وحدات حرارية وبالتالى لا يسبب شرب الماء بكثرة إحداث السمنة بالجسم، كما لا يؤدى التخلص من الماء الموجود بالجسم بمدرات البول، إلى التخلص من السمنة. إن الطريق الوحيد إلى تجنب السمنة أو علاجها، هو تجنب الإسراف فى تناول الطعام، وورد فى الأثر عن نافع مولى ابن عمر أنه قال: أهدى رجل من العراق إلى ابن عمر جواش فقال ابن عمر: ما يصنع بهذا قال: إذا كظك الطعام (أى ملأ بطنك وأثقله) أخذت منه فقال ابن عمر: والله ما شبعت منذ كذا وكذا ولا حاجة لى به. والإسراف فى تناول الطعام يدل على أن الإنسان قد وضع همه فى إشباع غريزة تناول الأكل دون مراعاة لصحة الجسم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقد روى البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ليؤتين يوم القيامة بالعظيم (أى السمين) الطويل الأكول الشروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة واقرأوا إن شئتم: ﴿ .. فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف]».

ولقد علمتنا السنة النبوية الطريق الصحيح فى تجنب زيادة وزن الجسم أو التخلص منها، هو الامتناع عن السبب فى ذلك، وهو تناول قدر من الطعام أكثر مما يحتاجه الجسم.

ولاشك أن الامتناع عن الطعام أو التقليل منه ليس أمرا سهلا لدى معظم الناس، فإن ألم الجوع يدفع الإنسان دفعا إلى تناول المزيد من الطعام، مما يؤدى إما إلى عدم التخلص من السمنة أو زيادتها.

ويلجـــأ بعض الناس إلـى تناول أدوية تقلل الشهـية لتناول الطعـام، إلا أن لها آثارا جانبية ضـارة بالجسم، وبذلك يكون ضررها أكثر من نفعها والطريـقة الصحيحة هى تجنب الإسراف فى تناول الطعـام والشراب، بطريقة مريحة وسهلة التطبيق ومستمرة لاتنقطع.



روى الإمام الـترمذى عـن جعفـر بن سليـمـان عن ثابت عن أنـس رضى الله عنه قال: **«كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلى فـإن لم تكن رطبات فتمـيرات فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء»**.

فـالرسول ﷺ كـان فى رمضـان يفطر على رطبـات أو تميـرات قـبـل أن يصلى ثم يتـوجه بعـد ذلك إلى صلاة المغـرب. وهذه طريقـة علميـة صحـيحـة وسهلة فى تغـذية الجسم فى الصوم، وتجنب الإسراف فى تناول الطعام، تحت وطأة الشعور بالجوع.

فإن الإحـساس بالجوع له أسـباب من أهمهـا هبوط مسـتوى السكر بالدم، مما يؤثر على مراكـز عصبـية خاصـة بالمخ فى منطقة تحت المهـاد البـصـــرى فى قـاع المخ؛ لذلك فـالإنسان إذا جـاع يقـبل على تناول الطعـام بنهم ويظل يأكل ويأكل وتمتلئ بطنـه بالطعام ما يزال يشـعر بالجوع، ولايشعـر بالشبع إلا فيما بعد، عندمـا يرتفع مستوى السكر بالدم فتنخفض آلام الجوع، ويشـعر الإنسان بالشبع ولكن متى؟ يحـدث الشعور بالشـبع بعد أن يكون الإنسان قد تناول من الطعـام قدرا أكثر مما يحتاجه الجسم.

فامتلاء البطن بالطعـام لايسبب الشعور بالشـبع أما الذى يسـبب الشبع فـهو ارتفـاع مـسـتـوى السكر بالدم بالإضـافة إلى عـوامل أخـرى. ويحدث هذا بعـد أن تتم عمليـات الهضم ويحدث امـتصاص السكريات بالدم. وذلك يسـتـغرق وقـتًا بعـد تناول الطعـام. فالإنسـان إذا ظل يأكل حتى يشعـر بالشبع. فإنه يكون فى حقيقه الأمر قد تناول قدرا من الطعام أكثر مما يحتاجه الجسم وأكثر مما تطيقه المعدة وفوق ما يتحمله الهضم.

المخرج من كل هذه الأخطاء فى تغذية الجسم، هو اتبـاع سنة النبى محـمد ﷺ فى تناول الطعـام ،وهو أن يعـمل الإنسـان على رفع مسـتوى السكر بالدم إلى قرب المستوى الطبـيعى قـبل تناول وجبـة الطعام، ومـا إن يحدث ذلك ويقبل على تناول وجبة الطعام؛ فإن لقيـمات من الطعام تكفيـه. وكيف يرفع الإنسان إذا جـاع من مسـتوى السكر فى الدم قبل تناول وجبة الطعام؟ يفعل ذلك إذا تناول شيئا قليلا من السكريات مثل التمر أو الرطب ثم يتـوقـف وبعـد وقت قليل نـحـو نصف السـاعة، يقـبل على تناول الطعام. فـالتمـر الذى أخـذ منه قدرًا صـغيرًا فـى أول الأمر، تسبب فى رفع مستـوى السكر بالدم بعد نحو نصف الساعة، وبذلك كسر حدة الجوع وقلل شهـية الجسـم لتناول الطعام، وبهـذه الطريقة يأكل الإنسان القليل من الطعام ويكتفى.

من هذه الحـقائق العلمـية، نفـهـم لماذا علمنا رسـول الله ﷺ أن نفطر على رطبـات قبل أن نصلى فإن لم تكن رطبات فتميرات،



ثم يذهب إلى الصلاة ،وذلك يستغرق وقتا ثم يعود إلى الطعام وقد كسرت حدة الجوع وقلت شهية الجسم لتناول الطعام.

وإذا جعل الصائم همه فى تناول الطعام وملء بطنه بأشهى أنواع الغذاء، فهذا يتعارض مع روح الصيام والهدف منه، ويتعارض أيضا مع سنة النبى ﷺ ، وفى غير أيام الصيام على الإنسان ألا يكون كل همه الإقبال على موائد الطعام، والإنسان يأكل ليعيش الجسم وعكس ذلك ليس صحيحا، فلا يعيش الإنسان ليأكل، إن السنة النبوية المشرفة تعلمنا الطريقة المثلى فى تناول الطعام. فقد روى الإمام البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه اشترى اللحم المهزول، وجعل عليه سمنا، فرفع عمر رضى الله عنه يده وقال: «**والله ما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قط إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر**» وروى الإمامان ابن أبى الدنيا والطبرانى عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «**سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون بالكلام، فأولئك شرار أمتى**».

الإسراف فى الحرمان:

كما حذر الله ورسوله الناس من الإسراف فى الزيادة، فقد حذرهم من الإسراف فى الحرمان، كما فى سورة الأعراف ٣١ فى قول الله عز وجل:

﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾**﴾.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة، أن قوم بنى عامر كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم عراة، وقد حرموا على أنفسهم الملبس والطعام والشراب أثناء الحج فأراد بعض المسلمين أن يقلدوهم تقربًا إلى الله تعالى فنزلت الآية تحذر من الإسراف فى الحرمان فى تناول الطعام والشراب ولاشك أن النهى عن الإسراف فى الطعام والشراب يفيد صحة الفرد وصحة الجماعة.

فالمنهج الإسلامى الصحيح فى هذا الأمر يحقق اكتمال الصحة النفسية للفرد ويجعل الإنسان يسمو عن الحيوانية، ويرتفع عن متطلبات الغرائز البدنية، وذلك يحقق صحة الذات البشرية، والصحة النفسية، هذا فضلا عن وقاية الجسم من متاعب صحية كثيرة، ويكفل له الصحة والقوة والنشاط، والإسراف يؤدى عكس ذلك .

وقد روى الإمامان البخارى وابن أبى الدنيا عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

«أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها : الشبع. فإن القوم لما شبعت بطونهم، سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم».

والنهى عن الإسراف يحقق صحة الجماعة أيضا. فما دامت صحة الفرد مكتملة فإن صحة المجتمع تكتمل كذلك، وبذلك تقل الأمراض فى المجتمع، فيزيد الإنتاج ويقل الاستهلاك، ويقل الإنفاق فيعم الرخاء فى الأمة . فنهىُ الإسلام عن الإسراف فى الطعام والشراب له أبعاد صحية كثيرة وله فوائد اجتماعية لاحصر لها، فذلك قوله تعالى:﴿ .. **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾**﴾ [**الأعراف**].

سلامة البشرية من سلامة البيئة

مقدمة عن التلوث

إن صحة الإنسان فى هذه الأرض تعتمد على سلامة البيئة.. فإذا كانت البيئة نقية كانت صحة الإنسان خالية من الكثير من الأمراض والمتاعب الصحية، أما إذا كانت البيئة ملوثة فإن صحة الإنسان تصاب بضر عظيم..فسلامة البشرية من سلامة البيئة.. هذه حقيقة لاشك فيها.

إن الله تعالى خلق كوكب الأرض ووفر فيه كل أسباب الأرزاق وكل أسباب الحياة واستمرارها على أحسن الوجوه. فقد جعل للأرض جوا نقيا وجعل الماء وفيرا.. وجعل الأرض خصبة، وجعل البحار ذات ماء طهور، وذات ثروات لا تنتهى.. وجعل الأنهار تجرى تحمل أسباب الأرزاق للناس والحياة للأرض. قال الله عز وجل فى سورة إبراهيم ٣٢-٣٤:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

فالله تعالى جعل للأرض التى نعيش عليه بيئة حيوية فى غاية الكمال. فما أن تدخل الإنسان فيها حتى أفسدها وسعى فى الأرض يريد إنشاء مدنية وتقدم تكنولوجى وصناعى وحقق ما أراد. إلا أن الآثار السلبية على البيئة كانت فى بالغ السوء ومنتهى الخطورة، فقد تلوث الجو، وانتهى الجو الصافى الجميل، وافتقد الإنسان استنشاق هواء نقى، وتلوث البحر، وفقد الإنسان بذلك كنوزاً من الثروات والغذاء وتلويث الأنهار، وظهرت بذلك الأمراض العضوية فى الإنسان بسبب تلوث مياه الشرب، وتلويث البيئة ككل..وكان الإنسان أول من ذاق ويلات التلوث البيئى فى صحته وماله ومستقبل أجياله.. وبذلك صار ظلوما كفارا.. وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى قول الله عز وجل فى سورة الروم ٤١: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.**

إن العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة وثيقة جدا.. وهى علاقة متوازنة تمام التوازن كما قال الله عز وجل فى سورة الحجر ١٩ **﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾..** إلا أن الإنسان أخل بهذا التوازن البيئى،

وأفسده، فكان هو أول المتضررين من جراء ما كسبت يداه. فالإنسان دائما ينزع إلى الفساد والإفساد، ونرى آثار ذلك فى التلوث الذى عم كل شىء.. ونجد ذلك فى قول الله عز وجل أيضًا وهو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق قال تعالى فى سورة البقرة ٣٠:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وفى سورة البقرة ٢٠٥ أيضًا قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾. والآيات القرآنية لم تنزل للناس قديما فحسب، ولم تنزل لعصر من العصور فقط، ولكنها نزلت تخاطب للناس جميعا فى كل عصر وزمان ومكان، وهذه الآيات الكريمة تتحدث عن الناس فى عصرنا الحاضر الذين تسببوا فى تلوث الجو والبر والبحر والأنهار.. ولم تنزل تتحدث عن الناس الذين عاشوا قبل عصر النهضة الصناعية بعد اكتشاف الفحم.

فمنذ اكتشاف الفحم واستعماله كوقود ومن بعده البترول والغاز الطبيعى، بدأ التلوث ينتشر فى الغلاف الجوى للأرض شيئًا فشيئًا إلى أن بلغ حدًّا خطيرًا فى عصرنا الحالى.. ومما زاد من خطورته ازدياد عدد المصانع التى تنفث دخانها الكثيف فى الجو والذى يحتوى على غازات ضارة بكل الأحياء، وازدياد عدد السيارات التى تنفث من عوادمها غازات تسبب كل ضرر بالأحياء فى هذه الأرض، وتسبب زيادة مطردة فى نسبة تلوث الجو.. وازدياد عدد الطائرات التى تطلق من عوادمها نواتج احتراق وقودها فى طبقات الجو العليا مباشرة ، فتسبب تلوثا مباشرا لجو الأرض، ولا ندرى إلى متى سيستمر هذا التلوث .. إلا أن الذى تعلمه جيدًا أن الناس إن لم يتداركوا أسباب التلوث هذه، ويعملون على القضاء عليها فلسوف تنتهى الحياة من على ظهر الأرض شيئا فشيئا إلى أن يصير كوكب الأرض كوكبا ميتًا..

ولا شك أن البلاد الصناعية الغربية هى السبب الرئيسى فى تلوث جو الأرض كما سنتحدث فيما بعد.



تلوث جو الأرض

يحتوى جو الأرض على ٨٧٪ غاز نيتروجين، و٢١٪ غاز أكسجين، و٠,٠٠٩٣٪ من غازات مختلطة مثل غاز الأرجون والهيليوم والزينون وغير ذلك من الغازات، و٠,٠٣٪ غاز ثانى أكسيد الكربون، وبخار ماء، وجسيمات من الغبار العالقة بالجو.

وبقى الهواء بمكوناته الطبيعية فى نسبها المذكورة مئات الملايين من السنين بالرغم من ثورات البراكين وما تقذف من دخان وغازات وغبار فى الجو بكميات كثيفة، وبالرغم من اشتعال الحرائق بالغابات، ذلك أن العوامل الطبيعية فى الجو قد استطاعت أن تعيد التوازن بين مكوناته دائما.. إلى أن بدأ عصر الصناعة وبناء المصانع وظهور السيارات والطائرات.. فبدأ معدل تلوث الجو يرتفع ارتفاعا سريعا وينذر بأخطار هائلة على استمرار الحياة على هذه الأرض.

كوارث صحية بسبب تلوث الجو فى المناطق الصناعية

حدثت كوارث صحية فى بعض المدن الصناعية بسبب دخان المصانع نذكر منها الأمثلة الآتية:

١ - فى سنة ١٩٣٠ م فى مدينة إنجز قام الناس من نومهم فى الصباح الباكر وهو يسعلون بشدة.. وما أن فتحوا نوافذ منازلهم حتى ازدادوا سعالا.. أما من كان فى الشوارع من الناس، فقد سقط كثير منهم وهو فى حالة اختناق. وكان الجو مليئا بالضباب. وكان ضبابا كيميائيا بسبب ما نفثته مداخن المصانع المجاورة للمدينة المذكورة من غاز ثانى أكسيد الكبريت وغازات أخرى.. وحدث أن كونت تلك الغازات مع بخار الماء حامض الكبريتيك الذى بقى معلقا فى الجو؛ لذلك حدث للناس تهيجا شديدا بالجهاز التنفسى العلوى والشعيبات الرئوية أيضا.. وقد توفى كثير من الناس، ونفق أغلب الدواجن والدواب، وامتلأت المستشفيات بالمرضى.. وذاق الناس نتيجة إفسادهم لجو الأرض.. فكان أن توقفت المصانع عدة أيام، حتى قلت نسبة تلوث الجو.. واختفى الضباب.. ولعل هذا الحادث يفسر قول الله عز وجل فى سورة الروم ٤١: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

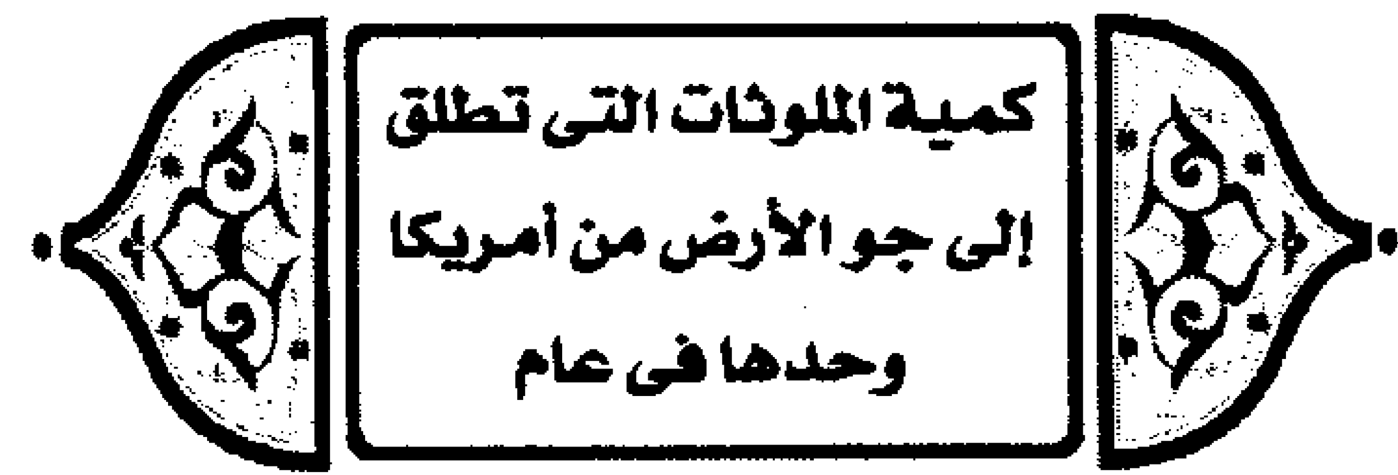
٢ - حدث حادث مماثل فى سنة ١٩٤٨م فى مدينة دونورا فى بنسلفانيا فى أمريكا الشمالية واختنق آلاف الناس، وامتلأت المستشفيات بالضحايا.. ضحايا التلوث الجوى.

٣ ـ فى سنة ١٩٥٢ م حدثت كارثة جوية لن ينساها سكان لندن.. ازداد الضباب فى صباح أحد الأيام وجثم على لندن طبقات من الهواء الراكد (ظاهرة الانعكاس الجوى) وذلك بسبب إطلاق المصانع لعشرات الآلاف من الأطنان من الدخان فى الجو...

ولاشك أن السيارات تسبب كوارث صحية بسبب تلوث الجو، مما يخرج من عوادمها.. فقد أظهرت دراسة إحصائية أن ألف سيارة فقط لو كانت تجرى لمدة أربع وعشرين ساعة فقط لنفثت فى الجو الآتى:

٣٠ كيلو من أبخرة هيدروكربونية غير كاملة الاحتراق، ٨٠ كيلو من أكاسيد النيتروجين. ٨٠ كيلو من غازات ثانى أكسيد الكبريت ومركبات الرصاص.

ولنا أن نتصور تلوث الجو فى مدينة يجرى فى شوارعها مليون سيارة كالقاهرة، أو ملايين السيارات مثل لوس أنجلوس!



أجريت تجربة علمية إحصائية سنة ١٩٦٨ م تسمى تجربة جورج مورجان فى الولايات المتحدة الأمريكية، قاس فيها كمية الملوثات التى أطلقت إلى جو الأرض فى ذلك العام من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها فكانت كالآتى:

١٧ مليون طن من السناج، ٢٩مليون طن من غاز ثانى أكسيد الكربون

١٧مليون طن من أكاسيد النيتروجين، ٧٥ مليون طن من غاز أول أكسيد الكربون السام.

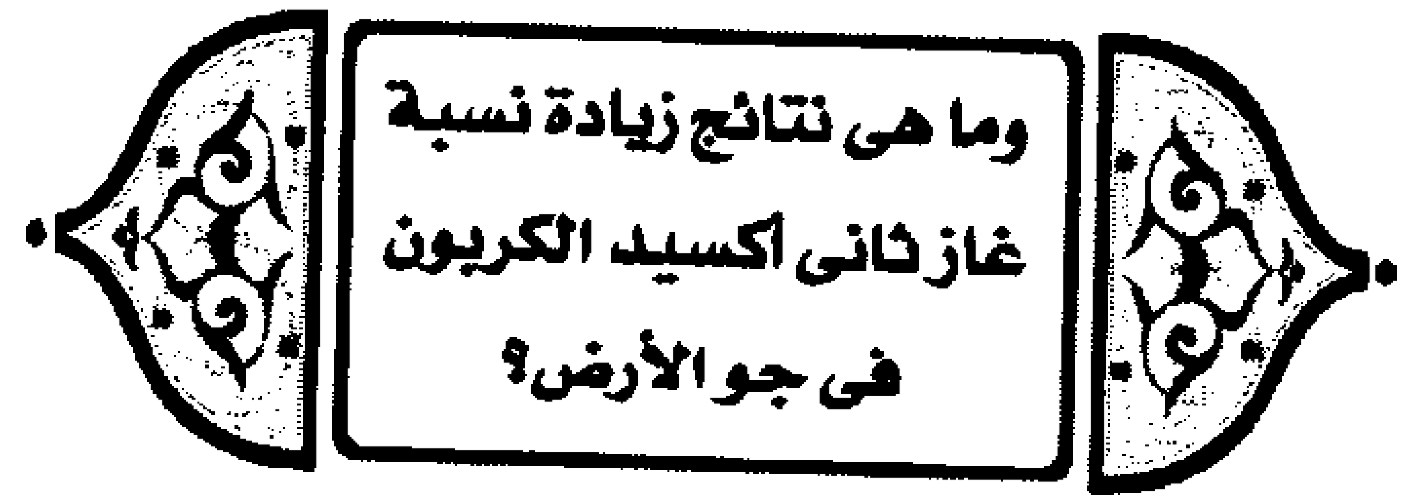
٢٥ مليون طن من مشتقات بترولية غير كاملة الاحتراق.

فإذا أطلق إلى جو الأرض كل هذه الكميات الهائلة من الملوثات من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها فى عام ١٩٤٨.. فكم من مئات الملايين من الأطنان أطلقت إلى جو الأرض منذ النهضة الصناعية إلى الآن من تلك الدولة وحدها؟.. إنها تكفى لأن تلوث جو ألف كوكب لا كوكبًا واحدًا.. وكم من مئات الملايين من الأطنان من الملوثات من المدن الصناعية الأخرى لوثت جو الأرض؟ إنها حقائق تدعو إلى الفزع حقا. حتى إن كثيرا من العلماء أطلقوا صيحات تحذير وقالوا: إن جو الأرض ليس صندوق قمامة.. إنه هو الهواء الذى نتنفس به !! وإلى متى سيتحمل جو الأرض كل ذلك؟؟..

ولم يكن لإطلاق صيحات التحذير أى أثر، ودليل ذلك ازدياد نسبة تلوث الجو كل عام عن العام الذى سبقه.. وحديثا خرجت صيحات تحذير من علماء البيئة بضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة لإنقاذ الأحياء الذين يعيشون على سطح الأرض من الفناء..

لقد كان الخوف من أن تقوم حرب عالمية ثالثة تستخدم فيها القنابل الذرية فيهلك من على الأرض من الأحياء.. ولكن الخوف الحقيقى هو فى إفساد الناس لجو الأرض ومائها إفسادًا سينتهى بالأحياء جميعا إلى الفناء فى المستقبل غير البعيد.

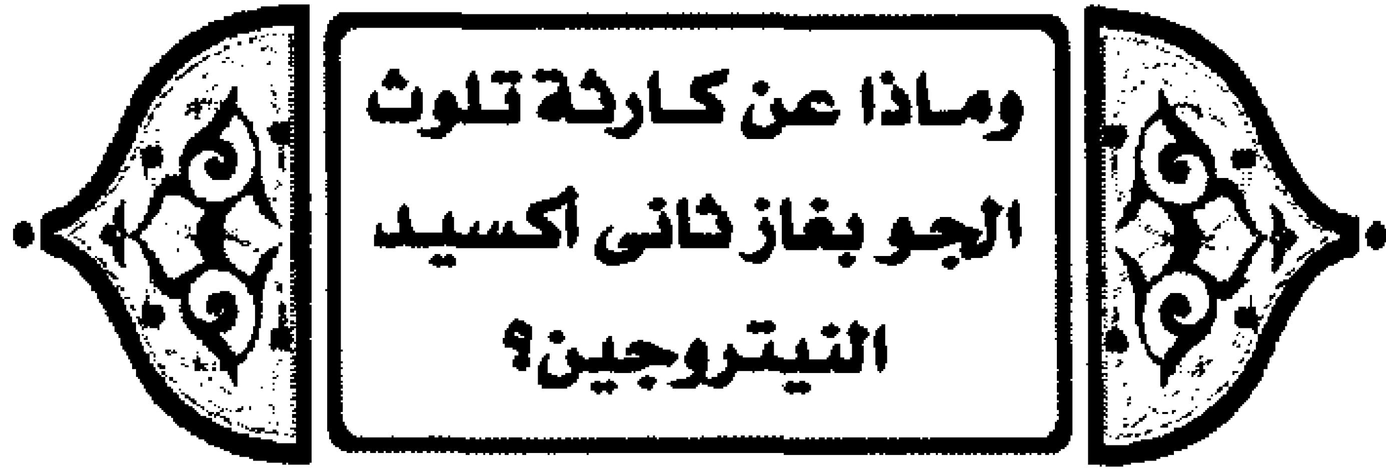
ولا أمل فى الإنقاذ إلا التوقف عن هذا الإفساد بطريقة أو بأخرى.. أليس هذا ما أخبرنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة الروم :﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم].



يتنج غاز ثانى أكسيد الكربون من عمليات التحلل والتعفن.. كما ينتج من عمليات تنفس الأحياء ومن اشتعال النار.. وينطلق غاز ثانى أكسيد الكربون من كل هذه المصادر إلى جو الأرض، إلا أن النباتات الخضراء تستنفد ٥٥٠مليون طن من غاز ثانى أكسيد الكربون كل عام، وذلك فى عمليات التمثيل الضوئى الكلوروفيللى التى تطلق إلى الجو ٤٠٠ألف مليون طن من غاز الأكسجين.. وظلت غازات جو الأرض ومكوناته فى حالة توازن مئات الملايين من السنين كما قال الله تعالى فى سورة الحجر ١٩ : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وأنبتنا فيها: أى وخلقنا فيها. وظل الأمر هكذا حتى بدأ اكتشاف الفحم وبدأت النهضة الصناعية فى العالم الغربى، فابتدأ تلوث جو الأرض.. حتى وصل فى عصرنا هذا إلى معدلات خطرة تنذر بقرب نهاية الحياة لكل الأحياء على هذا الأرض. ولقد أخبرنا الله تعالى فى سورة الشورى ٣٠ بأن كل ما يصيبنا من سوء هو نتيجة سوء تصرفنا نحن قال تعالى:﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]

وإذا وصل تركيز غاز ثانى أكسيد الكربون فى جو الأرض إلى معدلات خطرة كما هو حادث الآن ـ فقد وصل إلى تركيز يقرب من ٤٠٠ جزء فى المليون ـ فإن ذلك سيؤدى إلى ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض تدريجيا.. وتفسير ذلك أن غاز ثانى أكسيد الكربون يمتص الموجات الحرارية التى تصل أطوالها من ١٢ إلى ١٨ ميكرون وهى من الحرارة التى تنطلق من سطح الأرض إلى جو السماء.. وكلما زاد تركيز غاز ثانى أكسيد الكربون فى جو الأرض حجز قدر أكبر من الحرارة فى الجو القريب من سطح الأرض، على نحو ما يفعل بيت النبات الزجاجى وإذا ارفعت حرارة الأرض عدة درجات ـ وهذا ما سيحدث بعد نحو ثلاثين عاما ـ فإن الجليد المتراكم على القطبين سيبتدئ فى الذوبان فيرتفع سطح المياه فى المحيطات، الأمر الذى

سيغرق كل سواحل البحار فى القارات والجزر جميعا ،وما فيها من مدن ومنشئات، وذكر أستاذ الأرصاد الجوية بيرت بولين من السويد قال : (إن أعظم أنواع التلوث الذى تعانى منه الأرض الآن هو من صنع الإنسان نفسه.. فقد أفسد التوازن الحيوى البيولوجى.. وبذلك ابتدأت تظهر أسباب الفناء للحياة على كوكب الأرض).



غاز ثانى أكسيد النيتروجين من أخطر الغازات التى تسبب تلوث جو الأرض تلوثا مخيفا. وهذا الغاز ينتج من الاحتراق فى محركات السيارات والطائرات والمصانع.

وقدر العلماء أن مايطلق فى جو الأرض كل عام بنحو مائة ألف طن من مكونات الرصاص.



قصة طبقة الأوزون فى طبقات الجو العليا

على ارتفاع يتراوح بين ١٥ إلى ٣٠ كيلو مترا من سطح الأرض توجد طبقة أغلبها من غاز الأوزون .. وهذه الطبقة هامة جدا لأسباب الحياة على سطح الأرض على وجه العموم، ولاستمرار حياة الإنسان وسلامة صحته على وجه الخصوص .. فهى تمتص الأشعة فوق البنفسجية فى أشعة الشمس .. وهى أشعة إذا وصلت إلى سطح الأرض بتركيز كبير أهلكت الأحياء عليها .. ولما كانت طبقة الأوزون فى جو الأرض تمتص الغالبية العظمى من تلك الأشعة المهلكة، فإن مايصل منها لايسبب ضررا يذكر، ونلاحظ تأثير تلك الأشعة فى الناس الذين يقضون ساعات من النهار تحت أشعة الشمس على شواطئ البحار وهم عراة الجسم نجد أن الجلد قد صار داكن اللون وقد يصاب بالتقرحات ...

واكتشف العلماء مؤخرا أن طبقة الأوزون فى الجو ابتدأت تتآكل، وخاصة فى الجو فوق القطب الجنوبى .. وماسبب بدء تآكل هذه الطبقة؟ إنها صناعة الأجهزة الإلكترونية وصناعة البلاستيك وصناعات المكيفات والثلاجات ومايؤدى كل ذلك إلى إنتاج غاز «الكلورفلوريدكربون» .. وهو غاز يصعد إلى طبقات الجو العليا ويعمل على تدمير طبقة غاز الأوزون هناك.

وإذا استمر الحال على هذا المنوال فإن هذه هى بداية النهاية للجنس البشرى على هذه الأرض.

وماذا عن الملوثات الإشعاعية لجو الأرض؟

إنها ملوثات خطرة جدا على صحة الإنسان .. وقد بدأت أخطارها تظهر للناس منذ عام ١٩٤٥ م عندما حدث أول تفجير ذرى فى قنابل ذرية أسقطت على هيروشيما ونجازاكى .. وما أعقب ذلك من تجارب ذرية حتى اضطروا أخيرا إلى عمل تجارب ذرية تحت سطح الأرض .. إلا أنه ظهر خطر جديد لتسرب الإشعاعات الذرية من بعض المفاعلات الذرية فى كل من الهند وروسيا وسبب هلاك آلاف من الناس وضررا بالملايين منهم .. ولازال ضرر تسرب الإشعاعات الذرية من المفاعلات قائما حتى اليوم.

تلوث مياه كوكب الأرض

سطح كوكب الأرض مغطى بالماء واليابسة . إلا أن مياه المحيطات والبحار تغطى ٧١٪ من مساحة سطح الأرض . . أى إن الماء متوفر على سطح الأرض وفرة كبيرة، حتى أن بعض العلماء أطلق على كوكب الأرض «الكوكب المائى» وقدروا كمية الماء فى الأرض بنحو ٣٢٦ مليون ميل مكعب . . وتعمل أشعة الشمس على تقطير مياه البحار والميحطات . . فتتكون السحب وتنزل مياه الأمطار بمقدار يقدر بنحو ثمانين ألف ميل مكعب من الماء العذب سنويا، بالإضافة إلى نحو خمسة عشر ألف ميل مكعب من الماء العذب فى الأنهار والبحيرات العذبة والآبار والعيون . . بمعنى أن ما يقرب من مائة ألف ميل مكعب من الماء العذب ينزل من السماء إلى الأرض كل عام . . وأنه فى دورة مائية مستمرة بين السماء والأرض . . والماء فى الأرض غير متجدد بمعنى أن الماء الموجود فى الأرض الآن هو الماء الذى كان فيها منذ آلاف الملايين من السنين . . إذن فتلوث الماء يؤدى إلى خطر كبير لا يمكن التخلص منه.

وفى عصر النهضة الصناعية أقيمت المصانع على ضفاف الأنهار . . وصاروا يصبون نفايات تلك المصانع فى الأنهار !! إنه تصرف جنونى لاشك وأقل ما يوصف به فاعله؛ أنه لايقدر أى مسئولية، ولايراعى أى واجبات إنسانية . وبلغ الأمر بإلقاء مياه الصرف الصحى فى الأنهار بالإضافة إلى كل نفايات المصانع بالإضافة إلى المبيدات الحشرية والملوثات الإشعاعية . . وهذه المياه هى مصدر مياه الشرب للإنسان والحيوان ! حتى أن كثيرا من أنهار أوربا وأمريكا صارت الآن أنهارا ميتة ليس فيها أى أحياء بحرية، أما عن مياه البحار والمحيطات فهى تستقبل كل مياه الصرف الصحى . . فمثلا البحر الأبيض المتوسط ـ وهو بحر شبه مغلق ـ ولايجدد ماؤه إلا بعد ثمانين عاما على الأقل. هذا البحر تصب فيها ثمانية عشر دولة مياه الصرف الصحى بها . . وليس هذا فحسب بل إن قادة سفن البترول تغسل مستودعاتها من مياه البحار فتحدث تلوثا هائلا بمياه البحار . . بالإضافة إلى غرق بعض ناقلات

النفط وتسرب النفط منها إلى مياه البحار . . وتقول الدراسات : إن البحر الأبيض المتوسط مـهدد بأن يكون بحـرًا مـيتـا فى المسـتقـبل القريب، وكذلك البـحار الأخرى والمحيطات وسيـأتى وقت قريب تموت فـيه كل الأحـياء البـحرية فى البـحار والمحـيطات . . وبذلك تكون النهضـة الصناعيـة التى أقيمت لتـعمل على رفاهية الإنسان وراحته، هى السبب فى فناء الحياة على هذه الأرض . . وبذلك صار أعدى أعداء الإنسان، الإنسان نفسه .

ونذكـر قول اللـه عز وجل فى سـورة الروم: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٤١﴾ ﴾. قـوله تعـالى : ﴿ **لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ يشير إلى أن الإنسان هو أول المتـضررين من سوء تصـرفه وإفساده للبيئة فى الأرض.



ما هو طريق الإنقاذ من تلوث البيئة؟

لقد وصل العالم إلى حالة من تلوث تدعو إلى الخوف على مصير هذا العالم . فلم يعد هناك جو نقى نستنشقه ، ولا مياه نقية نشربها . . ولا خضروات وفاكهة خالية من آثار المبيدات الحشرية والأسمدة الكيماوية، الأمر الذى سبب العديد من الأمراض المهلكة التى لم تكن البشرية تعرفها من قبل أو لم تكن منتشرة كما هى منتشرة اليوم ومنها الأمراض الخبيثة.

ولم تعد هناك بقعة من بقاع العالم بمنأى عن تلوث البيئة؛ ذلك لأن جو الأرض فى حركة مستمرة . . فهو ينقل الملوثات التى تتصاعد إليه من مكان إلى مكان آخر . . بل أن بلدا آمنا من ناحية البيئة قد تأتى إليه سحب تحمل حامض النيتريك وتهطل منها أمطار حامضية قاتلة للنباتات، وتجرى فى الأنهار تكون قاتلة أيضا لكل صور الحياة فى الأنهار وجاعلة الماء لايصلح للشرب .

وطريق الإنقاذ يكمن فى أن يرجع الناس عما هم فيه من أسباب التلوث وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فى آية سورة الروم ٤١ : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ . . ولكن كيف يرجعون عما هم فيه، وهم قد ساروا فى طريق اللاعودة . . إن رجال الصناعة يدافعون عن التقدم التكنولوجى ويقولون أن الأضرار التى يتعرض لها الإنسان بسبب التقدم الصناعى؛ لاتعد شيئا مذكورا بجانب الفوائد الجمة التى يجنيها منها . . ومن غير المعقول أن نغلق المصانع ونرجع إلى البدائية ونركب الدواب فى أسفارنا ورحلاتنا حتى نتخلص من تلوث البيئة . . إلا أن علماء البيئة يقولون أننا أمام حقيقة لاجدال فيها؛ وهى أننا نواجه كارثة التلوث . . ولامناص من اتخاذ إجراء ما للحد من التلوث الذى بات يهدد استمرار الحياة على هذه الأرض . . فلابد من حلول وسط . . ومايبنغى أن نقف مكتوفى الأيدى ونحن نرى الحياة على ظهر الأرض تسير نحو الهاوية. وذلك كالآتى:

١ ـ يجب التقليل ما أمكن من تصاعد الدخان والغازات من المصانع باستخدام الطرق العلمية.

٢ ـ تحسين شبكات الصرف الصحى ومعالجة مياهها قبل أن نتخلص منها بطرق لاتؤثر على البيئة.

٣ ـ يجب منع التلوث النهرى والبحرى بشتى صوره، وذلك بقوانين دولية خاضعة للرقابة والمتابعة.

٤ ـ يجب منع قطع أشجار الغابات بطرق عشوائية . . ولكن بطرق علمية وحسب تخطيط يضمن عدم القضاء على أشجار الغابات.

٥ ـ العمل على تشجير الصحراوات . . وقد نهى رسول الله ﷺ عن قطع الأشجار وأمر بغرسها ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا قال: «**إذا قامت على أحدكم القيامة وفى يده فسيلة فليغرسها**» رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه . .

٦ ـ الحد من استعمال المبيدات الحشرية والأسمدة الكيماوية التى تنتهى إلى مياه الشرب التى نشربها أو إلى الثمار التى نأكلها.

٧ ـ العمل على الحد من تصاعد الدخان والغازات من عوادم السيارات والطائرات والدراجات البخارية.

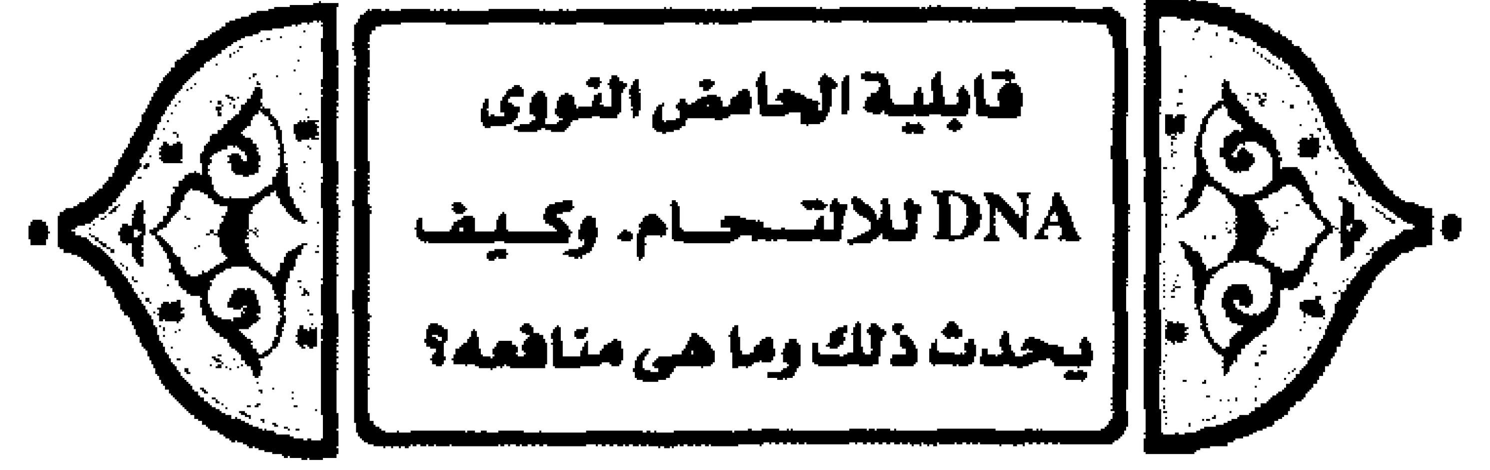
لابد من اتخاذ إجراءات لتقليل تلوث البيئة مهما كانت التضحية ومهما كان الثمن لأن البديل أمر خطير جدا لايقبله أحد، هو بداية النهاية لهذا العالم ومافيه من أحياء.



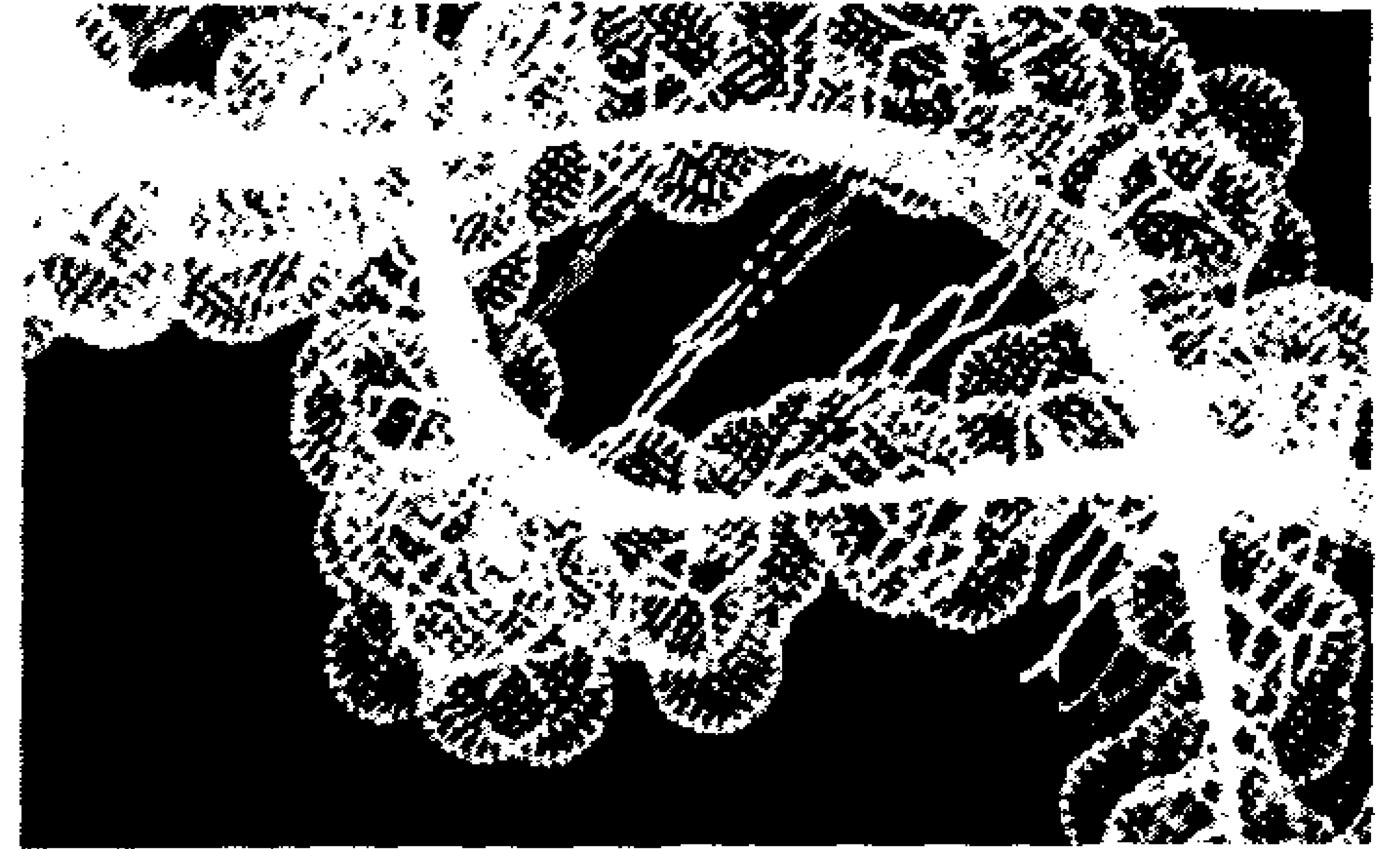
يكمن الحامض النووى DNA فى نواة كل خلية حية فى الإنسان والحيوان والنبات وكل كائن حى. والحامض النووى جزىء كبير على شكل حلزون طويل نسبيا، يحتوى على الشفرة الوراثية للكائن الحى، والتى تشمل كل الصفات الوراثية المميزة لذلك المخلوق الحى.. وتعمل الخلية الحية بناء على الأوامر الصادرة من الحامض النووى الموجود فى نواتها.. وليس حديثنا الآن عن تركيب الحامض النووى.. ولكننا سنتحدث عن علاقة ذلك الحامض النووى بالهندسة الوراثية وما يتعلق بها، وذلك فى اختصار شديد، يتكون الحامض النووى من قواعد كيميائية تربط طرفى سلم الحلزون.. وطرفا الحلزون مكونان من عوامل الوراثة التى تبلغ فى كل حامض نووى أكثر من مائة ألف صفة وراثية. وكل شىء فى الحامض النووى عجيب.. ومن أموره العجيبة أنه إذا انفرط عقده أو انقطع أى طرفى السلم لسبب من الأسباب فإن الحامض النووى يعيد الالتحام.. وإعادة التحامه قد يسبب طفرة وراثية (تغيرا وراثيا فجائيا) Mutation .. ويستمر تكرار هذا التغير الوراثى فى الذرية بعد ذلك.. وقد استطاع العلماء المتخصصون أن يقسموا جزىء الحامض النووى فى مواضع محددة للانقسام، وذلك بواسطة خمائر خاصة.. وأمكنهم معرفة الصفات الوراثية المحمولة على كل جزء مقسوم.. وبذلك استطاعوا تقسيم الجزىء الواحد لحامض نووى يختارونه، إلى أجزاء كثيرة كل منها يحمل صفات وراثية معينة.. وفى هذه الجزيئات أودع الله تعالى القدرة على الالتحام مع بعضها البعض. ثم تعيد الطبع مرات لا حصر لها.. والنتيجة هى الحصول على حامض نووى استؤصل منه بعض أجزائه غير المرغوب فيها.. وبهذه الطريقة يمكن استئصال الجينات المسئولة عن بعض الأمراض التى تحدث فى الذرية مثل الأنيما المنجلية وأنيميا البحر الأبيض المتوسط، بل وأمراض أخرى كالسكر، والسرطان، وغيرها وغيرها.

وفتح ذلك التطور المذهل فى علم الوراثة الباب لآفاق علمية جديدة لم تكن فى الحسبان.. ومنها على سبيل المثال إنتاج الأنسولين البشرى بواسطة بكتريا حية.. وقد حدث هذا عندما توصل علماء الوراثة والخلية إلى فصل نويات البكتريا ـ وما بها من أحماض نووية ـ وألحقوا بها أجزاء من نويات خلايا بشرية قادرة على إفراز الأنسولين.. وتركوا تلك البكتريا تتكاثر وبها القدرة على إفراز الأنسولين البشرى.. ونبادر بالقول: إن العلماء لم يخلقوا شيئا.. وكل ما توصلوا إليه أن الله تعالى هداهم إلى استخدام سنن الله الكونية وأسرار فطرة خلقه، فى تشكيلات جديدة ومدروسة وهادفة وكان

ذلك بواسطة قابلية الحامض النووى DNA للالتحام. وكيف يحدث ذلك وما هى منافعه؟



توصل العلماء إلى الحصول على أجزاء من الحامض النووى بعد تقطيعه بواسطة خمائر خاصة.. وموضع القطع فى جزئى الحامض النووى يمكنه الالتحام مع جزء مقطوع من حامض نووى آخر من نفس خلايا المخلوق أو من نوع آخر من المخلوقات.. وبذلك تتخلق - بإذن الله ومشيئته فى فطرة

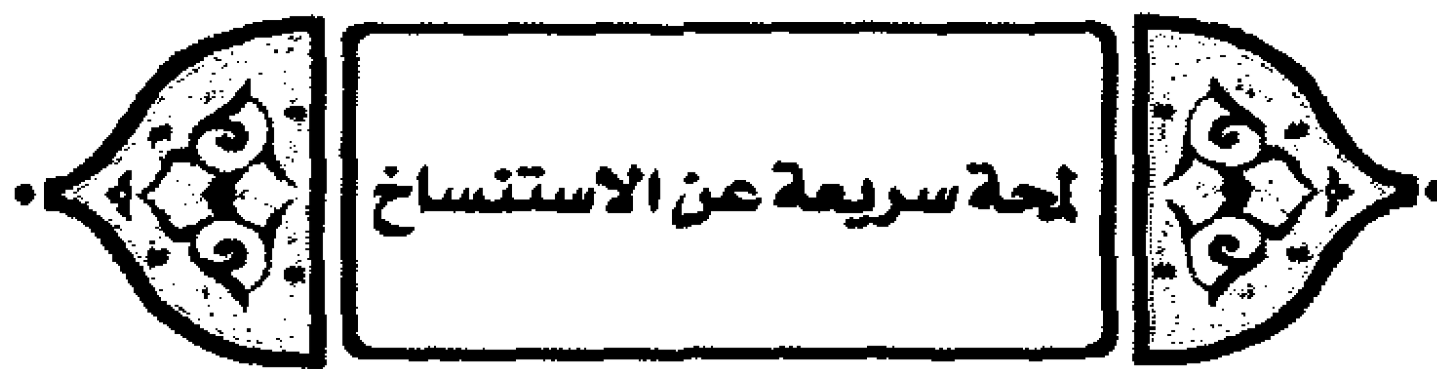


خلقه - شريطان من حامض نووى من الصفات الوراثية لهما معا.. وإذا تكاثر فإن الذرية تحتوى على صفات وراثية للمخلوقين معا.

وقد استطاع علماء الوراثة والخلية إنشاء شريط لحامض نووى به أجزاء من حامض نووى آخر لأحد أنواع البكتريا، وأجزاء أخرى من حامض نووى من إنسان.. وبذلك حصلوا على حامض نووى جديد يحتوى على صفات وراثية مرغوبة من كل من البكتريا والإنسان. وعن هذه الطريقة تم تحضير أنسولين بشرى بواسطة بكتريا سريعة التكاثر الأمر الذى أدى إلى توافر أنسولين بشرى بكميات كبيرة جدا.. وبذلك استعاض مرضى السكر الذين كانوا يعالجون بأنسولين حيوانى، بأنسولين بشرى نتيجة أنواع من البكتريا عوملت بالهندسة الوراثية.

وفتح ذلك الباب إلى التطلع إلى التخلص من جينات مسئولة عن بعض الأمراض فى خلايا جسم الإنسان.. والدراسات قائمة على قدم وساق.. وكل يوم يكتشف العلماء جديداً من أسرار فطرة الخلق.. وهم يطورون فطرة الخلق.. ولا يخلقونها ولا يستطيعون.. ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [**التكوير**].

وهناك طرق أخرى فى الهندسة الوراثية تؤدى إلى ما يعرف بالاستنساخ Coloning.



هو تكاثر عن غير طريق التكاثر التلقيحى، وذلك بواسطة عزل أجزاء معينة من جزىء الحامض النووى DNA عليها صفات وراثية مرغوبة بهدف إنتاج هذه الأجزاء بوفرة كبيرة يمكن استعمالها بعد ذلك فى مجالات شتى. ومن أوائل الخمسينيات من هذا القرن ابتدأ ما يسمى بالاستنساخ وهو إنتاج أجيال من الأجنة تماثل الكائن الأصلى الذى أخذت النواة من أحد خلاياه، وأدخلت

فى بويضة أزيلت نواتها. واستطاعوا بهذه الطريقة إنتاج نوع من الضفادع.

خلاصة الموضوع:

فى نواة كل خلية بشرية فى الجسم ستة وأربعون جسما صبغيًا (كروموسوم) تحمل كل الصفات البشرية لكل فرد إنسانى.. وكل خلية بشرية تنقسم أزواجا أزواجا.. وما إن تموت خلية من الخلايا حتى تنقسم خلية مجاورة إلى خليتين، لتحل واحدة منها محل الخلية التى ماتت.. أما البويضة والحيوان المنوى فهى من الناحية الوراثية أنصاف خلايا، فى كل منهما نصف عدد الكروموسومات الموجودة فى الخلية البشرية أى ثلاثة وعشرون فقط.. فإذا حدث تلقيح بينهما تكونت خلية بشرية كاملة بها ستة وأربعون كروموسوما.

وإذا حصلنا على نواة من خلية جلد مثلا من ضفدع أو خروف أو بقرة.. ثم حصلنا على بويضة من مبيضها، ونزعنا نواتها ووضعنا بدلا منها نواة خلية الجلد.. فإن الخلية الجديدة (نواة بها عدد كامل للصبغيات موجودة فى سيتوبلازم بويضة)، فإن هذه الخلية الجديدة إذا انقسمت فإنها ستكون ضفدعا أو خروفا أو بقرة طبق الأصل من الحيوان الأم. وبذلك يتحقق إنجاب بغير تزواج ذكر بأنثى، كما يتحقق الحصول على نسخة طبق الأصل وقابلة للتكرار من الحيوان الأم (صاحب النواة).

المخاطر:

الاستنساخ إذا كان مرغوبا فى عالم النبات والحيوان فهو خطر جدا إذا طبق على الخلية البشرية؛ لأن طموح العلماء ـ وخاصة غير المؤمنين بالله منهم ـ لايقف عند حد معقول وستدخل البشرية فى متاهات هى فى غنى عنها .

نتائج التحكم فى معطيات الوراثة:

إن ما توصل إليه علماء الهندسة الوراثية ثلاثة أنواع من التحكم الوراثى:

١ ـ الاستنساخ

٢ ـ المزج بين الصفات الوراثية بين نوعين من المخلوقات للحصول على صفات وراثية مرغوبة فى أحد المخلوقات.

٣ ـ التخلص من بعض الصفات الوراثية غير المرغوبة فى الخلية الحية.

والذى نراه هو أنه من الضرورى تحقيق مشروعية الهدف، ومشروعية الوسيلة أيضًا وذلك يحقق الفائدة للإنسان ويجنبه مخاطر كثيرة وأضرارا شتى. والإسلام يأمر ويحرص على الجمع بين نبل الهدف وسلامة الوسيلة وحسن مقصدها، مما لا يتعارض مع مراد الله تعالى فى خلقه.. وبالتالى يأمر الإسلام

بتجنب كل ما ينشأ عنه تغيير الخلقة من زيادة أو نقص فى الخلقة الأصلية، والفطرة التى فطر الله الإنسان عليها.. لأن أى محاولة تغيير فى فطرة خلية الإنسان هو من نزغ الشيطان للعلماء، كما قال الله عز وجل فى سورة النساء ١١٩ - ١٢١: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

إن الاستنساخ إذا كان فى مجال الحيوان والنبات فهو طريقة من طرق التنمية، وزيادة الأرزاق للإنسان.. وهذه طرق مشروعة لأن التصرف فى الحيوان - بدون أى تعذيب أو عبث فى خلقه - وكذلك النبات. هو تصرف فى المال بما يزيده ويزيد إنتاجه ومردوده.. أما إذا حاول أحد العلماء تطبيقه على الإنسان فإن الإسلام لا يقر ذلك.. لأنه سيفتح بابا لا يمكن إغلاقه بعد ذلك من الشرور والأخطار.

الاستبدال الوراثى فى مجال الطب الوقائى:

الاستبدال الوراثى يتلخص فى التخلص من بعض الصفات المرضية أو الصفات الضارة أو غير المرغوبة من جزىء الحامض النووى.. وذلك يشفى الإنسان من كثير من الأمراض الوراثية وبعض الأمراض العضوية أيضًا.. فإذا كان الهدف مشروعا والوسيلة مشروعة أيضًا فلا غبار عليه. أما إذا اتجه الاستبدال إلى تغيير الخلقة أو العبث بفطرة الخلق فإن ذلك يكون قد خرج عن دين الله.



طفل الأنابيب

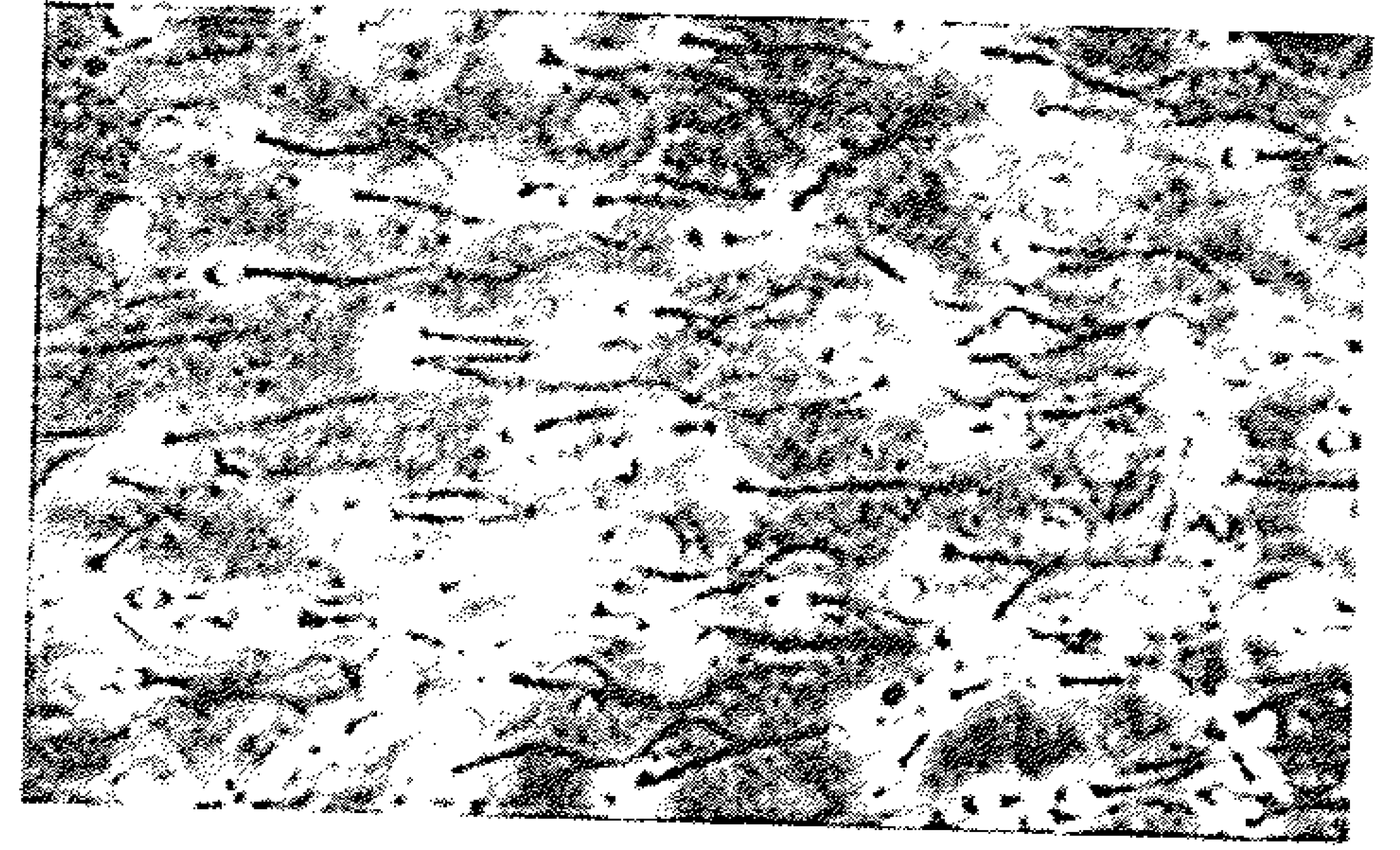
ابتـــدأ ظهـــور طـفل الأنابيـب فى السـبعـينيـات من هذا القرن.. وأول تجـربة أجريت على امرأة كـانت قد تزوجت وظلت ثمـانى سنوات لا تنجب.. واكـتـشف بهـا الأطباء انسـدادًا تاما من قناتى فـالوب ـ التى عن طريقـها تصل البـويضة من المبـيض إلى الرحم ـ واسـتحـال علاج ذلك الانسـداد.. ومن شـأن ذلك لا يحدث حـمل بالاتصـال الطبيعى مع زوجها. وبواسطة منظار خاص، حـصل الأطباء المتـخـصصـون على بويضـة ناضجة من مبـيض الأم ووضعوها فى أنبوبة فى المختـبر، ثم حصلوا علـى السائل المنوى من الزوج.. ثم خلطوه بـالسائل المحـتـوى على بويضة الزوجة داخل الأنبوبة.. وضعت تلك الأنبـوبة فى درجـة حرارة تشبه درجـة حرارة الرحم.. وحدث أن تلقـحت البويضة داخل الأنبـــوبة بواسطة حـيـــوان منوى.. وبذلك تكونت نطـفة بشـرية خـارج جـسم المرأة.. وشـاهدها العلماء بالمخـتـبـر بواسطة مـيكروسكوب.. وتركوا الـبويضـة الملقحـة أربعة أيام فى الأنبويـة حتى تكاثرت وصارت ست عـشرة خليـة، ثم أدخلت تلك النطفـة الأولى داخل الرحم بآلة خـاصـة، فتـعلقت بجداره.. واسـتمر الحمل بـعد ذلك طبيعـيا حتى ولدت أخيـرًا بعد ثمانية شهـور بعملية

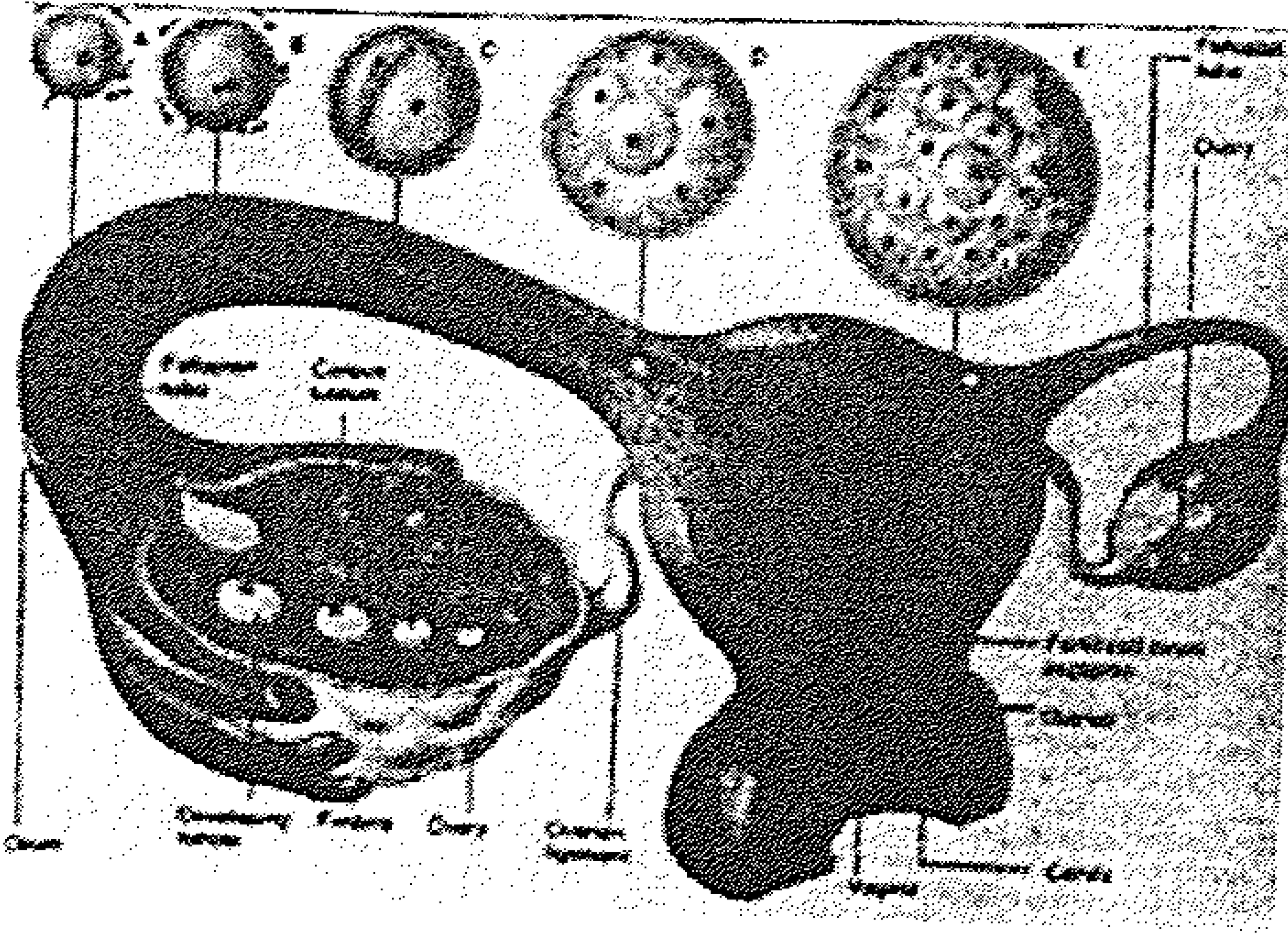


قيصرية، بسبب عيوب فى عظام الحوض تمنع الولادة بالطريق الطبيعى.

وثار حينئـذ جدل بين الأطبـاء ورجال الدين حول هذا الموضوع. وحـتى نستطيع أن نعطى رأيا علميـا ينبغى علينا أن نفـهم كيف يخلـق الجنين فى رحم المـرأة.. وقت نزول القـرآن الكـريم لم يكن العلمـــاء على علم صحـيح فى هذا الموضـوع.. وكان قـصارى علمـهم أن الجنين ينشـأ من نطفة دم حـيض مـتجـمدة فى الـرحم.. حتى إذا أتاها مـاء الرجل، دبت فيها الحياة وصارت جنينا حيا، وكان ذلك مثلا من نظريات فـلاسفة الإغريق ومنهم أرسطو فى القرن الثالث ق م.

وظل العلمـاء عـلى ذلك الاعـتـقـاد المخطئ حـتى القرن السـابع عشـر الميلادى، حـين دخل الميكـروسكوب مـيـدان البـحث العلمى، فاكتشف العلماء البـويضة واكتشفوا الحيوان المنوى فى ماء الرجل. لذلك نجد فى





كتب التفسير، عندما يتعرض المفسرون لتفسير الآيات التى تحدث عن خلق الأجنة، ينقلون ما كان العلماء يقولون فى عصرهم، وهو أن الجنين نشأ من نقطة دم فى الرحم.. والحيوان المنوى خلية بشرية عجيبة فى الشكل والحركة والخلق. فحجم رأس الحيوان المنوى لايزيد عن ٤/مليون من المللى متر.. رأسه كمثرى الشكل وله عنق قصير وذيل طويل.. قدر طول الرأس عشر مرات.. وبواسطة الذيل الطويل يتحرك الحيوان المنوى بسرعة هائلة نسبيا فهو يقطع المسافة بين عنق الرحم وأنبوبة فالوب - نحو عشر سنتيمترات - فى ساعة ونصف الساعة.. فإذا قارنا سرعته بحجمه لوجدناه أسرع كائن حى فى الوجود.. أى أنه لو كان فى حجم طائرة نفاثة لكان أسرع منها أضعافًا مضاعفة.

ومن هذا الحيوان الذى يشبه العلق كان نشأة الجنين.. وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى قول الله تعالى فى أول سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ وعقب الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة يتجه جيش هائل من عشرات الملايين من الحيوانات المنوية إلى وجهة واحدة، وإلى هدف واحد، هو البويضة، وهى لا تزال فى أحد قناتى الرحم.

وما إن يصل الجيش الهائل من الحيوانات المنوية حتى يحاصرها من كل اتجاه.. ثم تتعامل الحيوانات المنوية بطريقة غريبة، من شأنها أنها تدير البويضة فى حركة دوران حول نفسها.. ولو ندرى السبب فى ذلك.. وعندما يتوقف دوران البويضة.. يأذن الله عز وجل لحيوان منوى واحد من تلك الملايين المحتشدة حول البويضة باختراقها.. ويتحد بها.. وما إن يتم ذلك حتى ينصرف الجيش كله بعيدا عن البويضة وينفض من حولها.. وكأن أمرا صدر لها بالانصراف.. وكأن البويضة فقدت إغراءها، فلم تعد للحيوانات المنوية هدفا ومطلبا.

وباتحاد البويضة بالحيوان المنوى، تتكون البويضة الملقحة - أول خلية بشرية - حينئذ يحدث نشاط هائل وتغير كبير فى تلك الخلية البشرية الأولى والتى لا يزيد قطرها عن ١/ ٥ مللى متر.

كل خلية بشرية فى جسم الإنسان تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما -

والكروموسوم مكون من الحامض النووى DNA الذى يحمل عوامل الوراثة فى الشفرة الوراثية المميزة لنوع المخلوق. أما الخلايا الجنسية - وهى البويضة فى مبيض المرأة، والحيوان المنوى فى خصية الرجل - فكل منها يحتوى على نصف عدد الكروموسومات أى ثلاثة وعشرين كروموسوما.

من هذا نفهم أن كلا من الحيوان المنوى من الرجل، والبويضة من الأم، أنصاف خلايا من الناحية الوراثية.. ويسميها علماء الوراثة «الأمشاج»، وباتحاد الأمشاج تتكون النطفة الأولى.

أما قبل الاكتشافات العلمية فى علم الوراثة فى عصر العلم الحالى، فلم يكن العلماء يعلمون شيئا صحيحا فى هذا الموضوع.. وفى وسط ذلك الجهل بحقيقة خلق النطفة الأولى، نزل القرآن الكريم بالحقيقة العلمية والتى لم تكتشف إلا بعد نزول القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، فى قول الله عز وجل فى سورة الإنسان ٢.﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ..** ﴾.

والنطفة الأولى - البويضة الملقحة - تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما، نصفها من بويضة الأم ونصفها الآخر من الحيوان المنوى من الأب.. والنطفة الأولى خلية دقيقة حساسة، أقل شيء يؤذيها، وأى ضربة تضر بها.. فكان لابد من أن تكون فى مكان أمين وملجأ منيع يحميها.. فكانت فى الرحم. والرحم أقل أجزاء الجسم حركة، وأكثر أعضاء الجسم حماية. فهو محاط بعظام الحوض القوية.. فهو نعم القرار المكين لنطفة الإنسان.. وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة المؤمنون ١٢ - ١٣ ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)** ﴾ وفى سورة المرسلات ٢٠ - ٢٣ يقول الله عز وجل: ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)** ﴾.

وما إن تكون الخلية الملقحة حتى تتكاثر تكاثرا سريعا ومدهشا.. تنقسم الخلية إلى خليتين، والخليتان إلى أربع والأربع إلى ثمان، والثمانى إلى ست عشرة وهكذا.. حينئذ تصير لديها القدرة على التعلق بجدار الرحم؛ لتتغذى على المواد الغذائية الموجودة فى دم الأم، ويكبر الجنين شيئا فشيئا، والجنين فى تلك المرحلة يتكون من مجموعة من الخلايا المتخصصة، إلا أن أعضاء الجسم لا تظهر إلا فيما بعد.. فيظهر الجهاز العصبى والجهاز الهضمى والدورى والعظام وأعضاء الجسم الأخرى.. ثم بعد ذلك تظهر العضلات تكسو العظام من كل اتجاه. فذلك قول الله عز وجل فى سورة المؤمنون ١٢- ١٤:

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ**

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.(*)

وإذا فهمنا كيف يخلق الجنين فى رحم أمه، سهل علينا فهم موضوع طفل الأنابيب.. فإذا كان هناك ما يمنع التقاء البويضة بالحيوان المنوى فى قناة فالوب أو فى الرحم بالطريق الطبيعى، فإن طفل الأنانيب يحل هذه المشكلة.. فإذا حصل العلماء على بويضة من الأم، هيأوا لها البيئة المناسبة لتلقيحها بواسطة الحيوان المنوى من الأب فى أنبوبة اختبار فى المعمل.. ثم يترك أياما حتى تتكاثر إلى عدد معين من الخلايا لتستطيع أن تتعلق بجدار الرحم، فينقلونها من أنبوبة الاختبار إلى داخل الرحم حيث تتعلق بجداره.. وتنمو النطفة بعد ذلك نموا طبيعيًّا، ويتخلق الجنين طورا من بعد طور، إلى أن يكتمل نموه، فيولد بعد ذلك من بطن أمه طفلا.

إن طفل الأنابيب لم يخرج تكوينه عن منهج الخلق الذى قدره الله تعالى فى خلقه.. وكل ما فى الأمر أن العلم تحايل على عائق فى الأم كان يمنع وصول الحيوان المنوى إلى داخل الرحم حيا.

وطريقة خلق النطفة بواسطة ما يعرف بطفل الأنابيب لا تتعارض مع ما بينه لنا القرآن والحديث النبوى من نواميس الخلق. فهو طفل تكون من أمشاج الأم والأب، وهو طفل يولد فى النهاية من بطن أمه.. وما دام خلق النطفة كان من أمشاج زوج وزوجته فهو ابن شرعى.

والدين لا يتعارض مع العلم، بل يشجعه، ويأمر الناس بالأخذ بالعلم.. أما الكنيسة فقد عارضت طفل الأنابيب كما عارضت التلقيح الصناعى من قبل سنة١٩٥٦ وأعلنت أن حكم الاثنين واحد وأن كلاهما ضد الطبيعة وضد الأخلاق وضد الدين.. إلا أن الإسلام يشجع العلماء ويرفع الذين آمنوا وأوتوا العلم درجات.. أما عن الجدل بين الأطباء فى هذا الموضوع، فهو الخشية من أن يكون وضع النطفة فى أنبوبة الاختبار بعيدا عن رحم الأم، قد أثر على تكون النطفة، أو غيّر بعض عوامل الوراثة فيها.. الأمر الذى يسبب تشوهات خلقية بالجنين. ومع أن الكنيسة أعلنت أنه خلق بطريقة لا يقرها الدين، فلم يتوقف موضوع طفل الأنابيب.. وظهر أطفال كثيرون بهذه الطريقة، وبعض الناس يخشون من حدوث تدخل العلماء فى تغيير عوامل الوراثة فى النطفة الأولى.. أو تكوين نطفة من بويضة أم حيوان منوى من شخص آخر غير الزوج إذا كان الزوج عقيما.. وما إلى ذلك من الطرق التى تخرج الأمر برمته من الإطار الشرعى.. وبذلك يكون طفل الأنابيب وسيلة إلى أفكار شيطانية، تماما كالفكر الشيطانى الذى فكر فى الرحم الظئر ـ أى المستأجر ـ أو فى إنشاء بنوك المنى أو بنوك الأجنة.. وهكذا ما يفتح الله تعالى بابا للعلم للإنسان إلا أساء الإنسان التصرف فيه، وجنح به إلى الفساد.

(*) راجع موضوع خلق الأجنة فى كتاب (أطوار الخلق فى تاريخ الإنسان) للمؤلف.

الإجهاض

الإجهاض محرم إلا إذا كان استمرار الحمل يهدد حياة الأم.. هذا ما استقر عليه العلماء.. ولقد أشار القرآن الكريم إلى تحريم الإجهاض فى سورة الممتحنة ١٢ فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ لا يشير إلى وأد البنات الذى كان شائعا فى الجاهلية، فكان الآباء يأدون البنات اتقاء العار مستقبلا، وكلمة الأولاد تعنى البنين والبنات. فالجريمة التى تقترفها النساء فى قتل أولادهن البنين والبنات، لا يكون إلا بالإجهاض، الذى هو قتل للأجنة قبل اكتمال نموها وموعد ولادتها الطبيعى..

ما هى مبررات الإجهاض؟

١ ـ المبررات الطبية: هى أن تكون حياة الأم فى خطر إذا استمر الحمل.

٢ ـ المبررات الجنينية: إذا كان الجنين مصابًا بمرض وراثى خطير أو إذا كان الجنين ميتًا.

٣ ـ المبررات الإنسانية: مثل إباحة الإجهاض من حمل نتج عن اغتصاب.

٤ ـ المبررات الطبية والاجتماعية: إذا حدث حمل لامرأة غير متزوجة، وذلك اتقاء فضيحة تمس الشرف. وهذا مبرر غير مباح فى كل الأحوال. وهو محل جدل كبير بين المؤيدين والمعارضين من رجال القانون.

الخلفية الأخلاقية التى أدت إلى إباحة الإجهاض (*)

اجتاحت العالم بعد الحرب العالمية الأولى فلسفتان جديدتان، الأولى تنكر وجود الله تعالى، وبالتالى تنكر الدين وتقول عنه أنه أفيون الشعوب.. وأتباع هذه الفلسفة كانوا ملحدين.. وبالتالى لم تكن للفضيلة لديهم أى أسس ثابتة، بل الأساس هو المصلحة الذاتية وإشباع غرائز الجسم. أما الفلسفة الثانية فهى تمجد العقل وتركب موجة التقدم العلمى.. واعتبر أصحاب هذه الفلسفة ـ وكانوا هم شعوب العالم الغربى ـ

(*) نقلت بعض الفقرات من محاضرة للأستاذ الدكتور حسان صفوت فى مؤتمر (الإنجاب فى ضوء الإسلام) الذى انعقد بالكويت سنة ١٩٨٣م.

إن العقل هو المرجع فى تنظيم السلوك.. والمحرك لحياة الناس فما وافق عليه العقل فهو صواب، وما لم يوافق عليه فهو خطأ.. وظهرت دعوة جديدة وهى وجود مراجعة التراث الإنسانى لتنقيته من الأفكار الضالة الفاسدة، وبذلك جعلوا العقل يحتل مكانة الإله المعبود.. ولم ينتبه أولئك الناس إلى أن إلههم الجديد ناقص علمه.. فلا يحيط علما بكل شىء.. والدليل على ذلك الاتجاه إلى الأبحاث العلمية الجديدة بهدف الوصول إلى اكتشافات علمية جديدة.. أليس كل يوم يأتينا بكشف علمى جديد فيه الدليل على أننا كنا فى اليوم السابق أقل علما؟..

وراح العقل يستعرض القيم والفضائل المتوارثة، ويضع بدلا منها قيما وفضائل جديدة، حتى استقر فى وجدان كثير من الناس أن الإنسان حر فيما يفعل ما دام لا يؤذى غيره. وقامت حركة فكرية أخرى تساند هذه الحركة اسمها مذهب «الفضيلة بلا دين» هى تدعو أنه ينبغى على الإنسان أن يحب الخير لذاته ويكره الشر لذاته، بغير أى فكر دينى.. وزعموا أن الدين كان السبب فى تناحر الناس وتفرقهم. وحتى الحروب بينهم كانت بسبب اعتناقهم للفكر الدينى، وقالوا: إن الدين لم يهد الناس إلى الألفة والمحبة من الناحية العملية.. وكم من رجل دين نجده حاقدا أو غير أمين.. وبناء على ذلك قالوا إن على الإنسان أن يحتكم إلى ضميره. فالضمير هو الحكم المهم. وبذلك أزاحوا الدين وأقاموا الضمير مكانه. وبذلك خرجوا عن تعاليم الدين القويمة التى هى بمثابة طوق النجاة للإنسان فى حياته الدنيا الذى يحميه من كل انحراف يضر به. وبذلك انطلق كثير من الناس فى عصر العلم الحالى فى العالم الغربى فى تصرفاتهم، بدون وازع من دين. ولكن بوازع من الضمير القابل للتغيير. والذى يقبل ممارسة اللذات الحسية «بغير ضرر للآخرين». وكانت النتيجة الحتمية أن تقلص ظل الدين فى حياة أولئك الناس، وأداروا ظهرهم إلى الله عز وجل. ولعل الذى ساعد على ذلك أن الفكر المتحرر هناك لم يعد يقتنع بما أدخل على المسيحية مما لم يكن فيها. وقاد ذلك الفكر المتحرر من كل تعاليم دينيه إلى إباحة كثير من المحرمات، وتحت شعار «الفضيلة الجديدة» ما دامت لا تؤذى.. فالشعار عندهم: ما دمت لا تؤذى أحدا فأنت حر.. وصار مفهوم «الأذى» عندهم مفهوما مخطئا لأنه أسس على معايير سطحية، وليست معايير عميقة وصحيحة.

وكانت النتيجة أن الفضيلة الجديدة هى بعينها الرذيلة القديمة. وصاحب ذلك موجة عارمة وهادفة للإثارات الجنسية فى الأفلام السينمائية وروايات المسرح وبرامج وسائل الإعلام المختلفة. بل والأزياء والرقصات. وكثرت تحذيرات علماء النفس فى العالم الغربى من العقد النفسية الناجمة من الكبت الجنسى لدى الشباب.. وبرتراند راسل الفيلسوف البريطانى أعلن فى حدث تليفزيونى دعوته إلى إقامة علاقات جنسية كاملة بين طلبة وطالبات الجامعة ولكن بشرط

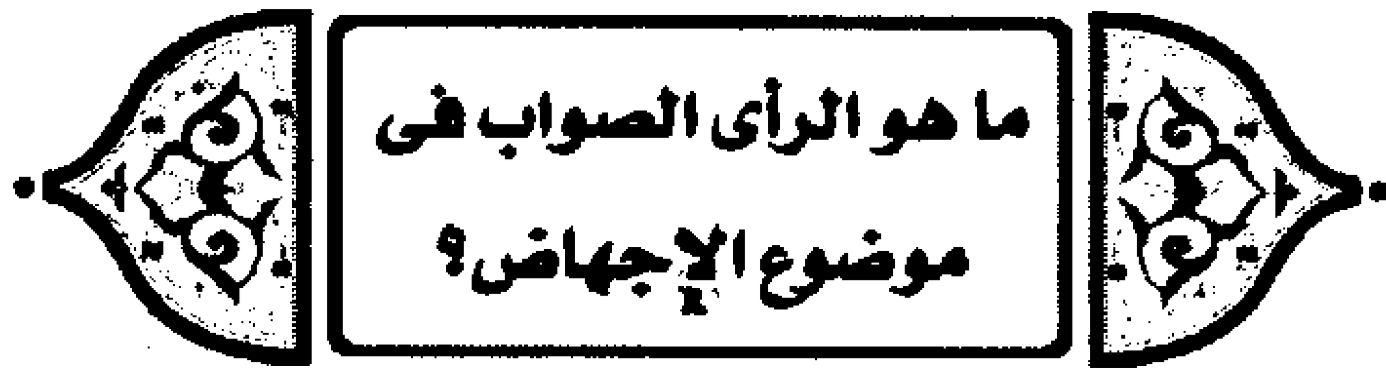
عـدم الحمل. وقـد أصبح ذلك ممكنا بفـضل مـوانع الحـمل. ولم تنج الكنيسـة من ذلك الغـزو الفـكرى. فـفى مـجلة تـايم ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٦، نشـر أن لجنة من مـجلس الكنائس البـريطـانى تبـارك الصلة الجنسيـة بالزواج ولكنها لا تصر على العفة قبل الزواج ولا الالتزام بها بعـده، وتدعو لتهيـئة وسائل منع الحمل للبنات غير المتزوجات، ولمزيد من التساهـل فى تشريعات الإجهـاض. وسرعان مـا أطلقت الهيـئـات الطبيـة كل صيحـات الاستغاثة، وهى تـرى عودة الأمراض السرية إلى بلد كبريطانيـا، كانت تظن أنها تخلصت منها إلى غير رجعة، مع فارقين خطرين:

الأول: أن سن الإصـابة كانت حـول الخامـسة والعـشرين إلى الخـامسة والثـلاثين فصـارت بين الخـامسـة عشرة إلـى الخامـسة والعشرين.

الثانى: كان فى السابق معظم المصابين من الرجـال وأقلهم من الإناث، فـارتفـعت نسبة الإناث حـتى صارت أكثر من خـمسين بالمائة..

وفى عام ١٩٦٥ م كانت ٢٧ بالمائة من الفتـيات المصابات دون سن العـشرين ولازال العدد فى تصاعد حتى اليوم.

وانتـشرت الأمـراض الجنسيـة انتشـارا كبيرا حتى بلغت سنة١٩٦٥ ستمائة وخمسين ألف من الشـبـاب الأمـريكيـين دون سن العشـرين مصـابين بتلك الأمراض (السـيلان والزهرى وغيرها مـن الأمراض السرية) وزاد الإجهاض وكان أغلبه من سفاح.



إن مـصادر الهـداية فى هذا الموضـوع ثلاثة:

١ ـ الدافع الأخلاقى.
٢ ـ دستور المهن الطبية.
٣ ـ حكم الشريعة الإسلامية.

١ ـ الدافع الأخلاقى:

إذا ناقـشنا هذا الموضـوع من الجـانب الاخـلاقى، فـإننا نفـعل ذلك لأنه ليس كل إنسان صـاحب دين.. ولنناقش هؤلاء الناس من باب القواعد الأخلاقية لعلهم يهتدون إلى الرأى الصـواب.. إن الإنسـان يفـتـرق عن الحيوان بأن له إرادة وله فكر وله عقل.

فالحـيوان يتـصرف بغريـزته، لا عقل يردعه ولا خلُق يقومـه ولا إرادة تجعله يختار بين البدائل، فالإنسان يعرف الخطأ والصواب ويفـرق بينهمـا؛ ويسـتطيع أن يكبح جمـاح غرائزه بمـا تمليه عليـه أخلاقه وديـنه إذا كان صاحب دين. وبذلك صار المجتمع الإنسانى مختلفـا تمام الاختلاف عن مجـتمع الغابة.. إلا أن هنـاك أممـا تغـاضت عـن الجـانب الأخـلاقـى إلـى حـد كـبـير فـضـلـت وأضلت.. وفى عـصرنا الحـاضر نرى أمـثلة كـثـيرة من تلك الأمم وخـاصـة فى العـالم العربى.. وبذلك غرست حضارة تلك الأمم فى نفسها أسباب فنائها.

وأطلقوا الحـرية الجنسيـة للرجل والمرأة على سواء.. ولكن لم تتحقق بذلك المساواة

بين الرجل والمرأة؛ فالمرأة هى الخاسرة دائما، فهى إذا عوشرت وهُجرت، فهى الخاسرة، وإذا حملت سفاحا وأجهضت فهى الخاسرة، وإذا ولدت سفاحا فهى الخاسرة أيضا.

ففى تلك المجتمعات صارت «الفضيلة والأخلاق» مجرد شعارات لا معنى لها؛ وقيم عفا عليها الزمن ، وأن العفة ليست من طبيعة الحرية الشخصية للإنسان. ولو نظروا إلى المجتمعات الإسلامية لعلموا أن العفة والشرف هما من السمات الأساسية للإنسان.. وأن الأخلاق والعقل هما من المقومات التى تفرق بين الإنسان والحيوان.. فالأخلاق والفضيلة طب وقائى.. وإذا فقدها أى مجتمع إنسانى وقع فى الضلال والخسران.

٢ ـ دستور المهن الطبية:

تمكن العلماء فى عصر العلم الحالى من تشخيص بعض الأمراض التى تصيب الجنين فى بطن أمه، وأمكن التوصل إلى علاج لبعض هذه الأمراض.. وإذا وجد أن بالجنين تشوهات خلقية خطيرة، فإن الإجهاض هنا محل نظر.. فالطب الآن يعنى عناية فائقة بصحة الجنين. وحتى الأطفال الذين يولدون قبل أوان الولادة الطبيعى فإنه يجد الأطباء المتخصصين لمثل هذه الحالات، يرعونه فى حضانات صناعية وغير ذلك من أدوات الوقاية والعلاج.. ومعنى هذا أن الجنين أصبح إنسانا ترعاه المهنة الطبية..

وهنا تبدو لنا حقيقة لاشك فيها وهى أن الإجهاض غير مباح إذا كان السبب الوحيد فيه أن الجنين غير مرغوب فيه.



٣. حكم الشريعة الإسلامية في الإجهاض

هناك حرمة لحياة الإنسان من أول خلقه جنينا ونفخ الروح فيه إلى أن يموت، هذه الحرمة مقررة فى الإسلام.. والإجهاض محرم سواء قبل نفخ الروح أو بعده. ذلك أن الجنين قبل نفخ الروح فيه، إنسان باعتباره ما سيكون. مثل نزع فسيلة من الأرض أمر لا يقره الدين، مع أن الفسيلة لا تعد نخلة إلا باعتبار ما سيكون. ولا يصح الإجهاض إلا لأسباب طبية أولها إذا كان استمرار الحمل خطرا على صحة الأم.

والجنين حى قبل نفخ الروح فيه فى الشهر الرابع.. وإنما صار بشرا بنفخ الروح.. أما قبل نفخ الروح فهو كائن حى.. وهو نفسٌ حرم الله قتلها إلا بالحق.. ومعنى هذا يحرم الإجهاض قبل نفخ الروح إلا بعذر شرعى. وتزيد حرمة الإجهاض بعد نفخ الروح ويكون التشدد فيه أكثر.

وملخص قول الأئمة فى ذلك أن الإجهاض محرم إلا بعذر؛ لأن الجنين كائن حى وإن كان بلا روح أما الإجهاض بعد نفخ الروح فهو محرم ولا خلاف فى ذلك.



التحكم فى جنس الجنين

بعد ان اكتشف العلماء نوعى الحيوان المنوى وهما المذكر منها والمؤنث، فكروا فى فصل أحدهما عن الآخر. . وقد تم هذا الفصل فى النطاق الحيوانى. . ففصلوا من منى الفحل الحيوانات المنوية التى تحمل صفة الذكورة عن الحيوانات المنوية التى تحمل صفة الأنوثة. . وقاموا بالتلقيح الصناعى للإناث بالحيوانات المنوية للجنس المطلوب ، وقد نجحوا فى ذلك بنسبة ٧٠٪.

وفكر العلماء فى عصرنا الحاضر فى التحكم فى جنس الجنين فى الإنسان بنفس الطريقة. . ولكن كيف يمكن فصل الحيوانات المنوية الحاملة للجين الذكرى عن الحيوانات المنوية الحاملة للجين الأنثوى؟ إنه بطريقة قوة الطرد المركزية. . وحتى نفهم ذلك نضرب مثلا: إذا أحضرنا صينية مستديرة ووضعنا فيها حبات من الأرز وحبات من الفول. ثم أدرنا الصينية. . نلاحظ أن قوة الطرد المركزية تدفع حبات الأرز أبعد من حبات الفول. . لأن حبات الأرز أخف وزنا من حبات الفول. . وبذلك يمكن الفصل بينهما. .

ولما كان الحيوان المنوى الذكرى أخف وزنا من الحيوان المنوى الأنثوى. . فإنه يمكن الفصل بينهما، وعمل تلقيح صناعى للزوجة، بأى نوع من الحيوانات المنوية مطلوب.

ومن الملاحظ أن الحيوانات المنوية الأخف (المذكرة) تستطيع أن تقتحم إفرازات عنق الرحم بسرعة إذا كانت قليلة اللزوجة أما إذا كانت تلك الإفرازات شديدة اللزوجة فإن تلك الحيوانات المنوية تعجز عن الاقتحام السريع وتسبقها فى ذلك الحيوانات المنوية الأثقل (المؤنثة) . بمعنى أن إفرازات عنق الرحم لو كانت خفيفة القوام كان التلقيح بحيوان منوى مذكر أكثر احتمالا، أما إذا كانت تلك الإفرازات لزجة جداً كان التلقيح بحيوان منوى مؤنث أكثر احتمالا. وإذا جامع الرجل زوجه يوم التبويض يكون إفرازات عنق الرحم لزجة جدا فيكون الحمل بالأنثى أكثر احتمالا. أما إذا جامعها بعد التبويض، أو اليوم الذى قبله، حيث تكون الإفرازات أخف وأرق، يكون الحمل بالذكر أكثر احتمالا. وبعض الأطباء ينصح بغسول مهبلى من بيكربونات الصوديوم يوم التبويض لإزالة المخاط اللزج، وذلك قبل الجماع. فإن ذلك يزيد من فرصة الحمل بمولود ذكر.

سؤال : هل التحكم فى جنس الجنين يعتبر تدخلا فى الإرادة الإلهية؟ والله تعالى يقول : ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ** ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشورى]

الإجابة: إن كل ما يفعله الناس هو من مشيئة الله تعالى الذى قال: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا**

﴿أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الإنسان ٣٠ والتكوير ٢٩ (*) فإذا قلنا أن نسبة التحكم لا تتعدى ٧٠٪ فإن الأمر ليس بإرادة الإنسان.. فضلا عن أن اختيار الحيوان المنوى الذى يلقح البويضة هو من اختيار الله تعالى.. وإذا فهمنا أن كل مجهود الإنسان هو فى استخدام فطرة الخلق التى فطر الله خلقه عليها، لعلمنا يقينا - وعلى أسس علمية بحتة - أن الخلق والأمر لله تعالى.

وأى تدخل للإنسان فى فطرة الخلق يفسدها. وإذا نجح الإنسان فى التحكم فى جنس الجنين، لاختل نظام الخلق ولازداد عدد الذكور عن عدد الإناث. وذلك يؤدى إلى عواقب وخيمة فى المجتمع. ومنذ خلق الإنسان على هذه الأرض والنسبة محفوظة فى حدود ٥٠٪ لكل من الجنسين. وبذلك ظل التوازن قائما بين الذكور والإناث على امتداد العصور.

لذلك فإنه من الأولى ألا يتدخل الإنسان فى فطرة الخلق. فى محاولة التحكم فى جنس الجنين وأن يترك ذلك الأمر إلا لضرورة ما؛ كرجل أنجبت له زوجه خمسا من البنات ويريد طفلا ذكرا وإلا طلق زوجته. فى هذه الضرورة لا مانع من محاولة التحكم فى جنس الجنين المشار إليه سابقًا، وليفعل الإنسان ما يفعل، فقدرة الله تعالى غالبة. والله عز وجل غالب على أمره. وروى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ سئل فى موضوع العزل فقال: «**افعلوا ما تشاءون واجتهدوا كيفما تشاءون، ولكن قدرة الله غالبة إن الله بالغ أمره**».

إن التحكم فى جنس الجنين فى الإنسان لايزال فى طور الاختبارات.. ولن يستطيع الإنسان مهما فعل أن يتحكم فى جنس الجنين فى كل الحالات، لقول الله عز وجل فى سورة الشورى ٤٩ - ٥٠:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ..﴾.

ويرى كثير من العلماء أن التوازن العددى بين الإناث والذكور مقصود.. وبه عاشت الإنسانية منذ نشأتها وإلى اليوم بدون مشكلات. لذلك ليست هناك حاجة إلى تدخل العلماء فى موضوع التحكم فى جنس الجنين. وأن العلماء فى هذا يلعبون فى مسائل على جانب كبير من الخطر. ولو نجحوا فيه لأدى نجاحهم إلى فساد كبير. ولفتح الباب على مصراعيه للعب بالمنى فى أمور أكثر خطرا تجعل المجتمع الإنسانى كالمجتمع الحيوانى تختلط فيه الأنساب.

(*) وقد نجح العلماء فى التحكم فى جنس الجنين فى الحيوان.. وليس هذا تغييرا لخلق الله فهم ماخلقوا الحيوان المنوى وهم ماخلقوا البويضة.. وإنما حاولوا واجتهدوا فى الاختيار الذى قد ينجح وقد لاينجح.. والأمر نفسه بالنسبة للإنسان.. والقضية كلها لاتدخل فى تغيير خلق الله ولاتمس مشيئة الله فى خلقه.. لأن الإنسان ومايفعل هو من قدر الله.. ومايشاء الإنسان إلا أن يشاء الله. إنما المسألة تدخل فى قضية الأحكام الشرعية، التى تقبل بعض الحالات، وترفض بعضها الآخر.

ويرى بعض الأطبـــاء أنه لاداعى لكل هذه المحاولات فى المعامل للتحكم فى جنس الجنين ،والنجاح فـيها لايتـعدى ٧٠٪ ـ من الناحية النظرية ـ فـإنه من الأفضل أن نحاول التحكم فى جنس الجنين بنفس النسبة بطريقة طبيعية، فإن الجـماع قبل يوم التبويض يكون الحمل فى الغالب بجنين ذكـر، والجماع يوم التبويض وبعده بيوم يكون الحمل غالبا بجنين أنثى. ولايقـول أحـد أن فـى هذا النوع من التحكم الطبيعى حرمة شرعية..

الملخص: نجح العلمـاء إلى حد كبـير فى التحكم فى جنس الجنين فى عالم الحيوان بالتلقـيح الصناعى من هنا كـان التفكيـر فى عـمل الشىء نفســـه فى الجنس البـشـرى. وفكروا فى عزل الحيـوانات المنوية المذكرة فى الإنسان عن الحيوانات المؤنثة وقالوا: إن ذلك الأمر ممكن. وثار جدل كبير فى هذا الموضوع من الناحية الطبية والناحية الشرعية:

فمن الناحية الطـبية قالوا أن هذا ممكن بنسبة ٧٠٪ بطريق التلـقيح الصناعى للزوجة من مـاء زوجهـا . وقال آخـرون،إنه لاداعى لهذا لأنه من الممكن التحكم فى جنس الجنين بطريقة طبـيعية، وهـو الجماع قبل التـبويض بيـوم وهذا يؤدى إلى حـمل بجنين ذكـر فى ٧٠٪ من الحـالات. والجمـاع يوم التبـويض وبعـده بيوم يؤدى إلى حـمل بجنين أنثى فى ٧٠٪ من الحالات.

وقـال الشـرعيـون: إن هذا الموضـوع تدخُّل فى مشيـئة الله تعالى، الذى يهب لمن يشاء إناثـا ، ويهب لمن يشاء الذكـور، وقال آخرون: أن هذا ليس تدخـلا فى مشيـئة الله تعالى لقـوله عز وجل:﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ .. إلا أن من رأى المؤلف ألا نطرق هذا البـاب، ونتـرك فـطرة الخلق التى حفظت التوازن فى النسبة العددية بين الإناث والذكور، بنسـبة ٥٠٪ لكل منهمـا منذ نشأة الإنسان على هذه الأرض.



منع الحمل الجراحى

لمنع الحمل طرق متعددة منها:

١ ـ منع الحمل بواسطة هرمونات تعطى بالفم أو بالحقن.

وهذه تعطل عملية التبويض، فلا يحدث حمل، وهذه أكثر طرق الوقاية من الحمل شيوعًا.

٢ ـ وسائل الوقاية من منع الحمل لكل من الرجل والمرأة بخلاف الطريقة الأولى.. وهى وسائل توضع فى الأجهزة التناسلية الخارجية لكل من الرجل والمرأة. من شأنها منع وصول ماء الرجل إلى الرحم.

٣ ـ منع الحمل جراحيًّا لكل من الرجل و المرأة (عمليات التعقيم)(*).

وهذه طريقة للوقاية من الحمل يلجأ إليها الطبيب لضرورة أو لأسباب ضرورية:

أولا : عندما يتبين أن حملا جديدا لامرأة ما قد يؤدى إلى هلاكها، وذلك لأسباب مرضية تعانى منها تلك المرأة.

ثانيا: لتحديد عدد الأولاد بعد أن ولدت امرأة ما عددا كبيرا من الأولاد. أو لرغبة امرأة ما فى ألا تحمل بالمزيد من الأولاد لأسباب اقتصادية أو اجتماعية.

ثالثًا : كوسيلة للوقاية فى مجتمع ما من الانفجار السكانى. وعلى الطبيب فى كل الحالات أن يراعى الحكم الشرعى؛ لأن الطب فى الإسلام أمانة وعبادة وصلة بين الطبيب وربه. فعليه أن يكون صريحا مع المرأة أو زوجها، مطلعا إياهم على كل المخاطر أو النتائج لمنع الحمل جراحيًّا. ولو ألح الزوج وألحت الزوجة فى طلب عملية منع الحمل ولم يقتنع الطبيب بضرورتها فلا ينبغى عليه إجراء العملية. فلا يقوم بعمل إلا إذا كان مقتنعا بصحته تماما.

فمنع الحمل الجراحى فيه الحلال، وفيه أبغض الحلال، وفيه الحرام.

وهناك أمر آخر لا ينبغى أن ينساه الطبيب الذى يجرى عملية منع الحمل الجراحى وهو تغير الظروف تغيرا غير متوقع، يوجب طلب إعادة الحمل من جديد، فتأتى المرأة إلى الطبيب، وتطلب منه إعادة الحال كما كان عليه قبل عملية منع الحمل الجراحى. وقد يكون ذلك مستحيلا. فالرأى السليم هو ألا تجرى عمليات منع الحمل إلا عند الضرورة القصوى. وألا يكون هناك بديل عنها بعلاج طبى آخر يمنع الحمل.

(*) عمليات التعقيم : قد تكون باستئصال الرحم، أو بقفل قناتى فالوب فى المرأة. أو قفل القناتين المنويتين فى الرجل.

بنوك الحليب البشرى المختلط

نشأت فكرة إقامة بنوك الحليب البشرى حديثا؛ ذلك لأن الخديج (أى الذى ولد قبل أوان الولادة وهو ناقص فى نموه) ينبغى عزله فى حضانة صناعية لفترة قد تطول حتى يمتلئ ثديا أمه باللبن.. ويوضع الطفل الخديج تحت رعاية طبية مركزة. وأنسب غذاء له فى هذه الفترة الحرجة اللبن البشرى، وفى البلاد الغربية تتبرع الأمهات المرضعات ببعض اللبن من حليبهن.

وتجمع المؤسسات الطبية المتخصصة ذلك اللبن من الأمهات المتبرعات وتحفظه وتعقمه، لإرضاع الأطفال المبْتَسَرِين فى هذا الطور الحرج، الذى قد تضرهم تغذيتهم فيه بألبان غير بشرية. ويحدث أن تختلط الألبان من مئات الأمهات، ويتغذى به مئات الأطفال الخدج أيضًا.. ويتم ذلك دون لقاء مباشر - أى دون مص الثدى.

فهل يُحرم الإسلام حليب البنوك، رغم مساهمته فى إنقاذ حياة أطفال مبتسرين؟ وهل الأطفال الذين يتغذون من حليب الأمهات المختلط يكونون أخوة فى الرضاع؟

ولا شك أن حجم المشكلة أقل مما يتصور كثير من الناس.. فإن الطفل الخديج الذى يحتاج إلى لبن بشرى لاتزيد نسبته عن ١٪ من المواليد، فضلا عن أنه بالإمكان إرضاعه من ألبان الحيوانات (الألبان الصناعية).. ولا توجد فى الولايات المتحدة إلا عدد قليل من بنوك الحليب لايزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة.. والحالات التى تحتاج للبن بشرى لإرضاع الأطفال المبتسرين قليلة العدد. إذن فحجم المشكلة قليل. ولكن احتمال إنشاء مثل هذه البنوك موجود. وقد تزداد المشكلة اتساعا. فما هو الرأى؟

ملخص الرأى الشرعى فى بنوك الحليب البشرى المختلط:

ما هو معنى الرضاع؟

قال الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة والشافعى ومالك: الرضاع كل ما يصل إلى جوف الطفل عن طريق حلقه. ومنه ما يصب فى حلقه. وخالفهم فى ذلك الإمام الليث بن سعد معاصر الإمام مالك ونظيره فقال: أن ما يصب فى الحلق ليس برضاع.

وقال الدكتور يوسف القرضاوى فى هذا الشأن ما يلى:

(الذى أراه أن الشارع جعل أساس التحريم هو «الأمومة المرضعة» كما فى قوله تعالى فى بيان المحرمات من النساء: ﴿... **وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ...**﴾ [النساء ٢٣] وهذه الأمومة

التى صرح بها القرآن لا تتكون من مجرد أخذ اللبن، بل من امتصاص الثدى وأخذ ما به من لبن والالتصاق الذى يتجلى فيه حنان الأمومة وتعلق البنوه. وعن هذه الأمومة تتفرع الأخوة من الرضاع. والألفاظ الشارع الحكيم تتحدث عن: الإرضاع والرضاع والرضاعة. ومعنى هذه الألفاظ التى نزل بها القرآن وجاءت بها السنة واضح وصريح، لأنها تعنى إلقام الثدى والتقامه وامتصاصه، لا مجرد الاغتذاء باللبن بأى وسيلة».

وقال الإمام ابن حزم : «صفة الرضاع المحرم هو ما امتصه الراضع من ثدى أمه بفمه فقط فأما من سقى لبنا من امرأة أخرى فشربه من إناء أو حلب فى فمه فبلعه أو أطعمه فذلك لا يحرم شيئا .وبرهان ذلك قوله تعالى: ﴿.. وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ..﴾ [النساء ٢٣] وفى الصحيح عن السيدة عائشة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» فلم يحرم الله ورسوله الزواج إلا بالإرضاع والرضاعة والرضاع فقط. ولا يسمى إرضاعا إلا ما وضعته المرأة المرضعة من ثديها فى فم الرضيع يقال: أرضعته ترضعه إرضاعا، ولا يسمى رضاعة إلا أخذ الرضيع الثدى بفمه وامتصاصه إياه يقال: رضع الطفل يرضع رضاعا أو رضاعة. أما سقى الرضيع اللبن فى فمه وبلعه فلا يسمى إرضاعا ولا رضاعة ولارضاعا. وقال الإمام الليث بن سعد : «إنما الرضاع ما مص من الثدى» وهذا ما يتمشى مع الحكمة فى التحريم بالرضاع، وهو وجود أمومة تشابه أمومة النسب. وعنها تتفرع البنوة والأخوة وسائر القرابات الأخرى. ومن الواضح أن الرضاع بهذا المعنى لا يتوفر فى حالة بنوك الحليب البشرى، وبالتالى فلا يترتب عليها تحريم. .

أما إذا أخذنا بالأحوط فى «بنوك الحليب البشرى» فيحفظ الحليب فى قوارير خاصة ويكتب عليها اسم المرأة المتبرعة به، واسم الطفل الذى سقى منه. وهذا يقنع من لا يشترط مص الطفل اللبن من ثدى أمه. . ولن نسترسل فى الرأى الشرعى؛ لأن هذا خارج عن موضوع الكتاب، فنكتفى بما ذكرنا.

أما الحكمة الطبية فى تحريم النسب فى الأخوة من الرضاع، فإنها لم تظهر إلى الآن على أساس علمى مؤكد، إلا أنه من المعروف الآن أن للطعام تأثيرا على طباع الإنسان، فاللبن من أم معينة يؤثر على مزاج طفلها وطباعه فى مستقبل أيامه. ولا شك أن لبن الأم له تأثير بالغ على عوامل الوراثة فى الطفل إلا أن العلم لم يتوصل حتى الآن إلى حقيقة علمية ثابتة. وليس أمامنا إلا الاستجابة لأمر الله عز وجل الذى خلق الخلق وهو أعلم بخلقه. وهو القائل عز وجل: ﴿ ..وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء].

المباشرة الزوجية أثناء الحيض (*)

لم يكن العلماء والفلاسفة قديما على علم صحيح بالأضرار الصحية التى تحدث لكل من الرجل والمرأة من جراء المباشرة الزوجية أثناء فترة الحيض . ونقرأ فى تاريخ العلوم آراء عجيبة فى هذا الموضوع . إلا أنها جميعا لم تكن صحيحة . وأول ما ذكر العلم الصحيح فى الوقاية من أخطار المباشرة الزوجية أثناء الحيض؛ كان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . .

أما اجتهاد العلماء فى هذا الموضوع فكان يتأرجح بين الجهل والخطأ زمنا طويلا إلى أن جاء عصر العلم الحالى. وكان أحرى بالعلماء والمفكرين أن يتدبروا ما جاء بالقرآن والسنة من حق. ولو فعلوا ذلك لوفروا على أنفسهم عناء البحث والدراسة زمنا طويلا.

وتوصل العلماء أخيرا إلى ضرورة توقف المباشرة الزوجية أثناء الحيض. وأنه لابد لاستئناف المباشرة الجنسية من انقطاع الدم والتطهر بالماء بعد ذلك. وهذا ما ذكره القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، من قبل أن يعلم العلماء عن كل ذلك شيئا.

وما هو سبب الأضرار الصحية التى تلحق بالرجل والمرأة من جراء المباشرة الجنسية أثناء الحيض؟

تحدث دورة حيوية للجراثيم الضارة، وأخرى للميكروبات المفيدة بمهبل المرأة، وذلك خلال الدورة الشهرية. أما الميكروبات المفيدة فهى عصيات دودرلين. وهى موجودة بقناة المهبل . وهى خط دفاع موضعى ضد الجراثيم الضارة وتقتلها؛ ذلك لأن تلك العصيات تسبب وسطا حامضيا بقناة المهبل الأمر الذى يقتل الجراثيم الضارة. وتصل تلك العصيات إلى قمة نشاطها وتكاثرها عند منتصف الدورة الشهرية. ثم تقل تدريجيا بعد ذلك، حتى إذا أوشك الحيض على الظهور، يكون الوسط الحامضى قد اختفى وحل مكانه وسط قلوى، وهذا يساعد على نشاط وتكاثر الجراثيم الضارة. . وقد يتكاثر أيضا طفيل وحيد الخلية يسمى الترايكوموناس Trichom-onad Vaginalis ويسبب التهابات سطحية موضعية وينتج عنه إفرازات ذات رائحة غير مقبولة. وشعور بالحكة موضعيا. وينتقل الطفيل إلى الرجل إذا باشر أثناء الحيض. أما الجراثيم الضارة فهى أنواع كثيرة، إلا أنها تكون كثيرة جدا أثناء فترة الحيض مئات الملايين. إلا أنها لاتقتحم جدار المهبل؛ لأن تيار دم الحيض يجرفها إلى الخارج ويمنع اقتحامها لجدار المهبل. وتيار دم الحيض هو خط الدفاع الوحيد فى هذه الفترة. أما إذا حدث اتصال جنسى بين الرجل والمرأة أثناء فترة الحيض فإن أذى كبيرا قد يلحق بهما.

(*) انظر كتاب المؤلف (المحرمات وصحة الإنسان).

ويبين القرآن الكريم الأمر كله ويوضحه فى سورة البقرة فى قوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

والتطهر: هو اقتفاء أثر الدم والاغتسال بالماء ـ كما علمتنا السنة النبوية ـ وهذا يزيل الجراثيم الضارة الموجودة، فى الوقت الذى انقطع فيه تيار دم الحيض، وبالتالى توقف طرد تلك الجراثيم الضارة إلى الخارج .. فتزال بالماء.

والطهر: هو انقطاع الدم.

وبذلك وضع الإسلام الأسس الصحية فى الطب الوقائى فى موضوع المباشرة الزوجية أثناء فترة الحيض واعتزال المرأة فى الحيض هو اعتزال المباشرة فقط. وليس اعتزال المرأة فى السكن والفراش والطعام والشراب كما كانت تفعل الأمم السابقة.



جريمة الزنا

الاتصال الجنسى غير المشروع بين رجل وامرأة يسبب أخطارا لا حدود لها للإنسان الخاطئ نفسه؛ وللمجتمع الذى يعيش فيه. والزنا لايتم بدون مقدمات.

ماهى مقدمات الزنا

تحدث رغبة جنسية شديدة، تصاحبها أحاسيس ومشاعر تحمل معها الاضطراب العصبى، والمعاناة من الخوف من المجتمع وتأنيب الضمير، والفزع من نتائج ما هما مقدمان عليه من خطيئة. حينئذ تختفى العزة من النفس، ويفقد الإنسان كبرياءه.

الأضرار الصحية

إذا تحدثنا عن الأضرار الصحية فى فترة ماقبل الاتصال الجنسى غير المشروع، فستحدث عن الاحتقان الشديد بالغدد التناسلية فى كل من المرأة والرجل، والاضطراب النفسى والتوتر العصبى . وما يجر كل ذلك على الجسم والنفس من اضطرابات شتى.

إذن فمقدمات الزنا مصحوبة بأضرار صحية كثيرة . ولاشك أن أشد الأخطار هو تمام الخطيئة نفسها . والخاطئ يقع فى معاناة نفسية وعصبية شديدة، مما يضطره إلى البحث عما يهدئ أعصابه ويريح نفسه فيقع فى خطأ أكبر؛ لأن الخطأ يؤدى إلى خطأ آخر؛ فيتعاطى المخدرات أو الخمور . وهذا باب فيه الكثير من المصائب للإنسان.

فمقدمات الزنا تسبب أضراراً بالجسم كثيرة وأخطارا بالنفس لاتحصى؛ لذلك نجد القرآن الكريم ينهى عن مقدمات الزنا فضلا عن الزنا نفسه. فيقول الله عز وجل فى سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ..﴾ وفى قوله تعالى نهى عن القرب من الخطيئة؛ إشارة إلى مافى ذلك من أضرار بدنية وأخطار نفسية.

أخطار الزنا

إذا تم ذلك الفعل، فإنه يجر سلسلة من الأخطار الصحية والنفسية والمادية والاجتماعية .. فهو ضرر مطلق بكل المقاييس.

ومن الناحية الصحية، فالزنا ينشر الأمراض الجنسية مثل الزهرى والسيلان وعشرات من الأمراض الأخرى. وأى مجتمع ينتشر فيه الزنا، تنتشر فيه بالتالى تلك الأمراض بالرغم من توافر العلاج. ويعانى

المجتمع من مضاعفات تلك الأمراض التي تسبب أنواعا من الأمراض العصبية وأنوعا من الشلل . ومن أمراض القلب وأعضاء الجسم الأخرى .



الزنا يؤدى إلى القتل

إن الأخطار الاجتماعية للزنا تؤدى إلى القتل منها الآتي:

١ ـ عمليات الإجهاض للأجنة الناتجة من الزنا . وهذا قتل للأجنة.

٢ ـ إن لم يقتل الجنين في بطن أمه، فإنه يقتل بعد ولادته أو يلقى به إلى الضياع.

٣ ـ الزنا يقتل الروابط العائلية ويهدم التقاليد الاجتماعية.

٤ ـ الزنا يقتل ما فى نفس الزانى من طهر وسمو وعزة وكبرياء.

٥ ـ الزنا يطرد الإيمان من القلب كما قال رسول الله ﷺ : **«لايزنى الزانى وهو مؤمن»** وقد يكون هذا هو السبب فى أن القرآن الكريم ذكر الزنا فى معرض النهى عن القتل فى سورة الإسراء ٣١ ـ ٣٣ فى قول الله عز وجل: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴿٣١﴾ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴿٣٢﴾ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ فذكر الزنا بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل الإنسان ؛ لأنه يؤدى إلى كثير من سبل القتل أيضا.

وجاء النهى عن الزنا فى معرض النهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق فى سورة الفرقان ٦٨ فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴿٦٨﴾ ﴾ .

فما أخطر الزنا من طريق، وما أسوأه من سبيل كما قال تعالى: ﴿ **وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾.



الإيدز
(متلازمة نقص المناعة المكتسبة)

الإيدز يعتبره الناس مرضا قاتلا، ينتقل إلى الإنسان بطريق العدوى من إنسان مريض. أما العلماء فيعتبرون الإيدز «متلازمة» Syndrome وليس مرضا أى أنه مجموعة من الأعراض المرضية تظهر على الإنسان - مجتمعة أو غير مجتمعة - فتسبب حالة مرضية معينة . . واشتقوا اسمه من جملة تصف الحالة المرضية . . وهى «متلازمة نقص المناعة المكتسبة» وباللغة الإنجليزية Acquired Immune Deficiency Syndrome والغربيون تعودوا على استنباط الأسماء من الحروف الأولى بجمل قصيرة. وأول الحروف فى الجملة السابقة هى Aids أى إيدز . ومثل ذلك كلمات:

اليونيسيف، والأوبيك، واليونسكو، والنايلون. فمثلا كلمة نايلون Nylon مكونة من الحروف الأولى لجملة قالها أحد المهندسين المخترعين للنايلون - فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن وهو يفحص بيده أول خيوط للنايلون، ويفخر بانتصاره على اليابانيين وتكنولوجيا اليابان، قال: (والآن أيتها اليابان العجوز المقملة (المصابة بالقمل) Now You Lousy Old Nippom جمعوا حروف أول كلمات هذه الجملة فكانت Nylon نايلون. وهذا ماحدث فى تسمية متلازمة نقص المناعة المكتسبة «بالإيدز».

وكان أول ظهور هذا المرض الوبيل سنة ١٩٧٩ م. إلا أنه لم يجذب الأنظار تماما إلا فى سنة ١٩٨١م. ومنذ ذلك الحين والعلماء يدرسون هذا المرض . وابتدأوا يتعرفون على الفيروس الناقل له وعلى طرق العدوى . . إلا أن العقبة التى وقفت أمام العلماء كانت كيفية الشفاء . .إنهم حتى الآن لم يصلوا إلى علاج ناجع لهذا المرض القاتل، الذى يعدى الإنسان السليم عن طريق الاتصال الجنسى بشريك مصاب، أو عن طريق اللواط بشريك مصاب أيضا، أو عن طريق نقل الدم الملوث بفيروس المرض إلى إنسان مريض محتاج إلى نقل دم أو بطرق أخرى للعدوى. وبذلك تعرف العلماء على طرق الوقاية من الإصابة بالايدز وهى: تجنب طرق العدوى. ومنذ سنة ١٩٨١م والعلماء فى دراسة متصلة. وقد اتضح أمامهم أن الإيدز أوسع انتشارا بين الناس وأكثر مما كانوا يتصورون. وأن المرضى الذين تظهر عليهم أعراض المرض هم نسبة قليلة من المرضى الحاملين للفيروس، ولم تظهر عليهم علامات المرض بعد. فالناس فى علاقتهم بالإيدز مثل جبل الثلج لايظهر على السطح إلا عشر حجمه. فما يظهر لنا من الإيدز فى المرضى هو ١٠٪ فقط، أما ٩٠٪ فهم منتشرون فى المجتمع ولم تظهر عليهم الأعراض المرضية بعد، ومع ذلك فهم مصدر

للعدوى دون أن يشعروا. وهذا يضيف مشكلات أخرى إلى الإيدز التى صارت مشكلاته لاتحصى.

متى اكتشف مرض الإيدز؟

صدر أول تقرير رسمى عن الإيدز عن مركز السيطرة على الأمراض فى أمريكا . Centre for Disease Control . . وهو مركز مسئول عن التحرى عن الأوبئة ومحاولة السيطرة عليها. وكان أول تقرير يصف حالة خمسة شبان مصابين بالشذوذ الجنسى، مصابين بنوع نادر من الالتهاب الرئوى تسمى فى الطب التكيس الرئوى الكارينى Pneumo-cystis Carinii Pneumonia . وكان من المعروف أن ذلك المرض النادر لايصيب إلا الأشخاص الذين يعانون من ضعف المناعة الوراثية الشديد، وما إلى ذلك من الأمراض. وفى نفس السنة وردت تقارير طبية من نيويورك وكاليفورنيا عن ست وعشرين حالة من الشواذ جنسيا، وقد ظهرت عليهم أعراض مرض خبيث نادر الوجود جدا فى أمريكا ويسمى الورم السرطانى الكابوسى Kaposi Sarcome ومات منهم أربعة وعشرون خلال عامين من ظهور الورم السرطانى عليهم، وكان سبب ظهور هذين المرضين إزعاجًا شديدًا للأطباء المعنيين. ولاحظوا أن هذين المرضين لايحدثان إلا فى الشواذ جنسيا ،مما يشير إلى سبب واحد للمرضين: الإيدز والورم السرطانى الكابوسى. واكتشف العلماء أن لدى أولئك المرضى نقصًا شديدًا فى المناعة المكتسبة.

كان عدد المصابين سنة ١٩٨١ م فى أمريكا وحدها ٢٥٢ مصابا، وفى أواخر سنة ١٩٨٣ م ارتفع عدد المصابين إلى ٢٦٤٣ مصابا. ووردت تقارير طبية تشير إلى وفاة ٦٠٪ منهم خلال السنة التالية وهى سنة ١٩٨٤ م. وفى أوائل صيف سنة ١٩٨٥م ارتفع عدد المصابين بالإيدز فى أمريكا وحدها إلى عشرة آلاف مصاب . . وفى نفس الوقت ظهرت تقارير من هيئة الصحة العالمية W.H.O تقرر حدوث ٩٤٠ حالة من الإيدز فى أوربا، مات نصفهم تقريبا فى غضون عام واحد.

أما الآن فقد انتشر الإيدز انتشارا مخيفا فى كل القارات . وأكثر انتشاره فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا. . وصار عدد المرضى بالإيدز فى العالم يعد بالملايين. وأصبح مشكلة حقيقية فى العالم الآن . بالرغم من معرفة طرق العدوى منه إلا أن نسبة العدوى تتزايد زيادة كبيرة باستمرار.

الأشخاص المعرضون للإصابة بالإيدز

١ ـ الشواذ جنسيا إذا كان أحد الشواذ مريضًا والآخر سليمًا.

٢ ـ المتعاطون للمخدرات عن طريق الحقن بالوريد بصورة جماعية فيشتركون فى استعمال إبرة واحدة غير معقمة.

٣ ـ المرضى الذين يتعاطون نقل الدم . إذا كان أحد أكياس الدم محتويا على فيروس المرض.

٤ ـ الأجنة فى رحم أم حاملة للفيروس.

٥ ـ الاتصال الجنسى بين رجل وامرأة إذا زنيا معا وكان أحدهما مصابا والآخر سليما.



جهاز المناعة فى الجسم

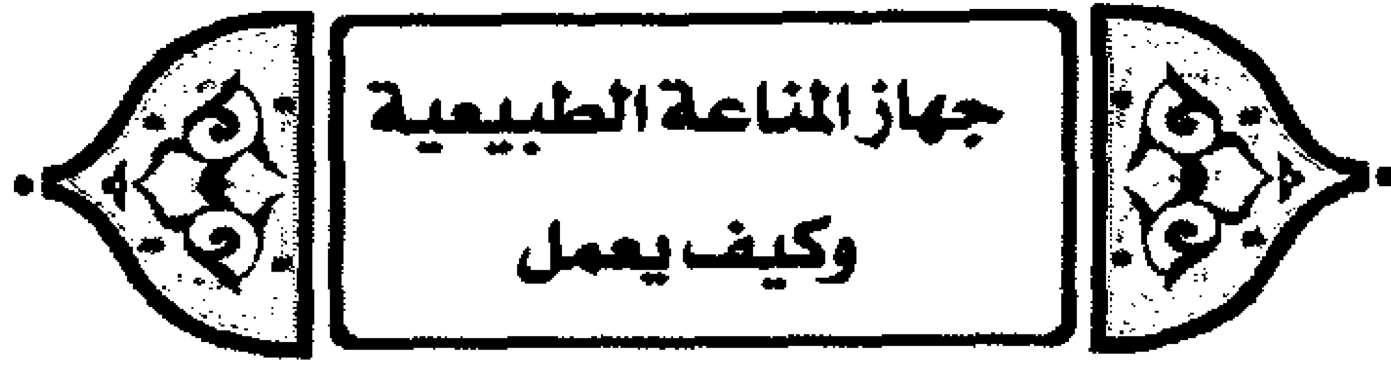
جسم الإنسان محاط بالميكروبات دائما. فهى على جلده، وفى الهواء الذى يتنفسه، وفى الشراب الذى يشربه وفى الطعام الذى يأكله. وفى بعض الأحوال تدخل الميكروبات جسم الإنسان، فتسبب له مرضا. إلا أن المرض لايحدث إلا بعد أن تفشل خطوط الدفاع وجهاز المناعة فى التغلب على الميكروبات المهاجمة.

وأجهزة المناعة نوعان رئيسيان:

١ ـ المناعة الطبيعية Innate Immunity وهى مناعة يولد جسم الإنسان بها. وهى مناعة غير نوعية، أى أنها تستطيع مقاومة جميع الميكروبات التى تغزو الجسم.

٢ ـ المناعة المكتسبة Acquired Im-mumity أو جهاز المناعة. والمناعة فيه مناعة نوعية.

أما إذا أصيب الجسم بفيروس الإيدز فإنه يسبب فقدان القدرة على التغلب على الميكروبات الغازية؛ لأنه يدمر جهاز المناعة المكتسبة.



جهاز المناعة الطبيعية وكيف يعمل

يتكون من الجلد والأغشية المخاطية وبعض المواد الكيميائية فى الجسم، وبعض خلايا الدم البيضاء والجهاز الليمفاوى. والجهاز الشبكى البطانى Reticuloendothe-lial System فالجلد هو خط الدفاع الأول الذى يمنع الميكروبات من أن تدخل الجسم وكذلك الأغشية المخاطية فهى فضلا عن حمايتها للجسم فإنها فى بعض أماكن الجسم مثل الغشاء المخاطى المبطن للجهاز التنفسى، يحمل أهدابا صغيرة جدا تتحرك حركة مستمرة لتطرد الأجسام الغريبة إلى خارج الجسم. فالميكروبات والأجسام الغريبة التى تصل إلى الشعيبات الهوائية تلتصق بالمخاط الموجود على سطح الأغشية المخاطية . وتقوم الأهداب بطردها إلى الخارج . وبذلك تعمل هذه الأهداب على حماية الجهاز التنفسى من الإصابة بالميكروبات الضارة . وجدير بالذكر أن التدخين يعطل حركة الأهداب وبالتالى يفقد الجهاز التنفسى خطا من خطوط دفاعه ويكون المدخن بذلك أكثر عرضة للإصابة بالالتهابات الرئوية من غير المدخن.

والعصارة المعدية حامضية فهى تقتل كل الميكروبات التى تصل إلى المعدة. وإذا قل الوسط الحامضى للمعدة لسبب أو لآخر، فقد الجهاز الهضمى خطا هاما من خطوط دفاعه ضد الميكروبات، أما إذا وصل الميكروبات إلى الدم عن طريق خدش فى الجلد مثلاً فسوف تتعرض لعوامل كيميائية فى الدم تعمل على إبادتها . وإذا فشلت تلك العوامل الكيميائية



فسوف تواجه الميكروبات الغازية جهاز المناعة غير النوعية. وفى نفس الوقت تنشأ مناعة نوعية لذلك الميكروب المهاجم تظل بالجسم عادة زمنا، قد يطول مدى الحياة فى معظم الحالات..

ومن أمثلة ذلك: مرض الجديرى إذا أصيب به الجسم فإن جهاز المناعة المكتسبة يعمل على إبادة فيروس الجديرى إذا دخل الجسم مرة أخرى. فهى مناعة مستمرة ونوعية ضد نوع معين من الأمراض وليس ضد الأمراض الأخرى. بمعنى أن الإصابة بمرض الجديرى ينشط جهاز المناعة المكتسبة ضد فيروس الجديرى وليس ضد غيره من الفيروسات.

ما هو جهاز المناعة: إنه جهاز فى منتهى التعقيد لم يكتشف العلماء بعض أسراره إلا حديثا جدا والذى ينطق بقول الله عز وجل: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات ٢١] وفى الدم كرات دم حمراء لاعلاقة لها بجهاز المناعة، وظيفتها نقل الأكسجين إلى خلايا الجسم وحمل ثانى أكسيد الكربون منها .. وفى الحويصلات الرئوية يحدث تبادل الغازات. وتتخلص الكرات الحمراء من غاز ثانى أكسيد الكربون. وتحصل على غاز الأكجسين من جديد . وفى الدم كرات بيضاء لها علاقة مباشرة بجهاز المناعة .. الخلايا البيضاء Leucocytes هذه تحاول القضاء المباشر على الميكروبات والخلايا الليمفية Lymphocytes تتجول فى أنحاء الجسم بواسطة الدم والسائل الليمفى بالجسم . ففى الجسم أوعية دموية بها الدم . وأوعية ليمفية بها السائل الليمفى، وتصب هذه الأوعية الليمفية فى العقد الليمفية فى تجمعات بالجسم وفى هذه العقد خلايا خاصة تلتهم الميكروبات المهاجمة.

وفى جهاز المناعة الخلوى خلايا تسمى خلايا **ت** وخلايا **ب**. واشتق اسم الخلايا التائية من الغدة التيموسية Thymus gland التى تقع تحت عظم القص فى أعلى الصدر وهى المسئولة عن تنظيم الخلايا الليمفية التى تصنع فى نخاع العظام . وتعطيها القدرة على وظيفتها المناعية . والخلايا التائية هى التى تكتشف وجود التركيب الغريب عن الجسم Antigen الذى يوجد على الغلاف الخارجى للميكروب الغازى للجسم. والخلايات التائية وقد تعرفت على تركيب الجدار الخارجى للميكروب الغازى، تكون لديها الذاكرة لمهاجمة هذا الميكروب لو غزا الجسم مستقبلا وتدمره بطريقة أو بأخرى.

والخلايا التائية ترشد الخلايا البائية وتساعدها على إنتاج المواد الكيميائية المضادة لهذا النوع من الميكروبات Antibodies . والموضوع ليس بهذه البساطة فله تفصيلات علمية كثيرة ليس هذا مجال الحديث عنها . وإنما أردنا أن نعطى مجرد إشارة عن عمل جهاز المناعة فى الجسم . وكيف أن فيروس الإيدز يدمر هذا الجهاز .. فيصير الجسم أمام الميكروب الغازى له، لاحول له ولاقوة، وبالتالى يعد فريسة سهلة لتلك الميكروبات فتسبب التهابات حادة فى الرئتين تكون السبب فى وفاة مريض الإيدز أو تسبب الإصابة بورم كابوسى السرطانى. أو بالإصابتين معا.

الأعراض المرضية التى تظهر على مريض الإيدز

١ ـ تضخم الغدد الليمفية فى العنق والإبط والمنطقة الأربية. من كلتا الناحيتين.

٢ ـ فقدان الوزن بدون سبب ظاهر.

٣ ـ ارتفاع درجة حرارة الجسم وزيادة إفراز العرق لمدة أسابيع عديدة.

٤ ـ النهجان وقصر النفس، والسعال الجاف، الذى يستمر شهورا.

٥ ـ طفح جلدى متنوع على شكل بقع حمراء أو قرمزية، وتشبه الكدمات، تظهر على أى مكان فى الجسم .. كما تصاحب ذلك التهابات فطرية بالجلد.

٦ ـ طفح يغطى اللسان وعلى المرىء.

٧ ـ إسهال مزمن.

٨ ـ قد تظهر أعراض التهاب المخ الحاد المصحوب باضطرابات عصبية شتى.

٩ ـ الشعور بالتعب البدنى والإرهاق بدون سبب واضح.

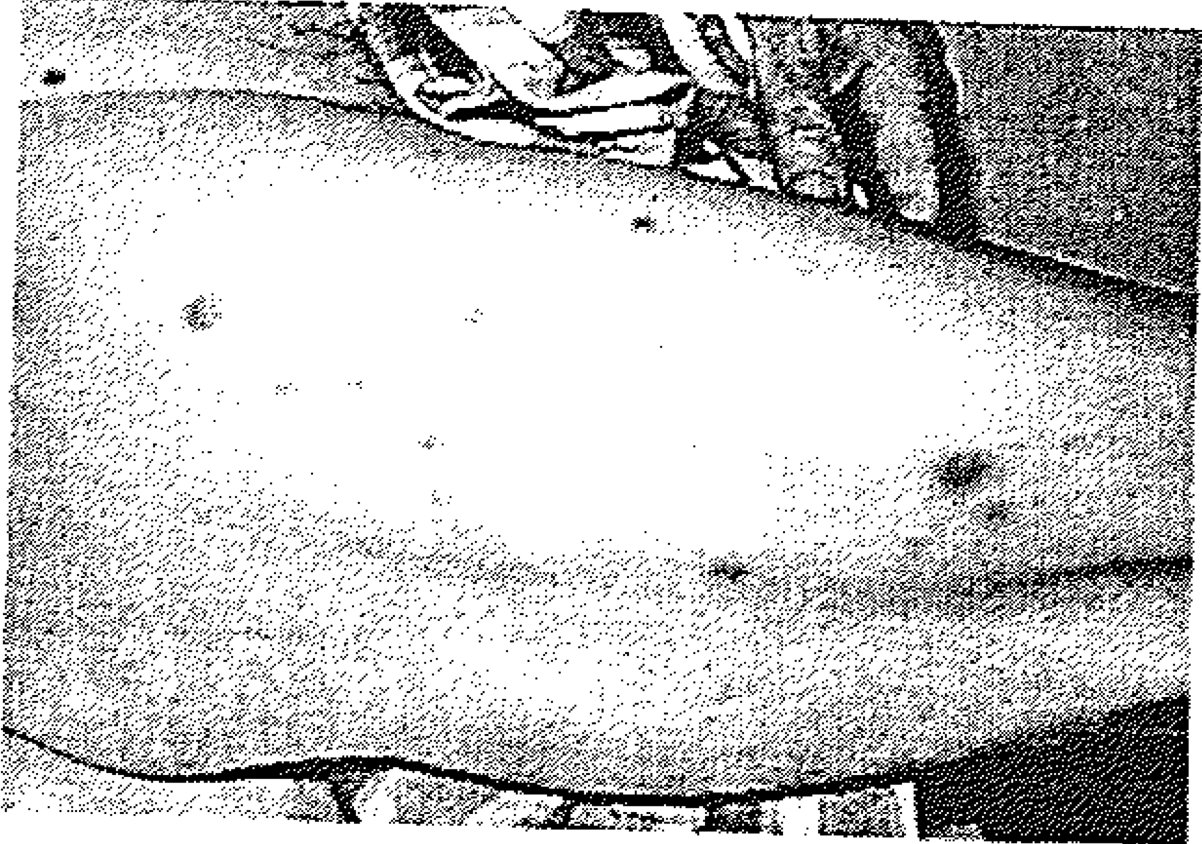
وبالرغم من ظهور هذه الأعراض فإن تشخيص مرض الإيدز ليس بالأمر السهل. ولا يشخص تشخيصا مؤكدا إلا بظهور الالتهاب الرئوى التكيسى أو ظهور ورم كابوسى السرطانى، أو بعمل تحليلات للدم التى تؤكد وجود فيروس الإيدز بالجسم.

علاج الإيدز

هناك طرق كثيرة لمحاولة علاج مرضى الإيدز، ولكن لاتوجد نتائج مبشرة بالشفاء وليس هذا مجال الحديث عنها. إنما العلاج الهام جدا هو العلاج الوقائى. وهو تجنب كل الأسباب المؤدية للإصابة بالإيدز ومن أهمها الزنا واللواط والشذوذ الجنسى بشتى صوره، وقد نهى الإسلام عن كل ذلك(*).







(*) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب.

اكتشف الأطباء النفسيون أن فى أداء العبادات فى الإسلام وقاية للإنسان من الوقوع فى كثير من الاضطرابات النفسية

الطب الوقائى فى الوضوء

أثبت العلماء فى عصر العلم الحالى أن سقوط الضوء على رذاذ الماء، يولد شحنات كهرومغناطيسية، تسبب الاسترخاء العضلى، وبالتالى تزيل الآلام العضلية الناتجة من الشد العضلى . وكذلك تسبب استرخاء نفسيا أيضا. ونتيجة لذلك يزول مايكون فى نفس الإنسان من غضب وما يكون فى بدنه من ألم.

ونجد ذلك فى الحديث النبوى الشريف فقد روى الإمام أحمد أن رجلا دخل على عروة بن محمد فكلمه بكلام أغضبه. فقام ثم عاد وقد توضأ . فلما سئل عن ذلك قال: حدثنى أبى عن جدى أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**» . .

والوضوء تحضير للصلاة، لذلك ما أن يدخل الإنسان الصلاة حتى يكون هادئ الأعصاب مستريح النفس.

الطب الوقائى فى الصلاة

من أساليب العلاج النفسى المسلكى فى الطب الحديث، مايسمى بالعلاج بالاسترخاء النفسى والعضلى، ومايسمى بتقليل الحساسية الانفعالية.

والعلاج بالاسترخاء العضلى والنفسى يتعلمه الإنسان بالتدريب سواء تحت إشراف طبيب نفسى، أو يتعلمه الإنسان ويمارسه بنفسه. وهو أن يسترخى عضليًّا تمامًا ولايفكر فى أى شىء لمدة ربع ساعة عدة مرات فى اليوم . وهذه الجلسات تريح الإنسان بدنا ونفسا. أما الأسلوب المسلكى الآخر وهو مايسمى بتقليل الحساسية الانفعالية. وهذا الأسلوب من العلاج يتدرب عليه الإنسان تحت إشراف طبيب نفسى. فيذكره الطبيب بالمواقف التى تثير غضبه فيثور حينئذ يأمره الطبيب بأن ينساها تماما ويعاود الاسترخاء النفسى والعضلى وراحة البال. ثم يعود الطبيب فيذكره بالمواقف التى تثيره فيثور ولكن إلى درجة أقل من ثورته الأولى فيأمره الطبيب بالاسترخاء العضلى والنفسى. ويكرر ذلك مرات عديدة فى جلسات كثيرة. حتى إذا ماتذكر الإنسان المواقف التى تثيره فلا يغضب لها ولاينفعل . . ويسمى هذا النوع من العلاج النفسى «العلاج الاسترخائى» . . أو العلاج «بتقليل الحساسية الانفعالية» أو «الكف المتبادل» ولاشك أن الصلاة تجمع أساليب العلاج النفسى المسلكى جميعا، فيكون فيها الشفاء للإنسان المصلى .

إن الإنسان يقف فى الصلاة فى خضوع وخشوع وتسليم بين يدى الله عز وجل. وينصرف عن كل شىء فى الدنيا. ولايفكر فى شىء إلا فى الله تعالى ووحدانية ورحمته وإذا وقف وقف طويلا وإذا ركع ركع طويلاً، كذلك وإذا سجد أطال فى السجود وكل عضلات جسمه فى استرخاء وكل مافى نفسه منصرف لخالقه عز وجل. ويقول علماء النفس: «أن الصلاة أهم شىء فى حياة الإنسان يبث الطمأنينة فى نفسه والهدوء فى أعصابه والاسترخاء فى عضلات جسمه .. وكل هذه من أساليب العلاج النفسى المسلكى المستعملة فى الطب النفسى الحديث. وقد كان رسول الله ﷺ يشير إلى بلال ليؤذن الصلاة ويقول: **«أرحنا بها يابلال»** .. وفى السنة المشرفة أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .. أى أسرع إلى الصلاة.

وفى العلاج بالاسترخاء العضلى وتقليل الحساسية الانفعالية يتكرر اقتران حالة الاسترخاء العضلى والاطمئنان النفسى بالمواقف المثيرة للقلق، إما بمواجهتها فى الحياة أو بتذكرها .. كل ذلك يؤدى إلى تكوين ارتباطات شرطية بين تلك المواقف المتضادة فيحدث مايسمى «الانطفاء» التدريجى للقلق والانفعال النفسى، وتقليل حساسية الإنسان الانفعالية لما كان يثيره من مواقف من قبل ..

ونجد هذا النوع من العلاج يمارس بالصلاة فى المسجد خمس مرات فى اليوم. فيكون الإنسان فى حياته اليومية حيث الضغوط النفسية والأحداث المثيرة للغضب والانفعال ثم يتوضأ ويدخل المسجد فيزول كل ما به من إثارة وانفعال أو غضب. وهذا هو نفس الأسلوب الذى على أساسه يعالج الأطباء النفسيون مرضاهم من حالات القلق والتوتر والانفعال.

ولصلاة الجماعة فى المسجد أثر علاجى نفسى عظيم لأسباب كثيرة منها مايلى:

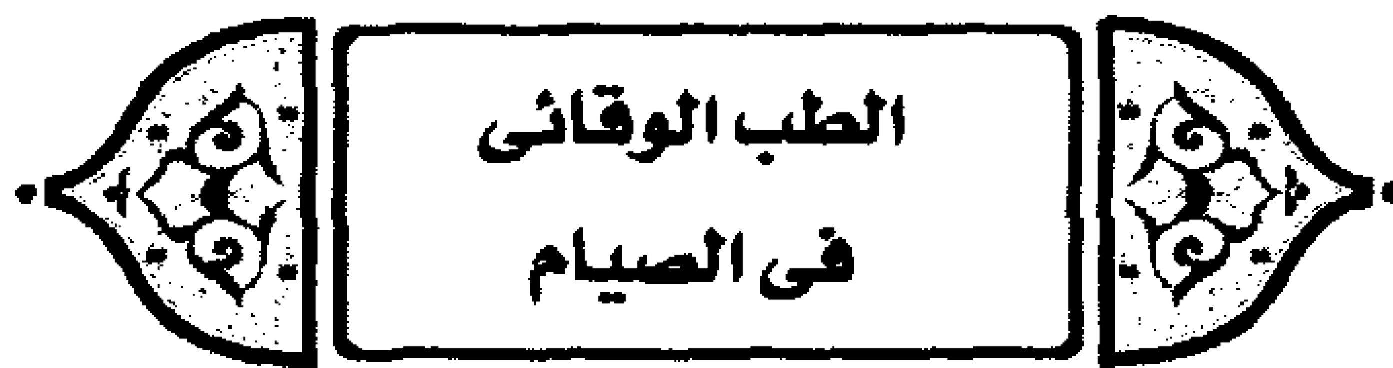
أولا: روح الاندماج فى المجتمع الذى يعيش الإنسان فيه وذلك بروح الحب والألفة.

ثانيًا: تنمية حب الغير فى النفس وعدم الاستعلاء عليهم وإزالة كل أثر للكراهية للغير.

ثالثًا: إزالة شعور الوحدة والعزلة الذى يشكو منه كثير من المرضى النفسيين.

فالصلاة شفاء نفسى (وقائى وعلاجى) لذلك أمر الله تعالى الناس بالاستعانة بالصبر والصلاة فى قول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿١٥٣﴾﴾ البقرة ١٥٣ وروى الإمام ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

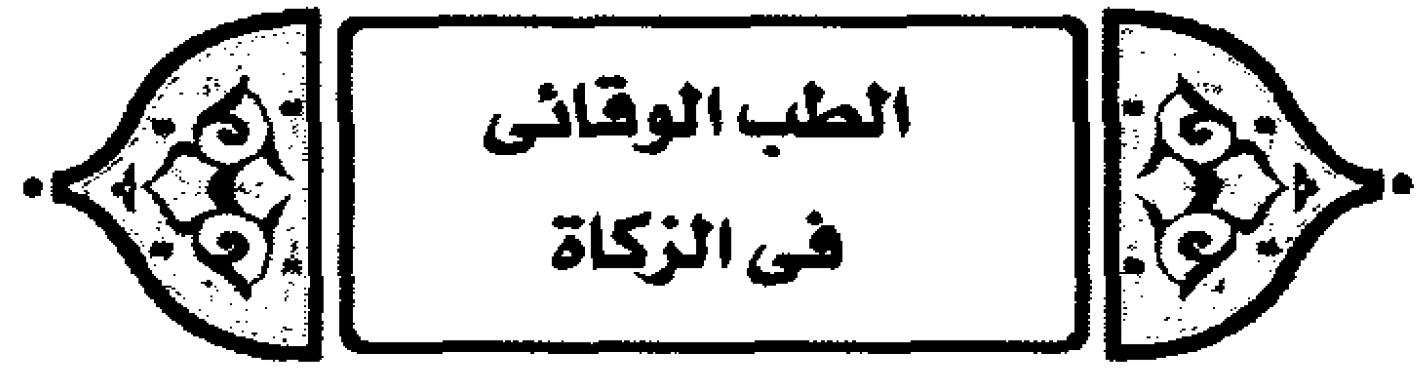
«قم فصل فإن فى الصلاة شفاء»



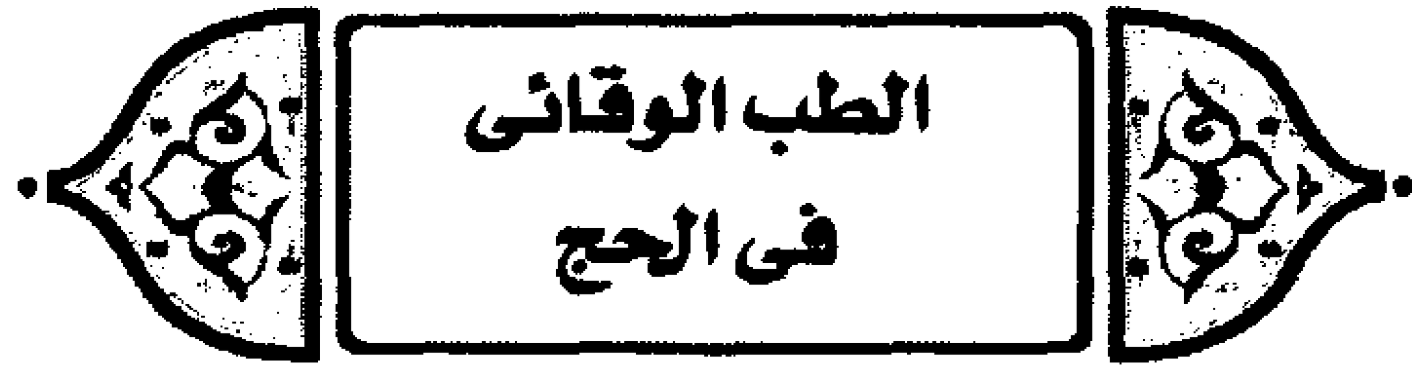
الطب الوقائى فى الصيام

ثبت لدى علماء النفس أن للصيام أثرًا شفائيًّا للنفس البشرية، فإذا كان الصوم يحرم الجسم من الطعام والشراب، فإنه يغذى النفس والروح ويقويهما ويزكيهما. كما أن

الصوم دعم إيجابى للنفس البشرية يقيها الرغبة فى إشباع شهوات الجسم فى غير ما حلل الله عز وجل كما يطهر النفس من كل مافيها من سوء؛ لذلك يمنع الصوم الإنسان من الانزلاق إلى ارتكاب المعاصى. والصوم يدرب النفس على السيطرة على رغبات غرائزه، مما ينعكس على سلوكه العام فى الحياة، بوازع من ضميره دون رقابة أحد عليه إلا الله عز وجل.



الزكاة تطهر النفس وتنمى فيها حب الخير للآخرين، وبذلك تسمو بالنفس البشرية إلى درجات عالية من الطهر والنقاء. وتمحو بذلك كل أثر لحب النفس والانطواء والبعد عن الناس. والزكاة تشعر الإنسان، بحبه للغير فيعتبرهم شركاء له فى ماله. مما يقوى الانتماء الاجتماعى فى الإنسان وهذا من أهم أسباب التوازن فى الصحة النفسية؛ ذلك لأن دفع مال الزكاة للغير يقلل من مال المزكى فى ظاهر الأمر وهذا دفع سلبى للنفس البشرية يعمل على إضعافها . واعتقاد الإنسان المزكى برضا الله عليه وبنماء ماله فى حقيقة الأمر، دعم إيجابى للنفس البشرية. وبين الدفع السلبى والدعم الإيجابى للنفس. تكون الصحة النفسية ويكون توازنها وراحتها، وتكون الوقاية لنفس الإنسان من الوقوع فى الضيق النفسى والإحباط .



للحج علاج وقائى للنفس البشرية. فهو يدرب الإنسان على إيثار تحمل المشاق على الراحة فى سبيل تحقيق ماتصبو إليه النفس من أعمال صالحة. وفيه تدريب على ضبط النفس والتحكم فى شهوات البدن، وجهاد النفس فى سبيل مايصبو الإنسان إليه من كل مكسب من مكاسب الدنيا . . وفيه تعليم للإنسان أن يتجنب أى تكبر أو استعلاء على غيره من الناس. ويدرك أنه واحد منهم يتساوى مع أى إنسان أمام الله عز وجل والحج يمد الإنسان بشعور غامر بالسعادة النفسية، وقد علم أن الحج المبرور لا جزاء له إلى الجنة. وبذلك تسمو نفسه عاليا فوق هموم الحياة ومتاعبها وما تؤدى إليه من توتر وانفعال وقلق. فالحج يحول الإنسان المتوتر اليائس المحبط، إلى إنسان فى قمة الرضا والسعادة.

فالعبادات جميعا شفاء نفسى عظيم. وعلاج وقائى لكل مايصيب النفس الإنسانية من سلبيات واضطرابات وأمراض. وبالتالى يقى البدن من كثير من الأمراض النفسية البدنية Psyghosomatic diseases.



الإيمـان بالله تعالى وبوحـدانيتـه، له الأثر الكبـير فى تغـييـر كبـير فى شـخصـية الإنسان؛ لأنه يعطى طاقة روحية هائلة، تغير مفومه عن ذاته، وعن الناس من حوله وحول الوجود كله وحـول الحياة الدنيـا. إن الإيمان يمد الإنسان بمعنى واضح وصحيح لدوره فى الحـيـاة بمنهج سليـم. والإيمـان يمـلأ قلب الإنسـان المؤمن بالتواد والتـعاطف والتـراحم لغـيره من المؤمنـين، وبالحب لكل الناس من حوله، كـما أن الإيمـان يريح نفسـية المؤمن ويمـده بقوة هائلة وطـاقة كـبيـرة من الأمن والطمأنينة، ونظرا لأهـمية الإيمان القـصوى للصحة النفسية للإنسان، وللوقاية من العقائد الفاسدة والوقوع فى الأخطاء والمعاصى، كان أول مـانزل مـن القـرآن الكريم يـهـدف إلى ترسيخ عقيدة الإيمان والتوحيد.

والإنسـان المؤمن إنسـان واثق بنفسـه ومطمئن القلب؛ لأنه يعلم يقينا أن الله تعالى معه وفى عـونه . . وأنه وكل ما يتعلق به فى رعاية الله عز وجل.

تقـرأ عن ذلك فـى سـورة الرعـد ٢٨ ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴿٢٨﴾ ﴾ والإيمـان أفضل شـفاء وأعظم عـلاج وقـائى ضـد الخـوف والقلق والشعور بالعزلة والوحدة ؛ لأنه يعلم الإنسان أنه فى كنف الله تعالى يمنع عنـه كل مايضره ويحقق له كل مـايفيـده، ويضمن له الرزق، كـمـا فى سـورة الذاريات ٥٨ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴿٥٨﴾ ﴾ .

والإيمان عـلاج وقائى للنفس البـشرية من الوقوع فى الحزن والإحباط النفسى بسبب إحسـاس الإنسان بأنه أخطأ واقتـرف المعاصى والذنوب، وأن الله سـوف يعاقبـه على ذلك عقـابا شديدا . الإيمان يطمـئنه ويزيل مافى نفسـه من خوف؛ لأن المـؤمن يعلم أن الله تعالى به رءوف رحيم وأنه يـقبل توبة التائب ويغفر ذنبه كما فى سورة الزمر ٥٣ : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٥٣﴾ ﴾. والإيمان يزيل مايستقر فى قلب الإنسان من خوف من الفقر والله تعـالى قـد ضـمن له الرزق كـما قـال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود: ٦]، وكما فى قوله تعالى فى سورة الـذاريـات ٢٢ : ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق].

والناس غير المؤمنين فى قلق مستمر من فقر واقع بهم بسبب كـثرة أولادهم فيطمئنهم الإيمان وهم يقرأون القـرآن الكريم فى سورة

الأنعام ١٥١: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ كما أن غير المؤمن فى قلق وخوف من فقر متوقع حدوثه مستقبلا عندما يكبر أولاده وتزداد مطالبهم، فيطمئن الإيمان قلبه وهو يقرأ فى سورة الإسراء قول الله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء].

والإيمان يقى النفس من الوقوع فى الإحباط النفسى من كثرة مايبتلى فى الدنيا فالإيمان يعلمه أن الابتلاء فى الدنيا نعمة من الله تعالى له وليس نقمة، فرسول الله ﷺ يقول: «**يبتلى المرء على قدر دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى ابتلائه**» رواه الأئمة أصحاب السنن والإمام أحمد.

وأخرج الشيخان عن عروة بن الزبير عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها عن سيئاته كما تحط الشجرة ورقها**».

ولقد أدرك علماء النفس فى عصر العلم الحالى أهمية الإيمان لكمال الصحة النفسية ووقايتها من القلق والانفعال والإحباط، ذلك أن الإيمان يمنح الإنسان طاقة هائلة من الصبر والتحمل فى طمأنينة ورضا.. قال العالم النفس الأمريكى وليم جيمس: «إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان بالله». فالإيمان بالله تعالى شفاء نفسى لما فى النفس من اضطرابات وأمراض ووقاية للنفس أيضا مما تتعرض له من مشكلات فى الحياة اليومية.



يتعرض الإنسان للصحة تارة وللمرض تارة أخرى . . ويصاحب الصحة معاناة الحياة اليومية والانفعال النفسى والغضب والتوتر العصبى . وما يسبب كل ذلك من آلام نفسية أما المرض النفسى فيصاحبه ألم عضوى.

وهكذا فالألم النفسى أو العضوى رفيق الإنسان طول حياته منذ ولادته حتى موته وليست شدة الألم مقياسا لخطورة المرض . فقد يكون الألم شديدا والمرض ليس خطيرا مثل ألم سن من الإنسان أو جرح فى أصبع أو شركة وقد يكون الألم بسيطا من مرض خطير مثل بعض الأمراض الخبيثة ومرض السل فى الرئة مثلا . . إنها أمراض خطيرة ولكنها لاتشكل ألما يذكر . .

ومهما يكن من أمر فالإحساس بالألم أهم أعراض الأمراض والإصابات والجروح والألم هو الذى يدفع المريض إلى السعى إلى طلب العلاج . . ولو لم يشعر الإنسان بالألم ما أسرع فى السعى إلى العلاج فى كثير من الحالات.

فالألم خط دفاع وإنذار فى الجسم . . يدق فيسعى الإنسان إلى إزالة أسبابه فالألم إذن نعمة من الله تعالى على عباده . وكل نعمة توجب الشكر للمنعم تبارك وتعالى لذلك يقول رسول الله ﷺ عن المؤمن: **(إذا أصابته سراء شكر فكان خيرا له ... وإن أصابته ضراء شكر فكان خيرا له)**.

وندرك نعمة الإحساس بالألم إذا تصورنا أن إنسانا فقد الإحساس بالألم وحدث له التهاب على الزائدة مثلا فلا يشعر ولايدرى بما حدث فى جسمه . . ويزداد الالتهاب . . وتنفجر الزائدة . . ويحدث له التهاب بريتونى حاد وهو لايشعر . . ثم تسمم دموى . . ولايدرى إلا أنه مشرف على الموت وقد فات أوان العلاج.

إذن فالإحساس بالألم ضرورة لبقاء جسم الإنسان حيا وصحيحا . . ولابد للإنسان من الصبر على الألم . . ولن يدرك جيدا أن الألم نعمة من الله تعالى له وأنه ينبغى عليه أن يبادر بالشكر لله عز وجل . .

والصبر على الألم يعود على الإنسان بالفائدة والخير فى الدنيا والآخر . . ويروى الطبرانى والبيهقى أن النبى ﷺ قال:

«الصبر نصف الإيمان . واليقين الإيمان كله».

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له:

«واعلم أن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيرا».

الإحساس بالألم ليس نقمة وعذابا من الله تعالى لعباده . وإنما هو نعمة على الإنسان لأنه خط دفاع هام لجسم الإنسان يحفظ الجسم من أخطار الأمراض والإصابات ومضاعفاتها . . وندرك نعمة الإحساس بالألم إذا حدث لأحدنا التهاب بالزائدة كما تحدثنا من قبل . . إذا فقد الإنسان الإحساس بالألم لايشعر بما حدث له . . وتحدث المضاعفات تباعًا . وهو لايشعر . . حتى ينتهى الأمر به إلى الهلاك . . وإذا تصورنا إنسانا فقد الإحساس بالألم فى قدمه مثلا . . ماذا يحدث لهذا القدم؟ إنه سيتعرض للإصابات والجروح أو الحروق دون أن يشعر صاحبه . . وقد يلتوى المفصل أو ينكسر دون أن يدرى . . فالإحساس بالألم وإن كان يزعج الإنسان نعمة من الله تعالى على الإنسان. . وكل نعمة يجب أن يشكر الإنسان الله تعالى عليها ثم يسعى بعد ذلك للأخذ بأسباب العلاج المتاح له بعد ذلك.

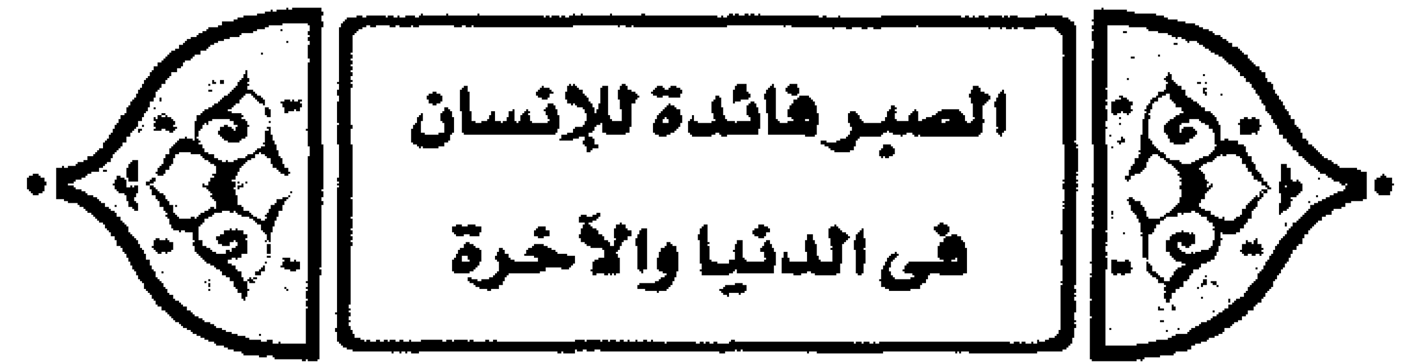
ولقد كان الأنبياء عليهم السلام - وهم يعلمون من الله تعالى مالا يعلم غيرهم من الناس - مايكاد نبى منهم يشعر بألم حتى يلج لسانه بالحمد لله تعالى وينبض قلبه بالشكر له، فسيدنا أيوب عليه السلام الذى قال الله تعالى عنه: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء] كان يناجى ربه ويقول: (أحمدك رب الأرباب أخذت منى الصحة والمال والولد. . وفرغت قلبى من كل ذلك فلم يعد يحول بينى وبينك شىء . . لو علم عدوى إبليس بما حبانى به ربى لحسدنى).

والصبر على الألم مفيد للصحة النفسية فهو يقى النفس البشرية من الانفعال النفسى والتوتر العصبى المصاحبين للألم . . وكان رسول الله ﷺ وهو أحب خلق الله إلى الله كان أكثر الناس إحساسا بالألم . . ولكنه كان فى الوقت نفسه أشد الناس تحملا للألم وأكثر الناس صبرا عليه.

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وكان يوعك (أى يتألم) فقلت يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا فقال ﷺ: **«أجل إننى أوعك كما يوعك رجلان منكم»**. فقلت : ذلك أن لك أجرين فقال: **«أجل ذلك كذلك.. ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها عن سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»**.

والصبر على الألم علاج نفسى للإنسان فهو خير له فى الدنيا.

والصبر على الألم يكفر عن السيئات فهو خير للإنسان فى الآخرة أيضا.



فى عصر العلم الحالى أثبت علماء النفس أن الصبر على الألم بنفس راضية وقلب مطمئن يفيد الإنسان . فإذا جرح رجلان بنفس الدرجة .. وكان أحدهما يشكو ويسخط ويتميز غيظا من الألم .. وكان الآخر صابرا راضيا مطمئنا ويستقبل الألم بالحمد والشكر لله تعالى .. ترى ماذا يحدث فى الرجلين ؟ نجد أن الإحساس بالألم فى الرجلين اختلف فإذا كان المريض الصابر الشاكر يشعر بالألم درجة واحدة .. فإن المريض الثائر الساخط يشعر بنفس الألم عشر درجات .. لأن الطمأنينة تزيد من قدرة الجسم على تحمل الألم .. وتزيد من إفراز المواد المزيلة للألم فى مراكز خاصة بالجهاز العصبى المركزى، أما التذمر والغيظ فيقلل من إفراز تلك المواد .. وبالتالى يزداد الجسم حساسية للألم . وتقل قدرة الجسم على تحمل الألم..

إن الصبر على الألم يريح الإنسان كثيرا وهو خير له عز وجل .. يريحه فى الدنيا لأنه يقلل الألم .. ويريحه فى الآخرة لأنه يكفِّر الله به عن السيئات..

ونقرأ عن ذلك فى الحديث النبوى الذى أخرجه البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

(ما يصيب المسلم من نصب ولاوصب ولاهم ولاحزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن سيئاته كما تحط الشجرة ورقها)..

والذى ينسى ذلك على صاحبه أن يذكره فالإنسان فى خسران فى حياته مالم يتسلح بالإيمان والصبر، كما قال الله تعالى فى سورة العصر:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

إن العامل النفسى له تأثير بالغ على تصرفات الإنسان وقوة فى إحساسه بالألم فالذى يرضى ويصبر يستريح ويقل فيه الإحساس بالألم ومن يسخط ويتذمر فسوف يعانى من الإحساس بألم رهيب..

إن نفسية الإنسان تتحكم فى أحاسيسه وانفعالاته ودرجة استقباله لها.. وأخرج الترمذى أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء . وأن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط**» وصدق رسول الله ﷺ.



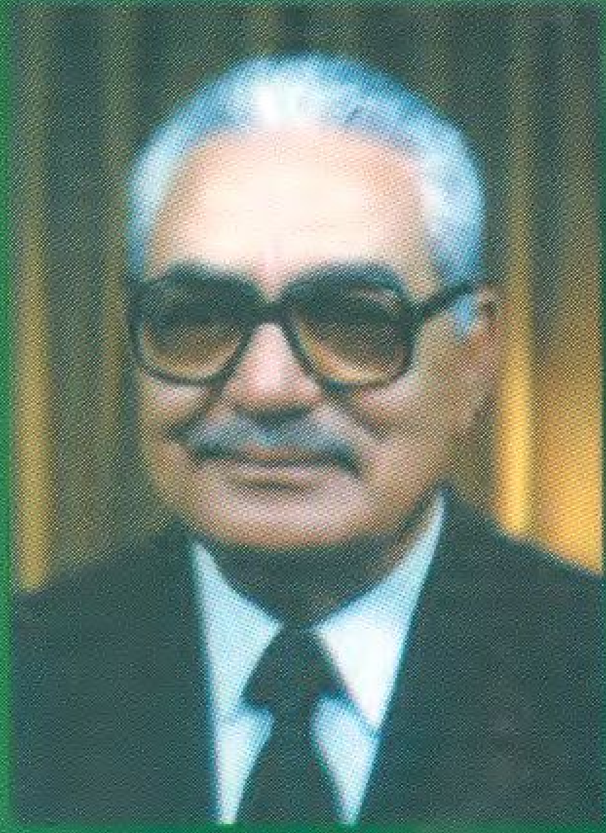
الفهرس

هذا الكتاب

الجزء الأول عن المحرمات وصحة الإنسان، ويتناول الأمور التى حرمها الإسلام مثل أكل لحم الخنزير والميتة والدم، واقتراف الفواحش، والتدخين والخمور والمخدرات وغير ذلك من المحرمات، وكذلك الآثار السيئة لكل ذلك على صحة الإنسان. ثم يناقش الأسباب العلمية التى من أجلها حرم الله تعالى تلك الأمور، مما يبين أن التحريم جاء من أجل سلامة الإنسان وفائدته، ورحمة من الله تعالى عليه، وهى أسباب لم تكتشف إلا حديثا.

أما الجزء الثانى فعن الطب الوقائى، وتناول التفسير العلمى فى الأحاديث النبوية عن العدوى من الأمراض وعن عدة قضايا تتعلق بالطب الوقائى، مثل الطب الوقائى وغرف النوم والأوبئة والبلهارسيا والأنكلستوما، وكذلك الكلاب وصحة الإنسان، وقضية زواج الأقارب ومشكلة الإسراف فى تناول الطعام، ومشكلة التلوث، والموضوعات المتعلقة بالتناسل والإنجاب.. ثم يأتى بعد ذلك الطب النفسى الوقائى والطب النفسى فى العبادات، وبيان الإعجاز العلمى فى كل موضوع تحدث عنه هذا الجزء.

المعارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة



الدكتور
أحمد شوقى إبراهيم

* تخرج من كلية الطب (جامعة القاهرة ١٩٥٢م).
* دبلوم الأمراض الباطنية (إنجلترا ١٩٦٢م).
* زمالة طب المناطق الحارة (إنجلترا ١٩٦٥م).
* عضوية كلية الأطباء الملكية (لندن وأدنبرة ١٩٧١ ـ ١٩٧٢م).
* مستشار الأمراض الباطنية بمستشفيات الكويت حتى عام ١٩٩٠م.
* كانت لـه أحاديث إذاعية تذاع يوميا فى إذاعة الكويت وإذاعات الخليج العربى منذ سنة ١٩٦٨، وحتى ١٩٩٣م.
* له برنامج تليفزيونى أسبوعى (بين القرآن والعلم) فى تليفزيونات الخليج العربى منذ عام ١٩٧٦، وحتى ١٩٩٦م.
* له ستون حلقة تليفزيونية (بين القرآن والعلم) يستضيف فى كل حلقة الشيخ محمد متولى الشعراوى، أذيعت فى تليفزيونات الخليج العربى وغيرها، وتكررت إذاعتها منذ ١٩٩٦ وحتى الآن.
* له حديث يومى (فى رحاب آية) فى إذاعة القرآن الكريم من القاهرة.
* له برنامج تليفزيونى (من الإعجاز العلمى) فى برنامج صباح الخير يا مصر يذاع مرتين أسبوعيا.
* له حلقات عديدة (عن الإعجاز العلمى) فى قنوات التليفزيون المصرى.
* له العديد من المحاضرات واللقاءات والمقالات والندوات عن الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة منذ سنة ١٩٧٥م وإلى الآن.
* يعمل حاليا رئيسا لقسم أمراض القلب بمستشفى ابن سينا التخصصى بالدقى.
* رئيس لجنة الإعجاز العلمى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
* عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

إن كل ما يكتشفه العلماء من حقائق العلم هو نتاج دراستهم وتدبرهم لفطرة الخلق، والقرآن والسنة وحى فاطر الفطرة، فلا غرو أن نجد كل المعارف العلمية التى توصل إليها العلماء، مذكورة فى القرآن أو السنة أو هما معا، إما توضيحا وتصريحا، وإما إشارة وتلميحا. ودائما وأبدا يبقى الحق المطلق فى كتاب الله وسنة رسوله نورا للعالمين جميعا فى كل العصور وإلى ما شاء الله.

I.S.B.N. 977-10-1519-2

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث